الشخصية الكوردية

الدكتور أحمد محمود الخليل

منتدى اقرأ الثقافي

www.iqra.ahlamontada.com

الشخصيةت الكوردية

(دراسة سوسيولوجية)

الشخصيةت الكوردية

(دراسة سوسيولوجية)

د. أحمد محمود الخليل

اربيل- ٢٠١٣

دار موكرياني للبحوث والنشر

- **الشخصيةت الكوردية (دراسة سوسيولوجية)**
- د. أحمد محمود الخليل
- التصميم الداخلي: ريدار جعفر
- الغلاف: ريمان
- السعر: (٣٥٠٠) دينار
- الطبعة الاولى: ٢٠١٣
- العدد: ٥٠٠
- المطبعة : موكرياني (اربيل)
- رقم الايداع (٢٨٦) في مدرية العامة للمكتبات لسنة (٢٠١٣)

تسلسل الكتاب (٧٣٨)

كافة الحقوق محفوظة لدار موكرياني

الموقع: www.mukiryani.com
ئيميل: info@mukiryani.com

الفهرست

المقدمة ٧
ماذا هذا الموضوع ٩
ماهى الشخصية؟ ١٩
الكورد في عمق التاريخ ٣١
أنثروبولوجيا الكورد ٤٧
الجبل مفتاح الشخصية الكوردية ٥٩
بانوراما الجبل. ٧١
الروح الحربية في الشخصية الكوردية ٨٥
الشجاعة والبسالة في الشخصية الكوردية ٩٩
النبل و الشهامة في الشخصية الكوردية ١١٣
البطولة والفداء في الشخصية الكوردية ١٢٧
ذهنية الكورد الدينية ١٤١
ذهنية الكورد السياسية ١٥٥
سمات العقل الكوردي. ١٧٣
سيكولوجيا الكورد: المزاج والحس الجمالي. ١٨٩
ذهنية الكورد الاجتماعية ـ ١: النظام الاجتماعي والأسرة الكوردية ٢٠٥
ذهنية الكورد الاجتماعية ـ ٢: موقع المرأة في المتمع الكوردي ٢١٩
الفولكلور الكوردي ـ ١: الأزياء والأغاني الشعبية. ٢٣١
الفولكلور ـ ٢: الموسقي والرقصات الشعبية. ٢٤٧
النهج الأهريماني في الشخصية الكوردية ٢٦٣
الشخصية والنخب و صناعة التاريخ. ٢٨١
فهرس المراجع ٢٨٩

مقدّمة

منذ عهد الشباب شغفت بقراءة سير المشاهير" أنبياءَ وفلاسفةً وعلماء وأدباءَ وقادةً وساسةً ومخترعين ومستكشفين ومغامرين، وما زالت تلك الرغبة تلازمني، ولا أحسب أنها ستفارقني، وكنت في البدايات منجذباً إلى ما هو مدهش في سِيَر المشاهير، وقلما كنت أهتمّ بخصائص الشخصية بيولوجياً وبيئياً وسلالياً ونفسياً واجتماعياً ومعرفياً ونادراً ما كنت قادراً على فهم التقاطعات والتفاعلات المذهلة التي تتمّ داخل الشخصية الإنسانية.

غير أن الأمور اختلفت حينما التحقت بالدراسات العليا" إذ اكتشفت أن الشخصية الإنسانية طبقات جيووجودية، تتمركز فيها أكثر التقاطعات والتفاعلات دينامية، وكان عليّ أن أخترق تلك الطبقات، وأعرف بدقة طبيعة تلك التقاطعات والتفاعلات، وكي أتمكّن من ذلك كان من الضروري أن أتعمّق في مطالعة فلسفة التاريخ، والجغرافيا البشرية، والميثولوجيا، وعلم الأديان، والأنثروبولوجيا، مع مقاربات للفلسفة وعلوم النفس، وعلم الاجتماع، وعلم السياسة.

والحق أن تلك الرحلة العلمية الطويلة أوصلتني إلى آفاق معرفية رحيبة، ووضعتني في مدارات جديدة، وانتقلت بي من الاهتمام بالشخصيات في حدّ ذاتها إلى الاهتمام بالشعوب والثقافات والحضارات، واكتشفت أن لكل شعب شخصيته الخاصة به، ولكل ثقافة هويتها، ولكل حضارة خصائصها، وها أنا ذا أتناول في هذه الدراسة (الشخصية الكوردية) من منظور سوسيولوجي، مستفيداً من جميع التراكمات المعرفية السابقة.

ولم أضع في حسباني- وأنا أبدأ رحلتي مع هذه الدراسة- أنني بصدد رسم لوحات مشرقة بهيجة، أو رسم لوحات قاتمة كئيبة، وإنما وضعت في حسباني أنني باحث أولاً وأخيراً، أبحث عن الحقائق، وعمّا أعتقد أو أرجّح أو أظن أنه (حقائق)، بغضّ النظر عن أن تكون حقائق مبهجةً تسرّ الخاطر، أو حقائق مزعجة تعكّر المزاج.

ولا يخفى أن البحث درجات، وللباحث مهمات، فمن مهمّاته أن يصف الأمور كما هي، من غير تجميل ولا تشويه، ويبقى على مسافة واحدة منها، من غير تقريب ولا تبعيد، ويكون صادقاً في التعبير عنها، من غير مجاملة ولا تحامل. ومن مهمّاته أيضاً أن يفسّر ويؤوّل، لكن في حدود ما يقبله الواقع والمنطق، وأن يحلّل ويعلّل، لكن على أسس علمية وبمعايير موضوعية، وأن يؤكّد ما يعتقد أنه مؤكَّد، ويرجّح ما يرى أنه مرجَّح، ويُدرج في دائرة الظن ما لا يراه مؤكَّداً ولا مرجَّحاً.

ومن مهمّات الباحث أيضاً أن يقوِّم الحدث/الشخص/الموقف (يبيّن قيمته)، ويَحكم إمّا له وإمّا عليه، لكن على ضوء ما بين يديه من معطيات مؤكَّدة، وضمن السياقات الواقعية التي يَرِد فيها الحدث/الشخص/الموقف، وعليه ألاّ يحكم إلاّ بعد حذر شديد، وبعد التسلّح بأكبر قدر ممكن من نبل النفس، وما يتفرّع على نبل النفس من عفّة التفكير والتعبير" إذ قد يُغفر له خطأه في التوصيف والتفسير والتأويل والتحليل، أما الخطأ في التقويم والحكم فغفرانه موكول إلى محكمة التاريخ، وهي قلما تتساهل في قضية كهذه.

ومن مهمّات الباحث أيضاً ألا يكتفي بالتوصيف والتفسير والتأويل والتحليل والتعليل والتقويم والحكم، وإنما عليه أن يخطو إلى الأمام، فيقترح ما يجعل النبيل أنبل، والجميل أجمل، والصالح أصلح، والنافع أنفع، وليس هذا فحسب، بل عليه أن يخطو إلى الأمام أكثر، فيقترح ما يستقيم به المعوجّ، ويُستكمَل به النقص، وتزول به العيوب، وتُسَدّ به الثغرات" إذ لا يُستحسَن الهدم إلا إذا تبعه البناء، ولا القلع إلا إذا تلاه الغرس.

وقد حرصت في هذه الدراسة على التزام التوصيف أولاً، وجعلت للتفسير والتأويل المرتبة الثانية، وخاصة في المواضع التي بدت غامضة، وجعلت للتحليل والتعليل المرتبة الثالثة، وكان الغرض هو الربط بين الأسباب والنتائج، بين الظاهرات والعوامل. أما حقل التقويم والحكم فقلّلت من الدخول فيه" لثقتي بقدرة القارئ على تمييز الخيط الأبيض من الخيط الأسود، ولحرصي على عدم مصادرة قراره، ولاعتقادي بأن مكانه ليس هذا البحث.

وفي الختام أشكر لولدي جوان جهوده في تصوير الخرائط والصور وتنسيقها.

أحمد محمود الخليل - الأربعاء: ١٥ – ٩ - ٢٠١٠

١

لماذا هذا الموضوع؟

الخطوات الأولى:

الكتابة رسالة ومسؤولية، وقد تكون ضرباً من البحث عن الذات، أو شكلاً من النرجسية، وقد تكون هرباً من الواقع، أو سعياً إلى الأرستقراطية. وقد مارست الكتابة منذ عهد الشباب، كانت كتابات شعرية حينذاك، ثم صارت شبه قصصية، ثم أصبحت أكاديمية، وكان من الطبيعي- بحكم تخصصي في الأدب- أن أكتب المقالات، وأشارك في المحاضرات والندوات والمؤتمرات، وأؤلف الكتب، وصارت الكتابة من لوازم حياتي، أشرّق فتشرّق معي، وأغرّب فتغرّب، بل تتسلّل أحياناً إلى عوالم أحلامي وأنا نائم.

ومع هذا كله لم أجدني متردّداً في الإقدام على الكتابة في موضوع كتردّدي في كتابة موضوع (الشخصية الكوردية)، لا بل إني أراقب نفسي منذ ما يزيد على شهرين، فأجد أن الأمر يتجاوز دائرة (التردد)، ويدخل في دائرة (التهيّب)" إذ يبدو لي أن من أصعب الأمور أن يكتب المرء عن شخصيته، فلا يقزّم ولا يبالغ، وأصعب منها أن يكتب عن شخصية غيره، فلا يجامل ولا يتطاول، وما دام الأمر هكذا فكيف تكون الحال إذا كتب المرء عن شخصية شعب أو أمة؟!

والحقيقة أن موضوع الكتابة في (الشخصية الكوردية) ليس جديداً عليّ، وأذكر أن نفسي حدّثتني بتأليف كتاب في هذا المجال منذ ما يزيد على خمس سنوات، وكنت حينذاك أعمل في كتاب (تاريخ الكورد في العصور الإسلامية)، وكان العنوان الأول في الفصل الثالث هو (الشخصية الكوردية)، وقد تناولت في حوالي (١٥) صفحة من ذلك الفصل بعض ما قيل

قديماً وحديثاً في سمات الشخصية الكوردية، وحرصت على أن يكون أصحاب تلك الأقوال والشواهد من غير الكورد، لأضمن أكبر قدر ممكن من الموضوعية، ثم أوردت آرائي الخاصة في هذا المجال، لكن باختصار شديد، إذ لم يكن المقام مقام توسّع وتفريع" وقلت حينذاك: لا يكفي كتابة بضع صفحات في هذا الموضوع المهم، وإنما الأمر بحاجة إلى كتاب برأسه.

رحلات معرفية:

ومع ذلك أحجمت عن الكتابة في موضوع (الشخصية الكوردية)، لأسباب عديدة" منها أنني كنت مطّلعاً بشكل موسَّع على تاريخ الكورد في العهود الإسلامية، لكن معلوماتي حول تاريخ أسلاف الكورد قبل الإسلام لم تكن وافية، كما أنها لم تكن معمَّقة بالقدر الكافي، هذا إضافة إلى أنها كانت قليلة جداً في بعض الجوانب، وكانت معدومة تماماً في جوانب أخرى، واقتضى ذلك أن أقوم برحلة اطّلاعية واسعة ومركّزة على مسارين اثنين:

المسار الأول: هو تاريخ الكورد قبل الإسلام، بدءاً من ظهور المجتمعات البدائية في جبال كردستان وعلى حوافّها، وانتهاء بالعهد الساساني. ورغم المعلومات المفيدة التي اطّلعت عليها في هذا المجال، ما زالت الحاجة ماسّة إلى تسليط مزيد من الضوء على بعض النقاط، كالعلاقة بين السومريين وأسلاف الكورد، ودور الحوريين في التكوين الكوردي، وأعلم أن امتلاك صورة متكاملة ودقيقة عن أسلاف الكورد لا يتحقق إلا بالعودة إلى ما كُتب في هذا المجال بالفارسية والأرمنية والتركية والروسية واليونانية، والألمانية والفرنسية والإنكليزية وغيرها، ولا يتمّ أيضاً إلا بقراءة ما اكتشفه علماء الآثار عن غربي آسيا في القرن العشرين" وكم هو مهم أن يقوم من يجيد هذه اللغات بالبحث عن تلك الكتابات، والنهوض بعبء ترجمتها إلى الكوردية أو العربية أو التركية، فإن في ذلك خدمة جليلة ليس للتاريخ الكوردي فقط، وإنما لمكتبة غربي آسيا وللمكتبة العالمية أيضاً.

المسار الثاني: هو البحث في سيرة مشاهير الكورد، وخاصة في العهود الإسلامية، اعتقاداً مني بأن مشاهير كل أمة هم الذين يجسّدون القدر الأكبر من سمات شخصية تلك الأمة، كما أن مشاهير كل أمة هم رُوّادها وقادتها، وهم النخبة الذين يصنعون تاريخها، ويقومون بأدوار فعّالة جداً في صناعة مصائر أجيالها، وإلا فكيف لنا أن نعرف الشخصية العربية من غير معرفة الزعيم القرشي قُصَيّ بن كِلاب، أول من نظّم الشؤون الدينية والدنيوية في مكة عاصمة

العرب الثقافية والاقتصادية قبل الإسلام؟ ومن غير معرفة عمر بن الخَطّاب ومُعاوِية بن أبي سُفْيان وأبي جَعفر المنصور، في الإسلام؟ وكيف لنا أن نعرف الشخصية الفارسية من غير معرفة كورش الثاني، ودارا الأول، وأَرْدَشير بن بابك، قبل الإسلام، والفِرْدَوْسي في الإسلام؟ وكيف لنا أن نعرف الشخصية التركية من غير معرفة السلطان أَلْب أَرْسلان السُّلْجُوقي، والسلطان سليم الأول العثماني، ومصطفى كمال آتاتورك؟

وجدير بالذكر أني خرجت من تلك الرحلة الثقافية، على المسارين، بمعلومات مفيدة وأفكار جديدة، وانفتحت لي آفاق في التاريخ الكوردي كنت لا أعرف عنها إلا القليل، وقد وظّفتُ الكثير من تلك المعلومات في كتاب بعنوان (دولة ميديا: ملوكها وأحداثها)، وأيضاً في (٥٦) حلقة ضمن سلسلة نشرتها على شبكة الإنترنت بعنوان (مشاهير الكورد في التاريخ)، ثم جمعت بين بعض حلقات تلك السلسلة في كتاب بعنوان (عباقرة كردستان في القيادة والسياسة)، وأنتظر الانتهاء من بعض المشاغل الثقافية الملحّة" لاستكمال البحث في هذا الميدان.

ولا ريب في أن المعلومات التي توافرت لديّ خلال الرحلة على ذينك المسارين جعلتني أكثر معرفة بالشخصية الكوردية، ومع ذلك أحسب أن المشهد الكلي لهذا المحور كان سيعاني من ثغرات متعددة، لو لم أقم برحلة ثانية عبر مصادر التراث العربي الإسلامي، باحثاً فيها عن صورة الكورد على نحو أكثر دقة وتوسعاً، وقد أفرغت نتائج تلك الرحلة البحثية في (١٨) حلقة، ضمن سلسلة بعنوان (دراسات في التاريخ الكوردي)، وتأكد لي من خلالها أن صورة الكورد في تلك المصادر هي- في الغالب- صورة مشوَّهة إلى درجة تثير الاستغراب والاستهجان، وهي لا تنافي الواقع ومنطق العقل فقط، وإنما تنافي أبسط قواعد الأخلاق العلمية والإنسانية أيضاً.

وكان من الممكن للمرء أن يغضّ النظر عن تلك الكتابات، ويعدّها نتاج الجهل بحقائق الأمور، أو يعدّها ضرباً من الثرثرة التي شغف بها فريق من كتّاب غربي آسيا منذ قرون، لكن المشكل أنها تخرج من نطاق الجهل، وتتجاوز حدود الثرثرة، وتدخل في دائرة (التشويه العمد) كما يقول القانونيون، وقد تأكد لي بالأدلة القاطعة أن الكورد- وهذه ظاهرة عجيبة ومؤسفة حقاً- كانوا وما زالوا ضحية هذا المشروع القديم والمتشعّب والمعقّد والمستمر، إقليمياً وعالمياً، حتى إن الزعيم الكوردي ملا مصطفى بارزاني تساءل ذات مرة مستغرباً:

"ما هي الجرائم التي ارتكبها الشعب الكوردي حتى تقف جميع أمم العالم ضده"[1]؟!

تساؤلات:

إن تلك الكتابات المغرضة والمجحفة بحق الكورد كانت مثيرة للدهشة بالنسبة لي، ليس باعتباري كردياً فقط، وإنما أيضاً باعتباري أحد أفراد البيت الغرب الآسيوي الكبير، وأحد أبناء هذا العالم، كما أنني أعتقد اعتقاداً جازماً بأن على المرء أن يكون حذراً جداً في تناول شخصيات الشعوب، فالإساءة إلى الفرد قد تُمحى بالاعتذار منه، أما الإساءة إلى شعب بأكمله فكيف لنا أن نتداركها؟ وبشكل عام تعود دهشتي إلى سببين رئيسين:

السبب الأول: أن موطن الكورد كان مهد الحضارة في غربي آسيا، هذا باعتراف الكتب المقدسة للديانات المسمّاة بالسماوية (اليهودية، والمسيحية، والإسلام)، فـ (العهد القديم)- وهو الكتاب المقدس في اليهودية والمسيحية- يؤكد أن المرحلة الثانية لانتشار البشرية بدأت من جبال أرارات (آغري) التي رست سفينة **النبي نوح** على إحدى قممها بعد الطوفان، **"وَاسْتَقَرَّ الْفُلْكُ فِي الشَّهْرِ السَّابِعِ، فِي الْيَوْمِ السَّابِعَ عَشَرَ مِنَ الشَّهْرِ، عَلَى جِبَالِ أَرَارَاطَ "**[2]. **"وَكَلَّمَ اللهُ نُوحًا قَائِلاً: اخْرُجْ مِنَ الْفُلْكِ أَنْتَ وَامْرَأَتُكَ وَبَنُوكَ وَنِسَاءُ بَنِيكَ مَعَكَ. وَكُلَّ الْحَيَوَانَاتِ الَّتِي مَعَكَ مِنْ كُلِّ ذِي جَسَدٍ: الطُّيُورِ، وَالْبَهَائِمِ، وَكُلَّ الدَّبَّابَاتِ الَّتِي تَدِبُّ عَلَى الأَرْضِ، أَخْرِجْهَا مَعَكَ. وَلْتَتَوَالَدْ فِي الأَرْضِ وَتُثْمِرْ وَتَكْثُرْ عَلَى الأَرْضِ"**[3].

ويؤكد (القرآن)- وهو الكتاب المقدس في الإسلام- أيضاً أن سفينة النبي نوح رست على جبل اسمه (جُودي): **"وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءكِ وَيَا سَمَاء أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاء وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْداً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ"**[4]. ومعروف أن جبل أرارات يقع في شمالي كردستان، ويقع جبل جُودي في المنطقة الكوردية بجنوب شرقي تركيا حالياً.

وإذا تفحّصنا تاريخ نشأة الحضارة البشرية وجدنا أنها تؤكد أيضاً مركزية كردستان في هذا المجال، ومعروف أن (حضارة حَلَف)- نسبةً إلى تل حَلَف في أعالي نهر الخابور- هي أبرز حضارات غربي آسيا في العصور القديمة، يقول الدكتور محمد بَيُّومي مَهران:

---

١ -جوناثان راندل: أمة في شقاق، ص ٢٣٢.

٢ -العهد القديم، سفر التكوين، الأصحاح ٨، الآية ٤.

٣ - العهد القديم، سفر التكوين، الأصحاح ٨، الآيات ١٥ - ١٧.

٤ - سورة هُود، الآية ٤٤.

"وتَشغل حضارة حَلَف الفترةَ منذ أواخر الألف السادسة، وحتى أواخر الألف الخامسة قبل الميلاد، وقد انتشر إنتاجها في الشمال خاصة، وفي مساحة تمتد من الزاب الأعلى، وسفوح جبال زاغروس شرقاً، إلى ما وراء الفرات غرباً، وإلى الحدود التركية وسفوح جبال طوروس شمالاً"[1].

والسبب الثاني: أن الميديين (من أسلاف الكورد) كانوا في طليعة من قاوموا بطش السلطات الآشورية، وحرروا شعوب غربي آسيا من قهرها، وعندما بدأ العهد العربي الإسلامي في غربي آسيا، وصار الكورد من جملة الشعوب التي تدين بالإسلام، لم يقصّروا- عندما أتيحت لهم الفرصة- في إغناء الثقافة الإسلامية، وفي تشييد بنيان الحضارة الإسلامية، بل كانوا في طليعة المدافعين عن البيت الغرب آسيوي ضد الغزو المغولي القادم من الشرق، وضد الغزو الأوربي القادم من الغرب، والمعروف باسم (الحملات الصليبية)، وإلى يومنا هذا نجد بعض الإخوة من مثقفي العرب وساستهم يقولون: إننا ننتظر ظهور صلاح الدين آخر ليحرر القدس.

بل لو راجعنا تاريخ التركمان السلاجقة لاتضح أن الجغرافيا الكوردية كانت منصّة انطلاق للسلاجقة غرباً ضد الدولة البيزنطية، وأن ثروات الأرض الكوردية وقدرات الإنسان الكوردي كانت من العوامل المهمة في تغلّب السلاجقة على الدولة البيزنطية، وفي وصولهم إلى غربي آسيا الصغرى (تركيا حالياً)، وحسبنا دليلاً على ذلك دور الكورد في معركة مَلازْكُرْد سنة (١٠٧١ م) بين السلاجقة بقيادة السلطان **أَلْب أَرْسلان** والإمبراطور البيزنطي **رومانوس**. وقل الأمر نفسه بالنسبة إلى حروب الدولة العثمانية شرقاً ضد الدولة الصفوية، وغرباً ضد أوربا الشرقية.

إذاً لماذا هذا الإجحاف الواقع على الكورد؟!

ولماذا هذا التشويه المنهجي المتعمَّد لصورة الشعب الكوردي؟!

ولماذا الإسراع إلى التشكيك والطعن في أصل الكورد؟!

ولماذا الإقدام على تنسيبهم إلى الجن والشياطين؟!

ولماذا الزعم بأنهم لصوص وقطّاع طرق؟!

ولماذا الادّعاء بأنهم حَرَقةٌ للأنبياء وعصاة لله؟!

---

١ - محمد بيومي مهران: تاريخ العراق القديم، ص ٢٠. وانظر جيمس ميلارت: أقدم الحضارات في الشرق الأدنى، ص ١٥٧.

إن هذه التساؤلات وأشباهها أسقطت المبررات التي كنت أتمترس خلفها لتأجيل البحث في (الشخصية الكوردية)، وصرت مسؤولاً أمام نفسي بالبحث عن الحقيقة: تُرى أين هي؟ ومرة أخرى أقول: ليس باعتباري كردياً، وإنما باعتباري باحثاً عن الحقيقة، ولا سيما أني قد اعتدت ألا أقف مكتوف اليدين إزاء ما يعترضني من إشكاليات على الصعيد المعرفي، ولا يقرّ لي قرار إلا بعد أن أقوم بما ينبغي أن أقوم به من استطلاع واستكشاف، وجمع للمعلومات، واستقراء للتفاصيل، وتحليل للمعطيات، وربط للعلاقات، وخروج بنتائج قد لا تكون مُرْضية مئةً في المئة، لكنها تلقي كثيراً من الضوء على ما كان بالنسبة لي غامضاً.

ومنذ شهرين تقريباً عقدت العزم على البدء بالكتابة في موضوع (الشخصية الكوردية)، ومع ذلك ظللت أقدّم رجلاً وأؤخر أخرى" إذ كان عليّ القيام ببعض الأعباء العلمية الضرورية، ومواجهة بعض الإشكالات المعرفية والمنهجية.

أعباء علمية:

على الصعيد العلمي كان عليّ أن أتوسّع في مجالات معرفية أربعة:

- **الأول:** علم النفس، وما يشتمل عليه من نظريات في تحليل الشخصية.
- **والثاني:** علم الاجتماع، وما يشتمل عليه من طرائق لدراسة الأفراد والفئات والطبقات والجماعات.
- **والثالث:** علم الجغرافيا البشرية، وما يعنيه من البحث عن العلاقة بين معطيات البيئة الطبيعية وخصائص الجماعات والشعوب.
- **والرابع:** الاطلاع على دراسات تدور حول شخصيات الشعوب، والحقيقة أنها كانت قليلة، وكان أكثرها مفتقراً إلى الشمولية في التوصيف، والعمق في التحليل، والمنهجية في المعالجة.

إشكالات:

أما الإشكالات التي واجهتني فتتمثل فيما يلي:

أولاً- الوقوع في شِباك التعميم: فأنا من المجتمع الكوردي في سوريا، ولم أقم بزيارات للمجتمعات الكوردية في تركيا وإيران والعراق وأرمينيا، ولم أخالط الكورد في بلوشستان وخراسان وكازاخستان، وغيرها من مناطق الانتشار الكوردي شرقاً وغرباً، أضف إلى هذا أنني أنتمي لهجوياً إلى فرع (كُردمانج)، ولم أخالط الكورد من فرع (زازا) وفرع (لُور) وفرع (گـُوران)، والأكثر إشكالاً من هذا أنني أنتمي دينياً- وبحسب التقليد طبعاً- إلى الكورد المسلمين السنّة، وليست لي معرفة مباشرة بالكورد العلويين في تركيا ولا بالكورد الجعفرية (الاثنا عشرية) في العراق وإيران.

والكورد ليسوا مسلمين كلهم، وإنما هناك الكورد من أتباع الديانة الأَيزْدية (اليَزْدية)، والكورد من أتباع الديانة الكاكه يية، والكورد الشَّبَك، وصحيح أنني خالطت الكورد الأيزديين في منطقة عِفْرين (كُرد داغ)، لكن إلى هذا اليوم لم ألتق مباشرة بكردي من الكاكه ئيين، ولم أعرف بدقة حقيقة الدين الكاكه ئي.

وبما أني أتطلّع إلى البحث في (الشخصية الكوردية)، أفلا يعني ذلك أن ما أكتبه سيكون- شئتُ أم أبيت- متمركزاً حول الشخصية الكوردية بهويتها الكوردمانجية الكورداغية المسلمة السنّية؟ وأفلا أكون بذلك قد ظلمت- من حيث أدري ولا أدري- الكورد من الفروع والبيئات والديانات والمذاهب الأخرى؟ أفلا تكون الدراسات التي أخرج بها على القراء دراسات عرجاء، فيها الحقائق وأنصاف الحقائق، وما لا يمتّ إلى الحقائق أصلاً؟ والخلاصة أفلا أكون بذلك قد عمّمت الجزء على الكل، ونقضت واحداً من أهم أركان البحث العلمي الموضوعي؟

ثانياً- الوقوع في شِباك الجمود: أقصد بالجمود هنا الخلط بين الثابت والمتحوّل" إذ لا يخفى أن الشخصية- سواء أكانت شخصية فرد أم شخصية شعب- لا تنحصر، من حيث هي كل، في حالة واحدة دائماً، إن فيها الثابت شبه الدائم (الخصائص العرقية/البيولوجية)، وفيها البطيء التحول (الخصائص السيكولوجية/الذهنية)، وفيها القابل للتحول بوتيرة متوسطة (الخصائص الثقافية: المُثل العليا، القيم)، وفيها القابل للتحول بسرعة ملموسة (الخصائص العملية:

التقاليد، العادات، الأزياء)، وبما أن دراسة (الشخصية الكوردية) ستتناول- حسبما يقتضي المنطق- سمات هذه الشخصية بدءاً من أقدم أسلاف الكورد (على الأقل منذ حضارة حَلَف)، وإلى يومنا هذا، فكيف لنا أن نكون بمنجاة من الخلط بين ما هو ثابت وما هو متحوّل؟

ثالثاً- الوقوع في شِباك الخلط بين الأصيل والدخيل: المجتمع الكوردي، كمعظم غربي آسيا ومجتمعات العالم الأخرى، ليس مجتمعاً منغلقاً، إنه على تواصل مع المجتمعات المجاورة له منذ ثلاثة آلاف سنة ق.م، وكان ذلك التواصل يغدو واقعاً مفروضاً عندما كان المجتمع الكوردي يصبح- كلياً أو جزئياً- تحت سلطة الإمبراطوريات التي حكمت غربي آسيا (الآشورية، الميدية، الفارسية، اليونانية، الرومانية). وأصبح تواصل الكورد مع جيرانهم وثيقاً على نحو أشد، حينما أصبحوا رعايا الإمبراطورية العربية الإسلامية في القرن السابع الميلادي، وكذلك الأمر حينما صاروا من رعايا الإمبراطورية العثمانية في القرن السادس عشر الميلادي.

أما في العصر الحديث فها نحن نرى أن فرص الانغلاق والانعزال تتقلص يوماً بعد آخر، وأصبحت الشعوب مضطرة إلى الانفتاح على الآخرين في جميع الاتجاهات" وهذا يعني أن شخصية شعبٍ ما لم تعد قادرة على الاحتفاظ بأصالتها بشكل كامل، ولا بد أن تتعرض للتأثر والاختراق، بل ليس من المستبعد أن تتعرض للمسخ بعض الأحيان، وبطبيعة الحال ليست الشخصية الكوردية استثناء في هذا المجال، فكيف لنا إذاً أن نميّز فيها بين الأصيل والدخيل من السمات؟ وكيف لنا أن نحدد فيها نسبة الأصالة والاختراق والانمساخ؟

رابعاً – الوقوع في شِباك نظرية (شعب الله المختار): لا يخفى أن كثيراً من شعوب تعتقد أنها الأفضل والأنقى والأسمى، ولكل شعب مبرراته الخاصة في هذا المجال، وقد تكون تلك المبررات دينية أو عرقية أو حضارية أو عسكرية، لا بل إن نُخب بعض الشعوب يصرّحون علناً بأن شعبهم هو (شعب الله المختار)، وأنه المؤهّل وحده لقيادة الجنس البشري، وانطلاقاً من هذه العقيدة يمنحون شعبهم جميع الصفات المرموقة، ولا يتركون لغيره من الشعوب إلا الفُتات.

وبما أن الأمر كذلك أفلا يمكن أن تركبنا أيضاً شهوة الخُيَلاء، وننساق خلف النرجسية القومية، ونتوهّم أن الكورد هم (شعب الله المختار)، ونشرع في تضخيم المحاسن واختلاق الفضائل والمزايا، والتقليل من نسبة السلبيات؟

خامساً: الوقوع في شِباك حملة التشويه: لقد مر أن الكورد تعرّضوا طوال خمسة وعشرين قرناً- وما زالوا يتعرّضون- لحملة منهجية من التشويه، وبما أن الأمانة العلمية تقتضي أن نسلّط الضوء على السلبيات المتأصلة في الشخصية الكوردية، أو الدخيلة عليها، أفلا يمكن أن

يعمد المغرضون، من أصحاب مشروع أبلسة الكورد، إلى تلك السلبيات، فيخرجوها من سياقاتها التاريخية والموضوعية، ويتخذوها سلاحاً للإيغال في تشويه صورة الكورد، ويقولوا: انظروا، ها هو شاهد منهم يؤكد ما نقول؟

آليّات وضوابط:

كانت هذه الإشكالات- وهي وجيهة ومهمة- من أبرز العوامل التي جعلتني أقدّم رجلاً وأؤخر أخرى في تناول موضوع (الشخصية الكوردية)، وأشد ما كنت أحذره هو أن تخرج دراستنا هذه من مسارها المفترض- وهو مسار الواقعية والموضوعية وبناء جسور التواصل مع الآخر- إلى مسارات تتراوح بين التسطيح والتمجيد والتضليل وإثارة النّعرات وزرع الخصومات.

وبعد طول تأمل قررت وضع منهج علمي صارم أُلزم به نفسي في كل معلومة أكتبها، وفي كل رأي أبديه، وفي كل استنتاج أتوصل إليه، وتتفرّع على ذلك المنهج آليات وضوابط أعتقد أنها ستصحّح لي المسار، وتحول دون الانجراف مع تيّار الذاتية والخيلاء، أو التقوقع في شرنقة الجزئية وضيق الأفق، أو الشطح بعيداً في مدارات الانفعال والارتجال" وفيما يلي أبرز تلك الآليات والضوابط:

١. التوسع- قدر المستطاع- في معرفة كل ما يتعلق بالمجتمع الكوردي" من حيث الجغرافيا، والتاريخ، والاثنولوجيا، والميثولوجيا، واللغة، والدين، والفكر، والأدب، والفن، والعادات، والتقاليد، والمُثل العليا، والقيم، والعلاقات، والسلوكيات، والانتفاضات، والثورات، والانتصارات، والإخفاقات، والهزائم.

٢. رسم ملامح خريطة الشخصية الكوردية على ضوء العناصر السابقة، مع الأخذ في الحسبان أنها عناصر متفاعلة متكاملة، تنتمي إلى منظومة شاملة، وليست جزراً مبعثرة ولا شظايا متفرقة، فقد تكون السمة الواحدة من سمات الشخصية متصلة في الوقت نفسه بما هو بيئي وميثولوجي واجتماعي.

٣. الاعتماد على الوثائق للوصول إلى الحقائق، ويجب أن ينصبّ التركيز على ما لاحظه الآخرون وقالوه بخصوص سمات الشخصية الكوردية، ونقل ما ذكروه بأمانة تامة، سواء

أكان يدخل في باب المديح والإعجاب أم في باب الذم والانتقاص، مع التمييز الدقيق بين ما هو موضوعي وما هو مُغرِض في تلك المشاهدات والملاحظات والأقوال.

٤. التمييز الدقيق، في الحقول المتعلقة بسمات الشخصية الكوردية، بين ما هو عام وما هو خاص، وما هو ثابت وما هو متحول، وما هو أصيل وما هو دخيل.

٥. الانطلاق في الدراسة من نية بناء جسور التعارف والتفاهم بين الكورد والشعوب الأخرى، وخاصة جيران الكورد الأقربين (الفرس، العرب، الآشوريون، الكلدان، السريان، الأرمن، الترك)، وعدم الانجرار وراء الخُيَلاء القومية، مع الابتعاد عن تفضيل الشخصية الكوردية على شخصيات الشعوب الأخرى، سواء بضرب الأمثلة أو المقارنة.

٦. عرض ما يُكتب في هذه الدراسات على أكبر شريحة ممكنة من المثقفين الكورد في مختلف مناطق كردستان، ومن مختلف الأديان والمذاهب والتخصصات، لإبداء الرأي تصويباً وتعديلاً وحذفاً وإضافة" بناء على وثائق علمية ومعطيات واقعية وأسس منطقية.

٧. عرض ما يُكتب في هذه الدراسات على أكبر شريحة ممكنة من المهتمين بالشأن الكوردي من الإخوة غير الكورد، لإبداء الرأي تصويباً وتعديلاً وحذفاً وإضافة، إذ قد يكون الآخر أكثر تنبّهاً - في بعض الجوانب- إلى خصائص شخصية شعب ما من أبناء ذلك الشعب أنفسهم.

٨. مراجعة ما أكتب مراجعة دقيقة، وتنقيحه وتعديله وَفق ما أطّلع عليه من معلومات وآراء جديدة.

وأحسب أن أول ما يجب أن نبدأ به هو تأصيل بعض المفاهيم والمصطلحات ذات الصلة بموضوع (الشخصية). وهذا هو موضوعنا القادم.

٢

ما هي الشخصية؟

تأصيل المصطلح:

كي لا نصبح أسرى المفاهيم الضبابية، ولا ننساق مع العبارات الزئبقية التي تكون (حمّالة أوجه)، أرى من الضروري استعراض بعض المعلومات والمفاهيم والمصطلحات ذات الصلة بموضوع (الشخصية).

١ – **الجنس البشري:** توصل العلماء إلى اتفاق عام على الاعتراف بأن الجنس البشري ينتمي إلى أصل واحد" أي أن الناس جميعاً ينتمون إلى النوع ذاته، إلى الإنسان العاقل Homos Sapien، ووحدة الجنس البشري هذه أقرها العالم كارلوس ليون (١٧٠٧ – ١٧٧٨م) مؤسس علم الحياة المنظم، وهو الذي أطلق على الجنس البشري عبارة (Homos Sapiens)[١].

وقدّم البروفسور كارلتون إس كون Coon نظرية تقول بأن الإنسان الحديث (الإنسان العاقل) Homos Sapien ، نشأ من نوع مفرد هو الإنسان المنتصب، وأنه لم ينشأ مرة واحدة وحسب، بل خمس مرات[٢].

غير أن انتماء الناس جميعاً إلى أصل واحد لا يعني أنهم نسخٌ متطابقة، فالكون بمجمله قائم على التنوّع، وثمة تنوّع في عالم الأجرام السماوية، وفي عالم الجمادات، وفي عالم النباتات،

---

١ - آشيلي مونتاغيو: الدحض العلمي لأسطورة التفوق العرقي، ص ٢٧.

٢ - المرجع السابق، ص ٤٦.

وفي عالم الحيوانات، ولا غرابة في أن يكون التنوّع ركناً من أركان عالم البشر أيضاً، ويكفي أن نلقي نظرة عابرة على أنفسنا وعلى الآخرين، لنتأكد من أن التنوّع بيننا – نحن البشر- أمر واقع وليس فرضية. والحقيقة أنه بقدر ما نتعمّق في فهم جيراننا (الجمادات، النباتات، الحيوانات) نصبح أقدر على فهم هويتنا، وبقليل من الملاحظة نستنتج أن جيراننا (الكائنات الأخرى) ينتمون إلى فصائل متعدّدة، ففي عالم الجماد ثمة النجوم والكواكب، وفي عالم الحيوان ثمة الزواحف والعشبيات واللواحم، وكذلك الأمر بالنسبة لنا نحن البشر، فنحن أيضاً لنا تنوّعنا الخاص بنا، فثمة الأعراق والسلالات والشعوب والأمم.

٢ – العِرق: يقوم تعريف (العِرق) في الدرجة الأولى على الخصائص البيولوجية، ومن الطبيعي أن يتقاطع تعريفه مع تعريف (الجماعة السلالية) كما سنرى، فالبروفسور ثيودوسيوس دوبزانسكي يعرّف (الأعراق) بأنها **"جماعات سكانية تختلف فيما بينها من حيث وجود مورّثات معيّنة، لكنها تتبادل عملياً، أو لديها إمكانية أن تتبادل، المورّثات عبر أيّ نوع من الحدود (الجغرافية في العادة) التي تفصل بعضها عن البعض الآخر"**[١].

وثمة من عرّف (العرق) Race بأنه **"مجموعة من الناس يُفترَض أنهم يشتركون بنسب مشتركة، ولهم عموماً أصل جغرافي مشترك متشابه نوعاً ما في المظهر الطبيعي، ولهم عادة تاريخ وثقافة ولغة مشتركة"**[٢].

ويرى بعض المتخصصين أن الفوارق في المورّثات التي تميّز الجماعات العرقية بعضها عن بعض لا بد أن تكون قليلة نسبياً، لأن جميع الأفراد، في جميع الأعراق المختلفة، يتشابهون فيما بينهم أكثر مما يختلفون، وليس من المحتَّم أن تتطابق الجماعات العرقية مع الجماعات الوطنية والدينية واللغوية والثقافية[٣].

٣ – الجماعات السلالية: السلالة هي مجموعة من الأفراد يمكن أن نميِّزها عن غيرها بصفات بيولوجية[٤]. وعرّف بعض العلماء (الجماعات السلالية) بأنها مجمَّع أو مجموعة من الجماعات السكانية، تتميّز بشَبَه نسبي في الصفات الجسدية والخصائص الثقافية، وتساعد تلك

---

١ - المرجع السابق، ص ٤٥.

٢ - جيوفري روبرتس: القاموس الحديث للتحليل السياسي، ص ٣٧٩.

٣ - آشيلي مونتاغيو: الدحض العلمي لأسطورة التفوق العرقي، ص ٤٥، ٦٣.

٤ - لويجي لوقا كافاللي- سفورزا:الجينات والشعوب واللغات، ص ٣٤.

الصفات والخصائص مجتمعةً في تمييز أعضاء هذه الجماعة السلالية عن أعضاء الجماعات السلالية الأخرى، وإن آليات العزل، كالحواجز الجغرافية، هي التي قامت بالدور الأكبر في تكوين الفوارق الجسدية والثقافية بين الجماعات السلالية[1].

واتفق معظم علماء الإنثروبولوجيا في الوقت الحاضر على تصنيف الجزء الأكبر من النوع البشري في ثلاثة أقسام رئيسة، تندرج ضمنها جميع الأعراق البشرية، هي:

أ – القسم المنغولي Mongoloids.

ب – القسم الزنجي Negroids.

ج – القسم القوقازي Caucasoids[2].

أ - الجماعة السلالية المنغولية:

تتألف هذه الجماعة، بشكل رئيسي، من سكان شمالي آسيا وآسيا الوسطى وجنوب شرقي آسيا، وتضم الفيليبين وماليزيا وأقطار الهند الشرقية والأمريكتين، وأبرز الشعوب التي تمثل هذه السلالة هي: اليابانيون، والصينيون، والكوريون، والشعوب التركية، وأهل التِّيبت وهِمالايا، ويتصف المنغوليون بسَباطة شعر الرأس وسواده، مع كثافة في السنتمتر المربع تقلّ- إلى حدّ ما- عن كثافة شعر الرأس لدى البيض، وشعر البدن لديهم غير كثيف نسبياً، ولون البَشَرة يميل إلى الصفرة قليلاً، ولدى معظمهم ثَنْية جلدية تغطي زاوية العين الداخلية[3].

ب - الجماعة السلالية الزنجية:

تتكون هذه الجماعة السلالية من ثلاث مجموعات فرعية هي:

١- الزنوج الأفارقة.

٢- زنوج المحيط من أهالي غينيا الجديدة، وأهالي المجموعة الكبيرة من الجزر الممتدة إلى الشرق حتى جزر فيجي.

---

١ - آشيلي مونتاغيو: الدحض العلمي لأسطورة التفوق العرقي، ص ٧٠ – ٧٥.

٢ - أحمد زكي: في سبيل موسوعة علمية، ص ٣٣.

٣ - آشيلي مونتاغيو: الدحض العلمي لأسطورة التفوق العرقي، ص ٧٥. وأحمد زكي: في سبيل موسوعة علمية، ص ٣٣.

٣- زنوج جنوب شرقي آسيا، بمن فيهم الاندمانيون في خليج البنغال، والسياميون في شبه جزيرة الملايو وشرقي سومطرة والألينيون في الفيليبين.

ويتصف الزنوج ببَشَرة سمراء، تكون سوداء في أغلب الأحيان، وسمراء مائلة إلى الصفرة أحياناً، ويتنوّع شعر الرأس من الأجعد الكثيف إلى المفروط فالمُفَلفَل (خصل متناثرة)، وشعر البدن، على العموم، خفيف بشكل واضح، أما الرأس فيميل إلى الاستطالة، ويكون الأنف في العادة عريضاً، ويأتي في كثير من الأحيان مسطَّحاً، بمنخرين واسعين، والشفاه غليظة ومقلوبة في العادة[١].

ج - الجماعة السلالية القوقازية:

ترجع هذه التسمية إلى شعوب منطقة القوقاز، وهي المنطقة الواقعة بين بحر قَزْوين شرقاً والبحر الأسود غرباً، وصاحب التسمية هو العالم الألماني بلومنباخ (Blumenbach 1753 – 1840م) مؤسس علم الإنثروپولوجيا الطبيعية، وهي تُطلق على البَشَر الذين يُسمَّون (البيض)، ويدخل ضمن هذه السلالة جميع شعوب أوربا، والشعوب القاطنة في أفغانستان وباكستان والهند، وشعوب غربي آسيا (الفرس، الكورد، العرب، العبرانيون، الآشوريون، الكلدان، السريان، الأرمن، الموارنة، وشعوب شمالي إفريقيا (القبط، الأمازيغ)، وتشمل أحياناً عدة شعوب ذات بَشَرة داكنة، مثل كثير من شعوب الهند، ومثل الأوستراليين الأصليين.

وشعر الرأس، في هذه الجماعة السلالية، يتفاوت من الحريري المسترسَل (السَّبْط) إلى درجات مختلفة من التجعّد، والتجعّد فيه نادر. ويكون شعر الوجه وباقي أجزاء البدن عند الذكور نامياً جداً، ويتفاوت لون البَشَرة من البياض حتى السمرة الداكنة، والأنف بارز ودقيق نسبياً، ويرتفع عند بدايته وفي أرنبته، وعظام الخدود غير بارزة على العموم، والشفاه أقرب إلى الرقة[٢].

٤ - ـ القومية Ntionalism: يبدو أن العلماء الذين عرّفوا (القومية) كانوا ينطلقون من حالات معيّنة، فثمة من يقول: **"تعتمد القومية على عوامل من مثل اللغة المشتركة، والتاريخ المشترك، والتجاور الإقليمي، والتشابه العرقي، والثقافة المشتركة "**[٣]. ويرى آخر أن

---

١ - آشيلي مونتاغيو: الدحض العلمي لأسطورة التفوق العرقي، ص ٧٥ – ٧٦.

٢ - آشيلي مونتاغيو: الدحض العلمي لأسطورة التفوق العرقي، ص ٧٦. وأحمد زكي: في سبيل موسوعة علمية، ص ٣٣.

٣ - جيوفري روبرتس:القاموس الحديث للتحليل السياسي، ص ٢٨٠.

القومية " **تأكيد واعٍ للأمة (Nation) بالاستناد إلى عوامل تختلف عن الوطنية (مجرد حب الوطن)**"[١].

في حين وحّد آخرون بين (القومية) و(الوطنية) فقالوا: القومية هي الصفة الحقوقية التي تنشأ عن الاشتراك في الوطن الواحد. والقومية أيضاً صلة اجتماعية عاطفية تتولد من الاشتراك في الأرض، والجنس، واللغة، والثقافة، والتاريخ، والحضارة، والآمال، والمصالح. والأقرب إلى الدقة- فيما نرى- أن مفهوم (الوطنية) أوسع من مفهوم (القومية)، وأن الطابع الإثني هو الأكثر فاعلية في تكوين (القومية)، في حين تكون العوامل الأخرى (الأرض، الثقافة، التاريخ، المصالح، الآمال) أكثر فاعلية في تكوين (الوطنية).

٥ – الشعب Folk: إن علم الأجناس الحديث يعرّف (الشعب) بأنه "**مجموعة من الأشخاص الذين قد يختلفون في الجنس والموطن الأصلي، ولكنهم ممتزجون في وحدة متجانسة، بفضل وحدة المسكن واللغة والتقاليد التاريخية الحضارية** "[٢]. وجاء في تعريف آخر أن (الشعب) "**جماعة من الناس يتميّزون بثقافة معيّنة وعادات وتقاليد تفصلهم عن جماعات أو شعوب أخرى**"[٣]. ولتعريف (الشعب) طابع قانوني أحياناً، فقد قيل: "**الشعب هو مجموعة من الأفراد ينتمون إلى الدولة بعلاقة قانونية، يعرّفها القانون الخاص بالجنسية" التي تُعرَف بأنها الرابطة القانونية بين الفرد والدولة**"[٤]. ونرى أن دور (العرق/السلالة الجماعية) في تكوين مفهوم (الشعب) يغيب إلى حد كبير، ويفسح المجال للعناصر الأخرى (الموطن، الثقافة، التاريخ).

٦ – الأمـة Nation: الأمة شعب يعيش في وطن واحد، وتحت حكم واحد، وغالباً ما تكون الأمة مؤلفة من عدد من الجماعات العرقية المختلفة" ففي الولايات المتحدة مثلاً أمة مكوَّنة من أعضاء ينتمون إلى البيض من أمم أوربا كلها، وإلى الزنوج الأفارقة، وإلى المنغوليين القادمين من اليابان والصين، وإلى الهنود الأمريكيين الشماليين الأصليين، والبورتوريكيين، والفليبينيين، والإسكيمو[٥].

---

١ - فرانك بيلي: معجم بلاكويل للعلوم السياسية، ص ٤٣٣.

٢ - سبتينو موسكاتي: الحضارات السامية القديمة، ص ٤٩.

٣ - نخبة من الأساتذة: معجم العلوم الاجتماعية، ص ٣٣٧.

٤ - عامر رشيد مُبَيِّض: موسوعة الثقافة السياسية الاجتماعية الاقتصادية العسكرية، ص ٨٣٩.

٥ - آشيلي مونتاغيو: الدحض العلمي لأسطورة التفوق العرقي، ص ٥٨ – ٥٩.

وقيل أيضاً: الأمة

"مجموعة الناس الذين يشتركون في تقليد تاريخي وثقافي مرتبط عادة بمنطقة جغرافية محددة، تزوِّد المجموعة بهُويّة إزاء مجموعات أخرى"[1]. وقيل: الأمة **"مجموعة من الناس الذين يشعرون بأنهم يشتركون بهُويّة واحدة تميّزهم عن غيرهم من الشعوب"**[2].

وعلى العموم لا نجد أيّ تأثير لعنصر (العرق/السلالة) في تعريف (الأمة)، وإنما تحلّ محلها العناصر الأخرى (الموطن، التاريخ، الثقافة، المصالح)، وهذا يعني أن ثمة تماثلاً بين مفهوم (الشعب) ومفهوم (الأمة)، وهذا واضح في قول روبرت أمرسون: **"إن الأمم هي كالأفراد نتيجة إرث وبيئة، ولكن في حالة الأمة فإن البحث عن أصلها لا يمكن أن يكون بتتبّع الجينات الوراثية، وإنما بالبحث في الإرث الاجتماعي الذي ينحدر من جيل إلى جيل، معطياً مضموناً قومياً لأذهان الناس"**[3]. وفي بعض الأحيان يتوسّع مفهوم الأمة أكثر، ويأخذ طابعاً دينياً، كمفهوم (الأمة الإسلامية).

وبعد هذه الجولة مع المفاهيم والمصطلحات الأساسية الدائرة حول الجماعات البشرية (الجنس البشري، العرق، السلالة، القومية، الشعب، الأمة) دعونا نبحث في (الشخصية) ترى ما هي؟

ما هي الشخصية؟

من الضروري أن نميّز بين نوعين من (الشخصية):

- شخصية الفرد.
- وشخصية الجماعة (قومية، شعب، أمة).

---

١ - جيوفري روبرتس:القاموس الحديث للتحليل السياسي، ص ٢٧٩.

٢ - فرانك بيلي: معجم بلاكويل للعلوم السياسية، ص ٤٣٣.

٣ - عامر رشيد مُبَيِّض: موسوعة الثقافة السياسية الاجتماعية الاقتصادية العسكرية، ص ١٣٢.

أولاً . شخصية الفرد:

اهتم معظم المتخصصين في علم الاجتماع وعلم النفس بتعريف (شخصية الفرد)، وفيما يلي بعض ما ذكروه في هذا الصدد:

١ - تعريف جوردن ألبورت (١٩٣٧, Allport): **"الشخصية هي التنظيم الدينامي داخل الفرد، لتلك الأجهزة التي تحدّد خصائصه وسلوكه"**[١]. ويرى ألبورت أيضاً أن **"الشخصية هي ما يكون عليه الإنسان في حقيقته"**[٢].

٢ - تعريف جيلفورد (Guilford, 1959): **"شخصية الفرد هي ذلك النموذج الفريد الذي تتكوّن منه سماته"**[٣].

٣ - تعريف أيزنك (Eysenck, 1960): **"الشخصية هي ذلك التنظيم الثابت والدائم إلى حدّ ما، لطباع الفرد ومزاجه وعقله وبنية جسمه، والذي حدّد توافقه الفريد لبيئته "**[٤]. ويرى أيزنك أيضاً أن الشخصية هي: **"المجموع الكلي لأنماط السلوك الفعلية أو الكامنة لدى الكائن"**[٥].

٤ - تعريف ريموند كاتل (Cattel, 1965 Raymond): **"الشخصية هي ما يمكننا التنبؤ بما سيفعله الشخص عندما يوضع في موقف معيّن"**، ويضيف قائلاً: **"إن الشخصية تختص بكل سلوك يصدر عن الفرد سواء أكان ظاهراً أم خفيّاً"**[٦].

ويرى كالڤين هول أن شخصية الفرد تتمثل في أقوى الانطباعات التي يخلقها في الآخرين وأبرزها[٧]. ولخّص آشيلي مونتاغيو عدداً من التعريفات الخاصة بالشخصية، فقال: **"يُفهم من**

---

١ - بدر محمد الأنصاري: مقدّمة لدراسة الشخصية، ص ١٨.

٢ - **كالڤين** هول، جاردنر ليندزي: نظريات الشخصية، ص ٢٢.

٣ - بدر محمد الأنصاري: مقدمة لدراسة الشخصية، ص ١٨.

٤ - المرجع السابق، ص ١٩.

٥ - كالڤين هول، جاردنر ليندزي: نظريات الشخصية، ص ٤٩٧.

٦ - بدر محمد الأنصاري: مقدمة لدراسة الشخصية، ص ١٩.

٧ - **كالڤين** هول، جاردنر ليندزي: نظريات الشخصية، ص ٢١.

الشخصية مُجمل الصفات والخصائص التي تُكوّن الفرد، كما أن المقصود بالطبع مُجمل صفات الشخص الذهنية والأخلاقية. والشخصية هي المظهر المتحرك للطبع"[1].

وها نحن نرى أن تعريفات (الشخصية) لا تخلو من عبارات تستعصي على الضبط والقياس (تنظيم دينامي، خصائص، سمات، حقيقة، طباع، مزاج، انطباع، إلخ)، ومع ذلك لا عجب" إذ إن مسألة (الشخصية) شديدة التعقيد، إلى درجة أن المرء يعجز عن إخضاعها لتعريف دقيق جامع مانع، ولعل القاسم المشترك بين التعريفات السابقة هو ما يلي: (**شخصية الفرد هي مجمل خصائصه الفسيولوجية، والسيكولوجية، والثقافية، والذهنية، وطبيعة رؤيته الوجودية، وأنماط سلوكه إزاء المثيرات، وقد يتفق في هذه الخصائص مع الآخرين، وقد يختلف عنهم**).

ولنا أن نخرج من هذه التعريفات أيضاً بأن العناصر الأساسية التي تسهم في تكوين (الشخصية) هي: البنية الجسدية، والخصائص السيكولوجية، والبيئة، والثقافة، وطبيعة التحديات التي تعترض وجوده. ومن هنا كان إيريك فروم على حق عندما قال: **"إن فهم الإنسان لا بد أن يُبنى على تحليل حاجات الإنسان النابعة من ظروف وجوده"**[2].

وكان لازاروس أيضاً محقاً عندما قال:

"شخصية الإنسان بعامة، والأفراد بخاصة، لا يمكن فهمها فهماً صحيحاً دون إدراك التفاصيل البيولوجية المناسبة، وهذه التفاصيل تتضمن موضوعات ثلاثة أساسية، ... ونعني بها: التطور البيولوجي والثقافي للإنسان، والتأثيرات التكوينية عليه، والطريقة التي بها يؤثّر البناء الفسيولوجي للإنسان على سلوكه وشخصيته"[3].

---

١ - آشيلي مونتاغيو: الدحض العلمي لأسطورة التفوق العرقي، ص ١٠٢.

٢ - **كالڤين** هول، جاردنر ليندزي: نظريات الشخصية، ص ١٧٤.

٣ - لازاروس: الشخصية، ص ١٣٧.

ثانياً . شخصية الجماعة:

المقصود بشخصية الجماعة شخصية (شعب، قومية، أمة) كما مر، وسنستخدم من الآن فصاعداً عبارة (شخصية شعب)، والحقيقة أننا لم نجد تعريفات كثيرة لـ (شخصية الجماعة)" هذا على الأقل في حدود المصادر التي توافرت لنا، وفيما يلي بعض تلك التعريفات:

١ – لوسيان فيفر: أن يكون شعب ما ذا شخصية يعني ترابط عدد من الصفات الأخلاقية، إلى درجة أنه يشترك فيها آلاف الأفراد من ذلك الشعب، بشرط أن ينفرد هذا الشعب بتلك الصفات دون بقية الشعوب[١].

٢ - كارل مانهايم فيلسوف سوسيولوجيا المعرفة: **"إن الانتماء إلى جماعة يعني، من بين أمور أخرى، أن أبناء هذه الجماعة يرون العالم، ونهج التعامل مع الذات والآخر والطبيعة، بطريقة متماثلة مميِّزة لهذه الجماعة"**[٢].

وقد لاحظنا أن التعريفات القليلة الخاصة بـ (شخصية الشعب) تزخر أيضاً بعبارات فضفاضة، ويمكن أن نسدّ الفقر الحاصل في تلك التعريفات بما جاء من التعريفات الدائرة حول (شخصية الفرد)، باعتبار أن شخصية الشعب هي في النهاية حصيلة مجموع شخصيات أفراده، ويمكن أن نلخّص تعريف (شخصية الشعب) كما يلي: (**شخصية الشعب هي السمات العامة التي يُعرف بها شعب ما من حيث الصفات الجسدية، والمزاج، والذهنية، والثقافة، وأنماط السلوك في المواقف المختلفة**).

ولا نرى ضرورة للأخذ بالشرط الذي وضعه لوسيان فيفر" وهو (أن ينفرد هذا الشعب بتلك الصفات دون بقية الشعوب)، فالواقع يؤكد أن بعض الشعوب قد تتشابه في بعض الخصائص، وقد تختلف في خصائص أخرى، ولا سيما إذا كانت تلك الشعوب تعيش في بيئات جغرافية متشابهة، أو تنتمي إلى ثقافات مشتركة، أو تواجه تحدّيات متشابهة" مع الأخذ بالحسبان أن نسبة التشابه في هذه العناصر (الجغرافيا، الثقافة، التحديات) هي العامل الأكبر في تحديد السمات الأساسية لشخصية شعب ما دون آخر. وهناك أمر آخر مهم لا بد من أخذه في

---

١ - لوسيان فيفر: الأرض والتطور البشري، ص ١٥٦.

٢ - شوقي جلال: العقل الأمريكي يفكر، ص ١٠.

الاعتبار" ألا وهو أن (الاختلاف) في سمات الشخصية شيء و(التناقض) فيها شيء آخر، وأن شخصيات الشعوب كثيراً ما تتشابه، وكثيراً ما تختلف، لكنها قلما تتناقض.

نموذج تحليلي:

ولو أمضينا ساعات في التنظير لظلّت الأمور ضبابية، فدعونا إذاً نأخذ مثالاً من الواقع، وليكن حول العرب والكورد، فالمعروف أنهما شعبان مختلفان من حيث عناصر التكوين الأولى" أقصد (إثنياً وبيئياً وميثولوجياً)، مع مراعاة أن الميثولوجيا هي القاعدة الأساسية لثقافات الشعوب في عصور التكوين، فالعرب ينتمون إثنياً إلى السلالة السامية، في حين ينتمي الكورد إلى السلالة الآرية. وبيئة التكوين الأولى للعرب هي الصحراء، في حين أن بيئة التكوين الأولى للكرد هي الجبال. وتتمحور الميثولوجيا العربية- في الغالب- حول القمر، في حين تتمحور الميثولوجيا الكوردية- في الغالب- حول الشمس.

وهكذا لا يبقى شكّ في أن ثمة اختلافاً واضحاً بين العرب والكورد من حيث العناصر الأساسية المساهمة في تكوين شخصية كل من هذين الشعبين، وتبعاً لذلك فلا غرابة مطلقاً في أن يؤدي الاختلاف في هذه العناصر إلى وجود اختلاف في السمات بين الشخصية العربية والشخصية الكوردية، وتظهر بعض تجلّيات ذلك الاختلاف في الأشكال والمزاج والذهنية والتراث الشعبي بشكل عام، وخاصة الموسيقى والغناء.

لكن ذلك لا يعني أن ثمة بالضرورة تناقضاً بين الشخصيتين (العربية والكوردية)، لا بل إن الاختلاف بينهما لم يمنع من وجود تشابه في الأشكال، وهذا يعود- فيما نرى- إلى أن الشعبين ينتميان- حسب التصنيف الوارد أعلاه- إلى السلالة القوقازية، كما أن هناك تشابهاً بين الشعبين في جوانب من الذهنية وفي بعض الصفات الأخلاقية، وهذا يعود بدوره إلى ما هو مشترك بين جغرافيا (الصحراء) وجغرافيا (الجبال).

إن الصحراء حاجز طبيعي هائل، وهي تفرض العزلة على من يعيش فيها، ولا سيّما سكان الداخل، وهذه العزلة الجغرافية هي بيئة خصبة لتشكّل خصائص سيكولوجية معيّنة، منها الاعتزاز المفرط بالنفس، وإباء الضيم، ورفض الخضوع لأية سلطة خارجية، إذ مع الخضوع لسلطة كهذه تتضاءل فرص الاعتزاز والإباء. والسلطة الوحيدة التي يعترف بها البدوي هي سلطة القبيلة، باعتبارها رابطاً إثنياً في الدرجة الأولى، وقد أورد الجاحظ الخبر الآتي:

"قيل لأعرابي: كيف تصنع في البادية إذا اشتدَّ القيظُ، وانتعل كلُّ شيء ظلَّه؟ قال: وهل العيشُ إلا ذاك؟! يمشي أحُدنا ميلاً، فيَرْفَضُّ[1] عرقاً، ثم يَنصِبُ عصاه، ويُلقي عليها كِساءه، ويجلس في فَيئه يكتال الرِّيح، فكأنَّه في إيوان كِسرى"[2].

إن هذا البدوي سعيد، رغم قسوة البيئة، وشدّة الحر، وشظف العيش، لأنه يعيش عزيز النفس، لا سلطة لأحد عليه" وهذا من أهم أسباب عدم قيام سلطة مركزية في قلب شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام، كما أنه السبب الرئيسي في تصدّي معظم العرب بكل ما أوتوا من قوة للعقيدة الإسلامية، لأنها تحمل في طياتها بذور سلطة مركزية، ولولا السيف لما دان العرب بالإسلام، ليس كرهاً منهم للتوحيد، وإنما نفوراً من الخضوع لسلطة مركزية خارجية غير سلطة القبيلة.

وقل الأمر نفسه بالنسبة إلى الكوردي، فالجبال حاجز طبيعي هائل، تنمّي في ساكنيها خصائص سيكولوجية معيّنة، منها الروح الفردية والاعتزاز المفرط بالنفس، وإباء الضيم، وتقبّل قسوة البيئة وشظف العيش، في سبيل ذلك. وإن الكوردي المتحصّن بالجبال، مكتفياً بالعيش في خيمة من الشعر، أو في كهف، أو في بيت متواضع، ومعتمداً في رزقه على الغنم أو الماعز، وعلى بعض الأعشاب والثمار، شبيه من حيث بعض خصائصه السيكولوجية وقيمه الأخلاقية، بذلك البدوي المتحصّن في أعماق البادية، مكتفياً في عيشه ببعض النوق والشياه وبالتمر.

وسنجد في حلقات قادمة أن (سيكولوجيا الجبال) كانت وراء صعوبة قيام دول مركزية في كردستان، وأن بعض الدول التي قامت فيها قبل الميلاد إنما كانت ذات طابع لا مركزي في الدرجة الأولى، وكانت في صيغة اتحاد قبائل (فيديراليات)، وأبرز مثال على ذلك هو الدولة الميدية، فقد أسسها الزعماء الميد الأوائل (دِياكو) وابنه (فُراوَرْتيس) في صيغة (اتحاد قبائل)، وبمجرد أن استبدّ آخر ملك ميدي (أستياگ) بالسلطة، وهمّش الزعماء الميد الآخرين- وكانوا ممثلين لقبائلهم- ثاروا عليه، ولم يترددوا في التعاون مع كورش الفارسي للقضاء على سلطة أستياگ، والتسبّب في سقوط دولة ميديا.

إن النموذج الذي سقناه بخصوص الشخصية العربية والشخصية الكوردية- من حيث أوجه الاختلاف والتشابه- له نظائر كثيرة جداً بين مختلف شعوب العالم. ولعل من المفيد- ونحن بصدد دراسة الشخصية الكوردية- أن نسلّط الضوء على (الكورد)، تُرى من هم؟

---

١ - يرفضّ: يتصبّب.

٢ - الجاحظ: رسائل الجاحظ، ٣٩٢/٢ - ٣٩٣.

٣

الكورد في عمق التاريخ

أسلاف الكورد في فجر الحضارة:

يسكن الكورد قلب منطقة غربي آسيا، وتمتد مواطنهم- بشكل متجاور في الغالب- من بحيرة أُورْمِيَه شرقاً إلى كُرد داغ (عفرين) غرباً، ومن جبال أرارات (آگـري) شمالاً إلى لُورستان ضمناً جنوباً، وتشكل أضخم السلاسل الجبلية في غربي آسيا (زاغروس، أرارات، طوروس) العمود الفقري لموطن الكورد، وإلى الآن يبدو، من خلال المكتشفات الأثرية والدراسات التاريخية، أن جبال زاغروس- وخاصة سفوحها الغربية- كانت الحاضنة الأولى للحضارة في غربي آسيا، ونستعرض فيما يلي بإيجاز بعض المعلومات في هذا المجال.

بدأ ظهور الإنسان في كردستان منذ العصر الحجري القديم (الباليوليثي)Paleolithic ، الذي ينتهي بحدود الألف (١٠ ق.م)، وظهرت آثاره في كثير من المواقع. واستمر وجوده في العصر الحجري الوسيط (الميزوليثي) Mesolithic، وهو يبدأ من حدود الألف (١٠ ق.م). وأيضاً في العصر الحجري الحديث (النيوليثي) Neolithic، وهو يبدأ في حدود الألف (٩ ق.م)، وفي العصر الحجري المعدني الذي شغل الفترة بين (٥٦٠٠ ق.م) وحتى استخدام الكتابة في أواسط الألف (٤ ق.م) تقريباً. وتعتبر بعض مناطق كردستان المركز الأساسي لتدجين الماعز والأغنام. ويعتبر موقع جَرمو Jarmo (قرب كركوك)، مثالاً جيداً للمستوطنات الفردية

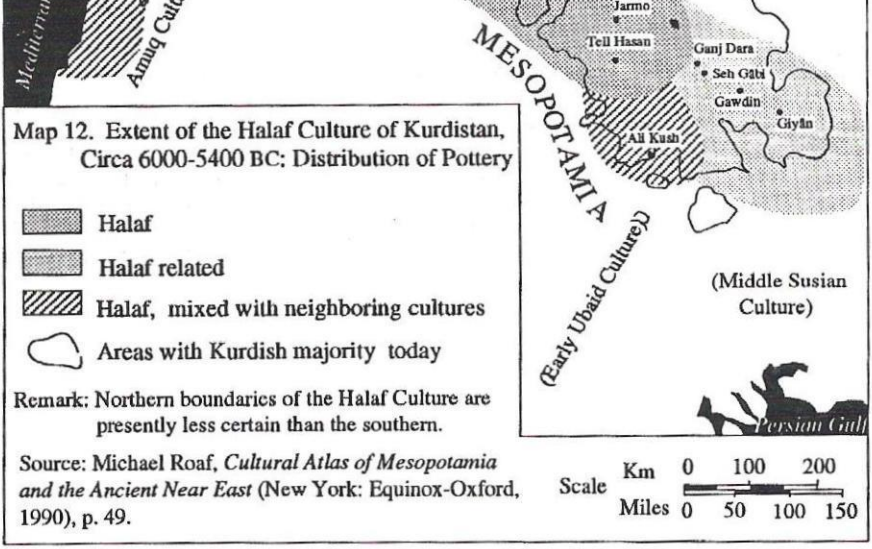

Map 12. Extent of the Halaf Culture of Kurdistan, Circa 6000-5400 BC: Distribution of Pottery

- Halaf
- Halaf related
- Halaf, mixed with neighboring cultures
- Areas with Kurdish majority today

Remark: Northern boundaries of the Halaf Culture are presently less certain than the southern.

Source: Michael Roaf, *Cultural Atlas of Mesopotamia and the Ancient Near East* (New York: Equinox-Oxford, 1990), p. 49.

المبـ
القـم
مرا
واسـ
في ا
كانـ
علـى
الطـب
وكا

أسلاف الكورد الزاغروسيون القدماء:

يرجع تاريخ السومريين Sumerian في جنوبي ميزوپوتاميا Mesopotamia (جنوبي بلاد ما بين النهرين) إلى حوالي (٤٠٠٠ ق.م)، وهناك أكثر من دليل على وجود صلة ما بينهم وبين أسلاف الكورد، وأبرز تلك الأدلة أن السومريين انحدروا إلى جنوبي ميزوپوتاميا من جبال زاغروس (جبال كردستان الجنوبية)، وأنه لا صلة إثنية لهم بالشعوب السامية القادمة من شبه الجزيرة العربية، وتتجلّى هوية السومريين الجبلية في حرصهم على بناء معابدهم على أماكن مرتفعة شبيهة بالجبل (زَقُورة) Zaqurato / Ziggurat، ورسم الأشجار الجبلية العالية، والحيوانات الجبلية كالوعل والماعز على الأختام الأسطوانية، والأرجح أنهم كانوا في الأصل من سكان حضارة حلف، ومع ذلك لن ندرج السومريين ضمن أسلاف الكورد، وسننتظر

---

١ - جمال رشيد أحمد: ظهور الكورد في التاريخ، ٤٠٢/١، ٤٠٨، ٤١٠، ٤١٥. بونغارد – ليفين: الجديد حول الشرق القديم، ص ٦٢. جين بوترو وآخرون: الشرق الأدنى الحضارات المبكرة، ص ٣٤. جيمس ميلارت: أقدم الحضارات في الشرق الأدنى، ص ٦١ – ٦٢.

٢ - عبد الحميد زايد: الشرق الخالد، ص ٢٧. جيمس ميلارت: أقدم الحضارات في الشرق الأدنى، ص ١٥٧، ١٦١، ١٦٣.

أن يصل الباحثون إلى رأي نهائي في هذا المجال، ونستعرض باختصار بعض المعلومات بشأن أسلاف الكورد الزاغروسيين.

١ – اللولو: شعب جبلي يسمّى لوللوبي Lullubi، ولوللومي، وكان يقيم في القسم الشمالي من مرتفعات زاغروس، ويكوّن جزءاً من مجموعة الشعوب التي سُمّيت Zagro-Elamite، وامتد موطنهم حتى بحيرة أُورميه، وربما إلى أبعد من ذلك شمالاً، كما أنهم كانوا يقطنون المناطق المحيطة بمدينة سليمانية، ويعود أقدم ذكر لهم في الكتابات المسمارية إلى أواخر القرن الثامن والعشرين ق.م، وقد غزا الأكّاديون بلادهم، وأقاموا مملكة قوية في نهاية الألف الثاني ق.م، وفي العصر الآشوري الوسيط (١٣٦٣ – ٩١٢ ق.م) خضعت معظم مناطق لوللو للنفوذ الآشوري، وفي القرن الثامن عشر ق.م طغت تسمية زامْوا Zamwaعلى تسمية لوللوبي، ومنذ القرن التاسع ق.م اختفى اسم اللولوبيين، وحل محله اسم زامْوا[١].

٢ - الگوتيون Guti: ظهر اسم گوتي (غوتي/ جوتي) في الألف الثالث والثاني ق.م، وكانت مواطن الگوتيين تقع في الجنوب والجنوب الغربي من مناطق اللوللوبيين، أي في المنطقة التي يخترقها نهرا ديالَه والعُظَيم، ثم انتشروا جنوباً، وشكّلت كركوك وأطرافها مركز بلادهم، وكان الأكّاديون يغزون بلادهم، ويبيعونهم في أسواق سومر. وقد أسقط الگوتيون الدولة الأكّادية سنة (٢٢٣٠ ق.م) حسب أرجح الروايات، واتخذوا أرّابخا (كركوك) عاصمة لهم، ودام الحكم الگوتي في جنوبي بلاد الرافدين حوالي (٩١) سنةً، وكانت حدّة الگوتيين وخشونتهم قد خفّت مع الزمن، واقتبسوا حضارة بلاد سومر وأكّاد، وحملوا منذ النصف الثاني من حكمهم الأسماء السامية، وكتبوا باللغة الأكّادية والخط المسماري، وعبدوا- إلى جانب أربابهم- بعض المعبودات السامية[٢].

٣ - سوبارتو Subartu: أصل كلمة (سوبارتو) سومري، وصيغته Suki، أي (أرض سو)، وإن مصطلح (سوبرتو) الجغرافي دخل التاريخ منذ الألف الثالث ق.م، باعتبارها بلاداً تقع بين شمالي عِيلام وجبال أمانوس المتاخمة للبحر الأبيض المتوسط غرباً، وفي عهد الملك

---

١ - عامر سليمان، وأحمد مالك الفِتْيان: محاضرات في التاريخ القديم، ص ١٠٢. عبد الحميد زايد: الشرق الخالد، ص ٥٦١ – ٥٦٢. دياكونوف: ميديا، ص ١٠٧، ١٠٨.

٢ - دياكونوف: ميديا، ص ١٠٩. جرنوت فيلهلم: الحوريون، ص ٣١، هامش ٢. جمال رشيد أحمد: ظهور الكورد في التاريخ، ٥٤٧/١. محمد بيّومي مهران: تاريخ العراق القديم، ص ١٣١.

الأكّادي نارام سِين Naram- sin (2291 – 2255 ق.م)، عُدّت مناطق الگـوتيين واللولوبيين من ضمن سوبارتو، وعُرفت أغلب المناطق الشمالية لوادي الرافدين في المصطلحات البابلية بـ (سوبارتو)، وإن سكانها- سواء أكانوا من الگـوتيين واللولو وغيرهم- شملهم اصطلاح (سوباريين)، ومن ثَمّ فإن (سوبارتو) اسم جغرافي يعني (الشماليين) أو (سكان المناطق العليا)، واستقروا في المنطقة ذاتها التي سكنها أسلاف الكورد منذ العصور الحجرية[1].

الجيل الثاني من أسلاف الكورد:

كانت جغرافيا التكوين للشعوب الآرية (الهندو أوربية) The Indo- Euroean تقع في جنوبي روسيا، ومنذ الألف الثالث ق.م، ونتيجة الصراعات، وربما لأسباب مُناخية أيضاً، انتشرت الآريون جنوباً باتجاه شبه القارة الهندية، وشهد القرن الثامن عشر ق.م هجرات آرية واسعة باتجاه الغرب، ونتناول فيما يلي الآريين الذي شكّلوا الجيل الثاني من أسلاف الكورد.

١ - **الكاشّيون :Kashshu** يسمّى الكاشّيون: (كاشّي، كيشّي، كوشّو، كاسّي، كاسّاي، كاسّيت)، ويُنسب اسمهم إلى إلههم (كاش/كاشّو)، ويعني (السيّد)، ويرجع أصل الكاشّيين إلى اندماج أقوام زاغروس القدماء بأقوام آرية وافدة، تولّت القيادة والحكم، وكانت مواطن الكاشّيين تقع في الجزء الأوسط من جبال زاغروس، والمعروفة باسم (لُورستان) Luristan. والكاشّيون أول من أدخل الخيول إلى بلاد بابل، واستخدم العربات التي تجرها الخيول في أيام السلم والحرب. وتغلغل الكاشّيون في بلاد بابل، وسيطروا عليها بقيادة ملكهم أگـوم (آغوم) الثاني حوالي سنة (١٥٣١ ق.م)، واتخذوا مدينة بابل عاصمة لهم، وأطلقوا على بلاد بابل اسم (كارْدُونياش)" أي (بلد الرب دُونياش)[2].

١- جمال رشيد أحمد: ظهور الكورد في التاريخ، ٤٢٩/١ – ٤٣٧. سامي سعيد الأحمد: السومريون وتراثهم الحضاري، ص ٤. محمد بَيّومي مهران: تاريخ العراق القديم، ص ١٤٢، ٢١٨، ٢٢٦. عبد الحميد زايد: الشرق الخالد، ص ٨١.

٢ - أرشاك سافراستيان: الكرد وكردستان، ص ٤١. أحمد فخري: دراسات في تاريخ الشرق القديم، ص ٢٠٣، ٢٠٥. جين بوترو وآخرون: الشرق الأدنى الحضارات المبكّرة، ص ١٧٣، ٢١٢. جرنوت فيلهلم: الحوريون، ص ٥٦. عبد الحميد زايد: الشرق الخالد، ص ٥٧١.

ومارس الملوك الكاشّيون سياسة اللين تجاه سكان بابل، وحرصوا على سياسة التعايش السلمي مع البلدان المجاورة، وتجنّب الصراعات المسلّحة، وخاصة مع بلاد آشور المجاورة، كما أنهم أقاموا علاقات وطيدة مع فراعنة مصر وحكام سوريا، فكانت فترة حكمهم في بلاد الرافدين فترة هدوء نسبي، واغتنم ملوك آشور فرصة نشوب النزاعات على السلطة في البلاط الكاشّي، ولّما دبّ الضعف في مملكة كاشّو هاجمها العيلاميون واحتلوا العاصمة، وذبحوا الملك الكاشّي (زاباب – شوما – أدينا)، ثم انسحبوا، وكان آخر ملوك الكاشّيين هو (أنليل- نادين- أهى) Enlil- Nadin- Ahhe (1159 – 1157 ق.م)، وفي النهاية صارت مملكة كاشّو جزءاً من مملكة آشور. وقد استمرت المملكة الكاشّية حوالي ستة قرون، أما حكمهم في بلاد بابل فاستمر لا أقل من أربعة قرون[1].

٢ - الحوريون :Hurrites هذا هو الاسم الشائع للحوريين، أما اللفظ الصحيح له فهو (خُورّي)، ولهذا الاسم صلة بكلمة (خُرَدي) في النصوص الحورية، والحوريون- كالكاشّيين- يتألفون في الأصل من أقوام زاغروس القدماء، وامتزجت بهم عناصر آرية، وتشكّل تكوين جديد عُرف بهذا الاسم، وقد قدموا من المرتفعات الواقعة شمال شرقي الهلال الخصيب، بين بحيرة أُورميه وجبال زاغروس، وكانوا يقيمون هناك منذ الألف الثالث ق.م، ودخلوا في أواخر القرن (١٣ ق.م)، شمالي بلاد الرافدين وشمالي سوريا، وأسسوا مملكة قوية هناك[2].

وسكن الحوريون المناطق الشرقية على نهر الزاب الأسفل، ووصلت مناطق انتشارهم إلى وان شمالاً، وإلى آسيا الصغرى، وكانت مدينة (أوركيش) Urkish (في منطقة الخابور) مركز مملكتهم في أواخر الألف الثالث ق.م. ووصل الانتشار الحوري إلى شمالي سوريا منذ سنة

---

١ - محمد بَيُّومي مَهران: تاريخ العراق القديم، ص ٣٠٥ – ٣٠٦، ٣٠٧. سامي سعيد الأحمد: السومريون وتراثهم الحضاري، ص ٥. جمال رشيد أحمد: ظهور الكورد في التاريخ، ٦٠٠/١. عبد الحميد زايد: الشرق الخالد، ص ٥٥٠.

٢ - جرنوت فيلهلم: الحوريون، ص ١٧، ٢٤، ٢٩. جمال رشيد أحمد: ظهور الكورد في التاريخ، ٦٠١/١. عبد الحميد زايد: الشرق الخالد، ص ٣٧٣، ٥٦١.

(٢٢٠٠ ق.م)، وامتد إلى سوريا الداخلية وخاصة حول نهر العاصي (أُورِنْت) في ألالاخ (تل عَطْشانة)، وإلى مناطق من فلسطين وجبال سَعير في جنوبي الأردن[١].

واللغة الحورية إلصاقية، كالكوردية الحالية، وكانت الثقافة الحورية الزاغروسية الآرية الجذور تنتقل معهم حيثما ارتحلوا وحلّوا، وذكر جرنوت فيلهلم أن الحوريين جلبوا معهم التقاليد الدينية الموروثة **"من أقدم مواطنهم المعروفة لدينا في كردستان"**. ومن أبرز آلهتهم الإله (تِشّوب) Teššup إله الطقس. وللحوريين بصمات حضارية كثيرة في غربي آسيا، وخاصة في مجال الدين واستخدام المركبات الحربية. ولخّص **رينيه لابات** الدور الحضاري الحوري بقوله إن الحوريين ربطوا على صهوة جيادهم بين آشور وأرمينيا والأناضول وسوريا العليا برباط إثني وثقافي[٢].

٣ - الميتّانيون Mittani: يتفق الباحثون على أن الميتّانيين فرع من الحوريين، ومع استلامهم دفة القيادة في الوطن الحوري صار الطابع الآري- سياسياً وثقافياً- أكثر وضوحاً في المجتمع الحوري. وهيمن الميتّانيون على مقاليد الأمور في المملكة الحورية منذ منتصف الألف الثاني ق.م، واتخذوا مدينة آشوكاني (واشوكاني/ وشّوكّانّي) Washukkanni عاصمة لهم، وهي تعني بالكوردية (النبع الجميلة) أو (نبع الطاحونة)، وسُمّيت في العهد الآشوري (سِيكاني)، وتعني بالكوردية (الينابيع الثلاثون)، ويجزم **جرنوت فيلهلم** أن مكان تلك العاصمة يقع الآن في تل فخارية (تل فخيرية). وقد بسط الميتّانيون سيطرتهم نحو الشرق باتجاه آشور (كانت تسمّى سُوبارْتو) ونحو مناطق شرقي دجلة حتى جبال زاغروس، ومنطقة أرّابخا (كركوك حالياً)، ونحو الشمال في المنطقة التي سُمّيت بعد ذلك أرمينيا، وفي الغرب مدّوا نفوذهم إلى سوريا حتى البحر الأبيض المتوسط[٣].

وقد اتّسعت مناطق نفوذ مملكة ميتّاني نحو الغرب حوالي (١٤٧٠ ق.م)، وشملت مملكة حلب، كما استطاعت مملكة ميتّاني أن تُخضع لحكمها دويلات وممالك صغيرة في الغرب، منها

---

١ - سِفْر التَّثْنِيَة، الأصحاح ٢، الآية ١٢. جرنوت فيلهلم: الحوريون، ص ١٠٧. جين بوترو وآخرون: الشرق الأدنى الحضارات المبكرة، ص ٢٠٠. بونغارد – ليفين: الجديد حول الشرق القديم، ص ١٦٢.

٢ - جرنوت فيلهلم: الحوريون، ص ٩٨، ١٠٠، ١٠١، ١٢٣. فاضل عبد الواحد علي: من سومر إلى التوراة، ص ١٥٤. عبد الحميد زايد: الشرق الخالد، ص ٤٧٣. رينيه لابات وآخرون: سلسلة الأساطير السورية، ص ٨.

٣ - جرنوت فيلهلم: الحوريون، ص ٦٢. عبد الحميد زايد: الشرق الخالد، ص ٤٧٧. محمد بَيُّومي مَهران: تاريخ العراق القديم، ص ٣٤٣ – ٣٤٤. جمال رشيد: ظهور الكورد في التاريخ، ٢٤١/٢، ٢٤٣.

مملكة موكيش (ألالاخ) التي كانت حدودها تبلغ شواطئ البحر الأبيض المتوسط، وكان للخيول والمركبات الحربية دور مهم في القوة القتالية الميتّانية، ودخل الميتّانيون في صراعات ضد الآشوريين في الشرق، وضد الحثّيين في الشمال الغربي، وضد المصريين في الجنوب، ثم أقام ملوك ميتّاني وفراعنة مصر علاقات تحالف ومصاهرة بين المملكتين، وتزوّج بعض فراعنة مصر من أميرات ميتّانيات، منهن الأميرة جيلو-خپا، والأميرة تادو- خپا[1].

وكعادة أسلاف الكورد انشغل ملوك ميتّانيا بالترف والتناحرات الداخلية، وكان الحثّيون يتربّصون بهم من الشمال الغربي، والآشوريون من الشرق، وهاجم الملك الحثّي شوپيلوليوماش حوالي (١٣٩٠- ١٣٥٠ ق.م) الحدود الشمالية الغربية لبلاد ميتّاني، واحتل العاصمة واشوكاني. وفي الفترة نفسها استغل الآشوريون ضعف دولة ميتّانيا، فتحرروا منها، وخرّبوا العاصمة واشوكاني حوالي سنة (١٣٠٠ ق.م)، وحوالي سنة (١٢٧٥ ق.م) احتل الملك الآشوري شلمانصّر الأول مملكة ميتّانيا التي كانت قد تقلّصت جداً، وسمّاها الآشوريون (خانيگالبات/هانيجلبات)، واختفت مملكة ميتّانيا في غياهب التاريخ[2].

الجيل الثالث من أسلاف الكورد:

١ - مانناي Mannea: مانناي فرع آخر من أسلاف الكورد، ظهر منذ بداية الألف الأول ق.م في جنوبي بحيرة أُورْمِيَه، وذُكر هذا الفرع لأول مرة في النصوص الآشورية سنة (٨٤٣ ق.م) باسم (مانناي)، وهم أقرباء اللوللوبيين، واختلطوا بالحوريين، وكانت عاصمتهم هي إزيرتا Isirta، على بعد (٥٠) كم شرقي مدينة سَقِز. وبدأ العصر الذهبي لشعب مانناي منذ سنة (٧١٤ ق.م)" إذ ضمّوا الأراضي الواقعة على نهر آراس (الرَّس) شمالي بحيرة أورميه، ووصل نفوذهم في الغرب إلى نهر الزاب الكبير (الأعلى)، وهذا يعني أن دولة مانناي ضمّت أغلب

---

١ - جرنوت فيلهلم: الحوريون، ص ٥٠، ٥٩، ٦٤، ٨٧. جين بوترو وآخرون: الشرق الأدنى الحضارات المبكّرة، ص ٢٠١. جمال رشيد أحمد: ظهر الكورد في التاريخ، ٢٥٥/٢. عبد الحميد زايد: الشرق الخالد، ص ٤٧٨-٤٧٩.

٢ - وليام لانجر: موسوعة تاريخ العالم، ٦٢/١، ٦٣، ٨٣. عبد الحميد زايد: الشرق الخالد، ص ٤٨٥. جمال رشيد: ظهور الكرد في التاريخ، ٢٤٧/٢.

المناطق الكوردية في شمال غربي إيران حالياً، إضافة إلى قسم من المناطق الكوردية في جنوبي كردستان[1].

وقد تعرّضت مملكة مانناي للغزو من قِبل ملوك آشور وملوك خلدي (أورارتو)، وكانت كل واحدة منهما تسعى إلى السيطرة عليها، بسبب أهميتها في مجال التجارة والزراعة والتعدين، وفي مرحلة من مراحل الصراع عقد ملك مانناي آزا بن إيرانْزو معاهدة تحالف مع الملك الآشوري سَرْجون الثاني 705 – 722) Sargon11 ق.م)، غير أن شعب مانناي ثار عليه، وقتله الثائرون، فقضى سرجون الثاني على الثورة، وفرض التبعية على مملكة مانناي، وكانت ثمة قرابة إثنية وثقافية بين مانناي وميديا، وحينما تأسست مملكة ميديا أصبحت مانناي جزءاً منها بين سنتي (٥٩٠ – ٥٨٠ ق.م)[2].

وقد اشتهرت دولة مانناي بزراعة الحبوب، وبالمراعي وتربية الحيوانات بما فيها الخيول، ويبدو من خلال المكتشفات الذهبية والفضية والنحاسية والحديدية، في جنوبي بحيرة أورميه، أن صناعة المعادن في مدن مانناي كانت متقدمة، وتشير فنون هذه الصناعة إلى المستوى الرفيع لثقافة الطبقة الأرستقراطية، وهي تضاهي أحياناً الفنون الأورارتية والآشورية، وكان لنخب مانناي دور مهم في الازدهار الحضاري، وكان كل واحد منهم يحمل لقب (هازانو)، ويعني هذا اللقب (مختار الجماعة) أو (عمدة الجماعة)، وكان هؤلاء الـ (هازانو) يشتركون في إدارة دولة مانناي، ويُكلَّفون بالمهمّات والأعمال الهامة من قِبل اتحاد الأقوام المنضوية تحت لواء دولة مانناي، وكان يُنظَر إليهم بقدر كبير من الاهتمام[3].

٢- خَلْدي Khaldi (أورارتو): خَلْدي (خالْدي/ خالْتي) سلالة زاغروسية انحدرت من الحوريين (الخورّيين)، وعاشت خلال الألف الثالث ق.م أو قبله في المنطقة التي سمّيت بعدئذ كردستان، وأطلق الآشوريون اسم (نائيري) îNaîr على بعض أجزاء بلاد خَلْدي، وهي المنطقة

---

١ - جمال رشيد أحمد: ظهور الكورد في التاريخ، ٤٨٤/١، هامش ٨٩. عبد الحميد زايد: الشرق الخالد، ص ٥٦٢، ٥٧٨.

٢ - جمال رشيد أحمد: ظهور الكورد في التاريخ، ٤٨٨/١ ٤٨٩، ٤٩١ – ٤٩٣. عبد الحميد زايد: الشرق الخالد، ص ٥٦٢- ٥٦٣، ٥٧٨. دياكونوف: ميديا، ص ١٩٧، ١٩٩.

٣ - جمال رشيد أحمد: ظهور الكورد في التاريخ، ٤٩٤/١. دياكونوف: ميديا، ص ١٦٩.

الكوردية التي تسمّى (شَمْدِينان) في كردستان المركزية، وقد دار صراع طويل ومرير بين مملكتي آشور وخلدي، فالآشوريون كانوا ضد ظهور أية قوة سياسية منافسة لهم[1].

ويمكن تقسيم فترة الصراع الآشوري- الخلدي إلى مرحلتين: المرحلة الأولى بين سنتي (١٢٧٥ – ٨٤٠ ق.م)، وكانت بلاد خلدي مقسمة حينذاك إلى إمارات عديدة، فكان من السهل على مملكة آشور السيطرة عليها. وفي المرحلة الثانية بين سنتي (٨٤٠ – ٦١٢ ق.م) اختلف الأمر، إذ وحّد الملك الخلدي **سَرْدور الأول** بلاد خلدي، ومنذ ذلك الحين تمكن الخلديون من صد الهجمات الآشورية، وإلحاق الهزائم بها، وأخذت الخلديين تتصاعد، وانتزعوا المقاطعات الآشورية الشمالية الممتدة من شمالي سوريا غرباً إلى نهر آراس شرقاً من أيدي الآشوريين، ثم استعادت مملكة آشور قوتها، وخاصة في عهد الملك آشور بانيپالAshurbanipal سنة (٦٦٨ ق.م- ٦٢٦ ق.م)، وأعادوا غزو بلاد خلدي، وفرض التبعية عليها، ولما أسقط إمبراطورية آشور سنة (٦١٢ ق.م)، ألحقوا مملكة خلدي بالإمبراطورية الميدية[2].

وفي المجال الحضاري اقتبس الخلديون بعض مظاهر الحياة السياسية والعسكرية وفن الكتابة وحفظ الوثائق من الآشوريين، وأبدعوا منجزات حضارية في أعمال البناء، والأعمال الهيدروليكية بوجه خاص، ومنها حفر قناة الملك مِينَوا للريّ، وكانت مياهها تُستمَد من الينابيع الواقعة على حافة بحيرة وان، وتروي مساحة بطول (٤٦ ميلاً = حوالي ٧٥ كم). وحقق الخلديون تقدماً مهماً في الفنون الصناعية، وخاصة في صناعة المعادن، نظراً لتوافر المواد الخام المحلية، كالحديد والنحاس والذهب والرصاص والقصدير وغيرها[3].

٣ - الميديون Medes: بدأ قدوم الميديين إلى كردستان منذ حوالي سنة (١١٠٠ ق.م)، وكانوا يتألفون من اتحاد ست قبائل، سمّاها دياكونوف: Boussi, Paretaknoi, Strouknates, Arizantoi Boudloi, Magoi، وسمّاها هيرودوت (بوسّي، وباريتاسيين،

---

١ - جمال رشيد أحمد: ظهور الكورد في التاريخ، ١٣١/٢ – ١٣٤.

٢ - وليام لانجر: موسوعة تاريخ العالم، ٨٨/١. جرنوت فيلهلم: الحوريون، ص ٧٩ – ٨٢. جمال رشيد أحمد: ظهور الكورد في التاريخ، ١٢٣/٢، ١٢٥، ١٢٧، ١٢٨، ١٣٥. محمد بَيُّومي مَهران: تاريخ العراق القديم، ص ٣٧٢، ٤١٩.

٣ - وليام لانجر: موسوعة تاريخ العالم،٨٧/١. جمال رشيد أحمد: ظهور الكورد في التاريخ، ١٢٢/٢، ١٣١، ١٣٩، ١٦٣- ١٦٤. بونغارد – ليفين: الجديد حول الشرق القديم، ص ٥٣٢.

وستروكاتي، وأريزانتي، وبودي، وماجي)، وكانت اللغة الميدية مشتركة بين بطون هذا الاتحاد القبلي، ويستفاد مما ذكره أرشاك سافراستيان أن ميديا هي امتداد جغرافي وتاريخي وثقافي لگوتيوم، باعتبار أن الگوتيين والميد سكنوا المنطقة ذاتها[1].

وخاض الميد صراعاً طويلاً ضد إمبراطورية آشور، ووحّد الزعيم **دَياكو** Daiku (حكم بين ٧٢٧ – ٦٧٥ ق.م) الميديين تحت راية مملكة واحدة، وسنّ القوانين وأصدر المراسيم، واتخذ مدينة **أكباتانا** (آمدان/هَمَذان) عاصمة للمملكة، وخاض الصراع ضد مملكة آشور، لكنه أُسر سنة (٧١٥ ق.م)، واستكمل ابنه **فراورتيس** Phraortes (حكم بين سنتي ٦٧٤ - ٦٥٣ ق.م) الصراع ضد آشور، وهاجم العاصمة الآشورية نِينَوَى، لكن السكيث الذين كانوا قد تحالفوا مع الآشوريين هاجموه من الخلف، فباء هجومه بالفشل، وقُتل في المعركة، واحتل السكيث ميديا (٢٨) سنة، بين سنتي (٦٥٣ - ٦٢٥ ق.م)[2].

وبعد مقتل فراورت قاد ابنه **كَيْ أخسار** Cyaxares (**كَيْخُسْرُو** kai-Khosru الصراع ضد آشور، وقد حكم بين سنتي (٦٣٣ – ٥٨٤ ق.م)، وهو أعظم ملوك ميديا، وكان قائداً محنّكاً، ورجل دولة حازماً، حرر ميديا من السكيث، وفرض سيطرته على بلاد فارس من جديد، وأسكن القبائل الرحّالة، ونظّم شؤونهم، وسنّ القوانين، ونظّم الجيش على أسس حديثة، وعقد تحالفاً مع الملك البابلي نبوپولاصر Nabopolassar، وهاجم مملكة آشور سنة (٦١٥ ق.م)، وأسقطها مع الحليف البابلي سنة (٦١٢ ق.م).

وبعد وفاة **كَيْ أخسار** سنة (٥٨٥ ق.م) خلفه على العرش ابنه **أَسْتِياگ** Astuages، وبسبب كثرة الثراء انغمس المجتمع الميدي في الترف والبذخ، وظهرت التناقضات الداخلية، وأدّت سياسات أستياگ غير الرصينة إلى خسارة التحالف مع بابل غرباً، وإثارة نقمة تابعه ملك أرمينيا شمالاً، فانتهز ملك فارس **كُورْش الثاني** بن قمبيز الأول (أمه **ماندانا** ابنة

---

١ - دياكونوف: ميديا، ص ١٤٣، ١٤٦. هيرودوت: تاريخ هيرودوت، ص ٨٠. أرشاك سافراستيان: الكرد وكردستان، ص ٣٢. ديلابورت: بلاد ما بين النهرين، ص ٣٠٨.

٢ - دياكونوف: ميديا، ص ٢٨، ١٤٣، ١٤٦. ديلابورت: بلاد ما بين النهرين، ص ٣٠٨. ول ديورانت: قصة الحضارة، ٢/٤٠٠. طه باقر وآخران: تاريخ إيران القديم، ص ٣٩ - ٤٠. Mehrdad Izady: The Kurds, p. 32 .

أستياگ)، الفرصة، وتحالف مع **نابُونيد** ملك بابل ومع **يَرْوانْت** حاكم أرمينيا، وسيطر على مملكة ميديا سنة (٥٥٠ ق.م). ومنذ ذلك الحين صارت تابعة لإمبراطورية الأخمين الفارسية[١].

التكوين الكوردي عبر التاريخ:

---

١ - طه باقر وآخران: تاريخ إيران القديم، ص ٤٠. ول ديورانت: قصة الحضارة، ٢/٤٠٠، ٤٠٢، Mehrdad Izady: The Kurds, p.33.٤١٠ . مروان المدوّر: الأرمن عبر التاريخ، ص ١١٩. هيرودوت: تاريخ هيرودوت، ص ٩٦، ٢٥٩. أنطون مورتكارت: تاريخ الشرق الأدنى القديم، ص ٣٥٠، ٣٦٧.

نخلص مما سبق إلى ما يلي:

١. وجود أسلاف الكورد زمانياً في غربي آسيا يمتد إلى أكثر من عشرة آلاف سنة، ووجودهم الجغرافي عريق أيضاً، وهم لم يغتصبوا البلاد التي أقاموا فيها من شعب آخر، وهي مثلث يشكّل جبل آرارات (على تخوم القوقاز) رأسه في الشمال، وجبال زاغروس ضلعه الجنوبي الشرقي، وجبال طوروس ضلعه الشمالي الغربي، وتشكّل التخوم الشرقية لبلاد ما بين النهرين (ميزوپوتاميا) قاعدته في الجنوب الغربي، وهي جغرافيا جبلية في الغالب.

٢. التكوين الكوردي نتاج الاندماج- عرقياً وثقافياً وسياسياً واجتماعياً- بين أقوام زاغروس القدماء والأقوام الآرية الوافدة خلال الهجرات الكبرى التي شهدها العالم القديم، وقد مر التكوين الكوردي بالمراحل ذاتها التي مرت بها شعوب العالم، فكان على شكل جماعات في العصور الحجرية، ثم صارت الجماعات قبائل، ثم توحّدت القبائل وتجانست ثقافياً واجتماعياً وسياسياً واقتصادياً، وانتقلت إلى مرحلة تكوين (قوم/شعب/أمة) عُرف منذ ما قبل الميلاد باسم (كُرْد)[١].

٣. منذ سقوط مملكة ميديا سنة (٥٥٠ ق.م)، وإلى يومنا هذا، ظلت كردستان مأهولة بالسكان، وفي كردستان دار الصراع بين الغزاة، بدءاً من الصراع بين الأخمين واليونان، ومروراً بالصراع بين البارثيين والسلوقيين، وبين البارثيين والرومان، ثم بين الرومان والأرمن، ثم بين الساسانيين والبيزنطيين، ثم بين الساسانيين والعرب المسلمين[٢].

٤. حوالي منتصف القرن السابع الميلادي وصل العرب المسلمون إلى كردستان، وأزاحوا النفوذ الفارسي الساساني، وحلّوا محلّهم، وكانوا أيضاً طبقة حاكمة، يستعينون في الغالب بولاة من الكورد لتسيير الأمور الإدارية، وكان الفاتحون الأوائل يستقدمون بعض القبائل العربية، لترعى قطعانها في المناطق المفتوحة على تخوم شبه الجزيرة العربية، ووصلت فروع بعض القبائل إلى شمال غربي بلاد ما بين النهرين، ومن ضمنها أجزاء من كردستان.

---

١ - يُنظَر تعريف: العرق والقوم والشعب والأمة، في المبحث الثاني من هذه الدراسة.

٢ - ول ديورانت: قصة الحضارة، ٤٢٢/٢. وليام لانجر: موسوعة تاريخ العالم، ٢١٦/١. أحمد عادل كمال: الطريق إلى المدائن، ص ١٠٤ – ١٠٥. عبد الحكيم الذنّون: الذاكرة الأولى، ص ١٥١.

٥. تعرّضت كردستان، في سنة (٤٢٩ هـ/١٠٣٧ م) لغزو طائفة من التركمان الغُز (أُوغُوز)، لكن القبائل الكوردية وحّدت صفوفها، وألحقت بهم هزيمة ساحقة، ولم يتمكّنوا من الاستقرار في كردستان. ثم جاء دور التركمان السلاجقة، فغزوا غربي آسيا، بما فيها كردستان، وبعد أن دخلوا بغداد سنة (٤٤٧ هـ/١٠٥٥ م) توغّلوا في شمالي كردستان، وأخضعوا الدولة المَرْوانية (الدُّوْستِكِية) الكوردية لنفوذهم سنة (٤٤٩ هـ)، ثم قضوا عليها سنة (٤٧٨ هـ/١٠٨٦ م)، ومع ذلك لم يستقروا في كردستان، وإنما اتخذوها معبراً إلى آسيا الصغرى (غربي تركيا حالياً)[١].

٦. بين سنتي (٦٢٥ – ٦٢٨ هـ) تعرضت كردستان- وخاصة المناطق الشرقية الشمالية- للغزو الخُوارِزْمي بقيادة السلطان جلال الدين خُوارِزْمي، وكان هارباً أمام الزحف المغولي، لكنه قُتل فيها على يد أحد الكورد، وتشتّت جنوده. ثم تعرّض جنوبي كردستان للغزو المغولي حوالي سنة (٦٥٥ هـ)، واتخذها المغول معبراً وقاعدة انطلاق نحو عاصمة الخلافة بغداد، من ناحية، ونحو سوريا من ناحية أخرى، وفي الحالين قاومهم الكورد، ولم يستقروا في كردستان[٢].

٧. بعد الغزو المغولي صارت كردستان عرضة للغزو التَّتَري بقيادة تِيمُورلِنْگ بين سنتي (٧٩٦ – ٨٠٥ هـ)، واتخذها التَّتَر معبراً للهجوم على العثمانيين في آسيا الصغرى، ولم يستقروا في كردستان، كما أن كردستان كانت ساحة قتال بين الجيوش العثمانية والصَّفَوية، منذ حوالي سنة (١٥٠٦ م)، إلى سنة (١٦٣٩ م)، وهي السنة التي تقاسمت فيها الدولتان كردستان بموجب (معاهدة تنظيم الحدود)[٣].

٨. أطلق السومريون على أسلاف الكورد اسم Kur- tu أو Kur-du، ويعني بالسومرية (الجبلي، الجبليون)، وسمّاهم الآشوريون شعب QÛrtî، و KÛr-ti-i أو --i QÛr

---

١ - أحمد كمال الدين حلمي: السلاجقة، ص ٢٥. الأصفهاني: تاريخ دولة آل سلجوق، ص ١٤ - ١٥. ابن أبي الهيجاء: تاريخ ابن أبي الهيجاء، ص ١٠٤. الفارِقي: تاريخ الفارِقي، ص ٢٣٦.

٢ - الهمذاني: جامع التواريخ، ٢٨١/١ – ٢٨٣، ٢٩٠، ٣٢٠. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ٤٨١/١٢ – ٥٠٠.

٣ - ابن عربشاه: عجائب المقدور في نوائب تيمور، ص ٧٣ – ٧٦، ١٢٤، ١٢٨، ٣٩٨. عبّاس إسماعيل صبّاغ: تاريخ العلاقات العثمانية - الإيرانية، ص ٤٦ -٤٧. يلماز أوزتونا: تاريخ الدولة العثمانية، ٢١٩/١. منذر الموصلي: عرب وأكراد، ص ١٧٩، ١٩٦، ٢٠٢.

di، وجاء في الكتابات العيلامية بصيغة (كُورْتاش) Kurtash. وسماهم الآراميون باسم (كارْدو- كارْداكا- كارْدان- كارْداك). وسمّاهم اليونان والرومان (كارْدُوسُوي- كارْدُوخي- كارْدُوك- كُرْدُوكي- كارْدُوكاي). واسمهم بالفارسية: (كُرْد- كُرْدها). وبالتركية (كُورْت- كُورْتلَر) KÜrt. KÜrtler . وعند الأرمن (كُوردُوئين- كُورجِيخ- كُورتِيخ- كُورْخي). وعند السُّريان (قُورْدَنايه) ومفردها (قُورْدايه)[1].

٩. توحّدت الصيغ المتعددة لاسم أسلاف الكورد في صيغة (كُرْد) Kord وجمعها (كُرْدان) Kordan، وشاعت هذه الصيغة في النصف الأخير من العهد البارثي (٢٥٠ ق.م تقريباً- ٢٢٦ م)، وانتقلت الصيغة الأخيرة (كُرْد، كُرْدان) إلى العهد الساساني (٢٢٦ — ٦٥١ م)، ولما حلّ العرب المسلمون محل الساسانيين في حكم بلاد الكورد انتقلت صيغة (كُرد) إلى العهد العربي الإسلامي، وكذلك صيغة (كُرْدان) بعد أن عُرّبت إلى صيغة الجمع (أَكْراد) على وزن (أَعْراب)، باعتبار أن الكورد كانوا قد زُحزحوا عن مركز حركة الحضارة في غربي آسيا إلى هامشها، وتحوّلوا، بتأثير سياسات الإقصاء الفارسية إلى بداة وريفيين[2].

---

١ - بعض هذه الأسماء ورد في المراجع التالية: باسيلي نيكيتين: الكرد، ص ٤٥، هامش (٣). ديـاكونوف: ميديا، ص ٨٣، ٣٠٥ — ٣١١. جمال رشيد أحمد: ظهور الكورد في التاريخ، ٢٢٧/١- ٢٢٩، ٥٨/٢.

٢ - الطبري: تاريخ الطبري، ٣٩/٢.

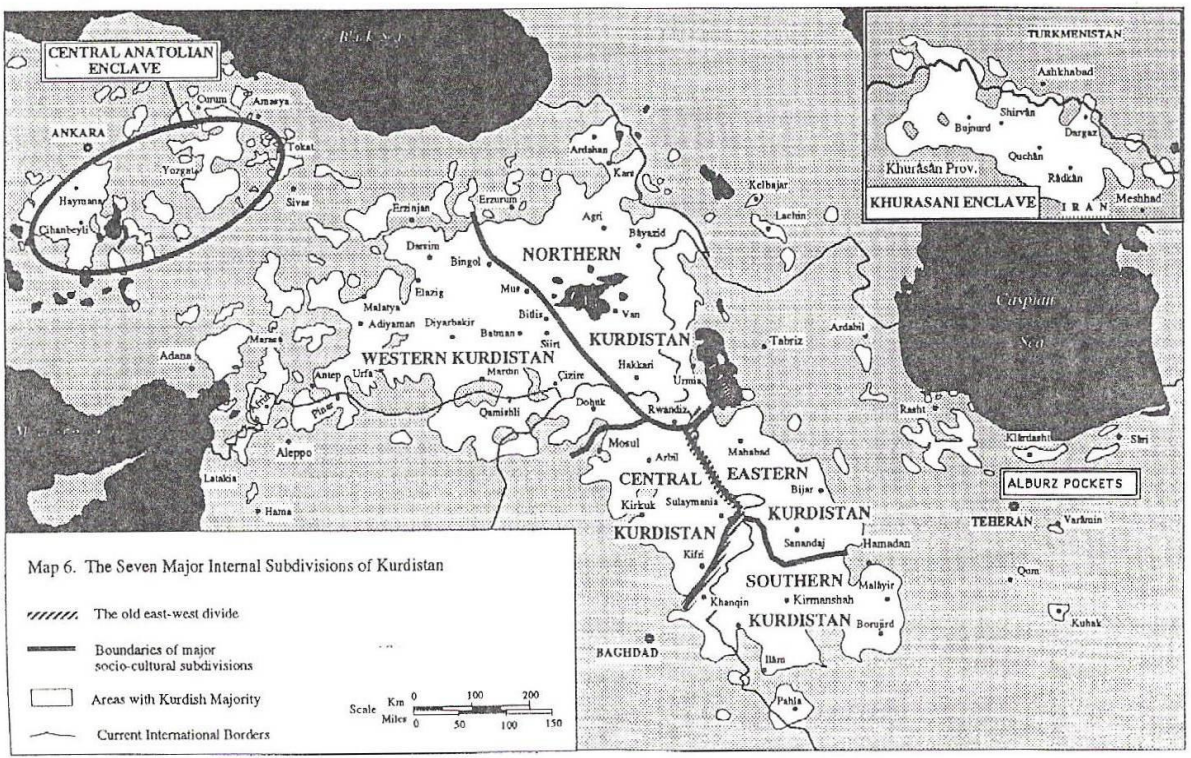
CENTRAL ANATOLIAN ENCLAVE
ANKARA
Çorum
Amasya
Tokat
Yozgat
Sivas
Haymana
Çhanbeyli
Erzincan
Erzurum
Ardahan
Kars
Agri
Bayazid
Kelbajar
Lachin
Darvim
Bingol
NORTHERN KURDISTAN
Mus
Van
Elazig
Malatya
Adiyaman
Diyarbakir
Bidis
Batman
Siirt
Hakkari
Urmia
Tabriz
Ardabil
Caspian Sea
Rasht
Kirmanshah
Sirr
ALBURZ POCKETS
TEHERAN
Varkuin
Qom
Kuhak
Marash
Adana
WESTERN KURDISTAN
Antep
Urfa
Mardin
Gizire
Qamishli
Dohuk
Rwandiz
Mosul
Arbil
Mahabad
Aleppo
Latakia
Hama
CENTRAL KURDISTAN
Kirkuk
Sulaymania
EASTERN KURDISTAN
Bijar
Sanandaj
Hamadan
Kifri
SOUTHERN KURDISTAN
Khanqin
Mallhyir
Boruird
BAGHDAD
Ilam
Pahla
TURKMENISTAN
Ashkhabad
Shirvan
Bujnurd
Dargaz
Quchan
Khurasan Prov.
Radkan
KHURASANI ENCLAVE
IRAN
Meshhad
Map 6. The Seven Major Internal Subdivisions of Kurdistan
The old east-west divide
Boundaries of major socio-cultural subdivisions
Areas with Kurdish Majority
Current International Borders
Scale Km 0 100 200
Miles 0 50 100 150

٤
أنثروپولوجيا الكورد

مدخل – أسس الشخصية:

الشخصية- سواء أكانت شخصية فرد أم شخصية شعب- أشبه بجبل الجليد، يظهر ربعه للعيان، ويختفي ثلاثة أرباعه في أعماق المحيط، وقد لخّصنا- في المبحث الثاني من هذه الدراسة- تعريف (شخصية الشعب) بأنها **" السمات العامة التي يُعرف بها شعبٌ ما، من حيث الصفات الجسدية، والمزاج، والذهنية، والثقافة، وأنماط السلوك في المواقف المختلفة "**. وثمة أربعة أسس (مقوّمات) لشخصيات الشعوب، هي:

١ – **الأساس الأنثروپولوجي** Anthropology: يتمثّل في محورين: الأول هو الخصائص السلالية الدائرة في فلك الإثنولوجيا Ethnology (علم أجناس البشر). والثاني هو المعطيات الدائرة في فلك الإثنوغرافيا Ethnography (علم وصف الشعوب).

٢ – **الأساس البيئي (الإيكولوجي (Ecology:** يتمثّل في خصائص جغرافيا التكوين التي نشأت الجماعة (قوم/ شعب/ أمة) في أحضانها، منذ بدايات فجر وجودها، وتأثير تلك الجغرافيا في بناء الشخصية على الصعيد البيولوجي والإثنوغرافي والمعرفي والنفساني والاجتماعي.

٣ – **الأساس الثقافي:** يتمثّل في المنظومة المعرفية والنفسانية والأخلاقية المتكاملة، التي واكبت الجماعة (قوم/ شعب/ أمة) في عهود التكوين الأولى، وهي تشمل: الميثولوجيا، والدين،

والرؤية الوجودية، ومستويات الوعي، وخصائص المزاج، ومنظومة المُثل العليا، وما يتفرع عن هذه المنظومة من المبادئ والقيم، وما يترتّب عليها من المواقف والسلوكيات.

٤ – الأساس الكفاحي (الصراعي): يتمثّل في التحدّيات التي واجهتها الجماعة (قوم/ شعب/ أمة) خلال صيرورتها عبر التاريخ" كالمنغّصات، والعوائق، والصعوبات، والتهديدات، والأخطار، والقهر، إلخ.

ومن المهم جداً أخذ أمرين في الاعتبار عند التعامل مع هذه الأسس:

– **أولهما:** ألا نتعامل مع كل أساس بمعزل عن الأسس الأخرى" إذ ليس ثمة شخصية تتشكّل من أساس واحد، وإنما يكون في كل تجلٍّ من تجلّياتها نسبة معيّنة من كل أساس من الأسس السابقة الذكر.

– **وثانيهما:** ألا نتعامل مع كل أساس على أنه في حالة سكون وجمود، وإنما من منظور أنه كان على الدوام في حالة تحوّل، وقد يكون التحوّل تصاعدياً (نحو الأفضل)، أو ارتكاسياً (نحو الأسوأ).

والآن ماذا عن الشخصية الكوردية من المنظور الأنثروپولوجي ؟

قبل الإجابة عن هذا التساؤل، أرى من الضروري تذكير نفسي بالضوابط التي قررت التزامها في هذه الدراسة، ومنها إفساح المجال للآخرين" كي يقولوا كلمتهم في الشأن الكوردي عامة، وفي الشخصية الكوردية خاصة، شريطة أن تكون أقوالهم علمية وموضوعية. ونحن الآن في أمسّ الحاجة إلى تلك الأقوال، ولا سيّما أنني لست متخصصاً في الحقل الأنثروپولوجي. فماذا قال الدارسون الآخرون؟

أقوال كتّاب أوربيين:

■ قال الرحّالة الإنكليزي كلوديوس ريج، في الربع الأول من القرن التاسع عشر، يصف الكورد **الگوران** [1]: **"إن الگوران يختلفون عن طبقة المحاربين في سيماء وجوههم وفي لهجتهم، فلوجوههم ملامحُ أكثر نعومة وخطوطٌ أكثر انتظاماً، حتى ليُخيَّل إلى الناظر من جانب وجوههم أنهم من اليونان"** [2].

■ قال هنري فيلد (1819 - 1883) Henry Field في دراسة أجراها على (٣٢٤) كردياً: الكوردي بشكل عام ذو طول متوسط، وجِذْعه (من الكتفين إلى الحوض) من النوع الطويل، وسيقانه قصيرة إلى حدّ ما، وجبينه عريض، ورأسه عريض، ونسبة حوالي (٤٠ ٪) من الكورد الوجه عندهم يتراوح ما بين متوسط الطول والطويل، وثمة نسبة مماثلة ذات وجه عريض ومتوسط العرض، وأنفه محدَّب غالباً، وشعره كثيف غالباً [3].

■ أورد الأنثروبولوجي الفرنسي إرنست شانتر Ernest Chantre ، في كتابه (الكورد) المنشور عام (١٨٧٩)، نتائج دراسة أجريت على (٣٣٢) رجلاً كردياً، و(٦٢) امرأة كردية، فذكر أن المظهر العام للكردي يوحي بالقسوة (الهمجية)" وطابع شخصيتهم قاس (صلب)، وعيونهم صغيرة نارية البريق، وغائرة في المحاجر، والرجال بشكل عام سمر الألوان، وطوال القامة، ونحاف، وذوو قوة غير معهودة، إنهم يمشون بخطوات ثابتة، ويرفعون رؤوسهم عالياً بفخار [4].

وذكر إرنست شانتر أيضاً أن نسبة (٦٦ ٪) من عيون تلك العيّنة كانت سوداء، وكان شعر (٢٠٤) أشخاص بني اللون، وشعر (١١٨) شخصاً بين البني والأسود، وشعر (١٠) أشخاص أشقر اللون، ونسبة (٣٧ ٪) من أنوف الرجال مستقيم، ونسبة (٥٠ ٪) منها محدّب،

---

١ - ذكر نيكيتين أن الگوران هم سكان شمالي الطريق الذي يربط كَرْمَنْشاه ببغداد حتى نهر سَيروان (ديالى) شمالاً، ومن هناك إلى هَوْرامان.

٢ - باسيلي نيكيتين: الكرد، ص ٢٠٤.

٣ - جمال رشيد أحمد: ظهور الكورد في التاريخ، ٢٤٣/١، ٢٤٦.

٤ - Susan Meiselas: Kurditan In the Shadow of History, P 8

ونسبة (١٨ ٪) منها مقعّر، ونسبة (٦٦ ٪) من أنوف النساء مستقيم. أما الوجه فضيّق، والذقن قوي، والصدر عال[١].

■ قال الإنكليزي سُون في أوائل القرن العشرين، وكان قد عاش في جنوبي كردستان فترة ليست قليلة: **"إذا نظرنا إلى الكوردي في تكوينه الجسدي فلا شك في أننا نجد أنفسنا أمام نموذج متكامل. إن الكورد الشماليين رجال نحاف طوال القامة، وقلما تجد البدين المفرط البدانة بين الكورد، أنوفهم طويلة، إلا أنها معقوفة قليلاً في الغالب، أفواههم صغيرة، ووجوههم بيضوية الشكل ومستطيلة، ... ويغلب فيهم اللون الأشقر، وإذا وضعنا طفلاً كردياً من هذا النوع بين مجموعة من الأطفال الإنكليز، لم يمكننا التمييز بينه وبينهم" لأن له بشرة بيضاء مثلهم"**[٢].

■ قال سون أيضاً: **"أما في الجنوب فتكون الصورة أكثر توسعاً، والمشية أكثر ثقلاً، وبين (٤٠) رجلاً من العشائر الجنوبية- اختيروا عشوائياً- كان تسعة منهم أقل من ستة أقدام طولاً، رغم أن معدل الطول كان بين بعض العشائر خمسة أقدام وستة إنشات. خطواتهم واسعة ولكنها بطيئة، وتحمّلهم المشاقّ في العمل كبير، والجبليون منهم ذوو قَوام مستقيم"**[٣].

■ قال سون أيضاً يصف الكورد: **"لقد رأيت بينهم العديد من الرجال الذين يحملون وجوهاً غامضة، الشعر رائق ومسترسَل، والشارب طويل سابل، والبَشَرة صافية. كل ذلك يقدّم حجة مقنعة- إذا أمكن اعتبار الوجه معياراً- على أن الأنجلو- سكسون والأكراد يرجعون إلى أصل واحد"**[٤].

■ قالت الباحثة الإنكليزية ليدي درور Lady Drower، في النصف الأول من القرن العشرين، متحدثة عن مختار بَعْشيقا أو باعَذرى، في المناطق الأيزدية: **"وكان وجهه- مثل وجوه الكثيرين الذين رأيناهم في القرية- كبيراً إلى حدّ ما، من النوع السكنديناڤي تقريباً... كان من بين أطفال القرية البعض شقرٌ وذوو عيون زرقاء مثل الساكسونيين"**[٥].

---

١ - usan Meiselas: Kurditan In the Shadow of History, P 8

٢ - باسيلي نيكيتين: الكرد، ص ٦٥.

٣ - المرجع السابق نفسه.

٤ - المرجع السابق نفسه.

٥ - ليدي درور: طاووس ملك اليزيدية، ص ٤١.

■ قال الكاتب الأرمني أبوڤيان يصف الشخصية الكوردية: **"من الممكن معرفة الكوردي من النظرة الأولى برجولته وقِيافته المَهيبة المعبّرة، التي تشير في الوقت نفسه إلى الهزء من الخوف، بالإضافة إلى أن وجه الكوردي يتّصف بعيون كبيرة برّاقة (نارية)، وحواجب كثيفة، وجبين عال، وأنف طويل معقوف، وخطوات متينة، أو بعبارة أخرى: صفات الأبطال القدماء"**[١].

■ ذكر الباحث الروسي ڤلاديمير مينورسكي Vladimir Minorsky أن الشخصية الكوردية بصورة عامة مختلفة" إلى درجة أنه يصعب الاعتماد على الصفات الأنثروپولوجية، ومن الممكن العثور عند الكورد على الوجه المدوّر الأرمني، والسامي العربي، والنَّسْطوري المسيحي على الأكثر[٢].

■ قال باسيل نِيكيتين Basil Nikitin: **"يُجري بعض الباحثين تمييزاً بين الكورد الذين يسكنون شرقي كردستان، والذين يقطنون غربيها. إن الكورد الشرقيين الذين صُوِّروا من قبل ستولز يتميّزون بسُمرة بَشَرتهم، وشكلُ جمجمتهم من نوع brachycephalic (الرؤوس العريضة)، ويشبهون في ذلك الفُرس الذين يجاورونهم، وهذا بخلاف الكورد الغربيين الذين درسهم بعناية ڤون لوشان Von Luschan، من وجهة النظر الأنثروپولوجية، في مناطق كوماڵين (قرب قَرَه قُوچ) في نَمْرُود داغ وفي زِنْجيرلي، وقد تبّين أن بينهم نسبة كبيرة شقر اللون والشعر، وشكلُ جمجمتهم من نوع dolichocephalic (الرؤوس الطويلة)، وتوصّل لوشان إلى أن الكورد في الأصل شعب أشقر اللون، أزرق العيون، ونوعُ جمجمتهم dolichocephalic، ويُفسِّر كونَ بعضهم سمرُ البَشرة، مع أن نوع جمجمتهم من صنف dolichocephalic، بتزاوجهم مع الترك والأرمن والفرس"**[٣].

■ قال دانا آدمز شميدت Dana Adams Schmidt، خلال جولته في منطقة بارْزان عام (١٩٦٢): **"وفي الثامنة صباحاً بلغنا قرية (بابان)، واعترتني الدهشة حالاً لّما رأيت الأطفالَ الشقر، والرجالَ ذوي العيون الزرق في الطرق، هؤلاء لا بد أن يكونوا نموذجاً بارْزانياً**

---

١ - مينورسكي: الأكراد، ص ٣٥ – ٣٦.

٢ - المرجع السابق، ص ٣٥.

٣ - باسيلي نيكيتين: الكرد، ص ٦٣ – ٦٤.

متميّزاً، نحافٌ وذوو وسامة" لا بد أنهم امتزجوا وتزوّجوا كثيراً حتى كان منهم هذا الجنس الممتاز"[1].

■ ذكر جوناثان راندل Randl Jonathanأنه لا يمكن تمييز الكوردي الأسمر والقصير القامة عن أبناء أوربا الجنوبية، أو عن العرب أو الفرس، لكن توجد أعداد كبيرة من الكورد الشقر والطويلي القامة، ومن ذوي العيون الزرق، ويعيشون في شريط ضيّق يمتد من بحيرة أورميه في شمال غربي إيران، ويمر عبر معظم مناطق شمال العراق، وصولاً إلى الحدود السورية، وقبل نصف قرن أكد ويليام ويستيرمان، أستاذ التاريخ في جامعة كولومبيا، **"أن بإمكان الأكراد ادّعاء أنهم حافظوا على نقاء عرقهم، وحافظوا على السمات الرئيسية لثقافتهم، لمدة زمنية أطول مما فعله أيّ شعب يعيش في أوربا اليوم "**[2].

■ قال جوناثان راندل أيضاً خلال هجرة الكورد عام (١٩٩١): **"لخّص مراسل شبكة سي. بي. إس الأمريكية ألان بيتزي أسباب قيامه بتغطية أخبار الأكراد في الجبال على الهواء مباشرة، وعلى مدى (٢١) يوماً، قائلاً: الأطفال جميلون، والرجال شرسون وذوو إباء، والنساء جميلات وغير محجَّبات، وقد دهش العالم الخارجي عندما تبيّن له أن بعض الأكراد أشقر وذو عيون زرقاء"**[3].

أقوال كتّاب عرب:

السيد مُنْذِر المُوصِلّي (سوري) من الباحثين العرب الذين كتبوا في الشأن الكوردي على نحو متكامل، إذ جمع في كتابه (عرب وأكراد) معظم ما يتعلق بالكورد من حيث التاريخ، والجغرافيا، والشخصية، والمجتمع، والعقيدة، والأدب، وها هو ذا يقول في وصف الكورد: **"الكوردي بَهيّ الطلعة، ممشوق القَوام، صحيح الجسم، تحدّث كلوديوس ريج عن الأكراد، فقال: إن الأكراد بوجه عام أقوياء أصحّاء، لم أشاهد مطلقاً أناساً ذوي أجسام قوية صحيحة من الجنسين، النساء والرجال، كما شاهدت في كردستان. وتحدّث عنهم البريطاني مستر هبارد**

---

١ - دانا آدمز شميدت: رحلة إلى رجال شجعان، ص ٢٦٤.

٢ - جوناثان راندل: أمة في شقاق، ص ٣٤.

٣ - المرجع السابق، ص ٨٥.

عضو لجنة تخطيط الحدود الروسية- التركية عام (١٩١٤): ولما دنوا منا شاهدت فيهم سِحَناً وقامات تدل على نقاوة دم أصحابها وحُسن بنيتهم"[١].

وقال منذر الموصلي أيضاً: **"قسمٌ من الأكراد يميل إلى الامتلاء، لكنهم موصوفون إجمالاً بالجسم المعتدل والبَشَرة البيضاء والحنطية، تبعاً لمناطق تواجدهم. الشعر خَرْنُوبي اللون على الغالب، لكن يوجد من هو أشقر الشعر قليلاً، العيون عسلية أو زرقاء، أكراد الشمال عيونهم زرقاء. الكوردي قاسي القَسَمات، ويطلق شاربه فيجعله كثيفاً، لأن العناية به دلالة الرجولة والفروسية"**[٢].

وأضاف منذر الموصلي قائلاً: **"الأوصاف الإثنوغرافية وصفاتهم الطبيعية الأنثروپولوجية تبعدهم عن أن يكونوا ساميين - حسب التعريف الكلاسيكي الدارج- بل تجعلهم من انحدارات آرية ... ومن المهم أن نذكر أن الملامح العامة للأكراد ليست واحدة بالدقة، بل إن هناك تمايزاً نشأ عن الاختلاط والامتزاج بسكان منطقة حوض البحر الأبيض المتوسط، وفي هذا يقول العالم الروسي كونيك: إن أوصاف الكورد الشماليين في تركيا، وفي شمال غربي إيران، تكشف عن مميّزات آرية واضحة. أما أكراد كردستان الجنوبي فيمتازون ببشرة داكنة، وشعر داكن، وبأغلبية ساحقة من العيون البنية، وبقامة متوسطة الطول، ورأس أقرب إلى الاستدارة"**[٣].

أقوال كتّاب كرد:

ونتناول أخيراً بعض ما ذكره الباحث الكوردي الدكتور مِهْرداد إيزادي Mehdad Izady بشأن أنثروپولوجيا الكورد، وهو متخصص في حقل الدراسات الكوردية، ومحاضر في قسم حضارات ولغات الشرق الأدنى بجامعة هارڤارد Harvard، وكتاباته عليمة رصينة جادّة، وقد جاء في كتابه (الكورد: دليل موجز) Handbook The Kurds: A Concise ما يلي:

من حيث الخصائص الطبيعية physical characteristics وحدها لا يمكن تمييز الكورد من جيرانهم، ولا يوجد ثمة تجانس في الأشكال بين الكورد، والاختلافاتُ الموجودة بينهم في هذا الميدان موجودةٌ بين الإثنيات المجاورة لهم أيضاً، وبالرغم من أنهم يشبهون شعوب جنوبي أوربا،

---

١ - منذر الموصلي: عرب وأكراد، ص ١٣٣.

٢ - المرجع السابق نفسه.

٣ - المرجع السابق، ص ١٣٤.

وشعوب شرقي المتوسط، في اللون وخصائص علم الأعضاء physiology، إلا أن في شخصيتهم خصيصتين متلازمتين ومستمرتين، هما: سمرة العنصر القوقازي الأصلي. وشقرة العنصر الأَلْبي، وأحياناً العنصر النُّورْدي (الشمالي)[١].

إن هذا النمط الأخير (الألبي/النوردي) يُشاهد كثيراً في مناطق زاخو وأُورميه وشُنو Shunu، وفي مناطق كَرْمَنْشاه وهَمَذان، كما أنه يُشاهَد في أقصى شمال غربي كردستان في جبال البحر الأسود، وتقلّ مشاهدته في شرق وغرب كردستان، ويمتزج النمطان (الأسمر والأشقر) في وسط وغرب كردستان. إن اللون الشقر شكّل ثلث عيّنة مؤلفة من (٥٩٨) كردياً، كانوا موضوع دراسة أنثروبولوجية، أجراها هنري فيلد Henry Field في العراق عام (١٩٥٢ م)، وكثافة هذا النمط ظاهرة في زاخو، وتبدأ بالتناقص كلما اتجهنا جنوباً نحو كركوك وسليمانية[٢].

وأضاف مِهْرداد قائلاً: يتراوح طول سكان المدن والقرى، بصورة عامة، بين (٥.٣ — ٥.٧) أقدام، وهم أقصر من سكان الجبال الرحّل (البدو) الذين يتراوح طولهم بين (٥.٧ — ٦) أقدام[٣]، وإن معظم هذه الفروق في الطول يمكن أن يُعزى إلى الفروق بين مناطق هاتين المجموعتين من حيث توافر الغذاء، لكن من الضروري أن نأخذ الفروق الخَلْقية (الجينية) عند المجموعتين في الاعتبار أيضاً[٤].

وقال مهرداد أيضاً: لقد لاحظ معظم الرحّالة الأوربيين، خلال القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، في تقاريرهم أن الكورد من الفلاحين وسكان المدن الذين يسمّون (گُوران) Goran، أكثر سمرة من ذوي اللون الأفتح، والأكثر طولاً، الذين يسمّون (كُورْمانْج) Kormanj. ويبدو أن الطابع الآري، لغوياً وثقافياً وسلالياً، بدأ يهيمن على المجموعات القوقازية الأصلية منذ الألف الثاني ق.م، مع استمرار هجرة المجموعات الهندو- أوربية إلى غربي آسيا، واستقرارها هناك" مثل الميتّانيين Mittanis، والحثّيين Hittites، والميديين Medes، والساغارتيين Sagarthians، والسكيث Scythians، والفرس Persians،

---

١ - The Kurds: Mehrdad Izady P 73.

٢ - The Kurds: Mehrdad Izady P 73.

٣ - القدم = ٣٠ سم.

٤ - The Kurds: Mehrdad Izady P 73.

واللان Alans، إن بعض هذه الهجرات كانت بأعداد ضخمة، إلى درجة أنها أحدثت تحوّلاً جذرياً في الأساس الثقافي، وليس في الأساس العرقي[١].

ويضيف مهرداد: من هنا يمكن القول بأنه لا يوجد تجانس عرقي كامل في المجتمع الكوردي، ويتضح ذلك من النظرة الأولى إلى الفروق بين الكورد في مختلف مواطنهم. إن الأمر المؤكد بالنسبة إلى التكوين الكوردي الأصلي هو التنوع في الأصول، ويمكن أن يُعزى ذلك مباشرة إلى الهجرات والغزوات التي تعرضت لها كردستان خلال آلاف السنين، ومثال على ذلك أن رشّات (رشقات) a peppering من الصفات المغولية موجودة في أجزاء كردستان التي حلّ فيها بعض الأتراك منذ القرن الثاني عشر الميلادي، إلا أن الإثنية الكوردية تشرّبت أولئك الوافدين وهضمتهم[٢].

وذكر مهرداد أن فصيلة الدم في كردستان بشكل عام هي (B)، ويبدو أن هذه الفصيلة تمنح مناعة طبيعية لمقاومة الكوليرا، الذي ما زال يهاجم كردستان على فترات. أما فصيلة الدم (A) فتقاوم وباء الطاعون الذي ضرب أوربا بقوة، وكان أقل تأثيراً على الكورد في الماضي. وإن ندرة فصيلة الدم (O) في كردستان، نسبياً- وهي فصيلة مقاومة لمرض الجُدَري الشائع في الشرق الأوسط بشكل عام- تشير إلى أن هذا المرض لم يتغلغل في جبال كردستان. إن هذه المعطيات ينبغي أن تؤخذ في الاعتبار في أية دراسة تاريخية تتناول الديموغرافيا الكوردية، وخاصة عند تحديد أعداد السكان وعلاقة ذلك بجوائح الأوبئة الفتّاكة[٣].

نتـائج:

إن المعلومات السابقة توصلنا إلى النتائج الآتية:

أولاً: ليس ثمة تجانس عرقي كامل (١٠٠ ٪) في المجتمع الكوردي، شأنهم في ذلك شأن بقية الشعوب، ومع ذلك فهم يشكّلون إثنية لها طابعها الخاص، ويؤكد آرييـنس كـپـرس Ariens

---

١ - P 73. The Kurds:Mehrdad Izady.

٢ - ٧٤. P ,The Kurds: Mehrdad Izady.

٣ - . , P 74 The Kurds: Mehrdad Izady.

Kappers ذلك قائلاً: **"الكورد، بالرغم من اختلافاتهم الأنثروپولوجية، يشكّلون في الحقيقة عنصراً متميّزاً"**[1].

ثانياً: الطابع الأنثروپولوجي الكوردي العام مزيج من الصفات الشرق أوسطية والأوربية، وإن النمط الكوردي الذي تكثر فيه القامة الطويلة، والبَشرة الفاتحة والشقراء، والعيون الزرق، يوجد- على الغالب- في مناطق شمالي كردستان. أما النمط الذي تكثر فيه القامة المتوسطة، والبَشَرة السمراء، والعيون السود، فيوجد — على الغالب- في جنوبي كردستان. وثمة مزيج من النمطين في كردستان الوسطى.

ثالثاً: ثمة بعض التشابه الإثنوغرافي بين الكورد والشعوب العريقة التي تجاورهم (العرب والفرس والأرمن)، إضافة إلى وجود طابع مغولي (تركي) بين الكورد بدرجة محدودة في بعض الأجزاء، نتيجة استيطان قبائل تركمانية قليلة في كردستان منذ القرن الثاني عشر الميلادي. ، ويكاد هذا الطابع المغولي يضيع في خضمّ الطابع الكوردي العام.

رابعاً: لا يمكن اتخاذ المعطيات الأنثروپولوجية، مدخلاً علمياً صائباً إلى معرفة الشخصية الكوردية" على الصعيد الروحي والذهني والجمالي والاجتماعي، وبعبارة أخرى: لا تعتبر الخصائص الأنثروپولوجية مفتاحاً للشخصية الكوردية، ولا يصحّ، من المنظور العلمي، أن نقول مثلاً: الكورد أذكياء أو غير أذكياء لأن أنوف كثيرين منهم محدّبة، والكورد ذوو مزاج حادّ لأن شوارب كثيرين منهم كثة وعريضة، ولا أن نقول إن المرأة الكوردية ذات شخصية قوية، لأن اللون الغالب عليها هو الحنطي فالأبيض فالأشقر، إن الدراسات العلمية المعاصرة ترفض اتخاذ خصائص العرق (العنصر) أساساً رئيساً لمعرفة الشخصية، وتركّز في الغالب على البيئة والثقافة.

توضيحات:

وفي الختام نسوق التوضيحات الآتية:

أولاً: إن ما ذكره الدارسون بصدد الكورد على الصعيد الأنثروپولوجي يعاني من بعض الثغرات العلمية: منها أنها في أغلبها انطباعات وملاحظات ووجهات نظر شخصية، تفتقر إلى

---

١ - جمال رشيد أحمد: ظهور الكورد في التاريخ، ٢٤٦/١.

المعيارية في دراسة الجينات وقياس أحجام الجمجمة والأجزاء الأخرى من الجسم. ومنها أيضاً أن الدراسات العلمية القليلة لم تشمل عيّنات من جميع أجزاء كردستان، وإنما اقتصرت كل مرة على عدد قليل من الكورد، وفي أجزاء محدودة من بلادهم. وبتعبير آخر: لا توجد إلى الآن- في حدود ما نعلم- خريطة جينية كردية شاملة ومتكاملة، ولا قاعدة بيانات إثنوغرافية كردية تفصيلية ودقيقة، يُعتمَد عليها في تحليل الشخصية الكوردية من المنظور الأنثروپولوجي.

ثانياً: إن عدم وجود تجانس عرقي كامل (١٠٠ ٪) في المجتمع الكوردي أمر طبيعي، ولا يعني البتّة أنه لا وجود لقوم (شعب/أمة) لهم طابعه الخاص اسمهم (الكورد)، بل لعل المجتمع الكوردي، وخاصة في كردستان المركزية، أكثر تجانساً- على الصعيد الأنثروپولوجي- من مجتمعات كثيرة في الشرق والغرب" فالشعوب والأمم حالة تاريخية وثقافية ومجتمعية وشعورية" أكثر من كونها حالة عرقية بالمعنى الجيني الصرف.

ثالثاً: إن تلك الدراسات لم تجانب الواقع على الغالب، إذ يمكن للمرء أن يميّز، بالعين المجردة، اختلافاً في الأشكال بين الكورد، فثمة النمط الأسمر والحنطي بنسبة أكثر، والنمط الأشقر بنسبة أقل. وثمة تباين في الطول بين المتوسط والطويل، وغالبية الكورد من متوسطي الطول. وثمة تباين في شكل الأنف، بين المحدّب بنسبة أكثر، فالمستقيم بنسبة أقل، فالمقعّر بنسبة محدودة. وثمة تباين في شكل الرأس، بين الأقرب إلى الطول، والعريض المستدير. وثمة طول في الجذع، وكثافة في الشعر، عند نسبة كبيرة من الكورد.

رابعاً: إن تلك الدراسات لا تتعارض مع حقائق التاريخ، وهي تتفق مع المعلومات المتعلقة بـ (التكوين الكوردي) عبر العصور القديمة، وبالعودة إلى تلك الحقائق والمعلومات يتضح أن النمط المتصف بالرأس العريض المستدير، والقامة المتوسطة، واللون الأسمر والحنطي، هو نمط أسلاف الكورد الزاغروسيين الأوائل (يسمّون خطأ: قوقازيين)، وأبرز دليل تاريخي موثَّق على ذلك أن السومريين كانوا ذوي رؤوس عريضة مستديرة، وكانوا ذوي أنوف محدّبة، وهذا واضح في تمثال الملك السومري الشهير جُوديا[١].

وسبق القول بأن السومريين كانوا سكّان جبال زاغروس الأصليين، وأنهم خرّيجو حضارة حَلَف في الفترة بين (٤٤٠٠ - ٤٣٠٠ ق. م)، وانحدروا إلى جنوبي ميزوپوتاميا من جبال جنوبي

---

١ - انظر: سامي سعيد الأحمد: السومريون وتراثهم الحضاري، ص ٤٢. محمد بَيّومي مهران: تاريخ العراق القديم، ص ١٦٤.

كردستان (إقليم كردستان – العراق حالياً)، وهذا دليل آخر- إلى جانب الدليل اللغوي- يرجّح أن السومريين كانوا فرعاً من أسلاف الكورد الزاغروسيين الأوائل، ومرة أخرى نهيب بالمتخصصين في الأركيولوجيا إلى أن يعيروا هذا الموضوع كثيراً من الاهتمام، وأعتقد أنهم سيجدون المخرج من الحَيرة في تحديد أصول السومريين ولغتهم.

خامساً: أكّدت الدراسات المتعلقة بالأنثروپولوجيا الكوردية غلبة نمطين سلاليين على التكوين الكوردي،: النمط الأسمر، المتوسط الطول، المستدير الرأس، العريض الوجه. والنمط الأشقر، الأقرب إلى الطول، ذو الرأس الأقرب إلى الطول، البيضوي الوجه. وتؤكد هذه الدراسات أن كرد العصر الحديث هم حفدة خُلَّص وأنقياء لفرعي أسلافهم القدماء: الفرع الزاغروسي الأصلي (سومري، لوللي، گوتي، سوباري)، والفرع الآري (الهندو-أوربي) الذي استقر في جبال زاغروس وعلى حوافّها منذ الألف الثاني ق.م (كاشّي، ميتّاني، مانني، خالدي، ميدي)، واندمج مع الفرع الزاغروسي، وأعطى التكوين الكوردي شكله التاريخي الأخير.

هذا عن الأساس الأنثروپولوجي في الشخصية الكوردية.

وماذا عن الأساس البيئي (الإيكولوجي)؟

٥

الجبل: مفتاح الشخصية الكوردية

البيئة والإنسان:

ابتكر العالم الألماني إرنست هيكل Ernst Haeckel مصطلح (إيكولوجيا) Ecology عام (١٨٦٩ م)، وقصد به دراسة العلاقة بين الكائنات العضوية وبيئتها الشاملة. وفي إطار هذا التعريف لم يعد من المقبول أن نتصوّر (البيئة) على أنها مجرّد سطح جغرافي Geography، نتّخذ فيه بيوتاً وملاعب، ومراعي ومزارع، ولا مجرد امتداد جيولوجي Geology، يتكوّن من رفوف (طبقات) متراكبة، هذه فيها مياه، وتلك فيها ذهب، وثالثة فيها حديد، ورابعة فيها بترول، ولا مجرد مُناخ (هواء، حرارة، برودة، رطوبة، جفاف إلخ). وإنما صار مصطلح (البيئة) يشمل جميع هذه العناصر متكاملةً ومتفاعلةً.

وصحيح أننا- البشر- نختال بأننا حَمَلة هُوِيّات جينية متميّزة، بها نختلف عن جيراننا من الكائنات الأخرى، لكن لا ننس أن تلك الهُوِيّات تشكّلت أصلاً في أحضان مملكة (البيئة)، ولا ننس أيضاً أن استمرارنا في الحياة يعني أننا نتفاعل مع البيئة على نحو صحيح، نتكيّف معها، وأنه لا استمرارية لوجودنا خارج قدرة جيناتنا على التكيّف مع البيئة، وعلينا أن نأخذ في الحسبان أن البيئة تسهم في إنتاجنا (تكويننا)" إنها تسهم في صياغتنا شكلاً (طول، عرض، لون)، وفي صياغتنا إحساساً ومزاجاً وثقافة، إننا جزء من البيئة، فيها نبدأ وجودنا، وفيها ننتهي، ولا يمكننا أن نهرب منها، أو نتجاهلها، أو نتعالى عليها، إنها قَدَرنا.

ولعل الشك يداخلك، إذاً دعني أسأل: هل أنت ذو بَشَرة سوداء؟ حسناً، كان لونك في الأصل، ومنذ لا أقلّ من مليوني عام، بنّياً، لكن البيئة التي خرج فيها سلفك الأول إلى الحياة، كانت غنية بالأشعة فوق البنفسجية، وكانت تلك الأشعة تهدده بسرطان الجلد، فأنتجت

بعض جيناته مادة اسمها (ميلانين)، ووظيفتها منحُ الجلد لوناً مناسباً، فمنحت جلدَ سلفك الأول لوناً أسود، امتصّ الأشعة فوق البنفسجية، ومنعها من التغلغل في كيانه، وأتاح له فرصة الاستمرار في الحياة، فاشكر لونك الأسود إذاً، ودعك من الأحكام الجمالية العابرة، إن لونك الأسود هو الأجمل وجودياً، إنه حماك من انقراض مؤكَّد[1].

وهل أنت ذو بَشَرة بيضاء؟ يا صاحيي، أنت أيضاً كنت في الأصل، ومنذ لا أقلّ من مليوني عام، ذا لون بنّي، لكن البيئة التي خرج فيها سلفك الأول إلى الحياة كانت فقيرة بأشعة الشمس، وكان نقص تلك الأشعة يهدده بالأمراض الوبائية، فأصدرت بعض جيناته الأمر إلى مادة (ميلانين)، فمنحت جلده لوناً فاتحاً جداً، أتاح لأشعة الشمس أن تخترق جلده، وتقدّم لجسده ما يلزم لاستمرار الحياة، فاشكر لونك الأبيض إذاً، ليس من منظور جمالي، وإنما من منظور وجودي" إنه حماك من انقراض مؤكَّد.

إن لونك نتاج تفاعلك مع البيئة، وكذلك أنفك وعيناك، هل لك أنف طويل ضيّق المنخرين؟ يا صاحيي، أنت لم تكن هكذا في الأصل، لكن البيئة التي وُجد فيها سلفك الأول كانت باردة جداً، ودخول الهواء البارد إلى رئتيه مباشرة كان مضرّاً به، فأنتجت بعض جيناته- بالتفاهم مع البيئة- ممرّاً طويلاً بعض الشيء (الأنف)، وضيّقت مدخليه اللذين يسمّيان (المنخرين)، كي يدخل الهواء قليلاً قليلاً، ويمّر بعدئذ بجهاز تدفئة (صوفاج) طبيعي، فيدفأ قليلاً، ثم يحلّ ضيفاً عزيزاً على رئتيك، ويمدّهما بالأوكسجين اللازم.

وهل أنت ذو أنف أفطس (قصير واسع المنخرين)؟ يا صاحيي، أنت لم تكن هكذا في الأصل، لكن البيئة التي وُجد فيها سلفك الأول كانت حارة، ومعلوم أنه بقدر ما يكون الهواء حاراً يتمدّد، وتقلّ فيه نسبة الأوكسجين، وكانت رئتا سلفك بحاجة إلى كمية مناسبة من الأوكسجين مع كل عملية شهيق، وكانتا من ثَمّ بحاجة إلى استضافة كمية كافية من ذلك الهواء المتمدّد، فأنتجت بعض جيناته- بالتفاهم مع البيئة- ممرّاً قصيراً (الأنف)، ووسّعت مدخلي ذلك الممر (المنخران)، كي يدخل الهواء بدفعات كافية، ويحلّ بسرعة ضيفاً على رئتيك، ويمدّهما بالأكسجين اللازم.

وفي إطار سلطة (البيئة) لك أن تفسّر سَعة عينيك وضِيقهما، ولا شأن لمعاييرنا الجمالية بهذا الأمر، إن ظروف الغابة الكثيفة أنتجت لسلفك الأول عينين واسعتين، تقول: كيف؟! إن

---

١ - دونالد جوهانسون وبليك إدغار: من مرحلة لُوسي إلى مرحلة اللغة، ص ٠٦ – ١٠٧.

الغابة- يا صاحبي- تحجب كثيراً من أشعة الشمس، فتوسّعت مساحة عيني سلفك، لتستقبل أكبر قدر ممكن من الأشعة المنعكسة من الأشياء، ولتمارس الرؤية على نحو أفضل. كما أن انعكاس الضوء على الثلج الكثيف معظم أيام السنة، كان مضرّاً بسلفك الأول، فعمدت بعض جيناته- بالتفاهم مع البيئة طبعاً- إلى جعل العين أضيق، لتستقبل أقلّ قدر ممكن من ذلك البياض الناصع المزعج، هل تودّ التأكد؟ انظر إذاً إلى ضوء مُبهِر، وراقب زاوية عينيك من حيث الاتساع والضيق.

وهل أطرافك السفلية طويلة أم قصيرة؟ وهل جِذعك طويل أم قصير؟ وهل ذقنك قصيرة أم نامية؟ وهل أنت كبير الهامة أم صغيرها؟ وهل أنت واسع المنكبين أم ضيّقهما؟ وهل أنت طويل القامة أم قصيرها؟ وما نسبة التناسق بين أعضاء جسدك؟ وما طبيعة مزاجك النفسي؟ وما خصائصك الذهنية؟ وما البنى الميثولوجية الدفينة في طيّات ثقافتك؟ كي تعرف إجابات مفيدة عن هذه الأسئلة وغيرها، توجّه مباشرة إلى (البيئة) من المنظور الإيكولوجي الشامل، حاول أن تفهمها بعمق، ولست أزعم أنك ستجد، على الدوام، إجابات دقيقة عما تسأل عنه، ولكن أضمن أنك ستمتلك كثيراً من المفاتيح المعرفية، وستفتح بها كثيراً من الأبواب المُوصَدة.

الجبل في ثقافات الشعوب:

ودعونا نركّز الحديث على عنصر بيئي مهمّ، هو (الجبل)، فالحقيقة أن له مكانة متميّزة في ثقافات الشعوب، حتى إنه تحوّل إلى رمز له دلالاته المتعددة في كل ثقافة، وتتمحور معظم تلك الدلالات حول (التسامي/ الشموخ/ الجلال/ الصلابة/ الثبات/ التأمل)، وما يتفرّع على هذا الدلالات من معان فرعية كثيرة.

وفي إطار هذه الدلالات، أو في إطار بعضها، يمكننا أن نفهم بناء زِقورة Ziquratu السومريين (معبد متعدد الطبقات) وبرج بابل في سهول ميزوپوتاميا، وأهرامات المصريين في سهول وادي النيل، وأهرامات الهنود الحمر في سهول أمريكا، وأسقف المعابد البوذية المتصاعدة على نحو متدرّج نحو السماء، وقِباب الكنائس المسيحية، والمنارات المنتصبة بجانبها، وانتقلت تلك الرمزية، في النصف الثاني من القرن الأول الهجري (السابع الميلادي)، إلى العمارة الإسلامية، فظهرت القباب والمنارات في هندسة المساجد.

كما أن حضور (الجبل) في التراث الميثولوجي والديني مثير للانتباه" بلى، أليس من المثير أن تحطّ سفينة زيوسودرا Ziusudra (نوح السومري)، وأوتنابشتم Utnabeshtem (نوح البابلي)، على (جبل نِيسير)؟ وأن تحطّ سفينة نوح العبراني على (جبل آرارات)؟ وتحطّ سفينة نوح الإسلامي على (جبل جُودي)؟ أليس مثيراً أن من ألقاب (آشور) الإله القومي للآشوريين لقب (الجبل الكبير)؟ أليس مثيراً أن مَجْمَع آلهة اليونان كان يُعقَد على قمة جبل الأولمب، بقيادة الإله الأكبر زيوس؟ أليس مثيراً أن الإله الإغريقي الأكبر زِيوس غضب على الإله الأصغر بروميثيوس" لأنه أهدى النار للإنسان خلسة، فعاقبه بأن أمر بربطه بالسلاسل إلى صخرة في قمة (جبل القوقاز)[1]؟

أليس من المثير أن الله اختار (جبل الطُّور) في صحراء سِيناء ليكلّم النبي العبراني موسى عليه السلام؟ أليس مثيراً أن النبي الميدي زَرْدَشْت- عليه السلام- اتخذ غاراً في جبل أوشيدارنه Oshidarena مكاناً للتعبّد عشر سنوات، وهناك، لّما بلغ الأربعين، نزل عليه الملاك فاهومانو بالوحي من آهورامَزدا؟ أليس مثيراً أن النبي العبراني الآخر عيسى-عليه السلام- كان يلتقي بحواريه- غالباً- على (جبل الزيتون) في القدس؟ أليس مثيراً أن النبي العربي محمداً- عليه السلام- اتخذ غار حِراء، في أحد جبال مكّة، مكاناً للتعبّد، وهناك، لّما بلغ الأربعين، نزل عليه الملاك جِبريل بالوحي من الله؟

الجبل والتكوين الكوردي:

والآن ماذا عن الأساس البيئي (الإيكولوجي) في الشخصية الكوردية؟

إن الجبل هو العامل البيئي الأكثر تأثيراً في الشخصية الكوردية، ويمكننا القول: إن الكوردي والجبل رفيقان متلازمان، كانا كذلك في العصور الحجرية، وظلاّ كذلك في العصور التالية، وما زالا كذلك إلى الآن، ويكفي أن تمرّر أمام عينيك مواطن الكورد في عصرنا هذا، لتجد أنهم يقيمون- في الغالب- حيث تكون الجبال، أو تكون سفوح الجبال، أو تكون السهول

---

١ - جفري بارندر: المعتقدات الدينية لدى الشعوب، ص ٢٤، ٦٦. نوري إسماعيل: الديانة الزردشتية، ص ١٢. ب.كوملان: الأساطير الإغريقية والرومانية، ص ٢٣، ٨٨.

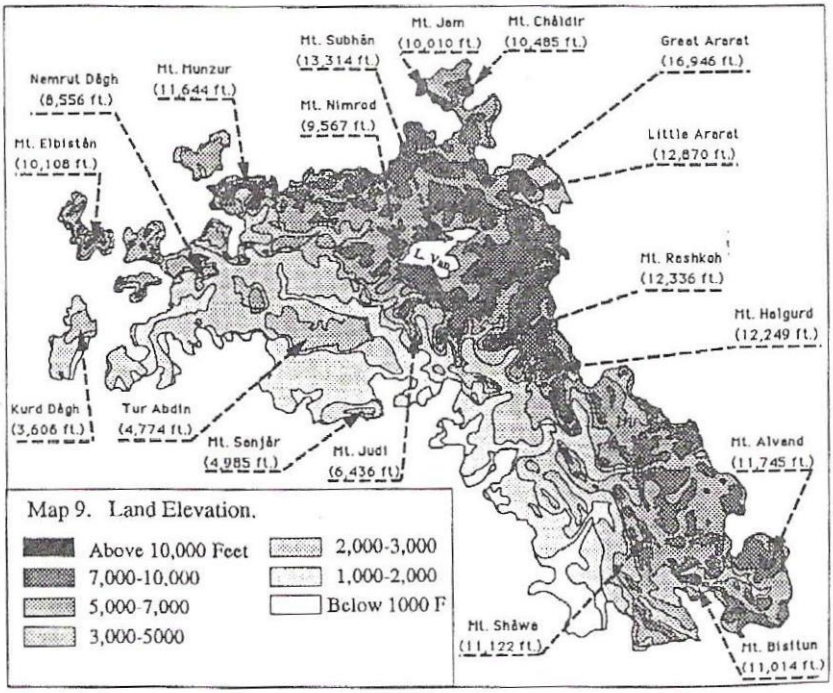

"يجري رسم إيكولوجيا موطن الأجداد الهندو أوربي بموجب المفردات الهندو أوربية السلفية" التي رمّمها اللغويون، والخاصة بالتضاريس والمناخ وعالم النبات والحيوان. وتصف معطيات علم اللغة الخاصة بالبيئة الإيكولوجية لموطن الأجداد الهندو أوربي هذا الموطن بأنه بلد ذو تضاريس جبلية، وشبكة متشعّبة من الأنهار، وطقس معتدل، وتشابك نباتي مدهش"[1].

وقال بونغارد ليفين أيضاً:

"إن التضاريس الجبلية لموطن الأجداد الهندوأوربي أمر أكّده عدة باحثين، وبعد ظهور دراسات غامكريليدزه وإيفانوف لم يعد يثير الشك، فإن القائمة التي وضعاها للمفردات الهندو أوربية السلفية، تقنعنا بأن الهندو أوربيين كانوا يقيمون في مناطق جبلية أو سفحية"[2].

---

١ - بونغارد — ليفين: الجديد حول الشرق القديم، ص ٢٧٣.

٢ - المرجع السابق، ص ٢٧٣.

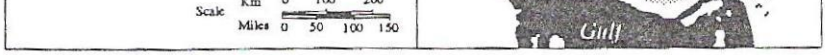

إن هذه الأدلة- وغيرها كثير- تؤكد أن الجبال جزء أصيل من بيئة التكوين الكوردية، سواء أكانت في عهد الأسلاف الزاغروسيين أم في عهد الأسلاف الآريين، أم في العهد الذي توحّد فيه الأسلاف الزاغروسيون والآريون، وأنتجوا- منذ حوالي ثلاثين قرناً- الشعب الكوردي، وظلّت الجبال تواكب مسيرة الكوردي الطويلة إلى يومنا هذا، وعلى جميع الأصعدة" ميثولوجياً، ودينياً، وذهنياً، واقتصادياً، وسياسياً، واجتماعياً، ونفسياً، وجمالياً، إلى درجة أنه يمكننا القول: إن الجبل مفتاح الشخصية الكوردية، وكي نفهم الكوردي ظاهراً وباطناً ينبغي أن نفهم (الجبل).

ويتراءى لي- من خلال تأملاتي في الشخصية الكوردية- أنه حيثما يكون الكوردي يكون الجبل معه، إنه موجود في شكله ومزاجه، وفي عقيدته وتفكيره، وفي أزيائه وأغانيه وموسيقاه، وفي نظامه الاجتماعي، وفي ثوراته وانكساراته. وهذه ليست عبارات شاعرية نُرخي لها العِنان، فتنطلق كيفما تشاء، وإنما ثمّة أدلة على كل كلمة نقولها، وسيظهر كل دليل في سياقه الملائم وفي وقته المناسب.

الجبل والميثولوجيا الكوردية:

لنبدأ بالميثولوجيا الكوردية، فإن في كتاب الزردشتية المقدّس (أڤستا) أدلة كثيرة على العلاقة الوثيقة بين (الجبل) وجغرافيا التكوين الآري بشكل عام، وجغرافيا التكوين الكوردي بصورة خاصة، وسواء أكانت حياة النبي زَرْدَشْت (زاراتوشترا)- عليه السلام- بين عامي (٦٦٠ - ٥٧٣ ق.م)، أو (٦٣٠ — ٥٥٣ ق.م)، أو (٦٢٨ — ٥٥١ ق.م)، أو (٦١٨ — ٥٤١ ق.م)[١]، فالمؤكد أنه ميدي، وأنه أعلن دعوته الدينية في ميديا قرب بحيرة (أُورْمِيَه)، والمؤكد أيضاً أن الزردشتية تشتمل على كثير من البنى والمبادئ والمفاهيم والقيم والرموز الميثولوجية الآرية القديمة جداً، قبل أن يغادر الآريون موطنهم الأصلي آريانا- ڤيدجا (آريانام- ڤيدجا).

وفيما يلي بعض الأدلة ذات الصلة بالميثولوجيا الكوردية:

---

١ - صمويل نوح كريمر: أساطير العالم القديم، ص ٢٩٤. جفري بارندر: المعتقدات الدينية لدى الشعوب، ص ١٣٣.

● دعاء زردشتي يتلى عند تقديم القرابين: **"نُعلنها، ونقدّمها بخاصة لجبل أوشي- دارينا الذي خلقه مازدا، الساطع والمتألق بالقداسة، لكل الجبال المشعّة قداسة، المنيرة، التي خلقها مازدا"**[١].

● دعاء زردشتي آخر: **"فلنُصلّ بسعادة لنجمة تيشتريا المشعّة، الطائرة بسرعة فوق بحر ڤاروُكاش، مثل السهم السماوي الذي أطلقه أَرْخِيش من قوسه، من جبال الآريين"**[٢].

● جاء في وصف بلاد آريانا- ڤيدجا: **"حيث القادةُ الشجعان ينظّمون جيوشهم المتعددة، في أرتال عسكرية، حيث الجبالُ العالية، الوافرة بالمراعي والمياه"**[٣].

● إن شراب (هاوْما) جزء من الطقوس المقدسة جداً في الديانة الزردشتية، وهو شراب يُتّخَذ من نبات (هاوْما) الجبلي، ذي اللون الأصفر الذهبي، وجاء في كثير من الابتهالات الزردشتية ذكر (هاوْما) مع (الجبل): **"أمجّد الغيمة التي تسقيك، وأمجّد الأمطار التي تجعلك تنمو على قمم الجبال، وأمجّد الجبال الشامخة حيث تنتشر أغصانك"**[٤]. **"هناك، يا هاوْما، على السلاسل الجبلية تنمو بأنواع عديدة، الآن تنمو ببياض حليبي، الآن تنمو بلون ذهبي، وبعد ذلك شرابك الشافي يتدفق من أجل إلهام المؤمن التقي"**[٥].

● كان (ميثرا) معبود الشعوب الهندوإيرانية منذ الألف الثاني ق.م، وكان إلهاً للعقود، يراقب عن كثب تنفيذ العقود والمعاهدات المُبْرَمة بين القبائل الآرية حول المراعي والمياه، وفي وقت متأخر قُدِّس باعتباره إلهاً للحرب، وبوصفه إلهاً للشمس، ومرافقاً لها في رحلتها السماوية، ولكلمة (ميهر/ ميرا/مِهْر) صلة باسم ميثرا **"الذي شيّد آهورامَزْدا مسكنه فوق قمة جبل هارا، مسكنٌ عال وساطع، حيث لا يوجد فيه الظلام والليل، لا البرد ولا الصقيع، لا الأمراض ولا الموت، ولا نجاسة الأبالسة"**[٦].

---

١ - أڤستا، ياسنا، هايتي ٤، آية ١٩، ص ٦١.

٢ - أڤستا، ياشت ٨، آية ٦، ص ٤٤٢- ٤٤٣. وتيشتريا هي عَشْتار.

٣ - أڤستا، ياشت ١٠، آية ١٣، ١٤، ص ٤٧١.

٤ - أڤستا، ياسنا، هايتي ١٠، آية ٤، ص ٧٩.

٥ - أڤستا، ياسنا، هايتي ١٠، آية ١٢، ص ٨٠.

٦ - أڤستا، ياشت ١٠، آية ٥٠، ٥١، ص ٤٨٤.

● لم تكن الزردشتية تسمح بإقامة الهياكل أو الأصنام، بل كان الزردشتيون يقيمون المذا[illegible] نيها النار تكريماً لآهورامَزدا ، كما [illegible]م الجبال، تُحمَل إليها جثث الرا[illegible]

آهورا مازدا

لكورد الأيزديين، وهي تشمخ بشكّل هامات المعابد في لالَش وغير[illegible] السماء، وبشكله المخروطي، وبقم[illegible] ذا (الجبل) قد تحوّل إلى رمز ميثـ[illegible] يتسلسل في الثقافة الكوردية جيلا[illegible]

الجبل وأسلاف الكورد:

الجبل في الهوية السومرية:

سبق أن رجّحنا أن السومريين من أسلاف الكورد، وأنهم انحدروا من منطقة (حضارة حَلَف) في كردستان المركزية، واستقروا في جنوبي ميزوپوتاميا، حينما انحسرت عنها مياه الخليج، وصارت صالحة للسكنى والزراعة، والحقيقة أن السومريين لم ينسلخوا من (الجبل)، وإنما انحدر معهم، وتجلّى في مختلف مجالات حياتهم، تارة على نحو صريح، وأخرى على شكل رموز" وفيما يلي بعض الأدلة.

● أطلق السومريون على موطنهم الجديد في جنوبي ميزوپوتاميا اسم Kur - ra، أي (البلاد العليا)" هذا رغم أن المنطقة كانت سهلية، فالمسألة سيكولوجية، والجبل ساكن فيهم، ومستقر في لاشعورهم، ويريدون الاحتفاظ بذكرى موطنهم القديم العزيز على قلوبهم، ويبدو أنهم لم يقطعوا علاقاتهم بأبناء مواطنهم القديمة في الجبال، فكانوا يستقدمونهم لاستخدامهم في مختلف الأعمال، ويطلقون عليهم اسم Lu – Kur-ra" أي (أهل الجبال/ أبناء

---

١ - ول ديورانت: قصة الحضارة، ٤٣٣/٢. نوري إسماعيل: الديانة الزردشتية، ص ٥٩.

الجبال). كما أنهم كانوا يكثرون من استخدام الحجر في النحت وبناء البيوت، تعبيراً عن استمرار الارتباط بصخور موطنهم الجبلي القديم[١].

- قال الدكتور سامي سعيد الأسعد بشأن السومريين: **" ونراهم في كل الأحوال يعبّرون عن جبل وعن بلد بنفس العلامة (كُور)، وربما كان الاثنان في نفس المعنى عندهم، ويدل على كون بلدهم الأصلي جبلياً، ثم ولعهم ببناء الزِّقورات بمعابدهم، ووجود أشجار وحيوانات جبلية في أختامهم الأسطوانية" أمثال الأَرْز، والسَّرْو، والوَعْل الجبلي ذي القرون، والماعز الجبلي الطويل القرون"**[٢].

- يتجلّى (الجبل) في الميثولوجيا السومرية أيضاً، فالإله (إنليل) Enlil، أو (إلّيل)Ellil ، هو أكبر آلهة السومريين، والمعنى الأصلي لاسمه المركّب (إن - ليل) En-lil هو (سيد الريح)، والريح تهبّ في اعتقادهم من الجبل، ولهذا لُقّب إنليل في السومرية بـ (الجبل الكبير) Kur – gal[٣].

- جاء في قصيدة سومرية:

" يا سومر، يا أيها البلد العظيم بين بلدان العالم...
سيّدُك سيّدُ مبجَّل، وملكُك يجلس مع الإله (آن) على المنصّة السماوية.
إنّ ملكك هو الجبل العظيم، هو الأب إنليل والأنوناكي الآلهة العظام"[٤].

- جاء في قصيدة أخرى خاصة بمدينة أور السومرية:

" أيتها المدينة الموفورة الزاد، ...
أنتِ منصّة خير البلاد، أنتِ خضراء كالجبل.
أنتِ غابة (خاشور) ذات الظلال الوارفة، ...
لقد أعلن (الجبل العظيم) إنليل اسمَك المتسامي في السماء والأرض"[٥].

---

١ - جمال رشيد أحمد: ظهور الكورد في التاريخ، ١/١٧٥. محمد بيّومي مهران: تاريخ العراق القديم، ص ٩.

٢ - سامي سعيد الأحمد: السومريون وتراثهم الحضاري، ص ٤٢. وانظر فاضل عبد الواحد علي: من سومر إلى التوراة، ص ٢٢.

٣ - سبتينو موسكاتي: الحضارات السامية القديمة، ص ٢٥٣، هامش ٢١.

٤ - صمويل كريمر: من ألواح سومر، ص ١٧٩ — ١٨٠).

٥ - المرجع السابق، ص ١٨٠ — ١٨٢).

● جاء في لوح سومري: " **ثم بعد آلة البناء، وتشييد المساكن، ملأ إنكي[1] السهول بالنبات والأعشاب والحياة الحيوانية، وعيّن على شؤونها الإله سُومُجان Sumugan الموصوف بملك الجبل**"[2].

الجبل في الهوية الحورية:

الحوريون من أسلاف الكورد القدماء أيضاً، وذكر جرنوت فيلهلم أنهم انطلقوا، حوالي نهاية الألف الثالث ق.م، من المناطق الجبلية الواقعة في شمال شرقي بلاد الرافدين (شمالي كردستان المركزية). وما يهمّنا الآن أنهم لما انتشروا في شمالي سوريا، ووصلوا إلى سوريا الداخلية والجنوبية، كانوا يستقرون في المناطق الجبلية، أو المتاخمة للجبال، إنهم استقروا في حوض نهر العاصي، وخاصة في ألالاخ، ووصلوا إلى سوريا الساحلية (فينيقيا) وخاصة أُوغارِيت، وتوغّلوا جنوباً، فاستقروا في مدينة يَبُوس (أورشليم/القدس)، وهي تقع في منطقة جبلية، وتوغّلوا جنوباً أكثر، فاستقروا في منطقة جبل سَعِير، بوادي عَرَبَة (جنوبي الأُردن حالياً)[3].

الجبل في الهوية الكاشّية:

مرّ أن الكاشّيين أيضاً فرع كبير آخر من أسلاف الكورد الأقدمين، وأنهم كانوا من سكان جبال لُورستان (في جنوب غربي إيران حالياً)، وقد سيطروا على بلاد بابل، واتخذوا مدينة بابل (تقع على الفرات ٩٠ كم جنوبي بغداد) عاصمة لهم، ثم اتخذ الملك كوريجالزو (كوريگـالزو) الثاني (١٣٤٥ – ١٣٢٤ ق.م) عاصمة جديدة للكاشّيين اسمها (دور كوريجالزو)، على مسافة (٣٢) كم غربي بغداد.

ومع أن الكاشّيين استقروا في المناطق السهلية، فقد ظل (الجبل) يلازمهم، ويتجلّى في رموزهم الميثولوجية، إذ يظهر الإله والإلهة في المعمار الكاشّي، وقد أمسك كلٌّ منهما بيده،

---

١ - إنكي هو: أنگي/أنجي: إله الأرض.

٢ - المرجع السابق، ص ١٨٢.

٣ - جرنوت فيلهلم: الحوريون تاريخهم وحضارتهم، ص ٢٤، ١٠٧. جين بوترو وآخرون: الشرق الأدنى الحضارات المبكّرة، ص ٢٠٠. بونغارد – ليفين: الجديد حول الشرق القديم، ص ١٦٢. العهد القديم، سِفْر التَّكوين، الأصحاح ٣٦، الآيتان ٢٠، ٢١.

وأمام صدره، بإناءً، يتدفّق منه الماء، ويسيل على هيئة جداول جارية، ويظهر المعبود في تلك الرسوم على أنه (إله الجبل)، وقد مُثِّل وهو يرتدي ثوباً مزيّناً على هيئة حَراشِف، وكانت الحراشف رمز (الجبل) عند أسلاف الكورد القدماء[1].

وفي عهد الملك الكاشّي كرندش- وقد اشتهر بكثرة مبانيه في المدن البابلية- كانت تماثيل الأرباب والربّات تبرز من جسم البناء، **"مع تشكيل رأس كل معبود وجِذعه الأعلى تشكيلاً كاملاً، والاكتفاء بتشكيل الخطوط العامة لبقية جسمه على هيئة الثوب الطويل المحبوك، وتشكيل لبنات هذا الثوب بما يرمز إلى مدرّجات الجبال بالنسبة للأرباب، وتموّجات الماء بالنسبة للربّات"**[2].

الجبل في الهوية الميدية:

لننتقلْ إلى الميديين، الفرع الكبير الأخير من أسلاف الكورد الأقدمين، تُرى ماذا عنهم وعن (الجبل)؟ الحقيقة أنهم كانوا جبليين خُلّصاً، ولن نقف الآن عند تجلّيات (الجبل) في عشقهم للحرية، وفي شدّة بأسهم، وفي صلابتهم وعنادهم، وفي نزوعهم إلى الثورة على القهر والعسف، وفي شجاعتهم وروحهم القتالية، وفي ذهنيتهم السياسية اللامركزية، وفي نظامهم الاجتماعي القَبَلي، وفي أزيائهم" إذ المأمول أن يأتي الحديث عن جميع ذلك في سياقه المناسب، ونكتفي الآن بظاهرة مصاحبة (الجبل) للميدي حيثما حلّ وارتحل، ولنأخذ قصة (الحدائق المعلّقة) مثالاً على ذلك.

فقد مر- في الاستعراض الموجز لتاريخ الميديين- أنهم لم يرفعوا راية الاستسلام لملوك آشور، وظلوا يفجّرون ثورة تلو أخرى، وأدرك الملك الميدي **كَيْخُسْرو** kai-Khosru أو **كَيْ أخسار** Cyaxares (633 – 584 ق.م)، أن من الحكمة تشكيل جبهة إقليمية موحَّدة، تضم الشعوب الواقعة في قبضة السلطة الآشورية، والشروع من ثمّ في العمل للقضاء على إمبراطورية آشور، فضمّ الفرسَ إلى دولة ميديا، باعتبار القرابة الإثنية والثقافية بين الشعبين الميدي والفارسي.

وتوجّه كَيْخسرو بعدئذ إلى البابليين، فعقد تحالفاً مع الملك البابلي نَبُوپولاصّر Nabopolassar (627 - 605 ق.م)، وكان والياً على بابل من قبل الملك الآشوري آشور بانيپال Ashurbanipal ، ولتوثيق الصداقة بين الملكين وافق كَيخسرو على تزويج ابنته

---

١ - انظر محمد بَيُّومي مَهران: تاريخ العراق القديم، ص ٣٠١.

٢ - المرجع السابق، ص ٣٠٥.

أُوميد (آميتيداAmutida / أميتس) من نَبُوخَذْنَصَّر Nabuchadnazzar بن نبوپولاصّر[1]. وقد وصف وِل دُيورانت Will Durantحدائق بابل المعلَّقة الذائعة الصيت، وكان اليونان يعدّونها إحدى عجائب العالم السبع، وذكر أنها كانت مقامة على أساطين مستديرة متتالية، كل طبقة منها فوق طبقة، وقال بشأن أوميد:

"ولم تكن هذه الأميرة قد اعتادت على شمس بابل الحارة وثراها، فعاودها الحنين إلى خضرة بلادها الجبلية، ودفعت الشهامة والمروءة نبوخدنصّر، فأنشأ لها هذه الحدائق العجيبة، وغطّى سطحها الأعلى بطبقة من الغرين الخصيب، يبلغ سمكها جملة أقدام، لا تتسع للأزهار والنباتات المختلفة، ولا تسمح بتغذيتها فحسب، بل تتسع أيضاً لأكبر الأشجار وأطولها جذوراً، وتكفي تربتها لغذائها"[2].

وأضاف ديورانت قائلاً:

"وكانت المياه تُرفَع من نهر الفرات إلى أعلى طبقة في الحديقة، بآلات مائية محبّأة في الأساطين، تتناوب على إدارتها طوائف من الرقيق، وفوق هذا السطح الأعلى، الذي يرتفع عن الأرض خمسة وسبعين قدماً، كان نساء القصر يمشين غير محجّبات آمنات من أعين السوقة، تحيط بهن النباتات الغريبة والأزهار العطرة"[3].

إن أوميد ابنة مدينة أكْبَتانا (هَيگمَه تانا/ جَمَه زان/ هَمَذان) عاصمة ميديا الملكية، المدينة الواقعة في واد جميل المنظر، أخصبته المياه الذائبة من الثلوج على الجبال، وبتعبير آخر: أوميد ابنة جبال ميديا الشامخة، ابنة الصخر والنهر، ابنة الشجر والزهر، رحلت إلى سهول ميزوپوتاميا الحارة، فرحلت معها جبالُ ميديا بصخرها ونهرها وشجرها وزهرها، ولعل ما لم يقله المؤرخون أن أوميد استقدمت أشجار وأزهار وربما أطيار جبال بلادها، لتُكحّل بها عينيها صباح مساء، بلى، من أين لبابل السهلية أن تحمل أوميد على الانسلاخ من هويتها الجبلية؟! وكيف لأوميد أن تنعم بالحياة" ما لم تستحضر (الجبل) في حياتها ولو بشكل رمزي؟!

---

١ - ول ديورانت: قصة الحضارة، ٢/٤٠٠. دياكونوف: ميديا، ص ٢٨٣. طه باقر وآخران: تاريخ إيران القديم، ص ٤٠ - ٤١.

٢ - ول ديورانت: قصة الحضارة، ١٩٩/٢.

٣ - المرجع السابق نفسه.

٦
پانوراما الجبل

توضيحات:

ذات مرة قال الفيلسوف الفرنسي نيكولاس مالبرانش Malebranch Nicolas (1638-1715 م): **" الهواء الذي نستنشقه يسبّب تغييراً في عقولنا "**[١]، ولعل هذا القول كان مستغرَباً في مجتمعاتنا قبل قرن من الزمان، أيام كان أجدادنا وجداتنا يفسّرون هدير الرعد بأن الإمام علي بن أبي طالب[٢] يضرب السُّحب بسوطه، فتزمجر متألمة، وتبكي بدموع غزيرة تسمّى (المطر)، وأيام كانوا يفسّرون خسوف القمر بوجود حوت هائل يحاول ابتلاع القمر، فكانوا يقرعون على الأواني والطبول، ويطلقون الرصاص، لإخافة الحوت، وإنقاذ القمر المكروب.

أما الآن، وبعد التنوّع الشديد في مجالات العلوم، وتحليل الكائن الحي إلى عناصره الكيميائية والفيزيائية والكهرطيسية الأولية، بات من المفيد أن نمنح قول مالبرانش وغيره قسطاً أكبر من اهتمامنا، ونأخذه بالحسبان في تفسير مسيرة حياة الكائنات على كرتنا الأرضية، وخاصة أن ثمة فريقاً من العلماء يؤكّدون أننا- نحن البشر- بدايةً ونهايةً كائنات بيولوجية، ليس على الصعيد الجسدي فقط، وإنما على الصعيد العقلي والشعوري أيضاً، وأن العلاقة بين **"الجينات والبيئة يجب أن تؤخذ في**

---

١ - لوسيان في**ڤ**ر: الأرض والتطور البشري، ص ٣٧.

٢ - علي بن أبي طالب هو ابن عمّ النبي محمد، وإمام الشيعة الأكبر.

الحسبان لدى أية محاولة لتفسير طبيعة التطور أو الخَلق" حسبما يقول المؤرخ الإنكليزي أرنولد توينبي Arnold Toynbee (1889 – 1975 م)[1].

في إطار هذه الرؤية العلمية الإيكولوجية، أتناول پانوراما الجبل، وسأكون مضطراً إلى الاستعانة أحياناً بملاحظاتي وآرائي الشخصية، وقد أكون مصيباً وقد أكون مخطئاً، فقد فتحت عيني على الحياة في قرية كُرْزَيْل Korzail، وذكرها ياقوت الحَمَوي بصيغة (قُرْزاحِل)[2]، وتسمّى الآن قُرْزَيْحِل، وهي من قرى منطقة كُرْد داغ (عِفْرين) Afrin، في الزاوية الشمالية الغربية من سوريا، وعِفْرين اسم للنهر الذي يخترق المنطقة من الشمال إلى الجنوب، وجاء بهذه الصيغة عند كل من ياقوت الحَمَوي والقَلْقَشَنْدي[3]. أما كلمة آفرين Afrin فتعني (بَرَكة) في (زند أڤستا)، وهو تفسير الكتاب الزردشتي المقدس (أڤستا)[4].

وتضم منطقة كرد داغ ستة نواحٍ (مركز ناحية)، إضافة إلى مركز البلدة، وتتألف من حوالي (٣٦٠) قرية كبيرة وصغيرة، والطابع الجبلي هو الغالب على المنطقة، إنها في جملتها سلاسل جبلية، تقع بينها أحياناً سهول ضيّقة أو متوسطة السعة، ولعل أوسعها سهل جُومَه Gume الانهدامي الواقع بين سلسلة جبل لَيْلون Leylun شرقاً، وسلسلة جبل هَشْتِيا Heshtiya غرباً، وقد رد اسم جُومَه ولَيْلُون في كتابات البَلاذُري وياقوت الحموي وأبو الفِداء[5]، وتقع قريتي كُرْزَيْل Korzail على السفح الغربي لجبل ليلون، ولذا فحديثي عن (الجبل) لا يصدر عن تخيّلات وظنون، وإنما عن خبرة حياتية بدأت منذ أن حللت ضيفاً على هذا العالم.

ومنذ حوالي ثلاثين سنة التقيت بامرأة عجوز كردية من شرقي تركيا، كانت متزوّجة من رجل في منطقتنا، فقالت لي- وكنا نتحدث بشأن جبال عفرين-: **"يا بنيّ، جبالكم هذه مثل**

---

١ - أرنولد توينبي، ودايساكو إكيدا: التحديات الكبرى، ص ٢٤. وانظر جون سيرل: العقل واللغة والمجتمع، ص ٥٩، ٨٥.

٢ - ياقوت الحموي: مُعْجَم البلدان، ٣٦٧/٤.

٣ - ياقوت الحموي: معجم البلدان، ١٤٩/٤. القلقشندي: صبح الأعشى، ٨٤/٤.

٤ - أڤستا، ص ٨٠٨.

٥ - البلاذري: فتوح البلدان، ص ١٥٤. أبو الفداء: تقويم البلدان، ص ٢٦٧. وانظر: ياقوت الحموي: معجم البلدان، ٢١٩/٢، ٢٢/٣، ٣٤/٥.

مصاطب البيوت إذا قيست بجبالنا هناك". (تقصد جبال شمالي كردستان). ولعلي وضعت ما قالته العجوز حينذاك في خانة المبالغة، لكن اتضح لي بعدئذ أنها كانت دقيقة جداً فيما قالته.

إن ارتفاع أعلى قمة في جبال عفرين يبلغ (٣٦٠٦) قدماً، في حين تبلغ الجبال في بلاد الكورد الأخرى ارتفاعات عالية جداً. إن ارتفاع جبل سنجار Sangar يبلغ (٤٩٨٥ قدماً)، وجبل جُودي 6436) Gudi) قدماً، وجبل نمرود 9567) Nimrod) قدماً، وجبل بيستون 11014) Bistun) قدماً، وجبل شَيوه 11122) Shaiwe) قدماً، وجبل أَلْوَنْد Alwend 11745)) قدماً، وجبل Halgurd هَلْگُورد (١٢٢٤٩) قدماً، وجبل رَشْكُوه Rashkoh 12336)) قدماً، وجبل أرارات الصغير 12870) Little Ararat) قدماً، وجبل سُبْحان 13314) Subhan) قدماً، وجبل أرارات الكبير 16946) Great Ararat) قدماً[١].

وإن تأثير البيئة الجبلية في البشر، بيولوجياً وسيكولوجياً وثقافياً، لا يعود إلى بضعة قرون، وإنما يعود إلى فترة العصر الحجري القديم (حوالي ٤٠ ألف سنة)[٢]، وربما يمتد إلى ما قبل ذلك بمئات آلاف السنين" ومن المهم أن نأخذ في الحسبان:

"أننا لسنا النتاج النهائي والأخير لثلاثة بلايين سنة من التطوّر على سطح الكرة الأرضية، فنوعنا، مثل كل الأنواع الأخرى، إنجاز تطوّري جارٍ ومستمر"[٣].

والآن ماذا عن پانوراما الجبل؟

جدلية الامتلاء والفراغ:

إن أول ما يلفت الانتباه في البيئة الجبلية أنها جغرافيا يغلب عليها التحدّب (التكوّر)، وتفرض على البصر أن ينشط عمودياً أكثر مما ينشط أفقياً، إنها تفرض عليه أن يصعد نحو القمم، وينحدر نحو الوديان، ويدور مع المنعطفات، ويتكوّر مع الصخور، ويعلو ويهبط مع الجروف. وبتعبير آخر: إن الجبل يفرض على البصر أن يتحرك دائرياً (تكوّرياً)، سواء أكانت الحركة تصاعدية (النظر إلى القمة)، أم تنازلية (النظر إلى الوادي).

---

١ - Mehdad Izady: The Kurd, P15.. والقدم = ٣٠ سم.

٢ - دونالد جوهانسون وبليك إدغار: من مرحلة لوسي إلى مرحلة اللغة، ص ١٨٢.

٣ - المرجع السابق، ص ٢٠٣.

وهذا يعني أن جغرافيا الجبل تجعل الإنسان كل مرة على تماسّ مباشر مع مَقطع مكاني مكوَّر الطابع، تغلب عليه الخطوط المحدَّبة/المقعَّرة، وتقلّ فيه الخطوط المستقيمة الممتدة، وهي مع قلتها قصيرة غالباً. ويعني أيضاً أن جغرافيا الجبل مكان مؤلف من ثلاثة أبعاد (طول، عرض، ارتفاع)، في حين يكون الإنسان في السهل، معظم الأحيان، على تماسّ مباشر مع مقطع مكاني منبسط الطابع، خطوطه مستقيمة ومديدة غالباً، وهو مؤلف من بعدين فقط (طول، عرض).

وثمة ملاحظة شخصية لعلها تكون مفيدة في هذا المجال، فقد مرّ أنني أنتمي إلى قرية كُرْزَيْل Korzail، في منطقة كُرْد داغ (عِفْرين) Afrin، وكانت لنا أراض في قرية تسمّى (شُدُود) Shodud، على التخوم الغربية لمنطقة (الباب) Bab في محافظة حلب، وتفصل منطقة (عَزاز) Azaz بين منطقتي عفرين والباب، وقد اصطحبني والدي- رحمه الله- معه ذات مرة وأنا صبي إلى قرية شُدود صيفاً، وكنا بحاجة إلى نهار كامل لنصل إليها سيراً على الأقدام أو مستعينين بدابة، وأذكر أنني كنت أشعر حينذاك بحالة غريبة في سهول عزاز، ما كنت أشعر بها وأنا في منطقة عفرين، وكان ذلك الشعور يتفاقم في طريق العودة، وبطبيعة الحال ما كنت قادراً حينذاك على فهم ذلك الشعور، ناهيك عن تفسيره.

وبعد رحيل الوالد إلى العالم الآخر، وقعت مهمة متابعة موضوع أملاكنا في شدود على عاتقي، وكنت أتنقل بين القريتين على درّاجة نارية، ولمست أن ذلك الشعور القديم كان يخامرني مرة أخرى كلما كنت أجتاز سهول عزاز، ولاحظت مرة أخرى أن نسبة إحساسي به كانت ترتفع في رحلة العودة، وبما أنني كنت قد امتلكت قدراً لا بأس به من المعرفة، وأصبحت أقدر على مراقبة الذات وتفسير الظواهر النفسية، وضعت يدي على المشكلة" إنها كانت مشكلة الشعور بالفراغ.

أجل، كنت معتاداً في بيئتي الجبلية على أن أتعامل وأتفاعل مع كتل جبلية تشكّل عالمي، فقريتنا تقع على سفح جبل ليلون، وعلى بُعد حوالي خمسمئة متر غرباً ينتصب أمامها جبلان متجاوران صغيران، وعلى بُعد حوالي خمسة كيلومترات غرباً أيضاً تنتصب أمامي سلسلة جبال هَشْتِيا، وتطل من خلفها في الأفق الغربي قمم جبال أمانوس Amanus الشامخة المكللة بالثلوج طوال العام، وكذلك الأمر إذا اتجهتُ شمالاً وجنوباً، في جميع الاتجاهات لا أجد جغرافيا تخلو من جبال أو هضاب، ولا أواجه فراغاً يزيد على خمسة كيلومترات في أبعد تقدير.

أما في رحلتي إلى شدود فكنت أجد نفسي وسط فراغ هائل الأبعاد، سهول منبسطة في كل الاتجاهات، لا مكان فيها لأية جبال، وإنما ثمة فقط تلال ترابية قديمة قليلة. وبعبارة أخرى: كنت أفتقد في سهول عزاز البعد الثالث من أبعاد المكان الذي اعتدت أن أراه صباح مساء طوال

اليوم، وائتلفت معه، وساهم رويداً رويداً في تكوين شخصيتي منذ الصغر" ألا وهو بُعد (الارتفاع) في صيغته المحدَّبة المكوَّرة.

وأما سبب تفاقم الشعور بالفراغ في رحلة العودة فيرجع إلى أن نقطة انطلاقي في شُدود كانت تبدأ من منطقة هضبية مرتفعة نسبياً، وبمجرد إشرافي على سهول عَزاز كنت أشعر وكأنني أواجه حفرة منبسطة هائلة، وما كان يريحني سوى استقرار بصري بين حين وآخر على قمم جبال أمانوس في الأفق الغربي البعيد. وأذكر أني لمست الشعور بالفراغ بعد ربع قرن، حينما كنت أخترق بالسيارة صحارى شبه الجزيرة العربية" في طريقي بين سوريا ودولة الإمارات العربية المتحدة، وكنت أشعر بارتياح عندما كنت أبصر بعض الجبال القليلة وسط تلك البراري الشاسعة.

البصر والبصيرة:

إن جدلية الامتلاء والفراغ في المشهد الجبلي توصلنا إلى أربع نتائج:

١ - نسبة مساحة (الفراغ) تتقلص في قطّاع الرؤية، وتتسع نسبة مساحة (الامتلاء)، في حين تكون نسبة مساحة (الفراغ) في المشهد السهلي والصحراوي هي المهيمنة، وتتقلّص نسبة مساحة (الامتلاء)، وهذا يعني أنك في البيئة الجبلية تتعامل مع ما حولك بمدى بصري أقصر، لكنك ترى موجودات أكثر.

٢ - ابن البيئة الجبلية يعتاد الإشراف من فوق القمم على المناطق المحيطة، فيصبح أكثر رغبة في التواصل مع الأفق الواسع[١]. كما أن تعامل البصر مع موجودات أكثر كل مرة يتطلّب قدراً أكبر من دقة الملاحظة، والتركيز على التفاصيل، وعلى تفاصيل التفاصيل، سواء أكان ذلك لمعرفة الموجودات (ما هي؟)، أم لتحديد وضعياتها وعلاقاتها (كيف هي؟)، أم لتفسيرها غائيّاً (لِمَ هي؟)، أم لتحديد قيمتها (ما فائدتها؟).

٣ - البيئة الجبلية تساهم في تكوين ذهنية شديدة الارتباط بالواقع، وذات قدرات تحليلية متقدمة، وهي مؤهلة في الوقت نفسه لأن تكون ذهنية فلسفية، تطلّ على القضايا من علٍ، وتستخلص المبادئ العامة والقوانين الكلية من المعطيات المتجاورة أو المتواكبة، وأحسب أن

---

١ - لوسيان فيڤر: الأرض والتطور البشري، ص ٢٥٧.

تحليل العلاقة بين البيئة الجبلية في اليونان وتقدم الفكر الفلسفي هناك قديماً كفيل بتأكيد هذه الخصيصة في الشخصية الجبلية.

٤ - إن انشغال الجبلي بالتفاصيل قد يتحوّل، في بعض الحالات، إلى شكل من أشكال قصر البصيرة وضيق الأفق، والتركيز على (الجزء) وإهمال (الكل)، والدوران في فلك (الفروع) والسهو عن (الأصول)، والتعلق بما هو محدود ومؤقت على حساب ما هو عام ودائم، ولا ريب في أن فرداً بذهنية كهذه يصبح بلاء على مجتمعه، وأن مجتمعاً بذهنية كهذه يضيع الطريق إلى الصواب، بل قد يدمّر نفسه.

الجبل والمفارَقات:

في البيئة الجبلية تتعايش جملة من المفارقات، ويمكن إدراجها في خانة (التكامل) أكثر من إدراجها في خانة (التناقض).

الأولى- المفارَقة بين القمة والوادي: القمة هي (الارتفاع)، والوادي هو (الانخفاض)، وإذا كانت القمم تساهم في تكوين الشعور بالتميّز والتفوق، وما يواكبهما من سمات الاعتداد بالذات والشموخ والكبرياء، فالمنخفضات والوديان تساهم في تكوين الشعور بالتواضع، وتصبح عاملاً مساعداً لعوامل أخرى، تتضافر لتكوين الشعور بالنقص والضآلة والضعة، وبتعبير آخر: إذا كانت القمم عاملاً مساعداً لإنتاج (السيّد النبيل)، فإن القيعان عامل مساعد لإنتاج (العبد الذليل).

والثانية- المفارَقة بين الصلابة واللطافة: تتمثّل الصلابة، وما يواكبها من القوة والقسوة والتجهّم والفظاظة الصامتة، في جرم الجبل الضخم الهائل الرابض على الأرض بوقار، الصاعد في السماء بشموخ، إنه يعترضك بثبات، ويسدّ أمامك الأفق بعناد، كما أن الصلابة تتمثّل في عدد هائل من الصخور المتراكمة المتجاورة والمتفاوتة الأحجام، يتجلبب بها ذلك الجرم العملاق الهائل ليل نهار.

وتتمثل اللطافة، وما يواكبها من اللِّين والرِّقّة والطَّراوة والبَشاشة والوَداعة، في الأشجار والأعشاب والأزاهير، وهي لا تؤكد حضورها في المساحات التي تنحسر فيها الصخور والحجارة فقط، وإنما تجدها أحياناً نابتة بإصرار من قلب الصخور، جميلةَ الطلّة، ممشوقة القامة، مرفوعة الهامة، ناضرة الوجه، باسمة المُحَيّا، زاهية اللون. وإذا ضممتَ إلى هذه اللوحة اللطيفة جريان

الينابيع على سفوح الجبال وعند أقدامها، وتدفّق الأنهار في الوديان، تشعر أن الجبل ليس عالم التناقضات، وإنما هو عالم التضايف والتكامل، عالم يندمج فيه الجمال بالجلال.

والثالثة- المفارَقة في درجات الحرارة: في البيئة الجبلية تنخفض درجات الحرارة شتاء انخفاضاً شديداً، وتنهمر الأمطار الغزيرة، وتهبّ العواصف الثلجية. وما إن يحلّ الربيع حتى يلطف الجوّ، وتهبّ النسائم رقيقةً منعشة، وتبدأ دورة جديدة من التقمص والحلول كما يقول فلاسفة التصوّف، وتتحوّل قطرات المطر وذرّات الثلج إلى أعشاب ناضرة زاهية، وإلى أزاهير متنوّعة خلاّبة الألوان، وأشجار وارفة الظلال، وينابيع رقراقة المياه. ومع حلول الصيف، تبدأ درجات الحرارة في الوديان والمنخفضات بالارتفاع، ويَيْبَس كثير من الأعشاب، في حين تحتفظ المرتفعات العالية- تسمّى (زُوزان) Zozan- بقدر من لطافة الجو ووفرة الأعشاب.

وجدير بالانتباه أن التحوّلات في البيئة الجبلية متدرّجة يعرفها ابن البيئة الجبلية، ويحتاط لها، ويمتلك الوقت للتكيّف معها، وهي ليست تقلّبات مفاجئة، تنقضّ على المرء وتباغته وتصدمه، كما هو الأمر في البيئة الصحراوية وربما في البحرية أيضاً. وبتعبير آخر: إن التحوّلات في البيئة الجبلية تتمّ وفق قواعد شبه ثابتة، ويمكن توقّعها بناء على فهم قدر بسيط من قوانين الطبيعة، والاستعداد لها بما يلزم.

تجاور الأضداد:

ويمكننا أن نخرج مما سبق بما يلي:

١ - البيئة الجبلية بيئة مستعصية متوحّشة، وعلى الجبلي أن يمتلك القدرة على استئناسها والتفاهم معها، إنها لا تمنحك نفسها هكذا بسهولة ودون عناء، فلكي تمشي في الجبل صاعداً أو منحدراً تجد نفسك مضطراً لأن تبذل عناء مضاعفاً عمّا تبذله وأنت تمشي في السهول، وكذلك الأمر سواء أكنت تبحث عن ثمرة، أم تفتّش عن عشبة، أم تنقّب عن جذور، أم تغرز وتداً، أم تغرس فَسيلة، أم ترعى غنماً، أم تصطاد وَعْلاً، أم تواجه وحشاً.

٢ - أن تعيش في بيئة متوحشة يعني أنك تتعامل مع بيئة تتحدّاك، وكي تحتفظ بالبقاء فيها عليك أن تقبل التحدي، وأن تكون في مستوى التحدي جسدياً وذهنياً ونفسياً، وإلا فإن مكانك المناسب هو الانحدار إلى السهول. وكي تكون في مستوى التحدي ينبغي أن تتّصف بقدر كاف من الصلابة والقوة والقسوة، وبقدر مماثل من الصبر والجَلَد والعناد، وكي نعي دلالات

الاستعصاء والتوحش والتحدي في البيئة الجبلية دعونا نستحضر الفارق بين رجلين يرغبان في اتخاذ بيت" الأول يقطّع حجارة من صخور الجبل، والآخر يصنع طوباً من تربة السهل.

٣ - إن تجاور الصلابة واللطافة في البيئة الجبلية عامل مساعد لتكوين شخصية تتجاور فيها القوة والضعف، والقسوة والدماثة، والهدوء والعنف، والوقار والثوران، والجدّ والمرح، والعبوس والبشاشة" شخصية تمتاز بروح قتالية عالية، وتقبل التحدي بثقة، شخصية صلبة راسخة ممتنعة على الانمساخ والاختراق، تقابلها وتزاحمها شخصية رَخوة، شخصية ضعيفة الثقة بذاتها، تتجنّب التحدّي، ويجعلها الشعور بالنقص عرضة للانمساخ في الهُوِيّة، وللاختراقات في القيم والمواقف.

٤ – إن الجبل جغرافيا الوضوح والغموض، أجل، فالجبل بجرمه الهائل، وعلوّه الشاهق، لا يخفى على الناظر، بل يراه المرء من بعيد، ويمكن له أن يقدّر مدى ضخامته وارتفاعه، لكن ما إن يتوغّل فيه حتى يجد نفسه كائناً ضئيلاً بين أحضان كائن عملاق، ويشعر أنه يخوض رويداً رويداً في أرض الغموض. إن المرء- وهو يتنقّل في الجبل- لا يعرف ماذا ينتظره وراء تلك القمة، أو داخل ذلك الجُحر، أو في أعماق ذلك الكهف.

والمرء- سواء أكان صياداً أو راعياً أو مزارعاً، أو مجرد مسافر- يستطيع السيطرة ببصره على مساحة شاسعة من جغرافيا السهل، ويكون أقدر على مراقبة ما حوله ومعرفة ما يحيط به، أما في الجبل فالوضع يختلف، إن جغرافيا الجبل تفرض عليه شكلاً من أشكال العَماء، وتقول له ضمناً: (ثمة أشياء كثيرة لا تعرفها)" وكي يتحرر المرء من بعض ذلك العماء، ويفكّ طلاسم الغموض المحيط به، ليس له إلا أن يكون على الدوام في مكان مرتفع، وفي موقع يحقق له السيطرة.

جغرافيا الاكتفاء:

وثمة خصائص أخرى للبيئة الجبلية:

الأولى- الجبل جغرافيا المفاجأة، إنك وأنت في الجبل لا تعرف مسبقاً ماذا يمكن أن تلتقي من كائنات، فقد تفاجأ- وأنت تمشي- بطائر يندفع بالقرب من قدميك، ويباغتك برفيف جناحيه محلّقاً في الجو، إنه كان بدوره مذعوراً" لأنك فاجأته أيضاً. وقد تكون- وأنت في الجبل- على مقربة من بعض الذئاب أو الدببة وأنت لا تدري. وقد تُفاجأ بزاحف يسرع منحدراً من على صخرة، ليختبئ بين ركام من الحجارة، وقد تجد فجأة حيّة تبتعد بسرعة من طريقك، وقد

تعضّك في قدمك إذا وطئتها، وقد تفاجأ بأخرى تحلّ ضيفاً عليك حتى وأنت في خيمتك أو على مصطبة دارك.

والثانية- الجبل جغرافيا العزلة: فالصخور والجروف والوديان والأنهار فواصل طبيعية، تحول دون تحقيق التواصل السهل، إن الراعي الذي يرعى قطعانه في واد أو على سفح جبل، لا يرى الراعي الآخر في الوادي المجاور، وإن سكان قرية واقعة على سفح جبل قادرون على رؤية القرى الواقعة على السفوح المقابلة، أو على السهول المحاذية، لكنهم غير قادرين على رؤية القرى الواقعة خلف الجبل. وفي الشتاء، وحينما تهطل الثلوج بكثافة، تصبح العزلة مركّبة، إذ تنقطع الطرق، ويضطر الناس إلى التزام قراهم وبيوتهم أوقاتاً طويلة. يقول لوسيان فيڤر:

"وساكن الجبل، في قاع الوادي الجبلي – من جزيرته الجبلية- رجل منعزل، مخلوق سجن في نطاق ضيق، يفرضه عليه الحاجز الجبلي الذي يفصله عن بقية أنحاء الإقليم"[1].

والثالثة- أن الجبل حصن منيع: إنه لا يخذل من يستجير به ويتحصّن فيه، شريطة أن يكون خبيراً بمداخله ومخارجه، قادراً على التكيّف معه مطعماً ومشرباً ومناخاً، إن الجبل، بعلوّه الشاهق، وبوعورة تضاريسه، وشبكة تعرّجاته المعقَّدة، وبكهوفه العميقة، وجروفه الشديدة الانحدار، وممراته الضيقة، وبما يكتسي به من غابات، يحقق الأمان من العدوّ، ويمنح الفرصة للإنسان كي يصون إرادته من الاستلاب، وقرارَه من الارتهان، وكرامتَه من الابتذال، وهويتَه من الانمساخ، وذاتَه من الانمحاق، وإن البيئة الجبلية تنمّي في الشخصية شعور الأنفة والكبرياء والاعتزاز بالنفس، والاعتداد بالذات، ويصبح من الصعب تطويعه وإخضاعه للقوانين والضوابط التي يتطلّبها قيام الدول.

والرابعة- الجبل خزّان أقوات: إنه سوبر ماركت هائل، يمدّ المعدة بمتطلّباتها، ويحقق الاكتفاء الذاتي لساكنيه، وإن كان اكتفاءً في الحدود الدنيا، وبما يحفظ الحياة فقط، إن جولة يومية في الجبل كافية لأن تضع على مائدتك لحم تيس جبلي، أو لحم غزال، أو لحم أرنب، أو لحم طائر، أو غير ذلك مما يُصطاد، أما عن أنواع الثمار والجذور والأعشاب، فحدّث ولا حرج. وعدا هذا يكفي أن تعزل الحجارة عن مساحات صغيرة هنا وهناك، وتلقي فيها بعض البذور، لتمنحك ما تحتاجه من أغذية ضرورية، ويكفي أن تقتني بضع رؤوس من الشياه أو الماعز، لتنعم

---

١ - لوسيان فيڤر: الأرض والتطور البشري، ص ٢٩٥ – ٢٩٦.

بحليبها ولبنها وسمنها وجبنها ولحومها، ولتخزّن منها ما تحتاج للشتاء، ولتصنع من أصوافها ألبسة وبُسُطاً وخيماً، وغير ذلك من ضرورات العيش.

الجبلي دولة عظمى:

ويمكننا أن نخلص من استعراض الخصائص السابقة إلى ما يلي:

١ – إن حالة العَماء والغموض نمّت في الشخصية الجبلية الشعورَ بالريبة والتوجّس، والحيطة والحذر من جانب، إضافة إلى أنها نمّت فيها الحاجة إلى التنبّه واليقظة، والحاجة إلى الاستكشاف المستمر، ومعرفة المزيد مما هو غير معروف، للتغلب على حالات الغموض والعماء.

٢ - في كنف هذه الحالة المتشابكة تكوّنت في الشخصية خاصية امتلاك إرادة الإقدام والاقتحام، والنزوع إلى البسالة والشجاعة، وأحسب أن الفيلسوف اليونان **هيپوقراط** Hippocrates ، وهو معاصر لسقراط *Socrates*، كان يشير إلى هذه الخاصية بقوله: إن سكان الأقاليم الجبلية المعرّضة للأمطار والرياح العاتية طوال القامة، وفيهم دماثة، ولكنهم في الوقت نفسه شجعان[١].

٣ - إن خصائص العزلة والمناعة والاكتفاء، في البيئة الجبلية، عوامل مساعدة لتكوين شخصية تنزع إلى التمرد والثورة أكثر من نزوعها إلى الخضوع والخنوع، شخصية لا تتقبّل المساس بها لا من قريب ولا من بعيد، شخصية قادرة على أن تدير ظهرها بحزم وحسم لما لا ترتاح إليه، على مبدأ **"لكم دينكم ولي ديني"**، وسرعان ما تهتاج وتثور عندما لا تُترَك في حالها، وعندما تصبح حريتها وقرارها وكرامتها عُرضة للعبث والانتهاك، وقد تصل حالات الهياج والثوران إلى مرحلة التدمير" تدمير الآخر أو تدمير الذات.

ولذلك كان أهل الجبال- طوال التاريخ- هم الذين ينغّصون على الغزاة والفاتحين تنفيذ خططهم ومآربهم، وكانوا بمثابة شوكة في حلوق أصحاب المشاريع الإمبراطورية، وكان هؤلاء مضطرين إلى بذل جهود مضاعَفة ومضنية، لفرض سيطرتهم على سكان الجبال، وحسبُنا دليلاً على ذلك ما جاء في مدوَّنات ملوك أكّاد وآشور، وهم يصفون حروبهم ضد أسلاف الكورد في

---

١ - المرجع السابق، ص ٣٤.

جبال زاغروس، وما ذكره القائد اليوناني **إكسنوفون** Xenophon، واصفاً عودة المرتزقة اليونان العشرة آلاف، وما لقوه من مقاومة شرسة في جبال الكوردوخيين سنة (٤٠١ ق.م). وكذلك وصيةُ خان المغول الأكبر **مَنْگُوقاآن** للقائد **هُولاگو**، بأهمية إخضاع الكورد في جبال لُورِستان وغيرها، قبل اقتحام بغداد عاصمة الخلافة العباسية سنة (٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م)[١].

٤ - ثمة ظاهرة أخرى في الشخصية الجبلية، أحسب أن لخصائص العزلة والمناعة والاكتفاء دوراً بارزاً في نشوئها" ألا وهي صعوبة تقبّل الجبلي للتكوينات السياسية والإدارية المركزية الطابع. إن الجبلي، في معقله الحصين المنعزل الذي يوفّر له الاكتفاء الذاتي في الحدود الدنيا، يرى نفسه قادراً على تدبّر شؤونه الحياتية بنفسه، والاستغناء عن أية منافع تجلب معها التبعية والعبودية، بل أكثر من هذا" إنه يعدّ نفسه دولة عظمى، فهل تقبل دولة عظمى أن تفكّك نفسها لصالح دولة أخرى؟! وهذا يذكّرني بشاعر صيني قال قبل الميلاد بقرون:

"أستيقظ حينما تشرق الشمس، وأنام حينما تغيب.

أزرع حقلي لآكل، وأحفر بئري لأشرب.

ففيمَ يهمّني سلطان الإمبراطور "؟!

وأستشهد في هذا الصدد بسكّان اليونان القدماء، إن جميع الدول التي قامت فيها، قبل القرن الرابع ق.م، كانت دول- مدن، كدولة مدينة أثينا، ودولة مدينة إسبارطا، ولم تنشأ فيها دولة مركزية إلا بعد أن غزاها فيليپ Philippos المَكَدُوني، واستكمل ابنه الإسكندر مشروعه التوسعي.

بل لماذا أذهب بعيداً، ولا أستشهد بالسومريين؟ إنهم أبناء جبال زاغروس الذين انحدروا إلى سهول جنوبي ميزوپوتاميا، وطوال ألف عام تقريباً لم تقم في بلاد سومر أية دولة مركزية، وإنما كانت فيها دول- مدن متناحرة، منها دولة أُور UR، ودولة لگش Lagash، ودولة سيپار Sippar. وأول دولة مركزية قامت في بلاد سومر إنما نشأت علي يدي سَرْجُون Sergon الأكّادي، سنة (٢٣٥٠ ق.م)، وما كان سرجون وقومه الأكّاديون أبناء البيئة الجبلية، وإنما كانوا أبناء البيئة الصحراوية السهلية[٢].

---

١ - توفيق سليمان: دراسات في حضارات غرب آسية القديمة، ص ١٣٤. محمد بَيّومي مَهران: تاريخ العراق القديم، ص ٣٤٥، ٣٤٨. جمال رشيد: ظهور الكرد في التاريخ، ٩٧/١. الهمذاني: جامع التواريخ، ٢٥٠/١ — ٢٥٨.

٢ - انظر صمويل كريمر: من ألواح سومر، ص ٧٩. سبتينو موسكاتي: الحضارات السامية القديمة، ص ٦٧.

٥ – نظراً لافتقار الجبلي إلى دولة مركزية قوية، تمتلك القوة الكافية لردع الطامعين، ورد هجمات الغزاة، كان موطن الجبلي عُرضة للغزو والانتهاك، وكان الجبلي يدفع الثمن غالياً، إما بأن يكون مستنفراً على الدوام لا يهنأ بالأمن، وإما بأن يقع بين حين وآخر في قبضة الغزاة، وأعتقد أنه لو توحّدت دول- المدن السومرية تحت لواء دولة مركزية واحدة، لما استطاع سرجون الأكّادي قهرها واحتلالها. وكذلك الأمر بالنسبة إلى دول- المدن اليونانية في القرن الرابع ق.م. ولو كانت الدويلات الكوردية والإمارات الكوردية (الحَسْنويهية، والشَّدادية، والرَّوادية، والمروانية)، في القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي)، متوحّدة في إطار دولة مركزية واحدة، لما استطاع الغزاة السلاجقة إسقاطها واحدة تلو الأخرى.

٦ – إن عزلة الجبلي، ونزوعه إلى التفرد، ونفوره من الخضوع للأنظمة المركزية، وقناعته بالحد الأدنى من ضرورات الحياة، للاحتفاظ بدولته العظمى المتمثلة فيه هو أو في قبيلته على أبعد تقدير" إن هذه المعطيات كانت من أكثر العوامل التي أبعدت الجبلي عن الانخراط في حركة الحضارة، وأبقته منعزلاً ومعزولاً إلى حد كبير، واقعاً تحت رحمة محتكري أدوات التمدن وآلياته، وأخصّ هنا بالقول أبناء الجبال القارية البعيدة عن البحار، كجبال كردستان، وجبال أفغانستان، أما أبناء البيئة الجبلية المتاخمة للبحار المفتوحة، كبلاد اليونان، فكانت البحار هي الجسر الذي تواصل الجبليون عبره مع مراكز الحضارة، وصاروا مساهمين في إنتاجها.

٧ – إن إخلادَ الجبلي إلى عزلته القَصيّة، ونفوره من حَمَلة الحضارة الذين يأتون معهم بكثير من القيود، ويفرضون التنازل عن قدر غير قليل من الحرية، واعتدادهَ الراسخ بأن رؤيته الحياتية هي الفضلى" جميع ما سبق ساهم في أن تكون الشخصية الجبلية شديدة التمسك بالتقاليد، وأن يكون الجبلي صاحب ذهنية محافظة على صعيد القيم والسلوكيات والعادات، بل لمستُ مراراً امتعاض الجبلي من مفاهيم التمدّن والتحضر، وطريقة حياة المتمدّنين، ويصل به الأمر أحياناً إلى درجة الاحتقار الصريح، وثمة أوجه شبه عديدة في هذا الجانب بين الشخصية الجبلية والشخصية البدوية.

ولنقرأ بعض آراء لوسيان فيڤر بشأن الشخصية الجبلية، إنه يقول:

"الجبلي ذلك المخلوق المجرد المثالي العالمي، الإنسان المحدود الأفق بالضرورة، لوجود عائق جبلي يفصل بينه وبين جيرانه، العبد الخاضع منذ ولادته للتقاليد، المحافظ الذي يرتبط بالماضي

بأواصر قوية، حامي حمى التراث المادي والثقافي الذي تركه الأقدمون" إذ إنه لا يوجد جديد يثير فيه أي رغبة في التغيير، أدوات قديمة، ملابس تقليدية، لغات قديمة، مذاهب دينية قديمة "[1].

ويضيف لوسيان فيڤر قائلاً:

"فالجبلي- من الناحية النظرية التجريدية- نشيط شريف، يحيا حياة صحية داخل نطاق الأسرة الأبوية، ويرتبط بها ارتباطاً قوياً، دؤوب على العمل لا يملّ، خشن يتحمّل المشاقّ، لا يعرف الترف، ولا تهمّه الراحة، ينقطع إلى عمله في غير كَلال، منافس خطير لأهل السهول. ومن ناحية أخرى فلا هو عالم ولا هو فنّان، فالبيئة أقسى من أن تنجب مثل هذه العبقريات، ولكننا نلاحظ أن سكان الابنين من نفس العنصر الذي يتكون منه التوسكانيون، ومع ذلك فهناك عبقرية في الابنين وخشونة في التوسكانيين"[2].

---

١ - لوسيان فيڤر: الأرض والتطور البشري، ص ٢٥٦.

٢ - المرجع السابق، ص ٢٥٦.

٧

الروح الحربية في الشخصية الكوردية

نُخَب وآلهة:

قال أنطوني جِيدِّنْز Anthony Giddensفي مقدمة كتاب (الأخلاق الپروتستانتية وروح الرأسمالية)، للمفكر الألماني ماكس فيبر Max Weber: إن ماكس **"كتب دراسته كمفكر، وليس كداعية"**. وآمل أن أكون قريباً من نهج ماكس، وبعيداً من النهج الذي يجعل من الحبّة قُبّة" أقول هذا لأن القارئ قد يستحضر في ذهنه هول المفارقة بين عنوان (الروح الحربية في الشخصية الكوردية) وواقع الشعب الكوردي.

وعلى أية حال أذكر جيداً أنني كنت قد قررت التزام الموضوعية فيما أكتب، وخاصة في مجال (الشخصية الكوردية) ولم أسمح لنفسي بالتحلل من ذلك الالتزام، وأثق بأنني لن أسمح بذلك مستقبلاً. أما مسألة المفارقة بين العنوان وواقع الكورد فهي ليست الوحيدة، وإنما ثمة مفارقات أخرى قد تكون أكثر هولاً من هذه، وسنتناولها بالتحليل في الوقت المناسب. وقبل الشروع في موضوعنا هذا آمل أن نضع في اعتبارنا ما يلي:

١ - إن البيئة (وهي الجبلية في موضوعنا) ليست العامل الوحيد في تكوين سمات الشخصية، وإنما هي أحد العوامل، وقد تكون تارة العاملَ الأقوى تأثيراً، وقد تكون تارة أخرى العاملَ الأقل تأثيراً، فمسألة تكوين سمات الشخصية هي- في الدرجة الأولى- مسألة نِسَب. أما العوامل الأخرى المشاركة فهي: الخصائص العرقية (الجينات)، والثقافة، والتحدّيات (الصراع).

٢ – الثقافة Culture إحدى مكوّنات الشخصية، وهي أكثر العناصر تعبيراً عن الشخصية، وصحيح أنها في الأصل نتاج التفاعل بين المكوّنات الثلاثة الأخرى

(العرق/البيئة/التحدّيات)، غير أنها تتحول- بعد تشكلها- إلى مكوّن شديد التأثير في الشخصية، ولا يختلف معظم علماء الأنثروبولوجيا مع أ. ب. تايلور A.B. Taylor في أن الثقافة **"هي ذلك الكل المركّب" الذي يشتمل على المعرفة والعقائد والفن والأخلاق والقانون والعادات، وغيرها من القدرات التي يكتسبها الإنسان بوصفه عضواً في مجتمع"**[1].

٣ – الثقافة حصيلة عملية تراكمية طويلة الأمد" إذ تضاف سمات وعناصر ثقافية جديدة إلى السمات والعناصر الثقافية الموجودة، ويترتّب على ذلك زيادة السمات والعناصر التي تتكون منها ثقافة المجتمع. وقد ميّز العالم الأمريكي رالف لنتون Linton في الثقافة بين ثلاثة عناصر: العنصر المادي (الإنتاج الصناعي)، والعنصر الحركي (السلوكي)، والعنصر النفسي (المعرفة والمواقف والقيم المشتركَة)، وسمّى العنصرين الأولين (الثقافة الظاهرة)، وسمّى العنصر النفسي (الثقافة المستترة)[2].

٤ – بمرور الأزمنة تتحول الثقافة المستترة إلى مجموعة قيم ورموز مقدسة ومؤثّرة في وجدان الناس وسلوكهم، وتصبح تلك القيم والرموز عنصراً من عناصر تكامل المجتمع، وعاملاً لتوحيده واستقراره وديمومته، وخاصة في الأزمات. **ولعل أدقّ تعريف للقيم أنها ضوابط توجّه النشاط الإنساني، كما أنها مؤشّرات معيارية، يتأثر بها الإنسان في اختياره بين بدائل السلوك**. أما الرموز المقدسة فتتشكّل في إطار المنظومات الميثولوجية، وما يتعلق بها من أساطير تدور حول الخالق والمخلوق والعالم ونشأته، وما يتعلق بما بعد الطبيعة" كالآلهة وأنصاف الآلهة والملائكة والجن والشياطين[3].

٥ – ذكر **ماركس** ذات مرة أنه أوقف التاريخ على قدميه، بعد أن كان **هيغل** قد أوقفه على رأسه، والملاحَظ أننا اعتدنا التعامل مع الميثولوجيا كما كان يتعامل هيغل مع التاريخ، وخاصة في تفسير العلاقة بين الشعوب وآلهتها" إذ إننا ننطلق من الآلهة إلى تفسير المُثل العليا

---

١ – كميل الحاج: الموسوعة الميسرة، ص ١٦٨.

٢ – نخبة من الأساتذة: معجم العلوم الاجتماعية، ص ١١٩، ٢٠١.

٣ – جمال مَجْدي حَسَنَيْن: سوسيولوجيا المجتمع، ص ٤٦. عبد الغني عِماد: سوسيولوجيا الثقافة، ص ١٤٢. نُخبة من الأساتذة: معجم العلوم الاجتماعية، ص ٥٨٣.

والقيم التي تعتنقها الشعوب، والصواب- فيما أرى- أن نفعل العكس، فننطلق من مُثُل الشعوب وقيمها إلى تفسير آلهتها وأنصاف آلهتها ورموزها الأخرى، ونبحث- على ضوء ذلك- عن الحقائق في طيّات شعائرها وطقوسها.

٦ - إن نُخب الشعوب هم روّادها وطلائعها، إنهم وجدانها الحيّ وقلبها النابض وعقلها المفكر، وهم الفئة الأقدر على استشعار آلامها وآمالها، والأقدر على تمثّل مشروعها الوجودي، وهم — من ثَمّ- الفئة الأكثر إسهاماً في إنتاج ثقافاتها، عبر أفكارهم ومواقفهم وممارساتهم. أجل، إن نخب الشعوب هي التي تُنتج مُثُلها العليا وقيمها، وهي التي تجسّد تلك المُثل والقيم، وتسمو بها إلى أن تتحوّل في وجدان الشعب ووعيه الجمعي وفضائه الروحي إلى رموز روحية، إلى آلهة، تتمحور حولها منظومات المُثل والمبادئ والقيم، وتنتظم بها الحياة، ويصبح لها معنى، ويُفسَّر من خلالها لغزُ الوجود.

٧ — تأسيساً على ما سبق، يمكننا اختصار الطريق إلى فهم شخصية شعب ما، باستكشاف ملامح نُخَبه، تُرى ما الرموز المقدسة التي كانوا يجلّونها؟ وما المُثُل العليا التي استوحوها؟ وما القِيَم التي جسّدوها في أقوالهم وأفعالهم؟ وكيف كانت رؤيتهم إلى العالم؟ وكيف كانوا يتصرفون في اللحظات الحرجة والمواقف الصعبة الحاسمة؟ وكم كان مستوى تَمثُّلهم وتمثيلهم لوجدان الشعب في كل حركة وسَكَنة من حياتهم؟ وكم كانوا قادرين على تحطيم أغلال الأنانية والروح الفردية؟ وكم كانوا قادرين على الانصهار في روح الشعب أسلافاً وأحفاداً؟

إن النُخب الأصيلة بوصلة دقيقة، بهم يُعرَف موقع الشعب من التسامي أو الانحطاط، من النبل أو النذالة، من الشجاعة أو الجبن، من الصلابة أو التهافت، من المروءة أو الخِسّة، من الفداء أو الأنانية، من عشق الحرية أو تقبّل العبودية، من الاعتزاز بالهوية أو الانسلاخ من الهوية، من الروح الإنسانية أو الروح العدوانية. إن نخب الشعوب هم هذا كله، ولذلك لا عجب في أن نسترشد بالنخب الكوردية ونحن نبحث في سمات الشخصية الكوردية عامة، وفي الروح الحربية خاصة.

عوامل الروح الحربية عند الكورد:

ثمة عوامل موضوعية ثلاثة، تفاعلت منذ عشرات القرون في حياة المجتمع الكوردي، وأنتجت في النهاية شخصية تجذّرت فيها الروح الحربية، وتأصّلت فيها قابلية المبادرة إلى القتال كلما اقتضى الموقف ذلك، وتلك العوامل هي:

١ - **البيئة:** فقد مر في صفحات سابقات أن (الجبل) ينمّي في الإنسان إرادة الإقدام والاقتحام، ويرسّخ فيه النزوع إلى البسالة والشجاعة، وإلا فلن يستطيع الاحتفاظ بحياته على النحو المطلوب، وكان الفيلسوف اليونان هيپوقراط Hippocrates أقدم من أشار إلى العلاقة بين البيئة الجبلية ونموّ خَصلة الشجاعة.

٢ - **الثقافة:** إن التراث الثقافي الكوردي كان حاضنة للروح الحربية، ففي الزردشتية كان الإله الآري مِيثرا (مِيهر/مِير)- إله الشمس و العقود المُبْرَمة- يُقدَّس باعتباره إلهاً للحرب، إلى درجة أنه صار أساساً للعبادات عند الجنود الرومان، حينما انتشرت الميثرائية في أوربا قبل ميلاد المسيح. وكثيراً ما يوصف ميثرا بأنه صاحب **"الرمح الجريء المَهيب"**، وأنه **"المدجَّج بالسلاح"**، وأنه **"الأقوى من بين الآلهة، الأشجع من بين الآلهة، الأسرع من بين الآلهة"**، وكان يُمجَّد باعتباره **"ذا الأحصنة البيضاء، ذا الرماح الطويلة والحادّة، وسهامُه سريعة، وتُصيب مِن بعيد"**، وأن الإله آهورامَزدا خلقه **"حامياً لكل العالم الخيِّر"**[١].

ويبدو أن الوجدان الجمعي الآري- متمثّلاً في النُّخَب- أنتج في المخيّلة الآرية هذا الإله المقاتل ميثرا، ليكون مَثَلاً أعلى للشعوب الآرية في المجال الحربي، وليكون قدوة لها في التحلّي بالبسالة. ولكن ما الحاجة التي دفعت الوجدان الجمعي الآري إلى إنتاج الإله المحارب ميثرا؟ إن في (أڤستا) إجابات صريحة عن هذا السؤال" فقد ورد فيه مراراً عديدة أن البلاد الآرية (آريانا ڤيدجا /آريانا ڤادژ) كانت معرّضة للعدوان من قِبل **" الأعداء"**، وكانت ثمّة حاجة ماسّة إلى الدفاع عنها، وكان أولئك **" الأعداء"** في العهود القديمة من الشعوب الطورانية، وقد مرّ سابقاً أن الشعوب الطورانية كانت تجاور الشعوب الآرية من جهة الشرق، وكانت تطمح على الدوام إلى التمدد غرباً نحو الجغرافيا الآرية الأكثر خصباً والأقل برداً[٢].

---

١ - أڤستا، ياسنا، هايتي١، آية ١١، ص ٤٥. أڤستا ، ياسنا، هايتي ٣، آية ٢١، ص ٥٧. أڤستا ، ياسنا، هايتي ٣، آية ٢١، ص ٥٧. أڤستا، ياشت ١٠، آية ١٠٢، ١٠٣، ص ٤٩٩. أڤستا ، ڤيندیداد، فارگارد ١٩، آية ٢٩، ص ٣٥٧.

٢ - أڤستا ، ياشت ٥، آية ٤١ - ٤٣، ص ٤٠٨. ياشت ٥، آية ٥٤، ص ٤١١. ياشت ١٣، آية ٣٨، ص ٥٣٤. ياشت ١٧، آية ٤١، ٤٢، ص ٦٠١- ٦٠٢.

٣ – التحديات (الصراع): فُرض على الكوردي – كما على غيره- أن يمارس الحياة وفق قانون (البقاء للأصلح)، ومن هنا صار التاريخ الكوردي سلسلة طويلة من حلقات الصراع القاسي، وكان يأخذ في الغالب صراعاً تراجيدياً مريراً، وهو على ثلاثة أنواع: صراع ضد البيئة الجبلية، وصراع داخلي قَبَلي، وصراع خارجي ضد الأعداء" وفي جميع هذه الأنواع كان المجتمع الكوردي بحاجة ماسّة إلى التحلي بروح حربية عالية" كي يحقق الانتصار على التحدّيات التي تواجهه، ويحتفظ بوجوده.

تجلّيات الروح الحربية عند الكورد:

إن الشخصية ذات الروح الحربية- سواء أكانت شخصية فرد أم شخصية شعب- تمتاز بامتلاك إرادة القتال، والاستعداد لما يتطلّبه القتال من شجاعة وجسارة وإقدام، ومن استعداد للتض ة" بغضّ النظر عن النتائج أكان وهي غير قادرة أصلاً على الرض ف القاهرة أن تستسلم فإنما إلى ظروف مؤاتية.

محارب ميدي يصرع محاربا يونانيا
مأخوذ من ختم القرن الخامس قبل الميلاد

إلى قيّدة للرحّل وسعيَهم الدائم
كل نفسية جعلتهم ينفرون من
أنّ العالم مُلك الشجاع"[١].

١ - باسيلي نيكيتين: الكرد، ص ١٢٨.

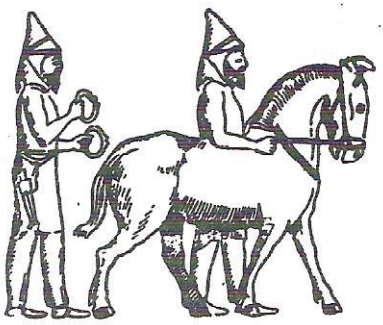

فارسان من قبائل الساكا ((السكيث))

الكو تاريخ أسلاف
آبهي ل الغازية، غير
والت ارث" كالبطش
الأكّ ولوبيين للدولة
ومق للدولة الحثية،
بالمق كانوا يكتفون
بالد مل الگوتيون
"لي ول دياكونوف:

ومن الأدلة على الميول القتالية عند أسلاف الكورد أن الأكّاديين سمّوهم (أُومان ماندا) Umman mande" ووصفوهم بأنهم (القوة المرعبة)، وقد وصف الملك الأكّادي نارام سين (٢٢٧٢ – ٢٢٣٥ ق.م) جهودَه المضنية لصدّ هجمات الأومّان- ماندا وإخضاعهم، قائلاً: **"هكذا خلق الآلهةُ الكبار المحاربين ذوي الأجساد الشبيهة بالبطّ، وذوي الوجوه كأنها الغربان،... نشأوا في وسط الجبال، سبعة ملوك إخوة ومتألقون وجميلون"**. وبعد أن وصف ضراوة الأومّان- ماندا في القتال قال: **"وجّهتُ ضدّهم ١٢٠٠٠٠ مقاتل، ولم يَعُدْ أحد منهم حيّاً، ولمّا أتت السنة الثانية وجّهتُ أيضاً ٩٠٠٠٠ مقاتل، وفي السنة الثالثة وجهت ٦٠٧٠٠٠ مقاتل، وعندئذ تملّكني الاضطراب والضياع والحزن، فقد تألّمت وتأوّهت، فقلت في نفسي: ماذا سأترك لخلفائي"**[٢]؟

ويبدو أن البابليين والآشوريين ورثوا من الأكّاديين إطلاق اسم (أومّان – ماندا) على أسلاف الكورد في جبال زاغروس، وظل اسم (ماندا/مَنْدا/مَنْد) في التراث الكوردي الأيزدي إلى يومنا هذا. ويتّضح من أقوال **دياكونوف** أنه كان في المجتمع الميدي طبقة من المحاربين يسمّون (كارا)

---

١ - دياكونوف: ميديا، ص ١٨٥.

٢ - دياكونوف: ميديا، ص ٨٣. رينيه لابات وآخرون: سلسلة الأساطير السورية، ص ٣٦٤، ٣٦٨. باسيلي نيكيتين: الكرد، ص ٥٣. توفيق سليمان: دراسات في حضارات غرب آسية القديمة، ص١٣١- ١٣٢. هديب غزالة: الدولة البابلية الحديثة، ص ٦٣.

Kara، وأن هؤلاء كانوا يشكلون الفئة الأكثر أهمية في المجتمع، وعلى أيديهم سقطت إمبراطورية آشور، وتأسست إمبراطورية ميديا[1].

وفي سنة (٤٠١ ق.م) نشب صراع بين الملك الفارسي **أَرْتازَرْكْسيس** الثاني وأخيه **كُورش** حاكم الأناضول، واستعان كورش بجيش من المرتزقة اليونان، مؤلف من عشرة آلاف مقاتل، ودارت المعركة بين الفريقين في كوناكسا Cunaxa قرب بابل، ولقي قورش مصرعه، وتراجع المرتزقة اليونان بقيادة **إكسنوفون** Xenophon[2] شمالاً نحو البحر الأسود، وكان عليهم أن يمروا بأراضي الكوردوخ Kordukh الميديين، وقد خلّد إكسنوفون أحداث تلك الرحلة في كتابه (أناباسيس) Anabasis، ووصف أساليب الشعب الكوردوخي في القتال، وشراستهم في التصدي لمن يقتحم بلادهم، ووصف المعاناة الصعبة التي لقيها الجنود اليونان للنجاة من هجماتهم[3].

وبعد إكسنوفون توصّل المؤرخ اليوناني **ديودوروس** إلى استنتاج تبنّاه كثيرون بعده على مر العصور اللاحقة" فقد رأى أن من الأفضل إبقاء الكورد في معاقلهم الجبلية بدلاً من احتلالها" لأن احتلالها يتسبّب للإمبراطوريات والجيوش بمتاعب تفوق ما يمكن تحقيقه من مكاسب، ويكفي منع الكورد بالقوة أو بالرضا من تهديد السهول[4].

وطوال العهود الفارسية، والرومانية، والبيزنطية، والعربية، والمغولية، والسُّلجوقية، والعثمانية، كانت الجيوش التي تقتحم كردستان تلاقي متاعب ومصاعب جمّة، نتيجة المقاومة الكوردية الضارية، والخسائر الجسيمة التي كانت تحلّ بتلك الجيوش، وقد سقنا الأدلة على ذلك في كتابنا (تاريخ الكورد في الحضارة الإسلامية)، وفي كتابنا (عباقرة كردستان في القيادة والسياسة). والحقيقة أن ضراوة الكورد في القتال، وإصرارهم على التصدّي للغزاة والفاتحين، وعدم وقوفهم مكتوفي الأيدي أمام المعتدين عليهم، كان من أكثر الأسباب التي جعلت الجهات

---

١ - دياكونوف: ميديا، ص ٣٠٤، ٣١٥.

٢ - إكسنوفون من تلامذة الفيلسوف سقراط.

٣ - هـ. ج. ولز: معالم تاريخ الإنسانية، ٣٧٦/٢. وليام لانجر: موسوعة تاريخ العالم، ٩٤/١. أرشاك سافراستيان: الكرد وكردستان، ص ٣٤، ٥٦ - ٥٧. جمال رشيد أحمد: ظهور الكورد في التاريخ، ٩٧/١.

٤ - جوناثان راندل: أمة في شقاق، ص ٣٥.

المهاجمة تحنق عليهم، وتُلبسهم الأوصاف المنفِّرة" من قَبيل أنهم متوحّشون، وهمج، وقطّاع طرق، وأشقياء.

ويبدو أن ميول الكورد القتالية، ومقاومتهم الشديدة في عهد الفتوحات الإسلامية، جعلت بعض مفسّري القرآن الكريم يُدرجونهم في عداد القوم الذين وصفهم الله تعالى بأنهم **"أُولو بأسٍ شديد"**، وذلك في الآية القرآنية **{قُلْ لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ}**[1]. وقد قال ابن أبي حاتم في تفسيره: **"عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فِي قَوْلِهِ (أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ)، قَالَ: هُمُ البَآرِزُ، يَعنِي الأكرادَ"**[2]. وجاء ذلك أيضاً في (تفسير ابن كَثِير، ج ٤، ص ١٩٠)، وتفسير (الدّرّ المَنْثور، ج ٢٦، ص ٥١٩) للسُّيوطي، وتفسير (فَتْح القَدير، ج ٥، ص ٦٩) للشُّوكاني، وتفسير (روح المعاني، ج ٢٥، ص ١٠٢ – ١٠٣) للآلُوسي.

ثانياً – الكوردي وعشق السلاح:

إن تعلّق الكورد بالأسلحة يتجلّى في ثلاثة مجالات:

أ – شهرة السلاح الكوردي: إن أصحاب الروح الحربية يكونون في العادة شغفون بالأسلحة، ومهتمّون بها صناعةً واقتناء، وفي المصادر التاريخية أدلة كثيرة على عشق الكوردي- أسلافاً وأحفاداً- للأسلحة، لقد وصف هيرودوت بعض الفرق المقاتلة في جيش الملك الفارسي أَرْتازَرْكْسيس الأول Xerxes الزاحف على بلاد اليونان، سنة (٤٨٠ ق.م) قائلاً: **"وسلاحُهم القوسُ والنُّشّاب[3] والرماح الميدية"**[4]. وقال في وصف فرقة أخرى: **"وسلاحُهم القوسُ الميدي"**[5]. وذكر جرنوت فيلهلم: **"أن شهرة القوس الميتّاني خلال القرن الرابع عشر تجاوزت حدود البلاد"**[6].

---

١ – سورة الفتح، الآية ١٦.

٢ – ابن أبي حاتم: تفسير ابن أبي حاتم، ج ١٠، ص ٣٣٠٠. والبآزر: الجبليون.

٣ – النُّشّاب: السهام.

٤ – هيرودوت: تاريخ هيرودوت، ص ٥١٧.

٥ – المرجع السابق، ص ٥١٧.

٦ – جرنوت فيلهلم: الحوريون، ص ٨٧.

ويبدو أن شهرة السلاح الميدي كانت قد شاعت بين شعوب غربي آسيا، حتى إنها وصلت إلى أعماق شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام، وظهرت في قصائد بعض الشعراء، باسم السلاح (الماذي)، وكلمة (ماذي) هي الصيغة العربية لاسم (مادي/ميدي)، مثل (بغداد/بغذاذ)، و(قُباد/قُباذ)، ومن الشعراء الذين ذكروا السلاح الماذي (الميدي) في قصائدهم النابِغة الذُّبياني، مادحاً بعض العرب:

مُسْتَحْقِبِي حَلَقِ الماذِيِّ يَقْدُمُهم
شُمُّ العَرانِينِ ضَرَّابُونَ لِلهـــامِ[1]

ومنهم الشاعر عبد الله بن رَواحَة مفتخراً قبل الإسلام:

ومُعْتَرَكٍ ضَنْكٍ يُرى الموتُ وَسْطَهُ
مَشَينا له مَشْيَ الجِمال المَصاعِبِ
برَجْلٍ تَرى المـاذِيَّ فوق جلودهمْ
وبَيْضاً نَقيّاً مثلَ لـــون الكواكبِ[2]

ويبدو أيضاً أن عشق أسلاف الكورد للأسلحة جعلهم يهتمّون بصناعتها، وثمّة في بعض كتب تفسير القرآن الكريم إشارة إلى براعة أسلاف الكورد في صناعة السلاح، وقد جاءت الإشارة في تفسير قصة إلقاء النبي إبراهيم- عليه السلام- في النار، بأمر من الملك نمرود.

قال ابن كَثِير: **"ثم وضعوا إبراهيم- عليه السلام- في كِفّة مَنْجَنيق صنعه لهم رجلٌ من الأكراد يقال له: هَيزَن، وكان أوّل من صنع المجانيق، فخسف الله به الأرض، فهو يَتجَلْجَل فيها إلى يوم القيامة"**[3]. وقال أبو السُّعود في تفسيره: **"فلم يعلموا كيف يُلقونه- عليه السلام- فيها، فأتى إبليسُ وعلّمهم عمل المِنْجنيق، فعمِلوه، وقيل: صنعه لهم رجلٌ من الأكراد، فخسف الله تعالى به الأرضَ، فهو يَتجَلْجَل فيها إلى يوم القيامة"**[4].

---

١ - النابغة الذبياني: ديوان النابغة الذبياني، ص ٢٣٠. ومستحقب: حامل معه. حلق الماذي: السلاح. العرانين: الأنوف. الهام: الرؤوس.

٢ - ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج ١، ص ٦٨٣. معترك: معركة. ضنك: حامية جداً. المصاعب: جمع مُصْعَب، وهو الفحل القوي. ورَجْل: مقاتلون مشاة. الماذيّ: السلاح. بَيْض: جمع بَيْضة، أي خُوذة.

٣ - ابن كَثِير: قصص الأنبياء، ص ١٢٧.

٤ - أبو السعود: إرشاد العقل السليم، ج ٦، ص ٧٦.

وصحيح أن الزجّ بالكوردي هيزن (هَوْزان/هُوزان)، في قصة حرق النبي إبراهيم، جاء لتشويه سمعة الكورد، ووضعهم في صفّ إبليس- وقد تناولنا ذلك تفصيلاً في سلسلة (دراسات في التاريخ الكوردي) - أقول: مع ذلك فهذه الرواية مؤسسة على ما كان في الذاكرة الغرب آسيوية، بخصوص شهرة الكورد بالأسلحة، وهي شهرة راجعة إلى عهود أسلافهم، فقد اشتهر الميتّ ون على إمبراطورية آشور القو لآشورية جودةً؟ وهل يُعقَل أن ت ج الأسلحة بأنواعها، ومن بينه

قول دبليو آر (حاكم أربيل السب "**ويحول الكوردي- إن سُمح له- أنطقة مليئة بالعَتاد تحيط بخَصْ** ئلاً بشأن إطلاق الرصاص عند **وفيرة عندهم**"[٣].

ر الإعجاب فعلاً أنّ هؤلاء الرج بمال. فأيُّ تناقض هذا الذي يَصد ، البالية التي يلبسونها عن دريه هكذا كان الأمر لعدّة قرون خلت"[٤].

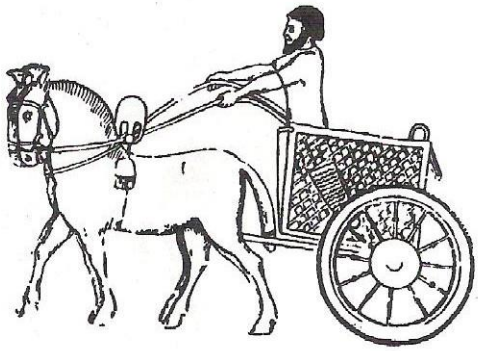

عربة للميديين يجرها فرس من برسبوليس استيل القرن الخامس قبل الميلاد

ب – الدقة في إصابة الهدف: إن الحرص على إصابة الهدف أحد مظاهر الروح القتالية وعشق الأسلحة، قال مينورسكي، وقد عاش بين الكورد مدة غير قصيرة: "**إنهم يصيبون الهدف**

---

١ - جرنوت فيلهلم: الحوريون، ص ٥٠.

٢ - دبليو آر. هي: مذكرات دبليو آر، ص ٧٧.

٣ - المرجع السابق، ص ١٤٨.

٤ - باسيلي نيكيتين: الكرد، ص ٢٦٩.

٥ - دانا آدمز شمدت: رحلة إلى بلاد شجعان، ص ٩٢.

في كل الأحوال، وقد رأيت شخصياً سِمْكو المشهور ألبس خرطوشةً فارغة في غصنٍ متحرّكٍ من شجرة، وقد أصابها بالضبط في منتصفها على بعد ١٥ خطوة"[١]. وقال دانا آدمز: **"وإصابة الهدف هي مَدعاة فخرٍ لدى الكورد كلهم تقريباً"**[٢].

وفي قرية سپيندار سنة (١٩٤٤ م)، وخلال وقف إطلاق النار بين الجيش الملكي العراقي والثوّار الكورد، دعا المرحوم ملا مصطفى بارزاني آمر اللواء العراقي أمين راوندوزي وضباطه لتناول الغداء معه، وفي أثناء تلبية الدعوة أراد آمر اللواء أن يختبر ما عُرف عن البارزاني من دقة إصابته الهدف، فأخرج من جيبه علبة سجاير، ووضعها على مسافة بعيدة، وطلب من البارزاني أن يصيبها بطلقة من بندقيته. فأصابها البارزاني في الصميم برصاصة واحدة، وأعاد أمين العلبة إلى جيبه، قائلاً: سأحتفظ بها على سبيل الذكرى مدى حياتي[٣].

ج – سلاح الفرسان الكوردي: لعل موضوع حبّ الأسلحة عند الكورد يصبح أكثر وضوحاً" إذا علمنا أن سلاح الفرسان كان العامل الأكثر حسماً في الحروب القديمة، وكانت الخيل الركيزة الأساسية لسلاح الفرسان، وكان الفرع الآري من أسلاف الكورد أول من أدخل استخدام الخيل إلى غربي آسيا، يقول الدكتور محمد بَيّومي مهران بشأن الكاشيين:

"وقد أدخل الكاشيون سلالات جديدة من الخيول، قادمين بها من سهوب آسيا الوسطى، وأصبحت الخيول تصدَّر من العراق إلى مصر، وكانت لهم عناية فائقة بتربية الخيل، بل إنّ هناك من يذهب إلى أن الكاشيين قد أدخلوا الحصان والعَرَبة إلى العراق القديم"[٤].

وتفيد المصادر التاريخية أن الخيول كانت معظم ثروة الميديين، وكان الفارس الميدي يركب ظهر الجواد العاري، كما أن كلمة أسب Asp (الجواد الأصيل) كلمة ميدية، وكان سهل (نِيسِيان) في ميديا أشهر مناطق غربي آسيا بتربية الخيول التي وصفها هيرودوت بأنها **"لا مثيل لها في العالم"**. وإضافة إلى الخيل استخدم أسلاف الكورد العربات الحربية ذات العجلتين في العمليات العسكرية، وخاصة في مملكة ميتّاني، وفي هذه المملكة ظهرت طبقة الفرسان المعروفة باسم (ماريانّو)، ولا تخفى صلته بالكلمة الكوردية (مَير) Mair بمعنى (رجل/بطل). وفي العصر الحديث قال باسيلي نيكيتين:

---

١ – مينورسكي: الأكراد، ص ٦ ، هامش ٧. وإسماعيل سمكو زعيم قبيلة شكاك.

٢ – دانا آدمز شمدت: رحلة إلى بلاد شجعان، ص ١٠٢.

٣ – مسعود البارزاني: البارزاني والحركة التحررية الكردية، ١/١٠٠.

٤ – محمد بَيُّومي مهران: تاريخ العراق القديم، ص ٣٠٠.

"ويُعَدّ الكورد بوجه عامّ فرساناً مَهَرة، والرحّالةُ الذين زاروا المناطق الكوردية التي تُربّى فيها الخيول لم يكفّوا عن الإشادة بمآثرهم في الفروسية"[1].

ثالثاً - الكورد في الجيوش الإمبراطورية:

لم يتطلّع حكام إمبراطوريات غربي آسيا إلى السيطرة على كردستان لأغراض جيوسياسية فقط، أو لوضع أيديهم على ثرواتها فقط، وإنما للإفادة من القوة القتالية الكوردية أيضاً، وتوظيفها في حروبهم التوسعية، وسبق أن ذكرنا تأثير الحضارة الحورية في الإمبراطورية الحثّية، وخاصة دور الفارس الحوري كيكولي Kikkuli (كاك كولي) في تطوير سلاح المركبات الحثّي وتدريبه، وتأليفه كتاباً خاصاً بتدريب الخيل قبل اثنين وثلاثين قرناً[2].

وكان الفرس الأخمين أكثر الناس معرفة بمزايا الميديين القتالية، فهم قد أسقطوا دولة ميديا، ووظّفوا المقاتلين الميد في حروبهم الإمبراطورية الكثيرة، وحسبُنا دليلاً على ذلك أن الملك الفارسي كورش عيّن **هارپاك الميدي** قائداً للقوات الفارسية التي كُلّفت بإخضاع مملكة ليديا في آسيا الصغرى، ولمّا ثارت ليديا ثانية عيّن كورش القائد الميدي **مازاريس** (ت ٥٤٦ ق.م) لقيادة القوات الفارسية المكلّفة بقمع الثورة، ومر سباقاً أن **داتيس الميدي** كان قائد الجيش الفارسي في معركة **ماراثون** Marathon سنة (٤٩٠ ق.م) ضد اليونان.

وكانت الفرق المقاتلة الميدية تأتي في الدرجة الثانية، من حيث الأهمية في الجيش الفارسي، بعد قوات الخالدين الفارسية، وكان القائد الميدي **أتروبات** يقود جيشاً ميدياً كبيراً في معركة **إسوس** التي دارت بين الملك الفارسي **دارا الثالث** و**الإسكندر المكدوني** سنة (٣٣٣ ق.م)[3].

وفي العهود الإسلامية، وطوال أربعة عشر قرناً، كانت القوة القتالية الكوردية حاضرة في معظم الأحداث التي دارت في غربي آسيا، بدءاً من أيام الفتوحات الإسلامية، ومروراً بالصراع الأموي العباسي، وبالثورات التي نشبت ضد الأمويين والعباسيين، وبالعهد البُوَيْهي، فالسُّلْجوقي، فالزَّنگـي، فالأيوبي، فالمملوكي، وانتهاء بالعهد الصَّفَوي- العُثماني. وقد

---

١ - دياكونوف: ميديا، ص ٣٤٩. جماعة من علماء الآثار السوفييت: العراق القديم، ص ٤٦٨. هيرودوت: تاريخ هيرودوت، ص ٥٠٨. جرنوت فيلهلم: الحوريون، ص ٥٠. باسيلي نيكيتين: الكرد، ص ١٠١.

٢ - عبد الحميد زايد: الشرق الخالد، ص ٤٧٣. وليام لانجر: موسوعة تاريخ العالم، ٦٢/١.

٣ - دياكونوف: ميديا، ص ٣٩٢، ٤١٢. وانظر هيرودوت: تاريخ هيرودوت، ص ٥٧١، ٦١٦، ٦٢٧، ٦٥٩. دياكونوف: ميديا، هوامش الفصل السابع ١٠٢. وليام لانجر: موسوعة تاريخ العالم، ٩٤/١.

أوردتُ كثيراً من الأدلة على ذلك في كتاب (تاريخ الكورد في الحضارة الإسلامية)، وفي كتاب (عباقرة كردستان في القيادة والسياسة).

وحسبُنا الإشارة في هذا المجال إلى دور أسرة البَرامِكَة، ودور القائد أبي مُسلِم الخُراساني (الكوردي حسب قول الشاعر أبي دُلامَة)، في إسقاط الدولة الأموية، وإيصال العباسيين إلى سُدّة الخلافة، ودور الكورد- بقيادة عِصْمَة الكوردي- في ثورة بابِك الخُرَّمي الكبرى ضد الدولة العباسية حوالي خمسة عشر عاماً، ودور القوة المقاتلة الكوردية- (١٠٠٠٠) عشرة ألاف فارس- في النصر الحاسم الذي حقّقه السلطان السلجوقي **ألْب أرسلان** على الإمبراطور البيزنطي **أرمانوس**، بمعركة مَلازْكُرْد سنة (٤٦٣ هـ/١٠٧١ م)، ودور القوة المقاتلة الكوردية، بقيادة الأخوين أيُّوب وشَيركُوه، في الانتصارات التي حققها عماد الدين زَنْكي، وابنه السلطان نور الدين زَنْكي، على الفرنجة (الصليبيين).

وحسبنا الإشارة أيضاً إلى دور القوة القتالية الكوردية في جميع المعارك التي خاضها صلاح الدين الأيوبي ضد الفرنجة، بدءاً بردّ هجومهم على مصر، ومروراً بمعركة حِطّين، وانتهاء بمعركة تحرير مدينة القدس، وما تلاها من معارك ضارية ضد جيوش أكبر إمبراطوريات أوربا حينذاك (ألمانيا وفرنسا وإنكلترا). ولن نقف طويلاً عند دور القوة القتالية الكوردية في حماية شرقي المتوسط ضد الحملات الصليبية، طوال العهد الأيوبي بعد وفاة صلاح الدين، فذلك أمر أشهر من ندلّل عليه.

وجدير بالذكر أيضاً أن المماليك — تلامذة الأيوبيين في الفروسية- استثمروا القوة القتالية الكوردية في حروبهم، بعد أن فتكوا بآخر سلطان أيوبي (تَوْران شاه) سنة (٦٤٧ هـ/١٢٤٩ م)، وورثوا الدولة الأيوبية. وذكر المؤرخ التركي **يِلْماز أُوزْتُونا** أنه كان للمماليك جيش احتياطي من الكورد تعداده (٢٠٠٠٠) عشرون ألف مقاتل، أكثرهم خيّالة، وكانت هذه القوات تُجمع من الأناضول وشمالي سوريا، وتُستدعى عند الحاجة[١].

ومن يدقق النظر في العهد الصفوي- العثماني يدركْ أنه، لا الصفويون ولا العثمانيون، كانوا قادرين على تجاهل القوة القتالية الكوردية، في مشاريعهم للسيطرة على غربي آسيا، ولذلك كان شاهات الصفويين وسلاطين العثمانيين حريصين على استقطاب زعماء القبائل الكوردية إلى جانبهم، ولولا انحياز معظم زعماء القبائل الكوردية، بمساعي الشيخ إدريس بدليسي، إلى العثمانيين، لما انتصر السلطان سليم الأول على الشاه إسماعيل الصفوي في معركة **جَلْديران** سنة (١٥١٤ م)[٢].

---

١ - يلماز أوزتونا: تاريخ الدولة العثمانية، ٢٢٧/١.

٢ - المرجع السابق، ٢١٩/١.

٨

الشجاعة والبسالة في الشخصية الكوردية

القيم والأمم:

القيم من أهم المداخل إلى معرفة الأمم، وكي تستكشف شخصية أمة ما ابحث عن قيمها، ترى هل الغالب عليها قيم النبل والارتقاء، أم قيم الدناءة والانحطاط؟ قيم الفداء والحرية، أم قيم الاستسلام والعبودية؟ قيم الشموخ والإباء، أم قيم الذل والخنوع؟ وهل هي قيم تشدّ معتنقيها إلى الفخار والأصالة، أم تدفعهم إلى الانسلاخ والانمساخ؟ وهل هي قيم تعزّز إنسانية الإنسان، أم هي قيم تدمّر إنسانية الإنسان؟

والأمة الأكثر هزيمة عبر التاريخ هي الأمة المنسلخة من قيمها، المغتربة عن ذاتها، الهاربة من هويتها، المتخلّية عن إنسانيتها، وإن أنبل المعارك التي تخوضها الأمم أربع: الأولى معركتها دفاعاً عن جغرافيتها" إذ لا كرامة من غير جغرافيا. والثانية معركتها دفاعاً عن تاريخها" إذ لا مستقبل من غير تاريخ. والثالثة معركتها دفاعاً عن لغتها" إذ لا هوية من لغة. والرابعة معركتها دفاعاً عن قيمها" إذ لا أصالة ولا أمجاد من غير قيم.

وقيم الأمم ليست ترفاً ولا عبثاً، إنها تجلّيات تُفصح بها الأمم عن هويتها، وهي ضوابط تبدعها الأمم لتحقيق الوجود الأفضل، وهي منارات تسترشد بها الأمم في مسيرة التاريخ البشري. وليس هذا فحسب" وإنما القيم مكوّن أساسي من مكوّنات الوعي الكلّياني للأمة، وبنية جوهرية من بنى ضميرها الجمعي. وهي ليست كالفطر" تنبت وتزول بين عشية وضحاها، وإنما تتشكّل ببطء عبر آلاف السنين، وتتنامى وتتنقَّح وتتطوّر وتتعدّل، وقد تتصاعد وتتسامى، وقد تتقزّم وتنحطّ. والوجدان النخبوي الأصيل (وجدان النخب القدوة) هو المزرعة

الأكثر خصوبة لميلاد القيم العظمى، وهو الذي يصونها من جاذبيات التشوّه والانحطاط، ويضعها بثبات في مدارات المُثل العليا" ليستقي منها الوجدان الجمعي جيلاً بعد جيل.

وإن الأمم التي يُرمى بها بعيداً عن مسارات التاريخ ليست هي التي تُباد فيزيائياً فقط، وإنما أيضاً هي التي تنهار منظومتها الأخلاقية، وتُدمَّر قيمُها الأصيلة المجيدة، فتصبح أمة مشوَّهة، أمة ممسوخة، أمة مهزومة، أمة من الهياكل الجوفاء والخدم والعبيد" وهذا ما كان يفعله كهنة المشاريع الاستعمارية في كل عصر بالأمم المغلوبة على أمرها. وإليكم المثال التالي في هذا المجال:

في سنة (٥٤٧ ق.م) سقطت سارْديس عاصمة لِيديا في يدي كورش الفارسي، ووقع الملك الليدي كرويسوس Croesus (قارون) في الأسر، وبينما كان كورش عائداً إلى ميديا ومعه كرويسوس، قاد ليدي يسمى باكْتِياس الثورةَ ضد الحكم الفارسي، ولّما سمع كورش الخبر قرر أن يجعل الليديين أرقّاء، ويبيعهم في أسواق النخاسة، وعرض قراره على كرويسوس، فخشي كرويسوس على قومه من العبودية، وقال لكورش: " **الرأي عندي أن تَحظر عليهم حمل السلاح، ولْيرتدوا من الآن فصاعداً الإزارات تحت عباءاتهم، ولْينتعلوا النعال العالية، ومُروهم بأن يعلّموا أبناءهم العزف على القيثار، فإذا ما انتهجتم هذا النهج- يا مولاي- وجدتم أن هؤلاء الرجال سرعان ما غدوا نساء**[1]**، وما عدتم تخشون من أمرهم شيئاً** "[2]. وكذلك فعل كورش، وسرعان ما أصبح الليديون في طيّ النسيان.

إن قادة الشعوب الذين ينطلقون في سياساتهم من حسابات شخصية، ويقدّمون سلامتهم على مستقبل شعوبهم، ولا يدركون خطورة تدمير منظومة القيم السامية، يتحوّلون إلى بلاء ينصبّ على رؤوس شعوبهم، ويجرّون شعوبهم- من حيث يدرون ولا يدرون- إلى الهاوية. ويبدو أن كرويسوس كان من هؤلاء، فقد كان شعب ليديا مشهوراً بالفروسية، ومرّ أن الحرب دامت بين ميديا بقيادة **كَيْخُسْرو** وليديا بقيادة **إلْياتّس** ست سنوات (٥٩٠ – ٥٨٥ ق.م)، ولم يستطع أيّ فريق تحقيق النصر، علماً بأن دولة ميديا كانت قد أسقطت- قبل سنوات قليلة- دولة آشور القوية العاتية، فهل كان كرويسوس يدرك أنه يرشد كورش إلى تدمير قيم البطولة في شعبه؟ وهل كان يعرف أن اقتراحه يعني إطفاء جذوة الكبرياء في أبناء وطنه؟ وأيّ شأن يكون لشعب

---

١ - باعتبار أن النساء مثال للضعف في ثقافات غربي آسيا.

٢ - هيرودوت: تاريخ هيرودوت ص ١٠٣ – ١٠٤.

فُرّغ من روح الكفاح والفداء؟ ومتى كان شعب من اللاهين والمخنَّثين قادراً على وضع زمام أموره في يده؟

الكورد وقيم الفروسية:

أ – ما هي الفروسية؟ إن الفروسية قيمة إنسانية عظمى، يسير تحت لوائها حشد من أكثر القيم نقاء ونصاعة وجمالاً وجلالاً، إن الفروسية تعني الشجاعة والبطولة، وتعني الشمم والإباء، وتعني العزة والكبرياء، وتعني عشق الحرية وصون الكرامة، وتعني الكفاح وروح الفداء، وتعني الثبات على المبادئ والنبل في المواقف. وأن تجسّد الفروسية في شخصك يعني أن تندفع طوعاً إلى أكثر المواقف خطورة، بأكبر قدر من الشجاعة، وبأعلى مستوى من الشهامة، وبأرفع درجات الصلابة، وبأسمى أشكال الفداء.

وصحيح أن للفروسية صلة وثيقة بالروح الحربية، بل هي إحدى تجلّيات تلك الروح، لكنها لا تكتسب قيمتها الإنسانية الحقيقية ما لم تكن دفاعاً عن هوية الإنسان، وعن كرامة الإنسان، وعن إنسانية الإنسان. وبما أن الفروسية هي كل هذا وأكثر من كل هذا، فكيف لا تحوز مكانة مرموقة في ثقافات الأمم؟ وكيف لا تُسبغ الشعوب على من جسّدوها في شخصياتهم جميعَ أشكال التقدير والتبجيل؟ وكيف لا تتخذهم الأجيال قدوة لها في كل صغيرة وكبيرة؟ وكيف لا تُحْيي ذكراهم عبر القرون؟

ب – الكورد الفروسية: تفيد مصادر تاريخ غربي آسيا، وشهادات الكُتّاب الذين خالطوا الكورد، أن الفروسية خَصلة أصيلة في الشخصية الكوردية، ولا نحسب أن الباحث الأرمني آبوڤيان كان يلقي الكلام هباءً حينما قال:

"نستطيع أن نُطلق على الكورد لقب (فرسان الشرق) بكل ما في هذه الكلمة من مدلول، فيما لو عاشوا حياة أكثر تحضّراً، ذلك أن الصفات والخصائص المشتركة لهذا الشعب تتلخّص في استعدادهم الدائم للقتال، واستقامتهم، وأدبهم، وإخلاصِهم المطلق لأمرائهم، والتزامِهم الدقيق بكلامهم، وحُسنِ ضيافتهم، والثأرِ للدم المهدور، والعداوةِ القبلية التي تنشب حتى بين أقرب الأقرباء، والصبرِ على السلب وقطع الطريق، واحترامِهم غير المحدود للنساء"[1].

إن فروسية الكورد- حسبما يرى آبوڤيان- تتجسّد في استعدادهم الدائم للقتال، وعشقِهم الدائم للحرية، وتشبّثِهم الدائم بالكرامة، ورفضِهم الدائم لكل أشكال الخنوع والمذلة. وتتمثّل

---

١ - باسيلي نيكيتين: الكرد، ص ١٣٩.

فروسية الكورد- كما يرى آبوڤيان أيضاً- في الثبات على المبدأ، والصلابة في الموقف، والتحام القول بالفعل، والترفع عن أساليب الغدر والمكر والخداع، واحترام الذات واحترام الآخر، ونبذ النهج العدواني، وفي الإخلاص للزعماء (النخب)، وفي حسن الضيافة، وفي الاحترام غير المحدود للنساء. أما الثأر للدم المهدور فكان جزءاً من آليات الردع التي كان معمولاً بها في الطور الاجتماعي القبلي، وكان من عوامل صون الحياة البشرية، وفق قاعدة **"القتل أنفى للقتل"**. أما مسألة السلب وقطع الطرق، وصلتها بقيم الفروسية، فلنا معها وقفة تفصيلية مستقبلاً.

وقال مينورسكي معلّقاً على قول آبوڤيان:

"يسمّى آبوڤيان الأكراد (فرسان الشرق)، لا شك أن هذا التعريف لا يزال يحافظ على معناه بصورة خاصة إذا كان الأمر متعلقاً بالطبقة العليا من الأكراد (رؤساء القبائل والإقطاع)، وهو ينطبق عملياً وواقعياً على حياة القرون الوسطى في كردستان"[1].

وألقى نيكيتين الضوء على العلاقة بين قيم الفروسية وعراقة الكورد في اقتناء الخيل، قائلاً: **"ويُعَدّ الكورد بوجه عامّ فرساناً مَهَرة، والرحّالةُ الذين زاروا المناطق الكوردية التي تُربّى فيها الخيول لم يكفّوا عن الإشادة بمآثرهم في الفروسية"**. ووصف اهتمام الكورد بالفروسية في المناسبات كالأعياد والأعراس قائلاً: **"فقد تجمّع الفتيان مع خيولهم لمباريات الفروسية (جريت بازي) Çirît bazî، وكان كلٌّ منهم يحاول أن يُثبت أصالة فرسه، ويتنافسون فيما بينهم حول من سيكون الفائز بينهم، في حين كان البعض الآخر يؤكد على نباهة فرسه وأصوله"**. وختم حديثه قائلاً: **"ويعزو الرحّالة والعلماء جودةَ الأغاني الكوردية وسُموَّها إلى صفات الفروسية التي يتحلّى بها الكورد أنفسهم"**[2].

ج – الفروسية وثقافة المشاعية: وقد مر في صفحات سابقة أن قيم المجتمعات جزء أصيل من ثقافاتها، وأن ثقافات المجتمعات تأسست في العصر الحجري القديم (الباليوليثي)Paleolithic ، وهو عصر مغرق في القِدم، وتطوّرت في العصر الحجري الوسيط (الميزوليثي) Mesolithic، وهو يبدأ من حدود الألف (١٠ ق.م)، وتابعت تطوّرها في العصر الحجري الحديث (النيوليثي) Neolithic، وهو يبدأ في حدود الألف (٩ ق.م). وعلمنا سابقاً

---

١ - مينورسكي: الأكراد، ص ٦١.

٢ - باسيلي نيكيتين: الكرد، ص ١٠١، ١٨٧، ٢٢٤.

أيضاً أن ثقافة المجتمعات لا تنشأ من فراغ، وإنما هي نتاج تفاعل ثلاث مكوّنات: المكوّن البيولوجي (الجيني)، والمكوّن الإيكولوجي (البيئي)، والمكوّن الصراعي (التحديات).

وفي تلك العصور القديمة جداً، وفي إطار تفاعل المكوّنات الثلاثة المشار إليها، أنتجت المجتمعات مُثُلها العليا ومبادئها وقيمها، ليس للفضول ولا للعبث، وإنما لتتخذها درعاً تصون بها وجودها من الانمحاق، ولتكون سياجاً يقيها من الأخطار، ولتوفّر لها القدرة على الحياة بالكيفية المثلى. وإذا أخذنا في الحسبان أن النمط المشاعي كان السائد في مجتمعات العصور الحجرية، وما كان تكاثر البشر قد بلغ مستوى العشائر والقبائل، وأن البشر كانوا يعيشون على شكل جماعات قليلة العدد، أدركنا أهمية حاجة الجماعات البشرية إلى نشأة القيم الإنسانية الأصيلة.

أجل، كيف يمكن للرجال أن يتوغّلوا في الغابات والجبال، ما لم يتصفوا بالجرأة والبسالة؟ وكيف لهم أن يقاوموا الوحوش ما لم يتّصفوا بالقوة والشجاعة؟ وكيف يمكنهم أن ينقذوا زميلاً لهم من براثن أسد هائج، أو نمر غاضب، أو دبّ مخيف، ما لم يتحلّوا بروح التضحية والفداء؟ وهل يمكن لمن اصطاد صيداً أن يتقاسمه مع من رجع خالي الوفاض، ما لم يتّسم بخَصلة النبل والإيثار؟ وكيف يمكن للنساء في الكهف المشترك، أو في المستوطنة- وقد غاب عنهن الرجال في رحلة الصيد- أن يحافظن على الأولاد، ما لم يتحلّين بروح التضامن؟ وكيف لهن أن يردين عدوان الوحوش ما لم يتحلّين بالشجاعة؟ وكيف يمكن لمجتمع مشاعي كهذا أن تنتظم أموره في غياب نُخب تجسّد جميع القيم السابقة؟

وباختصار: إن القيم الإنسانية الأصيلة- ومن بينها قيم الفروسية- هي نتاج مجتمعات عهود المشاعية، عهود الفطرة" عهودٌ كان فيها الفرد متوحِّداً في الجماعة، عهود لم يتحوّل فيها (فائض الإنتاج) إلى سوط يجلد البشر بمختلف أشكال الاستغلال والإذلال والعبودية، عهود لم يكن فيها مكان للأرقّاء والإماء، الجميع أحرار والجميع متساوون في الحقوق والواجبات، عهود لم تتحوّل فيها (القيادة) إلى سلطة تطوّق الأعناق بسلاسل القهر، وتكبّل الأفئدة قبل العقول، ولم تصبح فيها (المدنيّة) مفرخة للأنانية والاستئثار والجبن والمكر والغدر. وبقدر بقاء المجتمعات البشرية على تماسٍ مع بنى ثقافة المشاعية- قليلاً أو كثيراً- احتفظت بقيم عهود الفطرة، ومنها الفروسية.

إن المجتمع الكوردي كان- طوال تاريخه- على تماسٍ مع بنى ثقافة المشاعية، بل أعدّ نفسي شاهداً على أن بعض مظاهر الحياة في العصر الحجري الحديث (النيوليثي) ظلت حيّة في المجتمع

الكوردي الرَّعَوي والزراعي إلى حوالي منتصف القرن العشرين، وصحيح أن المجتمع الكوردي كان واقعاً في قبضة ظلمات الجهل، ويحترق بجمر البؤس، وتنهشه أنياب التغريب عن الذات، وتفترسه مشاريع المسخ وطمس الهويّة، وتمزّقه سلبيات الذهنية القبلية، وتجرجره النخب الأنانية والضيقة الأفق والمهزومة إلى مهاوي الانحطاط، لكنه مع ذلك كله- وبفضل نخبه الأصيلة القليلة- ظل واقفاً على قدميه بعناد، معلناً عن ذاته بكبرياء، وهل كان من الممكن أن ينجز ذلك لولا القيم العظمى المترسّخة في وجدانه الجمعي منذ عهود المشاعية؟

ودعونا نتناول واحدة من تلك القيم، وهي الشجاعة.

فماذا عنها في الشخصية الكوردية؟

الشجاعة (شهادات):

يبدو من مصادر التاريخ أن للكرد رصيداً وافراً من الشجاعة والبطولة، ويتجلّى ذلك الرصيد بداية في اسمهم (كورد/كُرْد)، فالمعروف أن السومريين أول من أطلق على أسلاف الكورد في جبال زاغروس اسم Kur- tu و Kur-du ، وكانوا يعنون به (جبلي، جبليون، سكّان الأماكن العالية)، إضافة إلى ما يشتمل عليه وصف (جبلي) في العادة من دلالات الشجاعة وشدة البأس. وقد تحوّلت صيغة Kur-du إلى صيغة (كاردو)، وقال باسيلي نيكيتين في هذا الصدد:

"تُماثل لفظة (كاردُو) ألفاظاً سامية، وبخاصة في الأكّادية والآشورية، وهي تعني (قومي، بطل) وتعني (كاردُوَا) (يصبح بطلاً)"[1].

وظل اسم (كورد/كرد) مستعملاً بهذه الدلالة عند الفرس القدماء في صيغة (كورتان)، ودخل إلى العربية بصيغة (أكراد) على وزن (أعراب) و(أتراك). وارتباط اسم شعب ما بدلالات الشجاعة ظاهرة نادرة. والحقيقة أن معظم من عرف الكورد وخالطهم، أو اطّلع على تاريخهم وتاريخ أسلافهم، أشاد بشجاعتهم وبطولاتهم، وفيما يلي بعض الشهادات:

---

١ - جمال رشيد: ظهور الكرد في التاريخ، ١٥/٢. نيكيتين: الكرد، هامش ٣، ص ٤٥.

● قال دياكونوف: "**كان ملوك ميديا شجعاناً، ذوي نفوذ وجسارة لاقتحام المصاعب**"[1].

● وقال دياكونوف أيضاً: "**إن الميديين، بالنسبة إلى الفرس والسكايين، كانوا معروفين بالشجاعة، ويُعتمد عليهم، وهؤلاء كانوا القوة الضاربة الرئيسية في جيش خَشْيارشاه**"[2]. وخشيارشاه هو الملك الفارسي إجْزِرْسيس الأول ابن دار الأول، ويسمى أَحْشَويرَش أيضاً، حكم بين (٤٦٥ - ٤٣٥ ق.م).

● وقال الرحّالة الأمازيغي ابن بَطُّوطَة (ت ٧٧٩ هـ/١٣٧٧ م) حينما خالط الكورد في جبل سِنْجار: "**وأهل سِنْجار أكراد، ولهم شجاعة وكرم**"[3].

● وقال الكاتب المشهور بوفرة مؤلفاته ابن حَجَر العَسْقَلاني (ت ٨٥٢ هـ/١٤٤٩م) يعرّف بالكورد: "**الكوردي: منسوبون إلى الكورد، ناسٌ موصوفون بالشجاعة، يسكنون الجبال كالأعراب، وهم خَلْق كثير**"[4].

● قال المؤرخ الكوردي شَرَف خان بَدْليسي (ت ١٦٠٤م) يصف شجاعة الكورد: "**وأكثر جماعاتهم موصوفون بفَرْط الشجاعة والتهوّر ووَفْر المروءة والسَّخاء، مع ما جُبِلوا عليه من الغَيْرة الشديدة والإباء البالغ، والأَنَفة الزائدة، فيبالغون في ذلك حتى إنهم لَيسمحون لأنفسهم بأن يوصفوا بقطّاع الطرق والغَصْب جِهاراً في الجبال والوِهاد، دون السرقة والسطو، مما يقتضي شيئاً كثيراً من الجَراءة المتناهية والشجاعة النادرة، إذ يتفانون في سبيل الحصول على تلك الصفات الرنّانة والنعوت الممتازة، فيُلقون بأنفسهم إلى المهالك، ويُقحمون بها في المخاطر، حتى لا يضطروا لمدّ اليد إلى اللئام والأنذال، بطلب الإحسان والمساعدة،... وإنهم يعملون مخلصين بمقتضى المثل السائر (من تفكر في العواقب لم يَشْجُع)، فلا ينظرون كثيراً إلى عواقب الأمور، وقد لا يفكرون فيها قطّ**"[5].

---

١ - دياكونوف: ميديا، ص ٢٥٩.

٢ - المرجع السابق، ص ٤١٢.

٣ - ابن بَطُّوطَة: رحلة ابن بطّوطة، ص ٢٥١.

٤ - ابن حجر العسقلاني: تَبصير المُنْتَبِه بتَحرير المُشْتَبِه، ١٢١٣/٣.

٥ - شرف خان بدليسي: شرفنامه، ٥٩/١.

● وقال شرف خان بَدْليسي: **"والظاهر أن لفظ (الكورد) أُطلق عليهم كوصف ولقب لفَرْط شجاعتهم" يدلّ على ذلك أن أكثر أبطال الدهر المشهورين، وشجعانه المعلومين، قد نشأوا ونهضوا في هذه الأمة الباسلة، فمنهم البطل الشهير (رُسْتَم زال) الذي كان في عهد كَيْقُباد[1]، ولّما كان هذا البطل ولد في إقليم سِيسْتان[2] فقد اشتهر برُستم الزابِلي، وقد وصفه الفِرْدَوْسي الشاعر صاحب الشاهْنامَه بقوله (رُستم كُرْد). ومن الأكراد أيضاً (بَهْرام جُوبِين) الذي كان أَسْبَهْسالار[3] في عهد هُرْمُز بن أَنُوشَيروان، من ملوك العجم، فقد نشأ في تركستان وخراسان، واشتهر في حروبهما، وإليه يرجع نسب الكُرتيين والسلاطين الغُوريين في العهد الإسلامي. ومنهم (گُورگِين ميلاد) الذي ذاع صيت شجاعته في الآفاق، وقد مضى أربعة آلاف سنة على عهده، فلا يزال أولاده وأحفاده المنحدرون من نسله مستقلّين في ولاية (لار) في جنوب شرقي فارس"**[4].

● وقال شهاب الدين الآلُوسي (ت ١٨٥٤ م)، صاحب كتاب (روح المعاني)، وهو تفسير للقرآن: **"وبالجملة الأكراد مشهور بالبأس، وقد كان منهم كثير من أهل الفضل "**[5].

● ذكر الكوردولوجي الروسي ڤلاديمير مينورسكي، (١٨٧٧ – ١٩٦٦ م)، نقلاً عن سُون الخبير بالشؤون الكوردية: **"الخطر الدائم خلق عند الأكراد عدم الثقة، والشجاعة، والخفّة المتناهية، والرقابة العالية المتطورة"**[6].

● وقال الكوردولوجي الروسي باسيلي نيكيتين (١٨٨٥- ١٩٦٠ م) يصف عشيرة هَماوَنْد الكوردية، نقلاً عن (ديكسون): **"إن المنطقة الواقعة بين كركوك والسليمانية هي**

---

١ - جاء في المصادر الإسلامية أن كيقُباد هو مؤسس الدولة الكيانية، والأرجح أنه دياكو الميدي، ويطلق المؤرخون على الدولة الميدية اسم (الدولة الكيانية)، ويعدّونها من الدول الفارسية، تمشّياً مع نهجهم في طمس تاريخ الميد. انظر ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ٣٧٧/١. القَلْقَشَنْدي: صُبح الأعشى، ٤١١/٤.

٢ - سِجِسْتان.

٣ - قائد الجيش.

٤ - شرف خان بدليسي: شرفنامه، ٦٠/١ – ٦١.

٥ - الآلوسي: روح المعاني، ١٠٣/٢٦.

٦ - مينورسكي: الأكراد، ص ٦٨.

مقاطعة الكورد الهَماوَنْد الشجعان، وهم عشيرة من الرُّحّل تملك ألفي بندقية، وهم لا يجدون ما يفتخر به المرء غير الخيل والسلاح والغزو"[1].

- وقال نيكيتين يصف الكوردي: **"وهو مقاتل باسل، مستعد للتضحية بحياته في سبيل المجموع، كما أنه فخور بأصله ونسبه وماضيه الحافل بالكفاح. إنه فارس مقدام، يهتمّ بملابسه الزاهية، وشَغوفٌ بسلاحه"**[2].

- وقال جوناثان راندل Jonathan Randall- لعله صحفي أمريكي- يصف الكورد: **"وهم يستحقون أن يُعجَب بهم المرء، وأن يحبّهم" لما يتمتّعون به من دفء ومرح وشجاعة وسحر"**[3].

الشجاعة (نماذج من التاريخ):

إن في المصادر العربية الإسلامية نماذج كثيرة تؤكد شجاعة الكورد، ونقتصر على ذكر بعضها، ونبدأ من تاريخ الحروب التي دارت بين غربي آسيا وأوربا، وعُرفت باسم (الحروب الصليبية)، فالمعروف أن الفرنجة غزو شرقي البحر الأبيض المتوسط بدءاً من سنة (٤٨٩ هـ/ ١٠٩٦ م)، وأسّسوا إمارة الرُّها سنة (٤٩٠/ ٤٩١ هـ/١٠٩٨ م)، ثم إمارة أنطاكيا سنة (٤٩١ هـ/ ١٠٩٨ م)، ثم مملكة بيت المقدس سنة (٤٩٢ هـ/١٠٩٩ م)، ثم إمارة طرابلس في لبنان سنة (٥٠٢ هـ/١١٠٨ م)، وكان التركمان السلاجقة سادة غربي آسيا حينذاك، وكانوا قد أسقطوا الدول والإمارات الكوردية، وفرضوا سيطرتهم على كردستان شرقاً وغرباً.

وفي النصف الأول من القرن (٦ هـ/ ١٢ م) برزت الأسرة الزَّنْگـية- وهي تركمانية سُلْجوقية- واتخذت كردستان قاعدة وعمقاً لها، وتمدّدت غرباً باتجاه الرُّها وأنطاكيا وحلب ودمشق، ونتيجة لذلك صار لزاماً عليها أن تتحمّل عبء الصراع ضد الفرنجة، ومن يتتبّع مسار توسّع الدولة الزنگـية بدءاً من إربيل شرقاً، وانتهاء بمصر غرباً، يخرج بنتيجة واضحة" وهي أن القوة القتالية الكوردية، وقيم الفروسية في الشخصية الكوردية، كانت من أبرز عوامل تحقيق الانتصارات الكبرى على الفرنجة.

---

١ - باسيلي نيكيتين: الكرد، ص ٢٥٩.

٢ - المرجع السابق، ص ٢٦.

٣ - جوناثان راندل: أمة في شقاق، ص ٥١.

ففي سنة (٥٣٢ هـ) انضمّت الأسرة الأيوبية الكوردية، بقيادة الأخوين نجم الدين وشيركـوه، إلى صفّ عماد الدين زَنْگـي في الموصل، ومعهما أبناء عشيرة رَوادي (رُو آدي) Ro adi، وهي فرع من قبيلة هَذْباني (هَدْباني) المعروفة بالفروسية وبجيادها المتميّزة، وبسبب روح الكورد الحربية، وحماسهم الديني، التحق المقاتلون الكورد بالأيوبيين في الجيش الزنگـي، وشكّل شيركـوه منهم ومن بعض التركمان فِرقة عسكرية عُرفت بـ (الأَسَدية)، نسبة إلى لقبه (أسد الدين)، وكان معظمهم من خيرة المقاتلين الكورد، وكان صلاح الدين أحد عناصر تلك الفرقة.

وقد أبلت الفرقة الأَسَدية- بقيادة شيركـوه- بلاء حسناً في الحروب، وبلغ شيركـوه، في دولة نور الدين، ما يماثل منصب وزير الدفاع في عصرنا هذا، وكان نور الدين يندبه للمهام العسكرية الخطيرة، فعيّنه قائداً على الجبهة الغربية (منطقة حمص) في مواجهة الفرنج" لأنها كانت أكثر الجبهات خطورة، قال البُنْداري (ت ٦٤٣ هـ): **"ولّما كان ثَغْر حِمْص[1] أخطرَ الثُّغور تَعيّن أسدُ الدين لحمايته وحفظه ورعايته، لِتفرّده بجدّه واجتهاده وبأسه وشجاعته "**[2]. وقال ابن الأثير في مكانة شيركـوه عند نور الدين: **" فقرّبه نور الدين، وأقطعه[3]، ورأى منه في حروبه ومَشاهده آثاراً يَعجز عنها غيرُه لشجاعته وجرأته"**[4].

ولشجاعة شيركـوه كلّفه السلطان نور الدين زنگـي سنة (٥٥٩ هـ) بقيادة جيش إلى مصر، لإنقاذها من خطر الغزو الفرنجي، قال ابن الأثير:

"فلمّا كانت هذه السنة، وعزم نور الدين على إرسال العساكر إلى مصر، لم يرَ لهذا الأمر الكبير أقومَ ولا أشجعَ من أسد الدين، فسيَّره"[5].

وظهرت شجاعة شيركـوه في أثناء خروجه من مدينة بَلْبِيس المصرية، وكان الجيشان الفرنجي والمصري حاصراه فيها ثلاثة أشهر، ثم اصطلحوا على أن يخرج منها بجنده" قال المؤرخ أبو شامة:

---

١ - ثغر حمص: جبهة قتال حمص.

٢ - البُنداري: سنا البرق الشامي، ص ٢٤.

٣ - أقطعه: منحه إقطاعات.

٤ - ابن الأثير: التاريخ الباهر، ص ١٢٠.

٥ - المرجع السابق نفسه.

"حدّثني من رأى أسد الدين حين خرج من بَلْبيس، قال: رأيته وقد أخرج أصحابه بين يديه، وبقي آخرَهم وبيده لَتّ[1] من حديد يَحمي ساقَتهم[2]، والمسلمون والفرنج ينظرون. قال: وأتاه فرنجي من الغرباء، فقال له: أما تخاف أن يَغدِر بك هؤلاء المسلمون[3] والفرنج، وقد أحاطوا بك وبأصحابك، فلا يبقى لك معهم بقيّة؟! فقال شيركـوه: يا ليتهم فعلوا! كنتَ ترى ما لم ترَ مثله، كنتُ- والله- أضع سيفي، فلا أُقتَل حتى أقتل رجالاً ... فوالله لو أطاعني هؤلاء- يعني أصحابه- لَخرجتُ إليكم أولَ يوم، لكنهم امتنعوا. فصلّب الفرنجي على وجهه[4]، وقال: كنا نعجب من فرنج هذه الديار ومبالغتهم في صفتك وخوفهم منك، والآن قد عَذَرناهم"[5].

والسؤال هو: ما الذي جعل السلطان نور الدين يقدّم شيركـوه على كبار القادة الأتراك في جيشه؟ هل ثمة مبرر لذلك غير ثقته بشجاعته وشدّة بأسه؟ ولعل الصورة تتضح أكثر إذا أخذنا في الحسبان أن الترك قوم موصوفون بالشجاعة، وقد قال الخليفة عمر بن الخطّاب حينما علم بما يعانيه الفاتحون العرب في حرب الترك: **"هذا عدوّ شديدٌ كَلَبُه، قليلٌ سَلَبُه"**[6] أي شديد بأسه، قليلٌ ما يُغنَم منه. وألّف الأديب الشهير الجاحظ رسالة يشيد فيها بمناقب الترك وشجاعتهم، وإذا كان هذا شأن الترك في الشجاعة، فكم كان شيركـوه شجاعاً حتى تفوّق عليهم؟

أما عن شجاعة الكورد- قادةً وجنوداً- في الحروب الصليبية فحسب المرء أن يعود إلى أحداث تلك الحروب، ليستيقن أن صلاح الدين وإخوته، ومعهم سائر النخب والجنود الكورد، كانوا يقاتلون بضراوة، ويُقبلون على الموت ببسالة، ونذكر على سبيل المثال شجاعتهم في معركة حِطّين سنة (٥٨٣ هـ)، فقد كان الفارس الكوردي **دِرْباس**- من عشيرة مِهْران (مِيران)- هو الذي أسر ملك القدس، وكان القائد العام للفرنجة وأرفعهم مكانة، وفي رواية أن دِرْباس أسر

---

١ - لَتّ /لات: كلمة كردية، وتعني فأس حربية.

٢ - مؤخرة الجيش.

٣ - العسكر الفاطمي.

٤ - رسم شارة الصليب.

٥ - أبو شامة: عيون الروضتين، ٣٣٦/١.

٦ - الجاحظ: رسائل الجاحظ، ٧٦/١.

الفارس الفرنجي الشهير أَرْناط (رينو دو شاتيون) أيضاً. ألا كم يحتاج المرء من الشجاعة ليهاجم القائد العام لجيش العدو في خيمته، ويخترق حرسه الخاص، ويأسره[1]؟

وإليكم مثالاً آخر على شجاعة الكورد في الحروب الصليبية، قال الفارس والشاعر العربي أُسامة بن مُنْقِذ، وكان كثير المخالطة للكرد:

"ومن عجائب الطَّعْن أن رجلا من الأكراد يقال له حَمَدات كان قديم الصُّحبة ...، فكَبُر وضَعُف بصره، ونشأ له أولاد. فقال له عمّي عز الدين رحمه الله: يا حَمَدات، كبرتَ وضعفتَ، ولك علينا حقٌّ وخِدمة، فلو لَزِمْتَ مسجدَك- وكان له مسجد على باب داره- وأثبتنا أولادك في الديوان[2]، ويكون لك أنت كل شهر ديناران، وحِمْلُ دقيق، وأنت في مسجدك. قال أفعلُ يا أمير. فأجرى له ذلك مُدَيْدَة. ثم جاء إلى عمّي وقال: يا أمير، والله لا تطاوعني نفسي على القعود في البيت، وقتلي على فرسي أشهى إليّ من الموت على فرشي. قال: الأمرُ لك.

فما مضى إلا الأيام القلائل حتى غار علينا السَّرْداني[3] صاحب طرابلس. ففزع الناس إليهم، وحَمَدات في جملة الرَّوع، فوقف على رِفعة من الأرض مستقبلَ القِبلة، فحمل عليه فارس من الإفرنج من غربيّه، فصاح إليه بعض أصحابنا: يا حَمَدات! فالتفت، فرأى الفارس قاصده، فردّ رأس فرسه شمالاً، ومسك رمحه بيده، وسدّده إلى صدر الإفرنجي، فطعنه فنفذ الرمح منه، فرجع الإفرنجي متعلقاً برقبة حصانه في آخر رمقه. فلما انقضى القتال قال حَمَدات لعمي: يا أمير، لو أن حَمَدات كان في المسجد مَن طعن هذه الطعنة"[4]؟

وقال أسامة بن منقذ يشيد بشجاعة فارس كردي ورباطة جأشه:

"ركبنا في بعض الأيام من شَيْزَر[5] إلى الصيد، وعمّي- رحمه الله- معنا وجماعة من العسكر، فخرج علينا السَّبع من قَصْباء[6] دخلناها لصيد الدُّرّاج[7]، فحمل عليه رجل كردي

---

١ - ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ٥٢٩/١، ٥٣٥. أبو شامة: عيون الروضتين، ٨١/٢ – ٨٢.

٢ - أثبتنا أولادك في الديوان: خصصنا لهم رواتب.

٣ - السرداني: قائد فرنجي.

٤ - أسامة بن منقذ: كتاب الاعتبار، ١٧/١.

٥ - شَيْزَر: قلعة قرب مدينة حمص.

٦ - قصباء: كثيفة القصب.

٧ - الدُّرّاج: نوع من الطيور.

يقال له زَهْر الدولة بَخْتِيار القبرصي، سُمّي بذلك للطف خِلقته، وكان- رحمه الله- من فرسان المسلمين، فاستقبله السبع، فحاص به الحصان فرماه، وجاء السَّبع وهو مُلقًى، فرفع رجله فتلقّمها السبع، وبادرناه فقتلنا السبع واستخلصناه وهو سالم. فقلنا له: يا زهر الدولة، لِمَ رفعتَ رجلك إلى فم السبع؟ فقال: جسمي كما ترونه ضعيف نحيف، وعليّ ثوب وغِلالة[1]، وما فيّ أكسا من رجلي ... فقلت: أُشغله بها عن أضلاعي أو يدي أو رأسي إلى أن يفرج الله تعالى. فهذا حضره العقل في موضع تزول فيه العقول"[2].

وضرب الكورد أروع أمثلة الشجاعة في مقاومة الغزاة المغول، رغم الرعب الذي زرعه في نفوس الشعوب، وفي الوقت الذي كان **هولاكو خان** يعمل لاحتلال بغداد، كلّف القائد أَرْقِيُو نُويان بفتح قلعة إربيل، فحاصر أرقيو القلعة مدة، واستعان بصديقهم بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل (أرمني من مماليك السلاجقة)، فأمدّه بالجنود، قال رشيد الدين الهَمَذاني:

"وذات ليلة نزل أهل القلعة، وشنّوا غارة ليلية على المغول، وقتلوا كل من وجدوه، وأشعلوا النار في المجانيق وأحرقوها، وعادوا إلى القلعة، فلما عجز أرقيو استدعى بدر الدين لؤلؤ وتشاور معه، فقال بدر الدين لؤلؤ: التدبير هو أن تدع هذا العمل حتى الصيف، لأن الأكراد يفرّون من الحر، ويلجؤون إلى الجبال، أما الآن فالجوُّ معتدل، وعندهم ذخائر وافرة، والقلعة في غاية الإحكام، فلا يتيسّر فتحها إلا بالحيلة والتدبير"[3].

وأفلحت الخطّة، وفتح المغول القلعة صيفاً، بعد ذهاب الكورد إلى الجبال.

---

١ - الغِلالة: ثوب داخلي رقيق.

٢ - أسامة بن منقذ: كتاب الاعتبار، ٣١/١.

٣ - الهمذاني: جامع التواريخ، ٢٩٨/١ – ٢٩٩.

وفي سنة (٦٥٧ هـ/١٢٥٩ م) غزا التتار شمالي كردستان بقيادة تِيمُورلنگ، فتصدّى لهم الكورد بشجاعة، رغم اشتهار التتار بالبطش والتنكيل، قال ابن عَرَبْشاه: " لم يتضرّر عسكر تيمور مدةَ استيلائه، مع كثرة حروبه ومَصافّاته[1] وإبلائه، إلا من ثلاثة أنفار أضرّوا به وبعساكره غاية الإضرار، ... أحدهم أبو بكر الشاسْباني، وثانيهم سيّد علي الكوردي، وثالثهم أَمَتْ التركماني "[2].

ووصف الباحث الأرمني أرشاك سافراستيان الكورد عامة بالشعب **"الشجاع النشيط"**، وقال:**"فالكورد يتأثّرون بعمق بأية شجاعة فردية وبأية مأثرة حربية"**. وقال بشأن الكورد الأيزديين في سِنْجار: **"إن جميع الرحّالة الأوربيين الذين اتصلوا بالأيزديين في كردستان وأرمينيا، ما عدا فئة قليلة منهم، تحدّثوا بازدراء وانتقاص عن هذا الشعب الشجاع"**[3].

وفي أوائل القرن العشرين، لّما غدر حاكم أذربيجان الفارسي بجوهر آغا (أخو سِمْكو) زعيم عشيرة شِكاك، وقتله غيلة وهو يستضيفه في قصره، قال مينورسكي معلّقاً على شجاعة مرافقي جوهر آغا في التصدي للجنود الفرس: **"هذه هي الشجاعة الخارقة للأكراد، وهذا هو أسلوبهم، لذا يجب على كل من يريد أن يقوم ضدهم أن يحسب ألف حساب. وليس من العبث عندما نرى الفرس والأتراك وهم يردّدون المثل العربي: إن الأكراد طائفة من الجن"**[4].

---

١ - المصافّات: المعارك.

٢ - ابن عربشاه: عجائب المقدور في نوائب تيمور، ص ٣٦.

٣ - أرشاك سافراستيان: الكرد وكردستان، ص ١٣١، ١٧٨، ١٨٥.

٤ - مينورسكي: الأكراد، ص ٦٧.

٩

النُّبْـل والشهامة في الشخصية الكوردية

متى يكون المرء نبيلاً؟

تناولنا من قيم الفروسية- فيما مضى- الشجاعةَ والبسالة، واتضح لنا، بالشهادات المحايدة، وبالأدلة التاريخية الموثَّقة، أن الشجاعة خَصلة أصيلة في الشخصية الكوردية. ونتناول في هذه الصفحات خَصلة النبل، فماذا عنها في الشخصية الكوردية؟ وما موقعها في ثقافة الكورد وسلوكهم؟

وأذكر أني كنت مقبلاً في شبابي على مطالعة سِيَر المشاهير، ومن بينهم الفيلسوف اليوناني سقراط، وأكثر ما شد انتباهي في سيرة هذا الرجل هو حادثة وفاته، فالمعروف أنه كان يدعو إلى التغيير الفكري والأخلاقي في المجتمع الأثيني، وفي سنة (٣٩٩ ق.م) اتُّهم بالإساءة إلى الآلهة وإفساد الشباب، وحكمت عليه المحكمة بالموت، وحينما كان في السجن، انتظاراً لموعد تنفيذ الحكم، عرض عليه طلبته خطة لتهريبه من السجن، وإيصاله إلى خارج حدود دولة مدينة أثينا، فرفض سقراط ذلك، وتجرّع الشراب المسموم حسب قرار المحكمة، واستقبل الموت بشجاعة.

وكنت أتساءل: لماذا رفض سقراط الهرب؟ ولماذا أقبل على الموت، مع يقينه بأنه مظلوم؟ كانت الحجّة التي تمسّك بها هي أنه لن يسيء إلى سمعة شعبه، ولن يخرق القوانين التي اتفق عليها شعبه. وما كنت قادراً حينذاك على فهم هذه الحجّة" ومن أين لي حينذاك أن أفهم موقف سقراط، وهو في مداراته العظمى" في حين كنت ما زلت أتخبّط في المدارات الدنيا؟ وكيف

كان لي أن أستوعب موقفه النبيل" في حين كانت قيم الانحدار تتلقّفني، وتأخذ عليّ السُّبل والمعارج؟

أجل، أن تكون في المدارات العظمى يعني أن تكون ابن الإنسانية البارّ، ابن المُثُل العليا والمبادئ السامية، راعي القوانين الكلية وممثَّلها المخلص، تدافع عنها، وتحرص على ديمومتها، وترفض الإخلال. وأن تكون في المدارات العظمى يعني أن تجسّد الشهامة في شخصك فكراً وقولاً وعملاً، وتكون على استعداد لأن تبذل في سبيلها مالك ووقتك ونفسك.

وهل يمكنك أن تكون هكذا ما لم تكن نبيلاً؟ وهل يمكنك أن تكون نبيلاً ما لم تشرب من نبع الشهامة والمروءة، وتتحرر من طغيان الأنانية؟ وهل يمكنك أن تكون نبيلاً ما لم تتغلّب على جاذبيات العصبيات العائلية والقبلية والطائفية، وتتوحّد بأمتك قلباً وقالباً؟ وهل تكون نبيلاً ما لم تتخذ أمتك نافذة تنفتح من خلالها على الأمم جميعاً؟ وهل تكون نبيلاً ما لم تحرص الحرص كله على ألاّ تَظلِم ولا تُظلَم، ولا تَستعبِد ولا تُستعبَد؟

النبل في الوعي الجمعي الكوردي:

والحقيقة أن خصلة النبل في الشخصية الكوردية موقعاً رفيعاً، وبما أننا قررنا في تفسير الأمور ألا نوقف التاريخ على رأسه، ولا نضع العربة أمام الحصان، فلن نزعم أن الكورد هم (شعب الله المختار)، وأن صكوكاً هبطت عليهم من السماء، فاستحقوا بموجبها أن يكونوا (الشعب الأنبل)" إن هذه المزاعم وأشباهها اختُرعت في أزمنة طفولة الوعي البشري، وكان الغرض منها تحشيد شعب ما لغرض معيّن، وتكريس المشاريع التوسعية، وتبرير الغزوات الاحتلالية. إن المنهج القويم لفهم تاريخ البشرية هو معرفة العوامل، وعلى ضوء هذا المنهج نرى أن خصلة النبل في الشخصية الكوردية تعود إلى ثلاثة عوامل رئيسة:

أولاً – البيئة الجبلية:

فقد مر سابقاً أن الجبل مفتاح الشخصية الكوردية، وأنه جغرافيا القسوة والصلابة والعزلة والاكتفاء، وأنه حصن منيع لمن يلوذ به ويتلاءم معه، ومر أيضاً أن هذه الخصائص- بتفاعلها

معاً- تُنمّي في شخصية الجبلي قيم الشجاعة والإقدام، وتفرض عليه أن يكون قويّ الجسم، شديد البأس، صلب العزيمة، أبيّ النفس، عاشقاً للحرية، رافضاً لآليات الاستبداد، ثائراً على مشاريع الاستعباد" وهذا يعني أن جغرافيا الجبل تساهم بقوة في إنتاج الإنسان (الحر)، لا الإنسان (العبد)" ومتى كانت المنظومة الأخلاقية للإنسان الحر تخلو من خصلة النبل؟ ومتى كان الحر يرتضي لنفسه الأنانية منهجاً، والنذالة موقفاً، والخَساسة مسلكاً؟

ثانياً – أخلاقيات عصر المشاعية:

إن طور المشاعية، في العصور الحجرية، كان يتطلّب خصلة النبل لتستقيم حياة الجماعات، إنه كان طوراً تقوم فيه حياة الجماعات على التكامل والتضامن، ووفق مبدأ (الواحد للكل والكل للواحد). وفي مجتمعات ذلك الطور لم يكن ثمة مكان للأناني والجَشِع، ولا للنذل والخسيس، وحتى إذا وُجد أمثال هؤلاء فإن مكانهم الطبيعي كان هو الهامش، وما كانت شروط الحياة تسمح لهم بالعبور إلى مواقع السيادة والقيادة في المجتمع، وكانوا من ثَمّ عاجزين عن الارتقاء إلى مصافّ النُّخبة، وغير مؤهَّلين لتجسيد المُثُل العليا، ولإنتاج القيم السامية الملائمة لتلك المُثل. بلى، إن مقولة **"كما تكونوا يُوَلَّ عليكم"** صحيحة جداً بالمعايير التاريخية لمسيرة المجتمعات، ومن الضروري أخذها في الحسبان عند تقييم وتقويم أيّ مجتمع كان.

ولا يخفى أن أهم مطلبين شغلا البشرية منذ القديم، وسيظلان يشغلانها، اثنان: مطلب المعدة (الغذاء)، ومطلب الكرامة (الحرية). وكان طور المشاعية هو العصر الذهبي من حيث توافر هذين المطلبين. لكن مع تكاثر البشر، وظهور فائض الإنتاج، انمحق ذلك العصر الذهبي، وتهدّمت منظوماته الأخلاقية تحت سنابك خيول صنّاع الإمبراطوريات قديماً، وتحت دبابات المستعمرين والمحتلين في العصر الحديث، وما كلُّ طموح إلى الديمقراطية في جوهره إلا محاولة لاسترداد بعض مزايا العصر الذهبي، وفي إطار هذه الحقائق نصبح أقدر على فهم قصائد (الرَّعَويات) للشاعر الروماني **ڤيرجيل** Virgil (70 ق.م – ١٩ م)" مشيداً فيها بحياة الرعي والريف، ونفهم أيضاً النزعة الرومانسية في الأدب العالمي الحديث.

ومن حسن حظ الكورد- ومن سوء حظهم أيضاً- أنهم من الشعوب التي ظلت على تماس مع منظومة أخلاقيات المشاعية" وذلك لأسباب ثلاثة:

١- إن البيئة الجبلية فرضت على الكورد نمط المجتمع الرعوي، بكل ما يعنيه هذا النمط من ذهنية ومزاج وعلاقات، ومن مبادئ وقيم، وفي مقدمتها قيم الفروسية (الشجاعة، الإقدام، النبل، إلخ) .

٢- إن موقع كردستان الجيوسياسي، ومرور (طريق الحرير) التجاري العالمي من خلالها، ووفرة المعادن والأخشاب والخيول والمواشي فيها، جعل الكورد عُرضة للغزاة العابرين من الشرق إلى الغرب، ومن الغرب إلى الشرق، وجعل الكورد من ثَمّ أكثر ارتباطاً بجبالهم، وأكثر التزاماً بمجتمعهم القبلي، وبمنظومتهم الأخلاقية، ليتمكّنوا من التصدي للغزاة.

٣- إن دولة ميديا كانت التجلّي الأعظم والأبهى للحضور الكوردي في تاريخ البشرية، ولو استمرت قرنين آخرين لكان الكورد الآن من أصحاب الشهرة العريقة" كالفرس واليونان والرومان والعرب. غير أن قيام الفرس بتفكيك دولة ميديا عام (٥٥٠ ق.م)، والاستيلاء على منجزاتها الحضارية، وقيام الملك الفارسي قَمْبَيز Cambyses بوضع وصيته سنة (٥٢٢ ق.م)، لقطع الطريق على إحياء دولة ميديا" كل ذلك أدّى إلى تهميش الكورد، وإخراجهم من حركة الحضارة، فانزووا في جبالهم، محتفظين برعويّتهم، وبمنظومتهم الأخلاقية المتماسّة مع قيم عصر المشاعية.

ثالثاً – الجذور الميثولوجية:

إن ميثولوجيا الشعوب خلاصة رؤيتهم إلى الوجود، وقد أنجز الملك **كَيْ أَخْسار** التجلّي السياسي الأبهى للكرد في صيغة (دولة ميديا)، وأنجز النبي **زَرْدَشْت**- عليه السلام- التجلّي الثقافي الأبهى للكرد في صيغة (الزردشتية)، معتمداً على الموروث الأزدائي الآرياني العريق، ومعلوم أن كل ديانة هي منظومة متكاملة من الرموز المقدسة (آلهة، أرباب، قدّيسين)، ومن المُثُل العليا والمبادئ والقيم والضوابط والموجّهات، وتتغلغل تلك المنظومة- بنسب متفاوتة- في مناحي الحياة الشخصية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية، وكذلك كان شأن الزردشتية، لكن المثير أنها تركّز كثيراً على خصلة النبل في المجال الإلهي والبشري، وفيما يلي بعض الأدلة.

- وُصف الإله الأكبر آهورامَزدا في **الأڤستا** بأنه **"سيّدُ الطقوس، النبيلُ الشامخ "**[١].
- وُصف ميثرا (إله العقود) في **الأڤستا** بالنبل أيضاً، فقد جاء في دعاء: **" أُعلن هذه الياسنا من أجل كل من أهورا الخالد وميثرا النبيل"**[٢].
- جاء في زند **أڤستا**: **"كن نبيلاً"**[٣].
- جاء في زند **أڤستا**: **"سأل الحكيمُ روحَ العقل: ما هي السبل والمآثر التي يبلغ بها البشر الجَنّة؟ أجاب روح العقل: أولُ عملٍ خيرٍ النبلُ. ثانياً الاستقامةُ. ثالثاً عرفانُ الجميل. رابعاً القناعةُ. خامساً إدراكُ ضرورة فعل الخير للناس الطيبين، وأن تكون صديقاً لكل شخص"**[٤].
- جاء في زند **أڤستا**: **"سأل الحكيمُ روحَ العقل: ما الأفضلُ" النبالةُ أم الحقيقة؟ ... أجاب روح العقل: للروح الأفضلُ هي النبالة، ولكامل العالم الحقيقةُ..."**[٥].
- جاء في زند **أڤستا**: **"الشهامة والنبل هو الأفضل لتنفيذ الأعمال"**[٦].
- جاء في زند **أڤستا**: **"مع الأعداء كن نبيلاً رقيقاً وحسن النية"**[٧].

وأحسب أن هذا التركيز على النبل كان من الأسباب التي جذبت الفيلسوف الألماني فريدريك نيتشه إلى شخصية النبي زردشت، فصاغ على لسانه أفكاره بشأن الإنسان الحر (السوبرمان). وأحسب أيضاً أن هذه القيم الزردشتية، وقد نبتت في جبال ميديا، وفي أحضان المجتمع الميدي، إنما كانت تجسّد عشق (الوعي الجمعي) الميدي لفضيلة النبل، وظلت تلك القيم راسخة في الشخصية الكوردية إلى يومنا هذا، وإذا كانت مشاريع تفتيت الهوية الكوردية، وحملات السلخ والمسخ، قد أفلحت في تجريد بعض الشرائح الكوردية المهزومة من هذه الخصلة،

---

١ - **أڤستا** ، ياسنا، هايتي ٢٢، آية ٤، ص ١٠١

٢ - **أڤستا** ، ياسنا، هايتي ١، آية ١١، ص ٤٥.

٣ - زند **أڤستا**، نصوص پهلوية، دادستان ومينوغ وخراد، ص ٨٣٥.

٤ - المرجع السابق، ص ٨٥٦.

٥ - المرجع السابق، ص ٨٤٠.

٦ - المرجع السابق، ص ٨٣٥.

٧ - المرجع السابق، ص ٨٤٣.

فإن النخب الكوردية الأصيلة ظلت مخلصة لقيمها العريقة، ومن بينها خصلة النبل، وثمة ما يؤكد أنها ما تزال حية في أعماق (الوعي الجمعي) الكوردي، وتفصح عن نفسها بين حين وآخر.

شواهد من التاريخ:

من العهد الأخميني:

يقول مثل كردي: (الشجرة تنتصب على أصلها) Dar li ser kokê xwe disikin e وكذلك هي قيمة النبل، إنها عريقة في تاريخ أسلاف الكورد، فمنذ حوالي (٢٥٠٠) سنة، وتحديداً في سنة (٤٩٠ ق.م)، جرت واحدة من المعارك الحاسمة بين آسيا بقيادة الفرس، وأوربا بقيادة الإغريق، وجرت المعركة في سهل (ماراثون) على مسافة (٤٠) كم من أثينا، وكان قائد الجيش الفارسي في تلك المعركة واحداً من كبار العسكريين الميد، واسمه (داتيس الميدي)، وبينما كان يحتل الجزر اليونانية، تمهيداً للتقدم نحو أثينا، فرّ سكان جزيرة ديلوس Delos، وكان فيها معبد الإله الإغريقي الأكبر **أپوللو**، فأرسل داتيس إليهم رسالة يعبّر فيها عن احترامه لمقدساتهم، يقول فيها:

"أيها السادة المبجّلون، لماذا تهربون؟ ما هذا الرأي الغريب الذي تَحملون، والذي يدفعكم إلى التواري؟ من المؤكد أنني أمتلك من الحَصافة- دونما حاجة إلى أوامر الملك[1] - ما يكفي لأن أستثني الجزيرة التي ولد فيها أپوللو وأرْتِميس[2]، وألاّ أقوم بأيّ عمل فيه ضررٌ لهما ولشعبهما" ولهذا فإنني أرجوكم أن تعودوا إلى بيوتكم وجزيرتكم"[3].

وبعد أن خسر الجيش الفارسي معركة ماراثون، لم يقم داتيس الميدي بالانتقام والبطش بالسكان، وإنما ظل متعلقاً بقيمه النبيلة، معبّراً عن الاحترام لمقدّسات الإغريق، قال هيرودوت:

"في طريق عودته إلى آسيا على رأس جيشه توقّف داتيس في مِيكُونُوس، وفيما هو نائم رأى حُلماً لم يتمّ التعرف على فحواه، فأصدر أوامره منذ الفجر الباكر بتفتيش جميع السفن،

---

١ - الملك هو دارا الأول.

٢ - من كبار آلهة اليونان.

٣ - هيرودوت: تاريخ هيرودوت، ص ٤٦٧.

فعثر على تمثال أپوللو في إحدى السفن الفينيقية[1]، وقد وُضعت فوقه القطع الذهبية لإخفائه، فاستعلم عن المكان الذي سُرق منه، والمعبد الذي كان فيه، فأخذه وأبحر على متن سفينة إلى ديلوس، وأعاده إلى المعبد هناك"[2].

من العهد الإسلامي:

جسّد زعيم كردي آخر النبالة في سلوكه القيادي، إنه السلطان صلاح الدين الأيوبي، فقد تولّى السلطنة في مصر وسوريا سنة (٥٧٠ هـ)، وأسّس الدولة الأيوبية. ومع سنة (٥٨١ هـ) كانت دولته تمتد من أربيل شرقاً إلى ليبيا غرباً، ومن خلاط شمالاً إلى اليمن جنوباً، وكان من الطبيعي أن يقع على كاهله عبء الدفاع عن غربي آسيا، ومجابهة القوات الأوربية (الفرنجية) التي كانت تحتل فلسطين والأردن والقسم الأكبر من الساحل السوري، وتهدّد مصر[3].

وفي سنة (٥٨٣ هـ/١١٨٧م) توحّدت القوات الفرنجية ضد صلاح الدين، فانتصر عليها في **معركة حِطّين** بفلسطين، وتكلّلت جهوده بفتح **مدينة القدس** في السنة نفسها، وأصبح سيّد غربي آسيا بلا منازع، وإليكم بعض المواقف النبيلة التي خلّدها هذا السلطان، وشهد له بها الأصدقاء، وأشاد بها الأعداء. ولنبدأ بالقاضي **بهاء الدين ابن شَدّاد**، إنه كان يرافق صلاح الدين في حروبه، وألّف كتابه (النوادر السلطانية) بعد وفاته سنة (٥٨٩ هـ/١١٩٣م)، وها هو يصف أحد مواقفه قائلاً:

"كان للمسلمين لصوص يدخلون إلى خيام العدوّ، فيسرقون منهم الرجال، وكان من قصتهم أنهم أخذوا ذات ليلة طفلاً رضيعاً له ثلاثة أشهر، ... ولّما فقدته أمّه باتت مستغيثةً بالويل والثّبور طول الليل، حتى وصل خبرُها إلى ملوكهم، فقالوا: إنه[4] رحيم القلب، وقد أذِنّا لكِ بالخروج، فاخرجي واطلبيه منه، فإنه يرده عليك.

---

١ - كانت مشاركة في الحملة.

٢ - هيرودوت: تاريخ هيرودوت، ص ٤٧٦.

٣ - أبو شامة: عيون الروضتين، ٨٣/٢. وابن الأثير: الكامل في التاريخ، ٤٨٢/١١ - ٤٨٦، ٤٩٣.

٤ - صلاح الدين.

فخرجت تستغيث إلى اليَزَك[1]، فأخبرتهم بواقعتها، بترجمان كان يترجم عنها، فأطلقوها وأنفَذوها إلى السلطان، فلقيَتْه وهو راكب على تلّ الخَرّوبة، وأنا في خدمته، وفي خدمته خَلْق عظيم، فبكت بكاءً شديداً ومرّغت وجهها في التراب. فسأل عن قصتها فأخبروه، فرقّ لها، ودمعت عينه، وأمر بإحضار الرضيع، فوجدوه قد بيع في السوق، فارتدّه، وأمر بدفع ثمنه إلى المشتري، وأَخْذِه منه، ولم يزل واقفاً حتى أُحضر الطفل، وسُلّم إليها، فأخذته وبكت بكاءً شديداً، وضمّته إلى صدرها، والناس ينظرون إليها ويبكون، وأنا واقف في جملتهم، فأرضعته ساعة، ثم أمر بها فحُملت على فرس، وأُلحِقَت بعسكرهم مع طفلها"[2].

وعلّق ابن شدّاد على هذا الموقف قائلاً:

"فانظر إلى هذه الرحمة الشاملة لجنس البشر، اللهم إنك خلقتَه رحيماً، فارحمه رحمة واسعة من عندك، يا ذا الجلال والإكرام، وانظر إلى شهادة الأعداء له بالرأفة والكرم"[3].

وقال ابن شدّاد يصف موقفاً آخر من مواقف نبل ومروءة صلاح الدين:

"فإنه وصل في أثنائه خمسة وأربعون نفراً من الإفرنج كانوا قد أُخذوا في بيروت، وسُيِّروا إلى السلطان، ووصلوا في ذلك اليوم إلى ذلك المكان. ولقد شاهدتُ منه رقّةَ قلبٍ لم يُرَ أعظم منها" وذلك أنه كان فيهم شيخٌ كبير طاعن في السنّ، لم يَبق في فمه ضرس، ولم تَبق له قوة إلا مقدارَ تَحرُّكٍ لا غير. فقال للترجمان: قل له ما الذي حملك على المجيء وأنت في هذا السنّ؟ وكم من ههنا إلى بلادك؟ فقال: بلادي بيني وبينها عدّة أشهر. وأما مجيئي فإنما كان للحج إلى القيامة[4]، فرقّ له السلطان، ومنّ عليه، وأطلقه وأعاده راكباً على فرس إلى عسكر العدو"[5].

وقال ابن شدّاد يصف نفور صلاح الدين من سفك الدماء: **"ولقد طلب أولادُه الصغار أن يأذن لهم في قتل أسير، فلم يفعل، فسألته عن سبب المنع، وكنت حاجبَهم بما طلبوه، فقال: لئلا يعتادوا من الصغر على سفك الدماء، ويهون عليهم ذلك"**[6]. وأكّد صلاح الدين نهجه هذا في

---

١ - الحرس.

٢ - ابن شدّاد: النوادر السلطانية، ص ١٥٨ - ١٥٩.

٣ - المرجع السابق، ص ١٥٩.

٤ - كنيسة القيامة في القدس.

٥ - المرجع السابق، ص ١٥٦.

٦ - المرجع السابق نفسه.

وصيته لابنه الملك الظاهر قائلاً له: **"وأحذّرك من الدماء، والدخولِ فيها والتقلّدِ بها، فإن الدم لا ينام"**[1].

وظهر نبل صلاح الدين بجلاء في موقفه من الفرنج حينما استردّ القدس، وكان قد أخرج منها نحو ستين ألفاً من الفرنج" لأنهم كانوا من المستوطنين الذين جُلبوا من أوربا للإقامة في القدس" وتلك هي عادة الغزاة والمحتلين في كل عصر، وكان الاتفاق بين صلاح الدين وقادة الفرنج أن يعود هؤلاء المستوطنون من حيث أتوا، وكان عدد الأسرى نحو ستة عشر ألفاً" ما بين رجل وامرأة وصبي[2]. فكيف تعامل مع هؤلاء جميعاً؟ وقبل ذلك تُرى ماذا فعل الفرنج بسكان القدس، حينما احتلوها سنة (٤٩٢ هـ/١٠٩٩م)؟ لندع المؤرخ ستيڤن رنسيمان يروِ لنا الحدث، قال:

"إن الصليبيين، وقد زاد في جنونهم ما أحرزوه من نصر كبير بعد شقاء وعناء شديد، انطلقوا في شوارع المدينة، وإلى الدور والمساجد، يقتلون كلَّ من يصادفهم من الرجال والنساء والأطفال دون تمييز، استمرت المذبحة طوال مساء ذلك اليوم، وطوال الليل، ولم يكن عَلَم تانْكِرد[3] عاصماً للاجئين إلى المسجد الأقصى من القتل، ففي الصباح الباكر من اليوم التالي اقتحم باب المسجد ثُلّةٌ[4] من الصليبيين، فأجهزت على جميع اللاجئين، وحين توجّه ريموند آجيل[5] في الضحى لزيارة ساحة المعبد، أخذ يتلمّس طريقه بين الجثث والدماء التي بلغت الرُكب "[6].

والآن، كيف كان موقف صلاح الدين من المستوطنين والأسرى الفرنج؟

لقد أشاد المستشرق الفرنسي البير شاندور بنبل صلاح الدين ومروءته في معاملة الفرنج، فقال تحت عنوان (أريحيّة صلاح الدين ونبله):

---

١ - المرجع السابق، ص ٢٣٨.

٢ - المقريزي: كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك،الجزء ١، القسم ١، ص ١٢٢.

٣ - تانكرد: قائد فرنجي.

٤ - ثلّة: مجموعة.

٥ - ريموند آجيل: قائد فرنجي.

٦ - ستيڤن رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ٤٢٦/١.

"وأظهر في مناسبات عدّة أريحيّته نحو أبأس المسيحيين، ومحاولاً تجنيبهم قسوة وضعهم الجديد" فأمر بإبقاء المرضى في المستشفيات التي كان يعالجهم فيها الأَسْبِتاريون[1]، وتخلّى عن كنيسة القبر المقدس للروم السريان، وأُعفيَ- بناءً على أمره وأمر أخيه الملك العادل- ألفٌ وخمسمئة أسير من الفرنجة الفقراء من دفع الفدية"[2].

ووصف ستيفن رنسيمان نبل صلاح الدين مع نساء الفرنج، فقال:

"ثم أعلن صلاح الدين أنه سيطلق سراح كل شيخ، وكل امرأة عجوز. ولّما أقبلت نساء الفرنج اللائي افتدين أنفسهن، وقد امتلأت عيونهن بالدموع، فسألن صلاح الدين أين يكون مصيرهن، بعد أن لقي أزواجُهن أو آباؤهن مصرعهم، أو وقعوا في الأسر؟ أجاب بأن وعد بإطلاق سراح كل مَن في الأسر من أزواجهن، وبذل للأرامل واليتامى من خزانته العطايا كلٌّ بحسب حاله. والواقع أن رحمته وعطفه كان على نقيض أفعال الغزاة المسيحيين في الحملة الصليبية الأولى"[3].

وذكر البير شاندور أنه لّما أخرج صلاح الدين المستوطنين الفرنجَ من القدس، وأطلق سراح قسم من الأسرى، توجّهوا شمالاً نحو بني جِلْدتهم في طرابلس وأنطاكيا، فاستقبلهم هؤلاء بفتور، بل كانوا في بعض الحالات يقتلونهم، ويجرّدونهم مما معهم من أموال ومتاع، ويمنعونهم من دخول مدنهم، **"وعاد أولئك البؤساء أدراجهم نحو الجنوب، بعد أن طُردوا من كونتية طرابلس وإمارة أنطاكيا، فأمر صلاح الدين بأن تُوزَّع عليهم الخيام، وأن يُطعَموا مجّاناً، حتّى يتمكّنوا من الإبحار إلى الغرب، وأمر بنقل عدد كبير منهم إلى الإسكندرية، للتعجيل بترحيلهم"[4].**

وبعد تحرير القدس من الفرنج، ثارت ثائرة البابوية، واستنفرت أوربا لاسترداد القدس، وشارك ثلاثة من قادة كبرى دول أوربا في الحملة الصليبية الثالثة سنة (١١٩٠ م)" الأول هو فريدريك باربَروسا إمبراطور الجرمان (الألمان)، وريتشارد (ريكاردوس) قلب الأسد ملك إنكلترا، وفيليب أُوغست ملك فرنسا. ووصلت الحملة إلى شرقي المتوسط سنة (١١٩١ م)، وأمضى صلاح الدين ثلاثة أعوام مقارعاً القوات الفرنجية، يخرج من معركة ليخوض معركة أخرى،

---

١ - فرسان القدّيس يوحنّا.

٢ - البير شاندور: صلاح الدين الأيوبي، ص ٢٣٤.

٣ - ستيفن رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ٧٥٣/٢، وانظر البير شاندور: صلاح الدين الأيوبي، ص ٢٣٤.

٤ - البير شاندور: صلاح الدين الأيوبي، ص ٢٣٥.

وصحيح أنه خسر بعض المعارك، لكنه ألحق الفشل بالهدف الأكبر الذي شُنّت الحملة من أجلها، وهو استرداد القدس.

ولعل من المفيد الأخذ في الحسبان أن المقاتلين الفرنج كانوا معروفين بالشجاعة والبسالة وشدّة البأس، ولا ننس أن الحافز الديني كان من وراء الحملة والاستبسال والإقدام على الموت، وكان الملك ريتشارد فارساً طويل القامة، ضخم الجثة، قويّ البنية، صعب المراس، بارعاً في فنون الحرب، وصفه ابن شدّاد قائلاً:

"هذا ملكُ الأنكَتار[1] شديدُ البأس بينهم، عظيمُ الشجاعة، قويُّ الهمّة، له وَقَعاتٌ عظيمة، وله جَسارةٌ على الحرب"[2].

ومع كل ما ألحقه ريتشارد من خسائر بجيش صلاح الدين، كان صلاح الدين معجباً بفروسية خصمه، وكان يتصرف معه بنبل وشهامة، وهذا يؤكد قول الباحث الأرمني أرشاك سافراستيان: **"فالكورد يتأثّرون بعمق بأية شجاعة فردية وبأية مأثرة حربية"**[3]. وتعالوا نرَ موقفاً يندر أن يوجد مثله في تاريخ سلاطين وملوك غربي آسيا" وهو موقف صلاح الدين من خصمه ريتشارد، قال ستيفن رنسيمان، يتحدث عن معركة جرت في فلسطين سنة (١١٩٢ م):

"وحمل الفرسان المسلمون في سبع موجات، تألّفت كلُّ موجة من ألف فارس، غير أنهم لم يستطيعوا أن يخترقوا السور الفولاذي[4]، استمرت هذه الهجمات إلى ما بعد الظهر، ولما تبيّن لريتشارد أن الإرهاق والتعب حلّ فيما يبدو بخيول المسلمين، نقل رُماته إلى الصف الأمامي، وأطلق كلَّ سهامه على الجيش الإسلامي الزاحف عليهم، فأوقف إرسالُ السهام تقدّمَ العدوّ، ثم رجع الرماة إلى مواقفهم وراء الرمّاحة الذين حملوا حَملة صادقة، وعلى رأسهم ريتشارد على متن جواده. واشتد إعجاب صلاح الدين بهذا المنظر، فلمّا هوى حصان ريتشارد من تحته،

---

١ - الأنكتار: الإنكليز.

٢ - ابن شدّاد: النوادر السلطانية، ص ١٥٧.

٣ - أرشاك سافراستيان: الكرد وكردستان، ص ١٧٨.

٤ - صفوف جيش الفرنج.

دفعته المروءة إلى أن يبعث من قِبله سائساً يقود جوادين في غمار المعركة، هديةً للملك الباسل"[1].

وعدا هذا، فهل مرّ في سِيَر سلاطين وملوك غربي آسيا أن أحداً منهم عرف أن خصمه مريض، فأرسل له هدية من الفواكه والثلج؟ هذا ما فعله صلاح الدين مع خصمه الخطير ريتشارد في صيف سنة (١١٩٢ م)، قال ستيڤن رنسيمان:

"لزم ريتشارد خيمته وقد اشتد به المرض، نتيجة لإصابته بالحمّى، ... وأرسل[2] إلى الملك المحموم الخوخ والكُمّثرى، فضلاً عن الثلج من جبال حَرَمون، لتبريد أشربته"[3].

وبعدُ، هل يبقى عجب في أن يذكر مؤرخو أوربا-أحفاد الفرنج- صلاحَ الدين بتقدير واحترام؟ وهل كانوا يفعلون ذلك لولا تأثّرهم بشخصيته النبيلة وخصاله الحميدة؟ وها هو ذا المستشرق الفرنسي سيديّو L.A. Sedillot يلخّص تلك الخصال بقوله:

"فصلاح الدين جمّاعٌ لأجمل الصفات، فهو شجاعٌ عند كل ابتلاء، عظيمُ النفس، صادقٌ في عهوده صدقاً منقطع النظير، خالصُ التقوى، مُشبَعٌ من روح العدل، معتدلٌ وقتَ النصر"[4].

من العصر الحديث:

في العصر الحديث ظلت خصلة النبل راسخة في منظومة الكورد الأخلاقية، وجسّدتها النخب الكوردية في مواقف كثيرة، أكتفي بذكر ثلاثة منها:

الموقف الأول أقتبسه من أحداث الحرب بين الدولة العثمانية والروس عام (١٩٠٨ م)، فحينذاك كان العالم الكوردي **ملا سعيد نُورْسي** (بديع الزمان) آمراً لفوج، في فرقة عسكرية بقيادة الجنرال نوري ويسي بولاية مُوش، وقد أمر الجنرال بجمع الأرمن في تلك المنطقة- رجالاً ونساء وأطفالاً- وقتلهم، فجمع الملا سعيد (١٥٠٠) ألفاً وخمسمئة من الأرمن، ووضعهم في أحد الوديان على خطوط التماسّ مع الروس، وقدم لهم الأكل والماء حتى المساء، وأرسل أحدهم

---

١ - ستيڤن رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ١٣٨/٣.

٢ - صلاح الدين.

٣ - المرجع السابق، ١٩٣/٣.

٤ سيديّو: تاريخ العرب العام، ص ٢٢٧.

إلى الجيش الروسي سراً، ليسمح الروس لهم بالعبور إلى جانبهم، وقال للأرمني: سوف أطلق سراحكم، وأساعدكم على العبور، وكي لا يقتلك الحرس الروسي قل لهم: أنا أرمني. ووصل الأرمني إلى قائد اللواء الروسي، وأخبره برغبة الملا سعيد، فتعجب القائد الروسي، وسأله عن هوية هذا الرجل، فأخبره بأنه رجل دين كردي، فهز القائد الروسي رأسه وقال: إن الكورد رجال شجعان، ولا يقتلون الأسرى، ويعاملونهم معاملة إنسانية. ثم عاد الأرمني، واصطحب معه جميع الأسرى الأرمن. وكتب ملا سعيد في مذكراته قائلاً: لم أستطع النوم تلك الليلة حتى الصباح، خوفاً من أن يعدمهم الأتراك في اليوم التالي إن بقوا عندنا[1].

والموقف الثاني أقتبسه من سيرة ضابط كردي آخر في الجيش التركي، هو قدري جميل پاشا (زِنار سُلوپي)، قال يصف أحداث الحرب بين الجيش التركي والثوار اليونان في مناطق البحر الأسود، خلال الربع الأول من القرن العشرين:

"وقد أجبَرَنا آمرُ العمليات العامة شكري بك بتمشيط كل القرى اليونانية الواقعة على طريقنا، وجَمْع الأطفال ما دون سن ١٥ ـ ١٦ سنة. وعلى إثر ذلك جُمع ما يقارب (٢٠) عشرون طفلاً يونانياً في سهل قريب من آيتَپَه، واقتادوهم إلى زريبة. وبعد ذلك أمرني أن أُطلق عليهم النار. وكنت أعلم أن مخالفة الأوامر العسكرية في الحرب يُعاقَب عليها بدون رحمة. لكن الإباء الكوردي الذي يمجّد الشرف الإنساني، ويضعه فوق كل الاعتبارات، منعني من تنفيذ هذه الجريمة النكراء. لذلك أعلنتُ رفضي للقيام بهذه المهمّة، وقلت: إنني جاهز ومستعد للقتال ضد القوات اليونانية، لكني لن أقتل الأطفال. ولم يستطع شكري بك بتهديداته ولا بوعيده وتكراره للأمر تغيير رأيي. آنئذٍ كلّف شخصاً آخر بتنفيذ هذه الجريمة البشعة، فأخرج الأطفال واحداً تلو الآخر من الزريبة، وقَتَلهم"[2].

والموقف الثالث أقتبسه من الحرب بين الكورد والجيش الملكي العراقي، ففي سنة (١٩٤٣ م) دارت معركة، في خَيرْزُوك بجنوبي كردستان، بين الثوار بقيادة ملا مصطفى بارزاني وفوج من الجيش العراقي الملكي، تكبّد فيها الفوج خسائر جسيمة، وأصيب ملا مصطفى بجراح طفيفة، ووقع الشرطي الذي أصاب ملا مصطفى بجراح أسيراً، فأولاه ملا مصطفى رعاية خاصة، ولم

---

١ - حسن هشيار: مذكرات مقاتل، حلقة ٣.

٢ - زنار سلوبي: في سبيل كردستان، ص ٤٩.

يسمح لأحد بالإساءة إليه، وفي اليوم التالي أعاده مع جميع الأسرى إلى ميرگه سُور، وأرسل معهم نيي حسن، وكان موضع ثقته التامة، لحمايتهم وإخلاء سبيلهم بسلام[1].

وعدا هذا فالقاصي والداني يعلم أن الكورد قاموا بالثورات طوال القرن العشرين، وتعرّضوا لأبشع أنواع البطش والتنكيل والإبادات، فهل نقلوا القتال إلى مدن الخصوم؟ هل فجّروا الأسواق وغيرها من المرافق؟ هل فجّر المقاتلون الكورد أنفسهم وسط المدنيين؟ هل حزّوا رقبة؟ هل دمّروا مسجداً أو كنيسة؟ ثم أيّ شعب هذا الذي يغضب فلا ينتقم ممّن أغضبه وآلمه، وإنما يُشعل بعض أبنائه وبناته النار في أجسادهم، غضباً واحتجاجاً؟ أما حدث ذلك حينما تآمرت أمريكا وإسرائيل واليونان للقبض على عبد الله أوجلان سنة (١٩٩٩ م)، وسلّمته للدولة التركية؟ إن من قرر الإقدام على الموت ألا يستطيع الفتك بالعشرات قبل أن يُنهي حياته؟

إن من الخطأ الاعتقاد بأن تاريخ الشعوب هو مصالح وسياسات وحروب فقط، إن تاريخ الشعوب هو في جوهره ثقافات وقيم وأخلاقيات، وإن مستقبل البشرية المشرق مرهون بتعميم الثقافات الرشيدة والقيم النبيلة والأخلاقيات الحميدة، وأحسب أن أخلاقيات الكورد نموذج طيّب في هذا المجال، كما أنها ظاهرة جديرة بالتحليل، وخاصة من قِبل المهتمين بدراسة شخصيات الشعوب، ولو درسوها لاتّضح لهم أنها متأصّلة في الثقافة الكوردية منذ فجر الحضارة، وكانت النخب الكوردية الأصيلة حاميتها عبر العصور.

إن الكوردي قد يكون راعياً ساذَجاً، أو فلاّحاً بسيطاً، وقد يعمل عتّالاً أو أجيراً أو كنّاساً للشوارع، أو ماسح أحذية، ليكسب قوت عياله، ويحصل على الحد الأدنى من متطلّبات الحياة. لكنه مع ذلك يبقى نبيلاً في قرارة نفسه، مستلهماً ذلك من الرصيد الأخلاقي في تاريخه، وهذا الرصيد هو الذي جعل أحد زعماء الكورد يقول سنة (١٦٧٥م):

"أنا، وليس السلطان العثماني، إمبراطور هذه الأرض، إنه قد يكون أقوى مني، ولكني أنبل منه"[2].

---

١ - مسعود البارزاني: البارزاني والحركة التحررية الكردية، ٨٨/١.

٢ - أرشاك سافراستيان: الكرد وكردستان، ص ٨٨.

١٠

قيم البطولة والفداء

أيديولوجيا التوحّش:

في تاريخ البشرية حقائق كثيرة غير مريحة، من أبرزها أن رحلة الإنسان في الحياة هي إجمالاً رحلة صراع" فما إن يحلّ ضيفاً على العالم، حتى يصبح الصراع الوجودي الشامل والمستمر قدره الأبدي، إنه مرغم على أن يصارع ليرفد معدته بحاجتها من الطعام والشراب، ويصارع ليلبّي حاجاته الجنسية، ويصارع ليحمي نفسه من الحشرات والوحوش، ويصارع ليتفاهم مع البيئة، ويتلاءم مع مزاجها المتقلّب، ومتى كانت صراعات شاملة ومستمرة كهذه غير مصحوبة بالكفاح والكدح والآلام؟

وليت المشكلة انحصرت في الصراع الوجودي وحده! فقد جرّت حالة (الاجتماع) على الإنسان نوعاً آخر من الصراع، هو الصراع على (الجغرافيا)، وهو في جوهره صراع للسيطرة على المكان الأكثر وفرة بالطعام والشراب، والأنسب حماية من الحشرات والوحوش، والأهدأ مزاجاً والأقل عدوانية. وفي فجر التاريخ البشري كان الصراع على الجغرافيا محدوداً" إذ كان البشر أقل عدداً، وكانت الجغرافيا أكثر قدرة على تلبية حاجاتهم، إضافة إلى أن طور المشاعية كان قد أنتج ثقافة (الواحد للكل والكل للواحد)، فتقلّصت الصراعات، وقلّت حدّتها.

لكن مع تكاثر البشر، وتحوّل الجماعات إلى قبائل، وابتكار الزراعة، وما تطلّبه الاقتصاد الزراعي من صناعات رديفة، وظهور (فائض الإنتاج) والاقتصاد التجاري، ونشوء (ذهنية الاحتكار)، اختلّت معادلة (الواحد للكل والكل للواحد)، ونافستها معادلة (الكل للواحد)، فزحزحتها من موقعها السيادي في الضمير الجمعي، وأصبح الصراع داخل كل مجتمع أكثر حدّة

وعنفاً، وصارت كل قبيلة تعمل لإزاحة القبيلة الأخرى من طريقها، إما بإبادتها، أو بطردها، أو بتحويلها إلى عبيد.

ومع ظهور الحضارة في أحواض الأنهار الكبرى (يانغ تسي، الغانج، دجلة والفرات، النيل)، وتشكّل الشعوب، ونشأة المدن الكبرى، تفاقمت الصراعات ضمن كل مجتمع، وتحوّلت إلى عنف منظَّم ومشرَّع، ثم فاضت على المجتمعات المجاورة، ونشأت الذهنيات الإمبراطورية، وانبثقت منها ثقافات وسياسات احتلالية الطابع، وظهرت دول وممالك متسلّحة بأكبر قدر ممكن من الشراسة والبطش، ومصرّة على اكتساح جغرافيا الشعوب الأخرى، ووضع أيديها على ثرواتها.

ولا يخفى أن الذهنية الإمبراطورية هي في جوهرها ذهنية إلغائية، تصنّف (الآخر) في خانة (العدو)، وليس في خانة (الشريك)، كما أنها تخترع المظلة الأيديولوجية المناسبة لمشروعها الاحتلالي، وقد تكون مظلة دينية أو وضعية، وتحشد جماهيرها تحت تلك المظلة طَوْعاً أو بالإكراه، وتُخضعهم لعملية غسل دماغ شامل، وتشحنهم بروح العدوانية، وتهيّئهم للانقضاض على الشعوب الأخرى، كي تسلبها الجغرافيا بما فيها من ثروات وميزات جيوسياسية، وكي تجرّد الشعوب من مرجعياتها الثقافية والسياسية" باعتبار أن مرجعيات الشعوب هي رأسها المفكر وضميرها الحيّ، وتتوغّل أكثر في قهر الشعوب، فتمسخ هوياتها، وتشلّ إراداتها، وتحوّلها إلى شراذم من المرتزقة والأتباع والخدم والعبيد.

أجل، في عصر الذهنيات الإمبراطورية اختلفت طبيعة الصراع اختلافاً بنيوياً" إذ لم يعد البشر يواجهون وحوشاً تكتفي باقتناص فرائسها، ولا تعاود الهجوم إلا بعد أن يستبدّ بها الجوع ثانية، ولم تعد المجتمعات عرضة للعدوان بقصد تجريدها من الجغرافيا فقط، وإنما صارت البشرية تواجه وحوشاً مُؤَدْلَجَة عنيدة، وحوشاً مدجَّجة بمنظومات معقَّدة من المُثل والمبادئ التي تشرّع العدوان، وتبجّل العنف، وتبارك سفك الدماء، ويرعاها كهنة بارعون في التنظير، ويديرها سدنة خبراء في التبرير، ويزيد من صلفها أنها تستحدث قوة قتالية عاتية، وتؤسس آلة حربية لا ترحم.

حقاً كان ذلك تحوّلاً دراماياً هائلاً في مسيرة الصراعات، وكان من الطبيعي أن تُحدث بالمقابل تحوّلات جوهرية في منظومات قيم الشعوب المستضعَفة المقهورة، وكانت البطولة والفداء من أعظم القيم التي فرضتها الضرورة التاريخية، إنها آليات روحية ابتكرتها الشعوب المستضعَفة" لتستعين بها في مواجهة أيديولوجيات التوحّش، ولتصون بها ذاتها من الاستلاب والاستعباد والانمساخ والاندثار.

ومن هم السبّاقون إلى تجسيد قيم البطولة والفداء في المجتمعات؟ إنهم النخب الأصيلة، أجل، إن نخب الشعوب هم الذين يندفعون بشجاعة" لمبارزة القوى الاحتلالية في ساحة التاريخ، سواء أكان لهم أم عليهم، لا فرق، فالرماح لا تسعها أكياس الخيش Rom di Çiwala hil nên كما يقول مثل كردي، والثلوج مكانها القمم Berf li serî çiya dibare كما يقول مثل كردي آخر، والمهم أن الأصلاء من نخب الشعوب لا يستطيعون إلا أن يكونوا كما هم، ذلك هو قَدَرهم التاريخي، ولأنهم كذلك فإنهم يتحوّلون إلى مُثُل عليا في فضاءات الوعي الجمعي، وتستلهم منهم الأجيال العزيمة لمواصلة مسيرة الكفاح.

تجلّيات الجبل:

إن مراجعة سريعة لمسيرة التاريخ الكوردي منذ خمسة آلاف عام، تضعنا أمام حقيقة ناصعة" هي أن الذهنية الكوردية- بصورة عامة- ليست ذهنية إمبراطورية احتلالية، وهي من ثَمّ ذهنية غير إلغائية للآخر، ولا تمتلك موهبة ابتكار أيديولوجيات التوحّش، وليس هذا فحسب، وإنما هي ذهنية تدفع أصحابها أحياناً إلى إلغاء أنفسهم في سبيل الآخر، أضف إلى هذا أن الكورد- مثل كثير من الشعوب الأخرى- كانوا- في الغالب ضحية الذهنيات الإمبراطورية الاحتلالية، وفريسة بين أنياب أيديولوجيات التوحّش، وقد استعرضنا بعض الأدلة على ذلك في صفحات سابقة من هذه الدراسة.

وبعبارة أخرى: لقد فُرض على الكورد أن يخوضوا صراعاً مريراً ضد مشاريع احتلالية شرسة، مشاريع مدجّجة بأكثر الأسلحة الأيديولوجية والحربية توحشاً، وما كان قادة تلك المشاريع يقتنعون بالسيطرة على الجغرافيا الكوردية، وباستنزاف الثروات الكوردية، وباستغلال قدرات الإنسان الكوردي، وتحويله إلى تابع لا حول له ولا قوة، وإنما كانوا يصرّون على تجريد الكوردي من ذاكرته الجمعية، وينصّبون له الفخاخ، لاقتلاعه من جذوره، وتفريغه من هويته، وتعبئته بهويات غريبة، وإنتاج (الكوردي المِسخ).

وفي خضمّ ذلك الصراع المروِّع كان العاصم الأكبر للكرد هو (سيكولوجيا الجبال)، فإنها- رغم بعض سلبياتها- وقفت بالمرصاد في وجه أيديولوجيات التوحّش، بلى، نهض (الجبل) في الوعي الجمعي الكوردي، وشمخ في الضمائر المغتسلة بأشعة شمس آهُورامَزْدا، وتعملق في الإرادات المجبولة بصلابة صخور زاغروس وأرارات وطوروس، وتجلّى ببهاء في شخصيات النخب

الكوردية النقية، أولئك الذين أبوا أن يرفعوا الراية البيضاء أمام مشاريع التدجين والتمسيخ، وإنما نازلوها بصلابة قلّ نظيرها، وخلّدوا في تاريخ الكورد مواقف جليلة، وتركوا للأجيال- على مر القرون- إرثاً بطولياً عامراً بمعاني التحدي والفداء.

وليس بين أيدينا معلومات تفصيلية عن بطولات أسلاف الكورد قبل الإسلام، فالمعروف أن تاريخهم تعرّض- في معظمه- للتزوير والتدمير والتغييب، ولم يصلنا منه إلا الجزء اليسير، وكان ذلك اليسير منثوراً في مدوّنات الخصوم الإمبراطوريين، ومكتوباً بالكيفية التي شاؤوا هم أن يُكتَب بها، وبطبيعة الحال كان هؤلاء حريصين على التباهي بانتصاراتهم، وتنسيب البطولات والأمجاد إلى أنفسهم، وإلصاق الصفات القبيحة والشريرة بأسلاف الكورد، فصوّروهم تارة على أنهم ثعابين الجبال، وأخرى كالغربان، وثالثة هاربين **"كالخفافيش التي تعيش في الكهوف"**، ورابعة راكعين أمام الملوك، يقبّلون أقدامهم، ويقدّمون لهم الجزية والهدايا[1].

ولكن ماذا عن صلابة أسلاف الكورد في التصدّي للغزوات الإمبراطورية؟ وماذا عن إصرارهم على الدفاع عن بلادهم؟ وماذا عن تفاصيل استبسالهم في مقاومة الغزاة الشرسين؟ لا شيء عن ذلك، وهل كان من الممكن أن يتصدّى أسلاف الكورد للجيوش الأكّادية والبابلية والآشورية والحثّية الجرّارة، من غير توافر إرادة وطنية صلبة؟ وهل كان من الممكن أن يتخذوا قرار التصدي لولا امتلاكهم الجسارة وإرادة التحدّي والفداء؟ ثم ماذا يعني حديث ملوك أكّاد وبابل وآشور عن غزواتهم المتكررة لمواطن أسلاف الكورد؟ ألا يعني ذلك أن انتصاراتهم لم تكن حاسمة، وأن أسلاف الكورد كانوا يرفضون الخنوع والاستسلام، ويخوضون ضدهم حروب الكر والفر في معاقلهم الجبلية؟

ورغم سقوط دولة ميديا عام (٥٥٠ ق.م)، ظلّت قيم البطولة والفداء راسخة في الشخصية الكوردية، وإلا فكيف نفسّر تصدّي **گـُوماتا** الميدي للسيطرة الفارسية في عهد قَمْبَيز سنة (٥٢٢ ق.م)[2]؟ وكيف نفسّر تصدّي الزعماء الميد **فراوُرْت** و**وهَيزْدانَهْ** و**چيثْران تخمه**، لسلطة الملك الفارسي دار الأول سنة (٥٢١ ق.م)[3]؟ وكيف نفسّر الثورات الكوردية الكثيرة خلال العهود

---

١ - فاضل عبد الواحد علي: من سومر إلى التوراة، ص ١٠١ – ١٠٣. محمد بَيُّومي مهران: تاريخ العراق القديم، ص ٣٤٨. هاري ساغز: عظمة آشور، ص ١٧٦.

٢ - هيرودوت: تاريخ هيرودوت، ص ٢٤٩، ٢٥٣، ٢٥٤.

٣ - دياكونوف: ميديا، ص ٤٤٠، ٤٠٧ – ٤١٠.

الإسلامية؟ إن تلك الثورات بدأت منذ عهد الخليفة عمر بن الخطّاب، واستمرت خلال العهد الأموي والعهد العباسي، ولم يستطع البُوَيهيّون الدَّيْلَم ولا السلاجقة الأتراك، ولا الشاهات الصفويون، ولا السلاطين العثمانيون، قتل روح الكفاح وإرادة التحدي في الوعي الجمعي الكوردي[1].

ونستعرض فيما يلي بعض المواقف البطولية قديماً وحديثاً.

مواقف الصلابة والتحدّي:

● في سنة (٦٥٧ هـ/١٢٥٩م) انطلق القائد المغولي **هولاگو** من أذربيجان، وغزا كردستان، فقتل كل من لقيه من الكورد في خَلاط وجبال هكّار، ووصل إلى آمد (ديار بكر)، وفتح جزيرة بُوتان (جزيرة ابن عُمر)، ووجّه ابنه يَشْمُوت لحصار مَيّافارِقين (فارْقِين)، وكانت مناطق شمالي كردستان- جيوسياسياً- بوّابة استراتيجية لاحتلال بلاد الشام، ولما اقتربوا من مَيّافارِقين أرسلوا إلى الملك **الكامل الأيوبي** يدعونه إلى الاستسلام، ويمنّونه الأماني، فرفض قائلاً:

"إنني لن أنخدع بكلامكم المعسول، ولن أخشى جيش المغول، وسأضرب بالسيف ما دمت حيّاً"[2].

وشرع الملك الكامل يقوّي عزائم شعبه، وقال: **"سوف لا أبخل عليكم بالذهب والفضّة والغَلاّت الموجودة في المخازن، وسأُوثر بها كلَّها المحتاجين، فإني- بحمد الله- لست كالمُستعصِم[3] عبداً للدينار والدرهم، الذي طرح برأسه وبُلك بغداد بسبب بخله وشُحّه"**[4]. ووقف سكان المدينة صفاً واحداً مع الملك الكامل، وتصدّوا للهجوم المغولي، مظهرين ضروباً فائقة من الشجاعة، مقتدين في ذلك بملكهم، واستمرّ الحصار مدة طويلة، فنفدت المؤن، وجاع الناس، حتى إنهم

---

١ - ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ٩٨٢/٤، ٦٧/٥، ٤٣٠/٥، ٤١٨/٦، ٧٢٩. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ٣٣١/٥ — ٣٣٣، ١٧٤/٧. حسن شيساني: مدينة ماردين، ص ٧٦. حسين قاسم العزيز: البابكية، ص ١٤٦، ٣٠٨.

٢ - الهمذاني: جامع التواريخ، ٣١٩/١ — ٣٢٠.

٣ - خليفة بغداد العباسي الأخير.

٤ - المرجع السابق، ٣٢٠/١.

أكلوا المِيتَة والكلاب والقطط والفئران، ولم تنهض الإمارات الأخرى لنجدة مَيّافارقين، فسقطت في أيدي المغول.

وأما الملك الكامل فقبض عليه المغول، واقتيد إلى هولاكو، وكان هذا حانقاً عليه أشدّ الحنق، فعنّفه وأمر بتقطيعه إرْباً إرْباً، وكان المغول يضعون أعضاء جسده المقطوعة في فمه، حتى هلك[1].

● قال باسيل نيكيتين: **"حدث أن أُسر أحد البگوات الكورد، ولم يكن قد تجاوز الثلاثين من عمره، أثناء حملة حافظ باشا عام (١٨٣٧م)، وكان يتميّز بوسامة بادية، فما كان منه إلا أن رفض جميع العروض المغرية التي قُدّمت له، ليكشف لهم عن عدد الثوار ومواقعهم. وكان يردّ على مغريات الأعداء بقوله: إنني بگ كردي، ولا أطمح في أن أكون رئيساً لقوم آخرين. ولم تنفع معه كل أساليب التنكيل والتعذيب التي استُخدمت معه طوال يومين، وحتى عندما كان يتعرّض للضرب المبرِّح، كان يدخّن غليونه بهدوء، وفي اليوم الثالث رماه الباشا في قدر من الزيت المَغلي، فلبث محافظاً على رباطة جأشه حتى فارق الحياة"**[2].

● قاد الشيخ سعيد پالو Palo[3] ثورة (١٩٢٥ م) في شمالي كردستان (شرقي تركيا حالياً)، وهو في الخامسة والسبعين من العمر، وذات مرة اختبأت كتيبة تركية بين الأحراش،

---

١ - المرجع السابق، ١/ ٣٢١ – ٣٢٤.

٢ - نيكيتين: الكرد، ص ١٤٠. وانظر مينورسكي: الأكراد، ص ٦٥.

٣ - هو شيخ سعيد بن الشيخ محمود بن الشيخ علي پالوPalo، م عشيرة أليكان Elikan، فخذ جندكان cindikan، كان جده خليفة الشيخ خالد النقشبندي، وارتحل معه إلى الشام، وبعد وفاة الشيخ خالد، رجع الشيخ علي إلى كردستان، وسكن في سهل ديار بكر عند أقاربه في قرية قرديلك Qirdîlek، ومن هناك ذهب إلى پالو Palo، فلقّب بالشيخ علي پالو، وبعد وفاته رحل نجله الشيخ محمود إلى قلعة خنوسي xinûsê في أرزروم، وهناك تزوج من كريمة آغا قرية تكمانة tekmanê، فأنجبت ستة أولاد، هم الشيخ سعيد، وضياء الدين، وبهاء الدين، وطاهر، وعبد الرحيم، ومهدي .

وكان الشيخ سعيد فقيهاً وعالماً بارزاً في العلوم الإسلامية، وشيخاً للطريقة النقشبندية، وكان وطنياً كردياً مخلصاً، ولم يكن يؤمن بالخرافات، وكان يختلط بالناس، فأحبوه، وكان يشجّع الكرد على الاهتمام بالعلم بكل صنوفه، وحاول تأسيس جامعة في مدينة وان wan على غرار جامعة الأزهر باختصاصات متعددة، لكن السلطنة العثمانية أفشلت مشروعه. وعلى المستوى السياسي كان الشيخ سعيد على اتصال بالجمعيات

ونصبت كميناً للثوار عند مضيق جبل پـيرَه شِين Pîreşîn، في جبهة آمد (دياربكر)، ولما اقترب الثوار فتحت النار عليهم فجأة، فاستشهد عدد منهم، وجُرح آخرون، وتراجعت مقدّمتهم، وحصل بعض الارتباك والفوضى في صفوفهم، قال حسن هِشْيار:

"وحينها وصل الشيخ سعيد، ورأى ما حصل لنا، وقال: ماذا حصل لكم؟! ألا تخجلون من أنفسكم بأن تتراجعوا أمام مَهْمَدْچِيك Mehmedçîk[1]؟! وترجّل من على ظهر الجواد، وأخذ البندقية من كتف سائسه الشركسي الأصل، ولفّ جسده النحيف بالذخيرة، ولفّ جبّته حول خصره، واتجه صوب المواقع التي تحصّن فيها الجنود الأتراك. وعندما رأى الثوار هذا الموقف زاد مشهد الشيخ من رفع معنوياتهم وحماسهم، وهجموا كالأسود، وبرجولة قلّ نظيرها، نحو الأمام، وقتلوا من قتلوا، وأسروا الباقين "[2].

● في ثورة (١٩٢٥م) وقع قاسم آغا (من كرد الزازا)- وهو مثخَن بالجراح- في أسر الجنود الترك بقيادة علي حيدر، فكان علي حيدر يسكب الماء المغلي على رأسه، ويخلع أسنانه وأظافر يديه ورجليه بالكمّاشة، ويضع حلقة حديدية ساخنة لدرجة الاحمرار على صدره، ويكوي بها جسده، ويستهزئ به قائلاً: **" ماذا جرى لك يا قاسُو"**؟ فكان قاسم آغا يرد عليه قائلاً: **"يا حَيْدُو، ما تقوم به ليس من أعمال بني البشر وأولاد الطيبين، بل هو من أعمال أبناء الزنا والعاهرات، وهذا ما يمكن أن يحدث لكل رجل حقيقي، جرّب ما تشاء من وسائل"**. ثم أركبوه على بغل، وأداروا به في القرى، وعندما أوشك على الموت، أنزلوه من على البغل، وأمر علي حيدر جنوده برجمه بالحجارة، إلى أن تكوّمت على جسده كومة كبيرة، ومع ذلك كان يشتمه ويشتم رئيسه مصطفى كمال أتاتورك[3].

● بعد فشل ثورة (١٩٢٥م)، قُدّم عدد كبير من الثوّار الكورد إلى محكمة الاستقلال في آمد، ومنهم المحامي محمد أفندي (باڤي تُوژو) Bavê Tûjo، وقد رفض تقديم دفاعه في المحكمة باللغة التركية، وأصرّ على التحدث بالكوردية، وأبدى شجاعة نادرة ورباطة جأش

الثقافية والاجتماعية والسياسية الكردية، مثل جمعية كرد تعالي وترقّي، والأمل Hêvî ، وكلّل نشاطه الوطني بقيادة ثورة ١٩٢٥م.

١ - مهمدچيك لقب الجندي التركي.

٢ - حسن هشيار: مذكرات مقاتل، حلقة ٤.

٣ - زنار سلوبي: في سبيل كردستان، ص ١١٥. حسن هشيار: مذكرات مقاتل، حلقة ٦.

عظيمة، فحُكم عليه بالإعدام. وعلى منصّة الإعدام صرخ هاتفاً: (عاشت كردستان)، فانقضّ عليه الجنود الأتراك، وطعنوه بالحراب، فتمزّق جسده بطعنات الحراب قبل أن يُعدَم[1].

● بعد فشل ثورة (١٩٢٥م)، وقع قائدها الشيخ سعيد في الأسر، وقُدّم إلى محكمة الاستقلال في آمد، وفيما يلي جانب من وقائع الجلسة الأخيرة لمحاكمة الشيخ سعيد:

س: حضرة الشيخ، هل تستطيع أن تنكر بأنك أنت الذي أشعلت هذه الثورة؟

ج: لماذا ومن أجل أيّ شيء أنكر؟! فأنا مثل الذين قاموا بها في الماضي، ومثل من سيقوم بها في المستقبل، وأنا مثل كل القيادات الكوردية قمت بتلك الثورة.

س: ما معنى كلامك في الماضي أو المستقبل؟

ج: ما أقوله أن هناك من قام قبلي بالدعوة إلى هذه الحقوق، وسوف يأتي في المستقبل من يطالب بهذه الحقوق، حتى ينتزعوها، ولهذا تجدونني هنا.

س: باعتبارك شيخاً وعالماً دينياً، هل إراقة دماء المسلمين جائزة؟

ج: أنتم لا تعترفون بحقوقنا، فلماذا تحملون تُرْس الدين في أيديكم؟ إن الكورد يطالبون بحقوقهم السياسية والإنسانية، وأنتم ترتكبون بحقهم الإبادة والمجازر الجماعية، ونحن نقاتل من أجل الدفاع عن أنفسنا، أما أنتم فتقاتلون بصفتكم محتلين.

س: لماذا بعض رفاقك ينكرون التهم الموجّهة إليهم؟

ج: هؤلاء ربما يخافون منكم، وينكرون حقوقهم المشروعة، ولكن يجب الخوف من محكمة التاريخ والشعب، وليس منكم.

س: لماذا لم تطلب أنت ورفاقك حقوقكم بالأساليب الدبلوماسية وبدأتم بالقتال؟

ج: لم يذهب جنودنا إلى أناضول، ولكن أنتم من أرسلتم الجيش إلى قتالنا، وارتكبتم المجازر بحق الأطفال والنساء، وتآمرتم على حقوقنا المنصوص عليها في معاهدة لوزان[2]؟ ولذلك وجدنا أن الحقوق تُؤخذ ولا تُعطى.

س: تدلّ أجوبتك على أنك لست نادماً على ما قمت به من قتل وارتكاب الذنوب؟

---

١ - زنار سلوبي: في سبيل كردستان، ص ٧٢، ١٢٠ - ١٢٢.

٢ - تمّ توقيع معاهدة لوزان في ٢٤ آب/أغسطس عام ١٩٢٤ م، بين تركيا من جهة، وإنكلترا وفرنسا من جهة أخرى، وتقلّصت فيها الحقوق التي مُنحت للكرد بموجب معاهدة سِيڤر في ١٠ آب/أغسطس ١٩٢٠ م.

ج: لم يتراجع أحد من الأحرار عن طريق المجد والشرف حتى أتراجع.

قرار المحكمة: بناء على اعترافاتكم قررت المحكمة أن تعدمك مع (٤٨) من رفاقكم المتهمين، وإن ما كنتم تفكرون به من استقلال الكورد وكردستان ستجدونه على أعواد المشنقة، عندما تُلفّ حبالها على رقابكم.

الشيخ سعيد: إذا ما قمتم بإعدامنا وقتلنا الآن تستطيعون، ولكن عليكم أن تعرفوا جيداً أنه ليس باستطاعتكم إعدام شعب بكامله، وسدّ الطريق أمام قضيته، وأن دماءنا سوف تزيّن علم الحرية، عاش أبطال الكورد[١].

● بعد سقوط جمهورية مهاباد سنة (١٩٤٧م)، قرر ملا مصطفى بارزاني التوجّه إلى الاتحاد السوفياتي، فجمع رفاقه (حوالي ٥٠٠ مقاتل)، وخطب فيهم قائلاً: **"أيها الإخوة إنني سائر إلى مصير مجهول، لا أدري هل أموت من الجوع، أو من البرد، أو برصاصة من الأعداء، فالموت هو أقرب احتمال بالنظر إلى وضعنا هذا، إلا أن الله أقوى وأكبر من الأعداء، وبالتوكل عليه اخترت التحدي، فليبق معي كل من يرى في نفسه القدرة على تحمّل هذه الصعاب، وتحمّل هذا المصير، ومن لا يرَ في نفسه القدرة على التحمّل فبإمكانه العودة"**. فلم يخرج من بين الصفوف أحد، وأجابوه بصوت واحد أنهم سيلازمونه مفضّلين الموت معه على الحياة[٢].

● بعد العبور إلى الاتحاد السوفياتي، والوصول إلى أذربيجان السوفياتية، حاول المسؤول الآذري جعفر باقِروف إخضاع ملا مصطفى بارزاني لسلطته، وكان باقروف مقرَّباً من بِيريا وزير الداخلية السوفياتي في عهد ستالين، وذات مرة هدّد باقِروف ملا مصطفى بوجوب قبول اقتراحاته، وإلا فإنه سيتحمّل مسؤولية العواقب. فردّ عليه ملا مصطفى قائلاً:

"لم نأت إلى هنا لكي تهدّدنا أيها الرفيق باقِروف، ولو كنا نخشى التهديدات لما كنتَ رأيتني هنا، جئنا إلى الاتحاد السوفياتي لكي نُسمع شعوبه صوت شعب مظلوم، ألا وهو شعب كردستان، ولكي نحافظ على كرامتنا وعزة شعبنا، وأرجو أن تفهم أنّا لا نرضخ للتهديدات، ولن نقبل إطلاقاً أن نتّبع شعباً لا يزيد شأناً عن شعبنا، وحتى لو كان هذا

---

١ - حسن هشيار: مذكرات مقاتل، حلقة ٧. وانظر زنار سلوبي: في سبيل كردستان، ص ١٢٣.

٢ - مسعود البارزاني: البارزاني والحركة التحررية الكردية، ١/٢٤٥.

الشعب صديقاً وأخاً لنا كشعب أذربيجان، فنحن شعب مستقل، ولسنا جزءاً من أذربيجان، ولن نقبل بطمس شخصية الشعب الكوردي"[1].

نماذج من التضحية والفداء:

● في ٢٧ حزيران/يونيه (١٩٢٥ م) أعدمت السلطات التركية الشيخ سعيد، مع (٤٨) من قادة الثورة، فكيف كانت مواقفهم أمام أعواد المشانق؟ ذكر حسن هشيار أنه ظهر أولاً الشيخ علي جاني، دون أن تظهر عليه بوادر الخوف والارتباك، وألقى قصيدة حماسية للشاعر الكوردي ملا جزيري. ثم ظهر العقيد محمد خليل خَتُو قائد جبهة فارتو بشواربه المهيبة، وعند ما أصبح بمحاذاة المسجونين قال:

"أيها الإخوة أنا الآن سعيد بما أنا مُقدِم عليه، ولا أهاب الموت، وما قمنا به كان من أجل الشرف والشعب والوطن، وفي هذه اللحظات التاريخية سوف نلتحق برفاقنا الذين استشهدوا من قبلنا، وها أنا أسلّمكم الكُولوس الكوردي[2]، وأُودعه أمانةً عندكم، فإنه يمثّل رمز الكورد وشرفهم، وأخاف أن يسقط من على رأسي تحت المشنقة، ويدوس عليهما جنود الأتراك"[3].

ثم ظهر الشيخ سعيد، ووجد ما عليه السجناء من الحزن، فألقى كلمة يخفّف بها حزنهم، ويبشّرهم بأن تضحيات الكورد لن تذهب هدراً، وجاء في كلمته:

"أيها الإخوة الأعزاء، عليكم أن تعرفوا أنكم جميعاً مباركون" كبيرُكم وصغيرُكم، وأنّ موتنا لن يموت شعبنا، بل سوف يفتح أمامه طريق الحرية والاستقلال، وعليكم أن تعرفوا مرة أخرى، وتؤمنوا بأن شجرة الحرية سوف تسقى بدمائنا، ولقد خرجنا- نحن وكل المناضلين والأبطال- من هذه الأرض المقدسة، وستبقى لنا، فيها جذورنا، وأنتم سندٌ وأساسٌ لبقاء هذا الشعب من بعدنا"[4].

---

١ - المرجع السابق، ١/٢٦١.

٢ - الكولوس: قُبّعة ملفوفة بمنديل فاخر.

٣ - حسن هشيار: مذكرات مقاتل، حلقة ٦.

٤ - المرجع السابق نفسه.

وفي ساحة الإعدام نصبت السلطات التركية (٤٩) مشنقة، واحتشد الضباط والجنود لرؤية المشهد، في حين كانت الفرقة الموسيقية العسكرية تعزف النشيد القومي التركي، وكان الجنرال مرسال باشا جالساً على الكرسي، وإلى جانبه الشيخ سعيد مقيَّد، ففكّ قيوده، وقال له:

- خذ هذا القلم، وأكتب ما تشاء، لتبقى ذكرى عزيزة لديّ.

- فردّ عليه الشيخ سعيد قائلاً: ما تقوله ليس صحيحاً، ولست تريد مني ذكرى، بل تريد معرفة ما إذا كنت أمتلك العزيمة أمام حبل المشنقة أم لا؟ وهل يداي تستطيعان الكتابة في هذا الظرف أم لا؟ ولكن من يقود ثورة يتذكر دائماً مثل هذه الظروف، ويضع أمام عينه هذا الموقف.

وأمسك الشيخ سعيد بالقلم وكتب:

"الظالمون والمستعمرون يلفّ قلوبهم ستار أسود، ولا يوجد في عقلهم ووجدانهم ذَرّة أخلاق، ولا شيء من الإنسانية، وعليكم أن تعلموا أنكم لن تستطيعوا أن تقفوا في وجه مطالب شعبي إلى الأبد، وسوف تظلمون شعبكم أيضاً عندما يتم الثأر من أفعالكم، أما نحن فقد أعلنا لشعبنا عصراً جديداً"[١].

● بعد فشل ثورة سنة (١٩٣٦ – ١٩٣٨ م) في شمالي كردستان، وإثر محكمة صورية، نُفّذ حكم الإعدام في قائد الثورة سيّد رضا وأولاده وبعض زعماء القبائل الكوردية، وقبل أن يصعد سيّد رضا إلى المشنقة هتف باللهجة الزازية قائلاً:

"لقد بلغتُ الخامسة والسبعين، وها أنا أنضمّ في هذا العمر إلى شهداء كردستان. ولا بد أن ينتقم الشباب الكوردي لنا. عاشت القومية الكوردية، عاشت كردستان"[٢].

● في شرقي كردستان، وفي ٢٢ كانون الثاني/ يناير (١٩٤٦م)، قامت جمهورية مهاباد، وفي شهر كانون الأول/ديسمبر من السنة نفسها سقطت الجمهورية ضحيّة الصفقات السياسية بين الاتحاد السوفياتي وإنكلترا وأمريكا، فأبى رئيسها قاضي محمد الفرار، وحكمت عليه السلطات الإيرانية بالإعدام، وسيق إلى المشنقة فجر يوم ٣١ آذار/مارس (١٩٤٧م)، فهتف أمام عمود المشنقة قائلاً:

---

١ - المرجع السابق نفسه.

٢ - زنار سلوبي: في سبيل كردستان، ص ٢٠٨.

"إنكم تستطيعون إعدامي، ولكن كل كردي هو قاضي محمد، ولن ينسى أيّ كردي هذا الظلم"[1].

● في ١٨ حزيران/يونيه (١٩٤٧م)، أُعدم بعض الثوّار الكورد، في سجن ببغداد، منهم الضابط مصطفى خوشناو، فصرخ قبيل إعدامه قائلاً:

"أيها الجلادون، بلّغوا أسيادكم أن دماءنا لن تذهب هدراً، إن أبناء شعبنا الباقين على قيد الحياة يعرفون جيداً كيف سينتقمون منكم. لا تفكروا بأنكم تخيفونني بأعواد مشنقتكم. إن هذا الحكم الجائر سيرفعني إلى مستوى أبطال شعبي المضحّين بحياتهم. ولا تستطيعون التصور كم أنا سعيد بكوني أضحّي بنفسي في سبيل سعادة وحرية شعبي"[2].

فداء من أجل الآخَر:

قد توحي الشواهد السابقة بأن بطولات الكورد، وروح الفداء عندهم، كانت مقتصرة على الدفاع عن أنفسهم، والحقيقة أن الأمر لم يكن كذلك، ففي تاريخ غربي آسيا شواهد كثيرة على أن روح الفداء في الكوردي كانت تتجلّى في مواقف لا صلة لها بثورات الكورد، وأكتفي بذكر شاهدين، أولهما من التاريخ القديم، والثاني من العصر الحديث.

● الشاهد الأول أورده ابن الأثير في أحداث سنة (٥٥٨ هـ/١١٦٣م)، وهو يدور حول هجوم شنّه الفرنج (الصليبيون) فجأة على معسكر السلطان نور الدين زنگـي، قرب حِمْص في سوريا، وكاد السلطان يُقتَل، لولا بطولة فارس كردي، قال:

"في هذه السنة انهزم نور الدين محمود بن زَنْگـي من الفرنج تحت حِصن الأكراد، وهي الوقعة المعروفة بالبُقَيْعَة، وسببُها أن نور الدين جمع عساكره، ودخل بلاد الفرنج، ونزل في البُقَيْعَة، تحت حِصْن الأكراد، محاصراً له وعازماً على قصد طَرابُلُس ومحاصرتها، فبينما الناس يوماً في خيامهم وسط النهار، لم يَرُعْهم إلا ظهورُ صُلبان الفرنج من وراء الجبل الذي عليه حِصن الأكراد، وذلك أن الفرنج اجتمعوا، واتّفق رأيهم على كَبْسة[3] المسلمين نهاراً، فإنهم يكونون آمنين، ... فلم يشعر بذلك المسلمون إلا وقد قربوا منهم، فأرادوا منعهم فلم يطيقوا

---

١ - زنار سلوبي: في سبيل كردستان، ص ٢٤٨. مسعود البارزاني: البارزاني والحركة التحررية الكردية، ٢٢٦/١.

٢ - زنار سلوبي: في سبيل كردستان، ص ٢٤٩.

٣ - كبسة: مفاجأة.

ذلك، فأرسلوا إلى نور الدين يعرّفونه الحال، فرَهَقهم[1] الفرنج بالحملة، فلم يَثبت المسلمون، وعادوا يطلبون معسكر المسلمين، والفرنج في ظهورهم، فوصلوا معاً إلى العسكر النُّوري، فلم يتمكّن المسلمون من ركوب الخيل وأخْذ السلاح إلا وقد خالطوهم[2]، فأكثروا القتل والأسر. ... وقصدوا خيمة نور الدين وقد ركب فيها فرسه ونجا بنفسه، ولسرعته ركبَ الفرس والشَّبَحَة في رجله[3]، فنزل إنسان كردي وقطعها، فنجا نور الدين، وقُتل الكوردي، فأحسن نور الدين إلى مخلّفيه، ووقّف عليهم الوقوف"[4].

إن هذا الموقف لافتاً للنظر حقاً، ففي الوقت الذي انشغل فيه أصحاب نور الدين بأنفسهم، بمن فيهم حرسه الخاص، فراراً من القتل على أيدي الفرنج، أقدم هذا الكوردي على الموت، مضحّياً بروحه لإنقاذ السلطان من القتل، تُرى أما كان يعرف أنه سيكون عرضة للموت إذا نزل عن جواده؟ إنه كان يعرف ذلك، ولكن كيف له أن يقاوم قيم الفداء الراسخة في شخصيته؟

● والشاهد الثاني إقدام سليمان الحليبي على قتل الجنرال الفرنسي كليبر Kleber في القاهرة، سنة (١٨٠٠م)، والتضحية بنفسه في سبيل ذلك، إنه سليمان بن محمد أمين، من قرية كُوكان Kokanفي منطقة عِفرين (كرد داغ)، واشتهر بلقب (الحليبي) لأنه نشأ في حلب، إذ كان والده يعمل في تجارة الزيت، وفي خضمّ الصراع بين إنكلترا وفرنسا على استعمار الشرق، احتل ناپليون بوناپرت Napoleon Bonaparte مصر سنة (١٧٩٨م)، وعاد إلى فرنسا سنة (١٨٠٠م)، وحلّ الجنرال كليبر محلّه في مصر.

وكانت الدولة العثمانية تحكم بلاد الشام ومصر حينذاك، فوجّهت حملة إلى مصر لإخراج الفرنسيين منها، لكن كليبر هزمها، فأمر الصدر الأعظم وُلاة بلاد الشام باغتيال كليبر، واقتنص هؤلاء سليمان الحليبي للقيام بذلك، وكان قد درس في الأزهر ثلاث سنوات، وحجّ إلى مكة مرتين، وتوجّه سليمان إلى القاهرة، وفتك بكليبر في حديقة قصره، فقُبض عليه، وحُكم

---

١ - رهقهم: ضيّق عليهم.

٢ - خالطوهم: لحقوا بهم.

٣ - الشَّبَحة: القيد في رجل الفرس.

٤ - ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ١١/٢٩٤ – ٢٩٥.

عليه بالموت على الخازوق، بعد أن تُحرَق يده اليمنى، ثم يترك طُعمةَ للطيور، ونُفّذ فيه الحكم يوم ١٧ حزيران/يونيه (١٨٠٠م)، وكان في الرابعة والعشرين من العمر[١].

ولن أبحث الآن في اقتناص الكورد، والزجّ بهم لتنفيذ مشاريع الآخرين، فذلك يحتاج إلى وقفة خاصة، ولكن ما يهمّنا الآن هو أن الولاة العثمانيين كانوا خبراء في فهم شخصية الكوردي، وكانوا يعرفون أن الكوردي إذا آمن بفكرة تحمّس لها أشدّ الحماس، وصار مستعداً لبذل الروح في سبيلها، ولذا لم يقع اختيارهم على شاب آخر من الإمبراطورية، وإنما اختاروه كردياً، شُحن في الأزهر شحناً دينياً وافياً، حتى إنه قام بالحج إلى مكة مرتين، وهو دون الرابعة والعشرين، فكيف لا يخاطر بنفسه وقد جمع في شخصه بين قابلية الفداء الكامنة فيه، والحماس الديني الأزهري؟

١ - الجَبَرْتي: تاريخ عجائب الآثار، ٣٥٨/٢ - ٣٩٠. خير الدين الزركلي: معجم الأعلام، ١٣٣/٣.

١١

ذهنية الكورد الدينيه

أمم وذهنيات:

الكائن البشري ليس مجموعة أدراج، درج فيه روح، وآخر فيه جسد، وثالث فيه حسّ، ورابع فيه ذهن، وخامس فيه عقل، وسادس فيه تفكير، وسابع فيه نفس، وثامن فيه شعور، وتاسع فيه مخيِّلة، وعاشر فيه حَدْس (معرفة مباشرة). إن تصنيفاً كهذا للإنسان كارثة، ليس لأنه مدخل معرفي مضلِّل فقط، وإنما لأنه تشويه للواقع، يؤدي بالضرورة إلى الخطأ في التفسير والخلل في التحليل، والشَّطط في النتائج.

إن الإنسان كائن حيوي ديناميكي، تُستثار مكوّناته، فتتفاعل بنسب معيّنة، وتُصدر استجابات محدَّدة، جسدياً، أو روحياً، أو حسّياً، أو ذهنياً، أو شعورياً، أو حدسياً. وفي إطار هذا التفسير لطبيعة الكائن الإنساني تتداخل معاني مصطلحات (الذهنية، العقلية، التفكير)، وقد انعكس هذا التداخل في موسوعات المصطلحات الفلسفية، إذ لا نجد فيها خطوطاً فاصلة بين هذه المصطلحات الثلاثة. ويمكن القول بأن مصطلح (ذهنية) أشمل من مصطلح (عقلية)، وهذا بدوره أشمل من مصطلح (فكر)، وقد جاء في تعريف الذهنية العامة General Mentality أنها **"مجموع السمات العامة والنماذج المعرفية" التي يتميّز بها شعب معيّن، أخلاقياً وسياسياً واقتصادياً وثقافياً وحضارياً بشكل عام"**[١].

وإن ذهنية أمة ما هي الإطار الفكري السائد فيها، والموجّه لرؤيتها وسلوكياتها، وهي البنية المعرفية التي تشكّل خصوصيتها، وتحدّد طبيعة استجاباتها، وقد ذكر **كارل مانهايم**،

---

١ - عبد الغني عماد: سوسيولوجيا الثقافة، ص ٣٣٢.

فيلسوف سوسيولوجيا المعرفة، أن الانتماء إلى أمة ما يعني أن أفرادها يتعاملون مع الذات والآخر والطبيعة، بطريقة متماثلة، وبتأثير من ذهنية متجانسة، ومن إطار فكري عام متجانس[1].

والذهنية من تجلّيات الشخصية، وهي نتاج تفاعل الجينات والبيئة والثقافة والتحدّيات، وهي ليست ثابتة ثباتاً أبدياً، إنها قابلة للتحوّل ببطء، إلا في الحالات التي تشهد فيها الأمة انقلاباً أيديولوجياً شاملاً، روحياً وفكرياً ونفسياً واجتماعياً واقتصادياً، فعندئذ تتحوّل ذهنية الأمة بوتيرة سريعة، وعلى العموم لا يخفى دور النُّخب في إحداث التحولات الطارئة على ذهنيات الأمم، ومثال ذلك دور الإسلام في التحوّل الطارئ على الذهنية العربية قديماً، ودور الثورة الاشتراكية في التحول الطارئ على جوانب من الذهنية الروسية والذهنية الصينية خلال القرن العشرين.

وتظهر ذهنية الأمة في الأمور صغيرها وكبيرها، لكنها أكثر وضوحاً في الأيديولوجيا التي تسترشد بها الأمة، كما أنها تبرز بقوة في المواقف الحاسمة، وعند اتخاذ القرارات الكبرى، فالأمة التي تتأسس عقيدتها الروحية وفلسفتها الحياتية على مبدأ (شعب الله المختار)، صراحةً أو بشكل مبطَّن، لا يمكن أن تكون ذهنيتها مماثلة لأمة تتأسس عقيدتها الروحية وفلسفتها الحياتية على مبدأ (وحدة الوجود)" إن الذهنية الأولى تنزع إلى (التسلّط) على الآخر، إما بصهره أو بإلغائه، في حين تنزع الذهنية الثانية إلى (التكامل) مع الآخر، بشرًا وحيوانات وشجراً وحجراً.

وفي التراث العربي الإسلامي كان الجاحظ (ت ٢٥٥ هـ) من المهتمين بتحليل ذهنيات الأمم، إذ أفاد أن الذهنية اليونانية تنظيرية تحليلية فلسفية، وأن الذهنية الصينية عملية، وقال: **"فاليونانيون يعرفون العِلَل، ولا يباشرون العمل، وسكّان الصين يباشرون العمل، ولا يعرفون العِلل" لأن أولئك حكماء، وهؤلاء فَعَلة"**[2]. وفي قول آخر له ذكر أن أهل الصين ينزعون إلى الصناعات، وينزع اليونانيون إلى الحِكم والآداب، وينزع الفرس إلى المُلك، والأتراك إلى الحروب[3].

---

١ - شوقي جلال: العقل الأمريكي يفكر، ص ٩، ١٠.

٢ - الجاحظ: رسائل الجاحظ، ٢١٦/٣. والعلل: الأسباب. وفَعلة: صُنّاع.

٣ - المرجع السابق، ٢١٤/٣.

وقال الهَمَذاني (ابن الفقيه، جغرافي توفّي بعد سنة ٢٩٠ هـ): **"فارس أعقل، والروم أعلم، وللروم صناعات "**[١]. وربط المؤرخ المسعودي (ت ٣٤٥ هـ) بين الذهنية والبيئة، فقال: **"وأما خُراسان**[٢] **فتُكبّر الهام، وتُعْظِم الأجسام، وتُلْطِف الأحلام، ولأهلها عقولٌ وهِمم طامحة، وفيهم غَوْصٌ وتفكير، ورأيٌ وتقدير"**[٣].

أما في العصر الحديث فالملاحَظ أن ثمة فوارق واضحة بين الذهنيتين الشرقية والأوربية، كما أن ثمة فوارق بين ذهنيات الشعوب الأوربية التي أنتجت الحضارة الحديثة، فبمراجعة مسيرة المعرفة منذ القرن (١٦ م) يتضح أن الذهنية الإيطالية تنزع إلى الأدب والفن، وتنزع الذهنية الألمانية إلى التنظير المعرفي والفلسفات الكبرى، وتنزع الذهنية الفرنسية إلى الثورة والغوص في عالم النفس والوجود، وتنزع الذهنية الإنكليزية إلى عالم السياسة والاقتصاد، وتنزع الذهنية الأمريكية إلى الفلسفة الپراغماتية، حتى إنه يمكن القول: الپراغماتية هي مفتاح الشخصية الأمريكية.

وعلى ضوء ما سبق، ترى ما هي خصائص ذهنية الكورد الدينية؟ وقبل الإجابة عن هذا السؤال لا بد من إلقاء الضوء على العقائد الآريانية القديمة، ترى ما هي ملامحها العامة؟ إذ إن ذهنية الكورد الدينية فرع على تلك العقائد.

ضوء على العقائد الآريانية:

مرجعية الأمة هي حصنها، وهي بوصلتها التي تهتدي بها إلى ذاتها في ظلمات الكوارث الكبرى، إن أمة بلا مرجعية أمة بلا مستقبل، أمة مهدّدة بالانهيار في كل حين، وقد حرص قادة أيديولوجيات التوحش، طوال التاريخ، على تحطيم مرجعيات الأمم، ليسهل عليهم اقتلاعها من جذورها، والسيطرة عليها، وهذا ما تعرّض له الكورد مراراً، ولا سيما منذ سقوط دولة ميديا سنة (٥٥٠ ق.م)، وبصورة أكثر شراسة منذ أن أصدر الملك الفارسي قَمْبَيز وصيته ضد الميديين سنة (٥٢٢ ق.م)، وعندما ينقّب المرء في أسفار التاريخ، لا يجد سوى حطام

---

١ - الهمذاني (ابن الفقيه): كتاب البلدان، ص ١٩٩.

٢ - مقسّمة الآن بين شمال شرقي إيران وشمال غربي أفغانستان.

٣ - المسعودي: مروج الذهب، ٦٣/٢. والهام: الرؤوس. والأحلام: العقول. وغوص: عمق تفكير.

عقائد أسلاف الكورد قبل الإسلام، وإذا جمع ذلك الحطام حصل على تصوّر تقريبي يترنّح بين الافتراض والظن والتخمين.

ودعونا نجمع شظايا بعض ذلك الحطام، فالمعروف أن القسم الأكبر من الكورد يدين بالإسلام، وثمة قسم آخر يدين بالأيزدية، وقسم ثالث يدين بالكاكاييّة (أهل حق)، وقسم رابع يدين بالعلي إلهية (قِزِلْباشية)، ومعروف أيضاً أن هذه العقائد الثلاث (الأيزدية، الكاكايية، العلي إلهية) تشتمل- قليلاً أو كثيراً- على بعض البنى العَقَدية الكوردية القديمة جداً، لكن ماذا عن العقائد الكوردية القديمة نفسها؟

هنا تختلط الأمور، وترى نفسك تائهاً في شعاب المعلومات الضبابية، حائراً بين الآراء المتضاربة، فالمشهور أن الكورد كانوا يدينون قبل الإسلام بالزردشتية، وأن النبي زردشت- عليه السلام- نفسه كان ميدياً، وأن الزردشتية ظهرت في أرض ميديا، لكن ثمة من يرى أنه لم يظهر زردشت واحد، وإنما ظهر ثلاثة أشخاص يحملون اسم (زردشت)، ظهر الأول سنة (٣٠٠٠ ق.م)، وظهر الثاني سنة (٢٠٤٠ ق.م)، وظهر الثالث سنة (١٠٦٠ ق.م)، في مكان قرب بحيرة أُورميا. وتفيد غالبية الآراء أن زردشت ظهر بين عامي (٦٦٠ - ٥٧٣ ق.م)، أو (٦٣٠ — ٥٥٣ ق.م)، أو (٦٢٨ — ٥٥١ ق.م)، أو (٦١٨ — ٥٤١ ق.م)[١].

وعدا مسألة الاختلاف في شخصية زردشت وزمن ظهوره، ثمة اختلاف في كُنه العقيدة الزردشتية، فالمعروف أن نخب ميديا وقفوا ضد زردشت، كما وقفت قبيلة قُرَيْش ضد النبي محمد عليه السلام، وإلا فلماذا هاجر زردشت من موطنه في أُورميا، متوجّهاً إلى بَلْخ (في شمالي أفغانستان حالياً)؟ ومعروف أيضاً أن الزردشتية أصبحت ديانة رسمية في فارس وميديا منذ عهد دارا الأول، وإن ظلت الديانة المزدية سائدة بين جماهير الشعب، ويُفهم من سير الصراع الفارسي- الميدي أن النخب الفارسية اتخذوا الزردشتية مظلة أيديولوجية للإطاحة بدولة ميديا، وهذا يعني أنهم أنتجوا نسخة زردشتية متناغمة مع المشروع الإمبراطوري الفارسي.

ومعروف أيضاً أن الإسكندر المكدوني احتل ميديا وفارس سنة (٣٣١ ق.م)، وأمر بحرق أقستا (كتاب الزردشتية)، وكان مكتوباً في اثني عشر ألف جلد من جلود البقر، كما أمر

---

١ - صمويل نوح كريمر: أساطير العالم القديم، ص ٢٩٤. جفري بارندر: المعتقدات الدينية لدى الشعوب، ص ١٣٣. زنار سلوبي: في سبيل كردستان، ص ٢٨٧.

بهدم المعابد الزردشتية (بيوت النيران)، وبقتْل الهَرابذة (رجال الدين). ثم جُمعت أجزاء أڤستا في العهد البارثي/الأشكاني (٢٤٩ – ٢٤٧ ق.م) في واحد وعشرين جزءاً. وبعد سقوط الأشكـان أمر أَرْدَشَير الأول الساساني بجمع النصوص المبعثرة من أڤستا الأشكـانية في نص واحد، وعُدّ ذلك النص كتاباً مقدساً، وفي عهد سابور الأول بن أردشير أُدخلت في هذه المجموعة مباحث في الطب والنجوم وما وراء الطبيعة من علوم الهند واليونان، ونشبت الخلافات الدينية، فأمر سابور بعقد مَجْمَع مقدس لحسم الخلافات، وحدد ذلك المجمع نص كتاب أڤستا في صورته الأخيرة، وقسّمه إلى واحد وعشرين سورة، تقع كل سورة في مئتي ورقة، ثم فُقد كتاب أڤستا في العهد الإسلامي، وهرب بعض الزردشتيين إلى الهند، وحافظوا على ما تبقّى من أڤستا ، وهي أجزاء لا تبلغ ربع ما كانت عليه في الأصل[١].

وليس تناسخ الزردشتية عدة مرات هو المشكلة الوحيدة التي تعترض الباحث في عقائد أسلاف الكورد، فثمة مشكلة أخرى أكثر تعقيداً" هي ماهية العقائد التي كان يدين بها الكورد وسائر الآريانيين قبل الزردشتية، وتُعتبر المَزْدية- نسبة إلى الإله مَزْدا (الحكيم)- أبرز تلك العقائد، ويتميّز الإله مزدا بالدعوة إلى الأخلاق والعمران، وهو ليس إله قبيلة أو شعب، وإنما هو إله العالم جميعاً. وثمة إله آخر آمن به الكورد وسائر الآريانيين، إنه الإله أهورا، وقد دمج زردشت الإلهين معاً في الإله (أهورا مزدا) الرب العاقل، وصوّره الآريانيون القدماء على هيئة نصف إنسان، يخرج من قرص مجنَّح[٢].

وعدا الإلهين مزدا وأهورا كان ثمة مجموعة من الآلهة الأخرى يسمّى الواحد منهم (دَيو) Daiw إله السماء، وكان أحد الديوات كبير معبودي الهندو- أوربيين، وأبرز صفاته أنه فاعل الخير، وهو نفسه (دياوس پـيتر) Diyvuh pitar المعبود الهندي الحالي، و(زيوس پـيتار) Zeus piter اليوناني، وجوپـيتر (جو- پـيتار) Jupiter الروماني، و(تاووس) الأيزدي، وتحوّل في الزردشتية إلى إله الشر (إبليس/شيطان)[٣].

---

١ - أڤستا، ص ٨. المقدسي: البدء والتاريخ، ١٥٣/٣. محمود شيت خطّاب: قادة فتح بلاد فارس، ص ٣٠.

٢ - دياكونوف: ميديا، ص ٣٧٨. محمود شيت خطّاب: قادة فتح بلاد فارس، ص ١٤، ١٥. عبد الحميد زايد: الشرق الخالد، ص ٦٥٣، ٦٥٥.

٣ - دياكونوف: ميديا، ص ٣٦٨. خليل جندي: الأيزدية والامتحان الصعب، ص ٧٠ - ٧١.

وثمة ميثرا Mithrasإله الضياء الآري القديم، وقد ساد الاعتقاد بألوهيته قبل زردشت، وظل الاعتقاد به قائماً بعد زردشت، وكان يُعبد باعتباره إله العقود والاتفاقيات، وحافظ الحق والنظام، ومُهلك قوى الشر والغضب والجشع والتكبّر، ووُصف بأنه المحارب القوي الجبار، وكان المحاربون يقدّمون له الطقوس وهم على ظهور الخيل قبل الذهاب إلى المعركة، وقد دمجه زردشت في الديانة التي نادى بها، ولميثرا مكانة مرموقة في الطقوس الزردشتية، وعُدّ إله الشمس، ووُصف في أڤستا بأنه حارس المراعي اليقظ، وكان الرومان يرسمونه في شكل شاب وسيم، يجرّد سيفاً على رقبة ثور، وظلت عقيدة مثيرا قائمة حتى القرن الرابع الميلادي[1].

وأخيراً ثمة العقيدة الزُّرْڤانية (الزُّروانية)، نسبة إلى الإلهZurvan ، وهو إله لامتناه زماناً ومكاناً، وهو إله القدر المسيطر الذي يؤثّر من بعيد في مصير البشر، وقد اختُلف في أمر الزُّرْڤانية، فقيل: هي عبادة آريانية سابقة على الزردشتية، ورجّح **جفري بارندر** أنها صورة معدَّلة من الزردشتية حينما صارت الأخيرة ديانة ثنوية قائمة على أهورا مزدا (إله الخير)، وأهريمن (إله الشر)، وتقترب الزُّرْڤانية من البوذية في الاعتقاد بأن الشر الأساسي في الجنس البشري يكمن في الانحراف والخطأ العقلي (ضيق الأفق)، وفي الجشع الذي يتجلّى مادياً في الشهوة، ويتجلّى عقلياً في الجهل. وقال صمويل كريمر:

"لعله أقرب إلى الاحتمال أن الزُّرْڤانية هي نتاج الاتصال بين الزردشتية والحضارة البابلية، وقد نشأت في النصف الثاني من العصر الأخميني"[2].

وخلاصة القول أن زردشت فكّك العقائد الآريانية القديمة، وأعاد تركيبها على نحو جديد، ودمج العقيدتين المزدية والأهورية معاً، وشكّل منها عقيدة واحدة، إلهها الأكبر هو أهورا مزدا (إله النور)، يناقضه أهريمان (إله الظلمة)، ويسمّى تارة آخرى أنگراماينيو (روح الشر)، ويستعين أهورا مزدا في إدارة العالم بكائنات أخرى ذات نفوذ، منها ميثرا، وسپينتامايينيو (الروح القدس) المضاد لأنگراماينيو، وسراوش الذي يشقّ جماجم الأبالسة، وفرتراگنا

---

١ - جفري بارندر: المعتقدات الدينية لدى الشعوب، ص ١٢٥- ١٢٦. أرنولد توينبي: مختصر لدراسة التاريخ، ١٨٧/٢.

٢ - صُمويل كريمر: أساطير العالم القديم، ص ٣١٢. وانظر الشَهْرِسْتاني: المِلَل والنِّحَل ٢٣٤/١. جِفْري بارندر: المعتقدات الدينية لدى الشعوب، ص ١٢٣- ١٢٥.

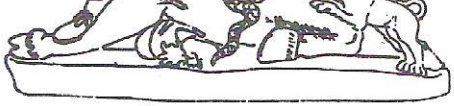

(بَهْرَ القطيع، ويبقى
القا سبيل رقيّ هذا
العا

مجموعة من تماثيل الإله ميثرا في القرن الرابع الميلادي

يب في العهود
التال ن دقيقاً بما فيه
الكة خطوط عامة،
يمكر وط أن الوجود
قائم تضاد" أي أنه
(تنو دية)، فالتوحّد
يعنو القرار وصنع
الحد شراك).

ومن أبرز تجلّيات (التنوّع في إطار التوحّد) اثنان:

التجلي الأول هو صورة الإله مزدا في التصور الآرياني، فهو لم يكن إله قبيلة أو شعب، وإنما كان إله العالم والناس جميعاً، وظل هذا التجلي باقياً في الديانة الأيزدية إلى يومنا هذا، فالأيزديون يدعون بالخير لكل الناس، وليس للأيزديين فقط، مع الأخذ في الحسبان أن الأيزدية والكاكايية والعلي إلهية تحتفظ ببعض بنى العقيدة المزدية، وثمة دليل آخر يرجِّح أن هذه العقائد امتداد للمزدية أكثر من كونها امتداداً للزردشتية" ألا وهو الإيمان بوحدة الوجود، وبالحلول، وتناسخ الأرواح، فهذا الإيمان هو من نتاج الذهنية الدينية القائمة على (التنوّع في إطار التوحّد)، وليس من نتاج الذهنية الدينية القائمة على الوحدانية (الأَحَدية).

---

١ - أڤستا، ياسنا، هايتي ١، ص ٤٥، هامش (١٠)، وهايتي ٥٧، آية ٣٣، ص ١٦٨. وأڤستا، ياشت ١، آية ٣٣، ص ٤. وياشت ١، آية ٣٣. نوري إسماعيل: الديانة الزردشتية، ص ٨١.

وبالنسبة إلى الأيزدية والزردشتية فقد قال الدكتور خليل جندي، وهو من مثقفي الكورد الأيزديين:

"أما بالنسبة لبعض الأيزديين الذين يدّعون، وبشكل أعمى، بأن الأيزدية هي امتداد للزرادشتية، فهو موقف سياسي صرف، لا يستند على أرضية تاريخية أو فكرية ودينية، بل إنه ترديد لرغبات شخصية، وإسهام من أصحاب القائلين بها- دون أن يدروا- في تحطيم كيان العقيدة الأيزدية فيما لو نجح مشروعهم"[1].

والتجلي الثاني من تجليات (التنوّع في إطار التوحّد) هو نظرية التكوين، فقد مر أن البيئة الجبلية رسّخت في الكوردي التعامل مع المكان وفق ثلاثة أبعاد (طول، عرض، ارتفاع)، وبمفهومَي (الدائرة والامتلاء)، وتجسّد ذلك ميثولوجياً في الشكل الرمزي (ماندل/مندالا) Mandela، وهو دائرة فيها صليب متساوي الأضلاع، يرمز إلى العناصر الأربعة (ماء، تراب، نار، هواء)، وفيها أحياناً ثمانية تقاطعات متساوية الأطراف، ترمز إلى تفاعل العناصر الأربعة والجهات الأربع (شرق، غرب، شمال، جنوب)، وأحسب أن نظرية العناصر الأربعة ترجع إلى قصة الخلق والتكوين السومرية، فالإلهة جي/گـي GI هي الأرض، ويتمثل الماء في الإله آبسو/آبزوApsu (مياه الأعماق)، وفي الإلهة تيامتTiamat ، ويتمثل الهواء في الإله إنليل Enlilأو إليلEllil ، وتتمثل النار في الإله أُوتو (الإله الشمس)[2].

وقد انتقلت رمزية (مندالا) مع الآريين إلى الهند، ودخلت في العقيدة الهندوسية، وظهرت في الصور الهندوسية المؤلفة من دوائر ومربعات متراكزة. وفي التراث الكوردي تجليات عديدة لرمزية (ماندل/مندالا)، وفيما يلي بعض الأدلة:

- كانت الإلهة إنّينا Innina (عَشْتَر/ عَشْتار/كوكب الزُّهَرة) تعتبر سيدة السماء في العقائد السامية، وكان يُرمَز إليها بنجمة داخل دائرة، ولها ثمانية أشعة، أو ستة عشر شعاعاً، وقد وصلت الإلهة إنّينا إلى بلاد الإغريق، وسُمّيت (أفروديت)، وعبدها الرومان باسم (ڤينوس)، وهي في الأصل إلهة سومرية، وثمة أسطورة سومرية تدور حول قصتها مع زوجها

---

١ - خليل جندي: الأيزدية والامتحان الصعب، ص ٢٨٨.

٢ - صمويل كريمر: من ألواح سومر، ص٧٠، ٧٥، ١٦٣. سبتينو موسكاتي: الحضارات السامية القديمة، ص ٧٥.

(دَمُوزي/تموز) إله الخصب، وسبق القول أن السومريين من أسلاف الكورد، وأنهم انحدروا إلى جنوبي ميزوپوتاميا من جغرافيا حضارة حَلَف الكوردية[1].

● في علم الكونيات الزردشتي يتألف الكون من أربع دوائر: دائرة النجوم، دائرة القمر، دائرة الشمس، ومملكة (النور اللانهائي) لأهورا مزدا، وتتطابق هذه الدوائر مع الجهات الأربع[2].

● قال باسيلي نيكيتين: **"وكغيرهم من الشعوب الأخرى، يعتقد الكورد بالخاصية السحرية للدائرة، أو يحيطون أنفسهم بها. فعندما يريد الكوردي أن ينام في مكان معزول وغير معروف، يرسم حول نفسه، دائرة ليقي نفسه من الأرواح الشريرة"**[3]. وإذا كان الكورد الذين تحدّث عنهم نيكيتين مسلمين، فلا ريب في أن الخاصية السحرية للدائرة هي صيغة أخرى لقدسية مندالا في العقيدة المزدية، وما زالت قدسية الدائرة قائمة إلى الآن في العقيدة الأيزدية، وكلّما رأيت مشهد الرقصات الدائرية الفولكلورية للكرد العلي إلهيين (القزلباش)" تأكد لي أن من الصعب تفريغ التراث الكوردي من بناه العميقة.

● على كل فرد من أتباع العقيدة الزردشتية- ذكراً كان أو أنثى- أن يرتدي الحزام المقدس (كوست) بمجرد بلوغه سن الخامسة، وكوست هو رمز الارتباط بالإله، ويُصنع من الصوف الأبيض[4]. وما زال طقس الحزام المقدس قائماً في الأيزدية، وما زال قائماً عند الكورد المسلمين أيضاً بدلالة فولكلورية، ويكفي أن نتأمل الأحزمة الضخمة التي يلفّها الرجال الكورد حول أوساطهم، وقد تلطّفت أخيراً وصارت أرقّ، كما أن رمزية الحزام المقدس ماثلة في الزي التراثي الذي ترتديه المرأة الكوردية في المناسبات القومية، كعيد نوروز، وخاصة في شرقي كردستان وجنوبيها.

● عندما كنا نصاب بالصداع في الصغر، كانت الأمهات يأخذننا صباح الأربعاء إلى امرأة عجوز، فكانت تأخذ بسبّابتها بعض الهَباب من صاج التخبيز، وترسم صليباً متساوي

---

١ - فاضل عبد الواحد علي: من سومر إلى التوراة، ص ١٤٩، ١٦٥. سبتينو موسكاتي: الحضارات السامية القديمة، ص ٢٥٦ – ٢٥٧. عبد الحميد زايد: الشرق الخالد، ص ١٤٨.

٢ - أڤستا ، ياشت ٢٢، ص ٦٣٢. هامش (١).

٣ - باسيلي نيكيتين: الكرد، ص ٣٧٩.

٤ - أڤستا ، ياسنا، هايتي ٩، ص ٧٧- ٧٨. هامش (٣). أڤستا، ياسنا، هايتي ٢، ص ٤٩، هامش (٤٩).

الأطراف على جباهنا، وهي تتلو بعض الأدعية بالكوردية. وجدير بالذكر أن يوم الأربعاء كان مقدساً عند السومريين، ولا سيما أول أربعاء من شهر نيسان/أبريل، وما زال مقدساً في الأيزدية. أما الصليب المتساوي الأطراف فهو في الأصل رمز مَزْدائي، دخل المسيحية مع رموز مزديائية وميثرائية أخرى، منها الاحتفال بعيد ميلاد ميثرا يوم (٢٥) كانون الأول/ديسمبر من كل عام، فقد صار احتفالاً بعيد ميلاد المسيح، وصار يوم الأحد Sunday مقدساً في المسيحية، وهو (يوم الشمس) المقدس في الميثرائية، وكان التعميد الميثرائي يتم بالماء وقربان الخبز والخمر، وصار الخبز والخمر يرمزان في المسيحية إلى جسد المسيح ودمه[١].

وباختصار: يمكننا القول بأن فلسفة التكوين في التراث الكوردي قائمة على تصوّر وجودي كلّياني، محوره الأساسي هو (التنوّع في إطار التوحّد)، ويتجلّى (التنوّع) في تفاعل العناصر الأربعة (ماء، تراب، نار، هواء) مع الجهات الأربع (شرق، غرب، شمال، جنوب)، ويتجلّى (التوحّد) في شكل الدائرة" أي أنه تصوّر جوهره (الامتلاء) المتماسك المتفاعل المتكامل، وليس (الفراغ) المتلاشي، وهو من ثمّ تصوّر مادي ديالكتيكي واقعي، وليس تصوّراً مثالياً مفارقاً للواقع متعالياً عليه، وسبق أن تناولنا تأثير البيئة الجبلية في تشكيل هذا التصوّر، وما دمنا قد انتهينا إلى هذا النتيجة، فثمة سؤال يأخذ بخناقنا، وهو: ما تأثير ذلك التصوّر في خصائص ذهنية الكورد الدينية؟

خصائص ذهنية الكورد الدينية:

أبرز خصائص ذهنية الكورد الدينية- في حدود ما نعلم- هي ما يلي:

١. **النزوع إلى وحدة الوجود:** وهي نزعة ذات منحى تصوّفي فلسفي، وتقترب ذهنية الكورد الدينية بهذه الخصيصة من الفلسفة البوذية التي ظهرت في الجغرافيا الهندية أصلاً، وهي جغرافيا متاخمة لآريانا - ڤيدجا (بلاد الشعوب الآرية) حسبما ورد في أڤستا، وإذا أخذنا في الحسبان أن الآريين دخلوا الهند من الشمال الغربي، فيما بين (١٥٠٠- ١٢٠٠ ق.م)، وأن سيدهارتا غوتاما بوذا Siddharta Gautama عاش بين (٥٦٣- ٤٨٣ ق.م)، وأنه ظهر

---

١ - أڤستا ، مقدمة، ص ٣٣. هاري ساغز: عظمة آشور، ص ٣٠٩. خليل جندي: الأيزدية والامتحان الصعب، ص ٣٣.

في شمالي الهند، فلا نستبعد أن تكون البوذية نفسها وثيقة الصلة بالعقائد الآريانية، ومن ثَمّ بالعقائد الكوردية القديمة[1].

٢. **الارتباط الحميم بالطبيعة:** فالأعياد الدينية الكوردية القديمة- وأبرزها عيد نوروز- تتمّ في أحضان الطبيعة، وخاصة في الجبال، ونحسب أن هذا التقليد يرجع بدوره إلى التماهي مع الطبيعة في العقائد الكوردية القديمة، وبقيت آثار ذلك في الزردشتية، فكتاب أڤستا زاخر بتبجيل مظاهر الطبيعة، وقد جاء في دعاء زردشتي: **"أتقدم بصلاة كاملة مقدسة إلى هذه الأماكن، المناطق، المراعي، المساكن بعيون مياهها، المياه، الأراضي، النباتات، هذه الأرض، تلك السماء، الرياح المقدسة، القمر، النجوم اللامتناهية، ذاتية الحركة "**[2]. وجاء في طقس زردشتي: **"نقدّم القرابين لكل عيون الماء، لجداول الماء أيضاً، للنباتات التي تنمو، لأشجار الغابة، لكل الأراضي والسماوات، لكل النجوم، للقمر والشمس، لكل الأنوار اللامتناهية، لكل الماشية، للوحوش المائية، للوحوش التي على اليابسة، لكل الحيوانات التي تضرب بأجنحتها"**[3].

٣. **عدم النزوع إلى فرض العقائد:** الكوردي غير ميّال إلى فرض عقيدتة على الآخرين" سواء بالعنف أم بالتبشير، ولم نجد في تاريخ أسلاف الكورد أنهم أسّسوا ممالك أو دولاً دينية، أو أنهم شنّوا الحروب بقصد نشر عقائدهم، ويُفهَم من كتاب أڤستا أن الزردشتية كانت ديناً للأقوام الآرية، قائماً على السِلم، وكانت العدائية فيها دفاعية وموجّهة في الغالب إلى الشعوب الطورانية، باعتبار أن الطورانيين كانوا يشكّلون تهديداً دائماً لبلاد الآريين، وقد تصاعدت لهجة العدائية في ظل الإمبراطورية الفارسية. والأيزدية خير دليل على أن ذهنية الكورد الدينية ليست معادية للآخرين، وصحيح أن الأيزدية دين منغلق، لكنها لا تحمل في طيّاتها مشروعاً توسّعياً، ولا تربّي أتباعها على غزو الآخرين، وإدخالهم في الأيزدية عَنْوة[4].

---

١ - انظر صمويل كريمر: أساطير العالم القديم، ص ٢٤٨.

٢ - أڤستا ، ياسنا، هايتي ٧، آية ١٨، ص ٦٨.

٣ - أڤستا ، ياسنا، هايتي ٦٦، آية ٩ ، ص ١٨١.

٤ - انظر أڤستا ، ياسنا، هايتي ٤٤، آية ١١، ص ١٤٠. وأڤستا، ياشت ٥، آية ٩، ص ٤٠٩. وزند أڤستا ، نصوص پهلوية، دادستان ومينوغ وخراد، ص ٨٤٩.

٤. **رسوخ البنى العميقة:** إن البنى الدينية الكوردية العريقة راسخة في الذهنية الكوردية، وانتقلت معهم إلى الثقافة الإسلامية، وتَجَسّدت في بعض التوجّهات الصوفية والفلسفية داخل المنظومة الإسلامية، ومنها على سبيل المثال انتشار الطرق الصوفية (القادرية، والنقشبندية) بين الكورد المسلمين، ونرى أن لذلك علاقة بنزوع الذهنية الكوردية إلى فلسفة وحدة الوجود، ولذا فلا عجب أن يبرز من بين الكورد المسلمين بعض أقطاب فلسفة التصوّف، منهم الصوفي الكبير أبو القاسم الجُنَيْد (ت ٢٩٧ هـ/٩١٠ م)، وهو من مدينة نَهاوَنْد الكوردية، ومنهم شهيد الفكر الصوفي شهاب الدين السُّهْرَوَرْدي (ت ٥٨٦ هـ)، من مدينة سُهَرَوَرْد الكوردية، وثمة كثيرون غيرهما.

٥. **النزعة العلمية العقلانية:** ينزع كثير من كبار الفقهاء والمفكرين الكورد المسلمين إلى النهج العلمي العقلاني الفلسفي في خطابهم الديني، وقد تنبّه بعض علماء الدين الإسلامي المعادين للفلسفة إلى هذه الظاهرة، وذكر الشهاب الآلوسي في كتابه (نزهة الألباب) أنه لما دخل شيخ الطريقة النقشبندية الشيخ خالد النقشبندي (ت ١٨٢٧ م) بغداد، قال له محدّث العراق النور علي السويدي البغدادي في جمهور كبير:**"بئس ما يفعله أكثر علماء الأكراد اليوم" لاشتغالهم بالعلوم الفلسفية، وهجرهم لعلوم الدين كالتفسير والحديث، عكس ما يفعله علماء العرب"**[١].

ومن العلماء الكورد، ذوي النهج العلمي العقلي، أبو علي الجُبّائي (ت ٣٠٣ هـ/ ٩١٦ م)، وابنه أبو هاشم الجُبّائي (ت ٣٢١ هـ/ ٩٣٣ م)، وهما من كبار شيوخ المُعتزِلة، وينتسبان إلى قرية (جُبَّى) الواقعة في الجغرافيا اللُّورية (الفَيْلية) بجنوبي العراق، ومنهم القاضي عبد الجبّار الهَمَذاني الأَسَدأبادي (ت ٤١٥ هـ /١٠٢٥ م)، من مدينة أسد أباد في شرقي كردستان، ومعروف أن المعتزلة كانوا فرسان العقل والعلم في تناول المسائل الدينية. ومن العلماء الكورد ذوي الاتجاه العلمي العقلاني، في العصر الحديث، سعيد النُّورْسي (بديع الزمان ١٨٧٣ - ١٩٦٠ م) في شمالي كردستان[٢].

٦. **عدم التعصّب الديني والمذهبي:** إن الكوردي المتديّن منفتح على الديانات والمذاهب الأخرى، وترجع هذه النزعة إلى فلسفة (التنوّع في إطار التوحّد)، ونستشهد بموقف العالم

---

١ - عبد الحي بن عبد الكبير الكِتّاني: فهرس الفهارس والأثبات، ٣٧٤/١.

٢ - الذهبي: سير أعلام النبلاء، ٦٣/١٥، ٢٤٤/١٧. الزركلي: الأعلام، ٢٧٣/٣، ٧/٤، ٦/ ٢٥٦.

الكوردي سعيد النُّورْسي ضد الحرب التي شنّتها الدولة العثمانية على الأرمن والنساطرة، قال باسيلي نيكيتين:

"كان الملا سعيد واحداً من بين الكثيرين من الكورد المثقفين، وقف دون خوف أو وجل ضد صيحات الجهاد المقدس. وقد أُوقف بسبب مواقفه تلك من قبل السلطات التركية، وقُدِّم للمحاكمة" لأنه أفتى بعدم شرعية نعت تلك الحرب بالجهاد المقدس. وقد قال في معرض دفاعه عن نفسه أمام المحكمة: لِنقرّ بأنني أدليت بفتوى بهذا المضمون، إنني لست مسؤولاً لا بموجب أحكام الشريعة، ولا بموجب القوانين الوضعية، لأنني لم أجد في شريعتنا ما يأمر بقتل أناس أبرياء لا يؤذون أحداً. كما أن القوانين السارية المفعول لا تجيز القتل، بل تعمل على الحكم لحماية حقوق الناس. أما فيما يتعلق بإصدار الفتوى، فإني أعتقد أن تقوى شيخ الإسلام وعلمه، وكذلك عدالة الخليفة ورحمته، وهي أوسع من أن تسمح بإصدار فتوى تأمر بقتل الفقراء من الرعايا (المسيحيين النَّسطوريين) ونهب أموالهم، والذين لم يرفعوا- منذ بداية الإسلام وحتى الآن- السلاح بوجه المسلين، ولم يعلنوا حرباً ضدهم"[1].

وأذكر في هذا الصدد أن الوالد- رحمه الله- كان ملا شديد التديّن، لكن لم أجده متعصّباً ضد أتباع الأديان والمذاهب الأخرى، ولم ألمح أنه تعامل مع أتباعها بكراهية وعدوانية. وأذكر أن مبيّض الأواني النحاسية الأرمني مراد- رحمه الله- كان يحلّ في قريتنا كل ربيع، فكان الوالد يستضيفه على العشاء مراراً، وكانا يتسامران بودّ، وأذكر أيضاً أن بعض الحرفيين والباعة الجوّالين، من أتباع المذهب الإمامي (الجعفري)، كانوا يحلّون ضيوفاً على الوالد، وكانوا يلقون منه الترحيب والبشاشة، وكان للوالد أصدقاء من الكورد الأيزديين أيضاً، وكان يعاملهم باحترام جمّ، ولم يكن الوالد منفرداً بهذا النهج، وإنما كان هكذا نهج أهل قريتي رجالاً ونساء، وما كنت أسمع أحداً منهم ينطق عبارات إقصائية دينية أو مذهبية، من قَبيل (هذا كافر، هذا نَجِس)، بل أستطيع الجزم بأن هذا النهج هو الغالب على المجتمع الكوردي بشكل عام.

إن ظاهرة التعصب الديني والمذهبي عند بعض الكورد- سواء أكان ذلك قديماً أم حديثاً- ظاهرة دخيلة على ذهنية الكورد الدينية، وعلى تقاليد المجتمع الكوردي، وإن الكورد الذين أدخلوا هذه الظاهرة إلى المجتمع الكوردي هم خرّيجو مدارس ثقافية غريبة عن الثقافة الكوردية، وبتعبير آخر: إنهم تتلمذوا على أساتذة التعصب والتزمّت الديني والمذهبي، فتحوّلوا إلى

---

١ - باسيلي نيكيتين: الكرد، ص ٣٤٤-٣٤٥.

(حصن طروادة)، واخترق بهم المتعصّبون المجتمع الكوردي، وزرعوا في بعض شرائحه ثقافة كراهية الآخر دينياً ومذهبياً، ولا ننس في الوقت نفسه دور السياسات العثمانية في استغفال بعض الكورد المتديّنين، وتسليطهم على جيرانهم المسيحيين والأيزديين والعلي إلهيين.

٧. **عدم التشبّث بالمظاهر الدينية:** إن الكوردي بشكل عام غير متشبّث بالمظاهر الدينية، وغير حَرْفي في الطقوس والشعائر الدينية، وإذا حكمتَ على الكوردي بمعايير المظاهر والحَرْفية فقد تقول: هو غير متديّن. والحقيقة ليست كذلك، فالكوردي غير ميّال إلى التنميط والقَوْلبة في الأمور جميعها، بما فيها المظاهر والطقوس الدينية الشكلانية، إن الكوردي المتديّن يحمل في أعماقه تقوى أخلاقية صامتة، إنه ليس من نمط المتديّن الصاخب، ذلك الذي ينادي على نفسه حيثما كان، وكأنه في مزاد، ويقول للآخرين ضمناً: انظروا، أنا مؤمن! أنا متدين! أنا تقي!

٨. **عدم المجاملة في أمور الدين:** إن الكوردي لا ينزع إلى النفاق، وقلّما يجامل في أمور الدين، فهو صريح في موقفه الديني، إنه إما متديّن متمسّك بما يقتضيه التديّن، لكن من غير مباهاة، وإما أنه متوسط التدين، وإما أنه غير متدين (علماني)، ولا يستطيع إخفاء ذلك حتى لو أراد، وهو في جميع الأحوال يجلّ المتديّنين، ويحترم رجال الدين، وكأني به يطبّق شعار (الدين لله، والعالم للجميع).

وقد لخّص باسيلي نيكيتين كثيراً من خصائص ذهنية الكورد الدينية في قوله:

"أما فيما يتعلق بالدين، فرغم أن الكوردي يُخضعه لمصلحة عشيرته إلا أن صفوة من الكورد يتميّزون بانغماسهم في الروحانيات، وفي ميدان التصوف بخاصة. وتحثّ هذه الروحانيات الإنسان الكوردي على البحث عن الله، وهذا البحث جِبِلّة إيرانية مميَّزة، تشعّبت من المعتقدات الكوردية التي تجد أصولها في الإسلام وفي معتقدات أخرى ترجع إلى ماضٍ سحيق. وكلُّ ذلك يفسَّر بأسباب تاريخية ترتبط بموقع كردستان ووقوعها على ملتقى الديانات التي ظهرت في أرض آسيا القديمة "[١].

---

١ - باسيلي نيكيتين: الكرد، ص ٢٧.

١٢

ذهنية الكورد السياسية

تأصيل المصطلح:

قبل الحديث عن الذهنية السياسية، تُرى ما هي السياسة؟

لقد تنوّعت التعريفات في هذا الصدد، فقيل: **"فنّ السياسة هو إدارة شؤون المجتمع"**[١]. وقيل **"السياسة فنّ الممكن"**[٢]، وفُسّر هذا القول بأن رجل الدولة يفعل من الخير بقدر ما يستطيع، أو أنه يزيل أكبر قدر ممكن من الشر، بإحداث أقل قدر ممكن من العداء. وذكر السياسي الألماني كارل شميث **"أن السياسة هي قبل كل شيء تحديد العدوّ"**[٣]. وجاء في معجم ليتره سنة (١٨٧٠م): **"السياسة علم حكم الدول"**[٤]. وجاء في معجم روبير سنة (١٩٦٢م): **"السياسة فنّ حكم المجتمعات الإنسانية"**[٥].

والملاحَظ أن ثمة أربع كلمات محورية يتكرر ورودها في تعريفات السياسة، هي (علم، فن، مجتمع، دولة)، والحقيقة أن السياسة (علم وفن) معاً، إنها (علم) على صعيد التنظير، و(فنّ)

---

١ - غاستون بوتول: فن السياسة، ص ٧. وانظر إريك لوران: حرب آل بوش، ص ١٩.

٢ -نورتون فريش، ريتشارد ستيفنز: الفكر السياسي الأمريكي، ص ٨.

٣ -إريك لوران: حرب آل بوش، ص ١٩.

٤ - موريس دوڤرجيه: مدخل إلى علم السياسة، ص ٧.

٥ - المرجع السابق، ص ٨.

على صعيد التطبيق، كما أن السياسة مرتبطة بالمجتمع والدولة معاً. وصحيح أن المفاهيم الكبرى تخسر كثيراً من جمالها وجلالها حينما يتمّ تأصيلها وتفكيكها، لكن مع ذلك تعالوا نُخضع مفهوم (سياسة) للتفكيك، فكلمة (سياسة) تسمّى بالإنكليزية Politics، وهي مأخوذة من الكلمة اليونانية Polis" وتعني (المدينة- الدولة)، باعتبار أن أقدم أشكال الدولة في المجتمع اليوناني القديم كان (المدينة-الدولة/دولة المدينة)، وليس الدولة المركزية[1].

وارتباط مفهوم (سياسة) بشكل (المدينة- الدولة) يعني أمرين: أولهما أن مفهوم (سياسة) وُلد مع (الإنسان المجتمع)، وليس مع (الإنسان الفرد). وثانيهما أن مفهوم (سياسة) وُلد في كنف حالة اجتماعية كان فيها البشر تجاوزوا الطور البدائي/المشاعي، وانتقلوا إلى الطور المدني/الحضري. وهذا يعني أن السياسة- من حيث كونها علماً وفنّاً- لم توجد في طور (توافق المصالح) بين أفراد المجتمع، طور المشاعية، الطور الذي كان الأقوياء يوظّفون فيه قوتهم لخدمة الضعفاء، وفق مبدأ (الكل للواحد والواحد للكل)، وإنما وُجدت السياسة في طور (تصادم المصالح)، الطور الذي وُجد فيه فائض الإنتاج، ووظّف فيه الأقوياء قوتهم للسيطرة عليه واحتكاره، وفق مبدأ (الكل للواحد).

ويمكننا القول بأن (السياسة) في جوهرها علم وفنّ إدارة المصالح، كي لا تتصادم ولا ينهار المجتمع، وهي (سياسة داخلية) إذا كان موضوعها إدارة المصالح ضمن المجتمع الواحد، و(سياسة خارجية) إذا كان موضوعها إدارة المصالح بين المجتمعات إقليمياً وعالمياً. ومثل بقية معارف البشر كانت السياسة تقوم على العفوية والارتجال في البداية، ثم تطوّرت مع تكاثر البشر وتشابك المصالح، فصارت علماً وفنّاً، وأُلّفت فيها الكتب، ولعل من أقدمها كتاب (الجمهورية) لأفلاطون (٤٢٧ – ٣٤٧ ق.م)، وكتاب (السياسة) لأرسطو (٣٨٤ – ٣٢٢ ق.م) أستاذ الإسكندر المكدوني. أما في العصر الحديث فمن أشهر الكتب التي تناولت السياسة بالتنظير والتحليل كتاب (الأمير) للسياسي الإيطالي نيقولا مِكْيافيللي Niccolo Machiavelli (1469- 1527 م)، وكتاب (روح الشرائع) للمفكر الفرنسي مُونتسكيو Montesquieu (1689 – 1755م)، وكتاب (العِقْد الاجتماعي) للمفكر الفرنسي جان جاك رُوسّو Jean-Jacques Rousseau(1713 – 1778 م).

---

١ - جان جاك شوفالييه: تاريخ الفكر السياسي، ص ١٤.

ومع توسّع المعارف وتنوّع العلوم، نمت مفاهيم ومصطلحات جديدة حول مفهوم (السياسة)، منها: العقيدة السياسية، والجغرافيا السياسية، والإپستيمولوجيا[1] السياسية، وعلم نفس السياسة، وسوسيولوجيا السياسة، والنظام السياسي، وهو يستعمل غالباً لوصف الترتيبات السياسية لمجتمع ما، ويكاد يكون مرادفاً لكلمة (الدولة)، غير أنه لا يحمل الدلالات القانونية والفلسفية لكلمة (الدولة)، وثمة مصطلح الفكر السياسي، وهو **"مصطلح عامّ جداً لأنواع النظريات والفلسفات والعقائد والعمليات الذهنية المتعلقة بالسياسة، والتعبير عنها، وفي هذا المعنى الواسع يتضمّن الفكر السياسي الفلسفة السياسية والنظرية والعقيدة السياسية"**[2].

واستناداً إلى ما سبق يمكن القول بأن الذهنية السياسية تشتمل على الثقافة السياسية السائدة في مجتمع ما (أيديولوجيا، مُثل عليا، مبادئ، قيم، مفاهيم)، وتشمل أيضاً المدارس السياسية، والنظم السياسية، والفكر السياسي الذي يسترشد به الساسة في مواقفهم، والخبرة السياسية المتراكمة، والإستراتيجيات والتكتيكات السياسية، وطرائق إدارة الأزمات السياسية، وكيفية بناء العلاقات السياسية سلماً وحرباً، سواءً داخل المجتمع الواحد أم فيما بين الشعوب.

والآن، ماذا عن ذهنية الكورد السياسية؟

ظاهرات في ذهنية الكورد السياسية:

من أبرز الظاهرات في ذهنية الكورد السياسية ما يلي:

أولاً – النفور من الدولة المركزية:

إن الشخصية الكوردية تنفر أيّما نفور من الانضواء تحت لواء حكم مركزي، ولا يخفى دور ثالوث (الجبل، الرَّعَوية، القَبَلية) في نشأة هذه النزعة، ولنبدأ بالسومريين، فرغم انتقالهم من جبال كردستان إلى سهول ميزوپوتاميا، ظلت بعض الخصائص الجبلية راسخة فيهم، ولم

---

١ - الإپستيمولوجيا تعني: نظرية المعرفة.

٢ - جيوفري روبرتس: القاموس الحديث للتحليل السياسي، ص ٣٤٠، ٣٤٢.

تستطع جغرافيا السهول اقتلاعها، ومن أبرز تلك الخصائص- سياسياً- عدم قيام دولة سومرية مركزية، وإنما قيام دول- مدن، ونجد الظاهرة نفسها في بلاد اليونان بعد حوالي خمسة عشر قرناً، وصحيح أن بعض حكام دول- المدن السومرية حاولوا فرض توسيع نفوذهم على حساب دول المدن الأخرى، لكنهم ما أفلحوا في ذلك، قال سبتينو موسكاتي:

"فالواقع أن السومريين كانوا عاجزين دائماً من الناحية السياسية عن بناء دولة كبيرة، فقد كانوا منقسمين إلى دول في مدن، كان ملوكها هم أيضاً الكهنةَ والممثّلين للآلهة المحلية. وتاريخ المدن السومرية قصة متصلة من التنافس، كان التوازن المتراوح هو الوضع الطبيعي فيها، ولكنه كان ينقطع من حين إلى حين بغلبة مدينة أو أخرى غلبةً قصيرة الأمد، وكانت الدولة الوحيدة التي بلغت مكانة مرموقة هي تلك التي وُفِّق الملك لوجال زاجّيزي Lugal zaggisi إلى إنشائها حول مدينته أُومّا[1] Umma، ولكن بعد أن احتفظ بسيادته سنين عديدة غلبته أخيراً دولة سامية[2]، وكان ذلك حوالي ٢٣٥٠ ق.م"[3].

إن الدولة شبه المركزية الوحيدة التي أقامها السومريون كانت علي يد الملك السومري أُور- نامُّو Ur- Nammu ، في حدود سنة (٢٠٥٠ ق.م)" إذ كان حاكماً على مدينة أور من قِبل الملك الگـوتي (الجوتي/ الجودي) الأخير أُوتو هَيكال، فثار عليه، وقضى على سلطته، وطرد الگـوتيين من بلاد سومر، ووسّع نفوذ دولته، وأسّس سلالة أور الحاكمة الثالثة، وسيطرت تلك السلالة على المدن السومرية والأكّادية، وأعادت توحيد البلاد، وأقامت دولة تضاهي الدولة الأكّادية من حيث سعة رقعتها ونظام حكمها المركزي، غير أن حكامها كانوا من السومريين، واستمرت أكثر من مئة سنة (٢١١٣ – ٢٠٠٦ ق.م). ولا يخفى التأثير الثقافي الأكّادي السامي في إحداث هذا التحوّل داخل الذهنية السومرية، وهو مع ذلك شذوذ على القاعدة التي تأكد ثبوتها طوال ألف عام تقريباً قبل ذلك[4].

---

١ - تسمّى الآن: تل جوخة.

٢ - هي الدولة الأكّادية بقيادة سرجون الأول.

٣ - سبتينو موسكاتي: الحضارات السامية القديمة، ص ٦٧.

٤ - صمويل كريمر: من ألواح سومر، ص ١١٧ عامر سليمان، أحمد مالك الفِتْيان: محاضرات في التاريخ القديم، ص ١٠٩.

وبعد السومريين برز **الگوتيون**، وكانت دولتهم في الأصل اتحاداً قَبَلياً، هدفه الرئيس هو الوقوف في وجه العدوان الأكّادي المستمر، وانعكست ذهنيتهم السياسية على طريقتهم في حكم بلاد أكّاد، وعلى نحو أكثر وضوحاً في حكمهم لبلاد سومر" إذ اكتفوا باستلام الجزية من السومريين، **"تاركين تسيير دفّة الأمور للحكام للمحليين، ومن ثَمّ فقد بقيت المدن السومرية تتمتع بشيء من الحرية السياسية والتجارية" الأمر الذي أدّى إلى تطور كبير في مدائن الجنوب"**[1].

وكان الطابع السياسي الغالب على العهد الحُوري هو وجود الدويلات المتناحرة، ولذلك كانت سرعان ما تنهار أمام أيّ اعتداء خارجي، وقد ظهر الفرع الميتّاني من بين الحوريين، وأسّس دولة واحدة شبه مركزية، في أواسط الألف الثاني ق.م، دامت حوالي قرن من الزمان، ويعدّ ذلك استثناء[2]. وكانت دولة ميديا اتحاداً شبيهاً بما يسمّى في عصرنا (اتحاد فدرالي)، ولم تكن دولة مركزية، وكان الميديون يتعاملون مع المناطق غير الميدية الخاضعة لهم، كبلاد فارس مثلاً، وفق النظام السياسي الاتحادي، قال هيرودوت:

"وكان الميديون اعتمدوا، في عزّ دولتهم، هذا المبدأ في الإدارة والحكم، فكانوا يتولّون أمر جيرانهم المباشرين، ويَدْعون كل أمة أن تحكم جارتها، وفق مبدأ القرب"[3].

وثمة في التاريخ السياسي الكوردي دولتان فقط كان لهما طابع الدولة المركزية، هما الدولة الكاشية (١٥٩٥ أو ١٥٣١ – ١١٥٧ ق.م)، والدولة الأيوبية (١١٧١ – ١٢٥٠م)، لكن لا ننس أن الدولة الكاشية المركزية قامت في بلاد بابل، وليس في الجغرافيا الكوردية، وكان أغلب رعاياها من البابليين الساميين، وكان البابليون خرّيجو ذهنية سياسية تقبل الخضوع لدولة مركزية، وبتعبير آخر: كان النظام السياسي الكاشي نتاج الثقافة السياسية البابلية. وأما الدولة الأيوبية فتأسست في مصر وبلاد الشام، ولم تتأسس في الجغرافيا الكوردية، وكان معظم رعاياها من غير الكورد، إضافة إلى أن رعاياها كانوا قد تربّوا طوال خمسة قرون على الذهنية السياسية الإسلامية، ومعلوم أن للسلطة المركزية أهمية قصوى في الفكر السياسي الإسلامي" على الأقل حسبما تجسّد في دولة الخلافة زمن الخلفاء الراشدين والأُمويين والعبّاسيين.

---

١ - محمد بَيُّومي مهران: تاريخ العراق القديم، ص ١٦٣.

٢ - جين بوترو وآخرون: الشرق الأدنى الحضارات المبكّرة، ص ٢٠١.

٣ - هيرودوت: تاريخ هيرودوت، ص ٩٦.

ثانياً – النفور من الحكم الفردي المطلق:

تنفر الشخصية الكوردية، بشكل عام، من حكم الفرد (ملك، طاغية)، فالحكم داخل كل دولة- مدينة سومرية لم يكن متمركزاً في يد شخص واحد لا ضابط له ولا رادع، وإنما كان حكماً ديمقراطياً، وكانت السلطة تتركز في مجلس المواطنين العام (أُونْكِين) Unkin، ولاحظوا الشبه الصوتي والدلالي بين هذا الاسم والكلمة الكوردية Ain gin، أي (الذين هم للجميع/ممثلو الجميع/ نواب الشعب/الجمعية العامة). وكان مجلس أونكين ينقسم إلى مجلسين: مجلس الكبار في السن، ومجلس الشباب، وكان مجلس أونكين هو الذي ينتخب حاكم مدينة- الدولة، ويتخذ القرارات الهامة، ومن بينها قرارات السلم والحرب، وبذلك يكون السومريون أول من أسس النظام البرلماني الديمقراطي في تاريخ البشرية[1].

وقد فسّر الدكتور محمد بَيُّومي مهران هذه الظاهرة قائلاً:

"ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن التنظيم السياسي لدويلات المدن السومرية- سواء أكان في شكل الجمعية العمومية أو الملكية- قد كان انعكاساً لأفكار القوم الدينية" ذلك لأن الآلهة السومرية إنما كانت لها جمعيتها العمومية التي تضم كل الآلهة- ذكوراً وإناثاً- كلٌّ له دوره الفعّال في مداولاتها، وكان على رأس هذه الجمعية العمومية المعبود (أنو) إله الماء وملك الآلهة، الذي أُودِع أمامه الصولجان والتاج وعصا الراعي، وقد كانت المعبودات السومرية تصوَّر في شكل إنساني، وتحكمهم عواطف إنسانية، ويرتدون كالبشر زيّاً مجدولاً، ربما كان من جلود الغنم، رغم أنه كان يمثّل سمات حياة البداوة التي انتهت منذ زمن بعيد"[2].

ونحسب أن تفسير العلاقة بين البشر والآلهة على هذا النحو غير صائب، والصحيح أن ننطلق من الواقع البشري إلى عالم الآلهة، باعتبار أن آلهة كل مجتمع هم التجسيد الروحي والرمزي للمثل العليا والمبادئ والقيم والطموحات التي يشتمل عليها الوعي الجمعي لذلك المجتمع" أي أن واقع الآلهة يعكس الواقع البشري، وليس العكس. وانطلاقاً من هذا التفسير نرى أن المَجْمع

---

١ - صمويل كريمر: من ألواح سومر، ص ٧٨ – ٧٩، ٨٣ – ٨٤. سبتينو موسكاتي: الحضارات السامية القديمة، ص ٦٧. سامي سعيد الأحمد: السومريون وتراثهم الحضاري، ص ١٢٧.

٢ - محمد بَيُّومي مهران: تاريخ العراق القديم، ص ١٠٠.

الإلهي السومري كان يعكس الذهنية السومرية السياسية، وبما أن هذه الذهنية لا تتقبّل الحاكم المطلق فكذلك لا نجد في اللاهوت السومري الإله الواحد الأحد، المطلق المشيئة، وإنما ثمة كبير الآلهة الذي يقبل أن يتقاسم الصلاحيات مع آلهة آخرين، أي يقبل (الإشراك به)، ثم لاحظوا ظهور الرموز الرعوية الجبلية في البانثيون الإلهي السومري، فثمة عصا الراعي والزيّ المجدول من جلود الغنم.

وقد لجأت بعض المجتمعات الكوردية إلى آليات طريفة للتعبير عن النزعة الديمقراطية في تولّي السلطة، يقول باسيلي نيكيتين:

"وللهكّاريين عُرف غريب يخصّ كيفية تولّيهم السلطة. فإذا تبيّن أن الـ (خان) المحلي غير جدير بتولّي أعباء الحكم، يُدعى جميع الوجوه والأعيان إلى الاجتماع، فينظر هؤلاء في الوضع، وإذا تبيّن لهم أنه غير جدير بالحكم، وثبت زوال حقه، وُضع أمامه زوج من الحذاء، وعليه أن يحتذيهما ويغادر الاجتماع، بعد إعطاء موافقته على تعيين شخص آخر سواه لتسلّم الحكم، ولكن أموال المعزول وأملاكه لا تصادر من قبل أحد"[1].

ودأبت العادة على أنه كلما ظهر، في مجتمعات أسلاف الكورد، حاكم مستبدّ، ينزع إلى الانفراد بالسلطة، ويهمّش أقرانه من النبلاء وزعماء القبائل، كان سرعان ما يُواجه بالثورة، وكان ذلك يؤدي تارة إلى مقتله، كما حدث للملك المانني **آزا**، إنه عقد معاهدة تحالف مع الآشوريين بقيادة سرجون الثاني، فانتفض الشعب المانني ضده بقيادة (يگداتو)، وقبض عليه الثائرون، وقتلوه، ورموا بجثته من فوق الجبل[2].

وفي كثير من الأحيان كانت ردود الأفعال ضد الحكّام المستبدّين تجرّ على أسلاف الكورد كوارث مدمّرة، وأبرز مثال على ذلك استبداد الملك الميدي **أستياگ** بالحكم، واستهانته بالنبلاء وزعماء الاتحاد الميدي، فكانت النتيجة أن أحد أولئك الزعماء، ويدعى **هارپاك**- وكان أعلى قادة الجيش الميدي رتبة- وحّد كلمة الناقمين على أستياگ، وتآمر عليه سراً مع ملك فارس كورش الثاني، وجرّ الجيش الميدي إلى هزيمة مفتعلة، وقدّم الدولة الميدية كلها غنيمة لكورش على طبق من ذهب، وكان الدافع إلى ذلك هو الحقد على أستياگ والانتقام منه، وعدم السماح له بالحكم المطلق.

---

١ - نيكيتين: الكرد، ص ٢٥٧.

٢ - دياكونوف: ميديا، ص ١٩٩.

ثالثاً – قصر عمر الدول والممالك الكوردية:

إن قصر عمر الممالك والدول والإمارات الكوردية ظاهرة واضحة المعالم في التاريخ الكوردي، فطوال خمسة آلاف عام، وبدءاً من العهد السومري، وانتهاء بسقوط جمهورية مهاباد سنة (١٩٤٧م)، ليس ثمة دولة كردية حكمت أكثر من قرنين بصورة متماسكة غير الدولة الكاشية، وسبق أن ذكرنا أن مركزها كان في بابل. وعلى سبيل المثال لم يتجاوز عمر الدولة الگـوتية (٩١) عاماً، وكان عمر دولة ميديا أقل من قرن، وكان عمر الدولة المروانية (الدوستكية) حوالي قرن، وكان عمر الدولة الأيوبية حوالي (٨٠) عاماً، أما بعض الإمارات والدويلات الكوردية التي عاشت في الإسلام أكثر من قرنين، فهي لم تكن مستقلة بالمعنى الدقيق للاستقلال، وإنما كانت تتبع دولة مركزية ما، كالدولة العباسية، أو الدولة العثمانية.

رابعاً – عدم قيام إمبراطوريات كردية:

الإمبراطورية Empire دولة ضخمة، يؤسسها نُخَب ذوو ذهنية توسّعية، وهي تنشر سلطانها على مساحة واسعة، وتفرض سيطرتها على شعوب عدّة بالحرب غالباً، وبمبرّرات سماوية أو أرضية، ويحتكر نُخَبها القرارات السيادية في الإمبراطورية، وغالباً ما يكون لكل إمبراطورية مشروع شمولي، يقوم على الترويج لنموذج ثقافي معيّن، وللإمبراطورية قوتان: قوة خشنة (عسكرية)، وقوة ناعمة (أيديولوجية)، تستعملهما للسيطرة على فائض الإنتاج (فائض القيمة) في المناطق التي تهيمن عليها، ولا وجود لحدود معيّنة للإمبراطورية، حدودها شبه مفتوحة، والإمبراطوريات نوعان: إمبراطوريات عالمية، وإمبراطوريات إقليمية ذات عمر قصير[١].

---

١ – غـي هيرميـه وآخـران: قـاموس علـم السياسـة والمؤسسـات السياسـية، ص ٦٨. هيرفريـد مـونكلر: الإمبراطوريات، ص ٨، ١٠، ١٦، ٩٧، ١٠٣.

وقد قال الأمريكي بريجنسكي: **"الديمقراطية غير ملائمة للتعبئة الإمبراطورية"**[1]، وهو قول صائب" فالمشاريع الإمبراطورية لا تخرج إلا من عباءة الذهنيات السياسية المركزية الطابع، وقد تكون الإمبراطورية بقيادة فرد، يجمع في قبضته جميع القرارات السيادية، ومثال على ذلك جميع الإمبراطوريات التي قامت في غربي آسيا، وفي الشرق عامة، وقد تكون بقيادة هيئة عليا تحتكر تلك القرارات، وتنتخب من بينها فرداً يمثّلها، ومثال على ذلك الإمبراطورية الرومانية قديماً، والإمبراطورية الإنكليزية حديثاً.

ومن الطبيعي- والحال هذه- ألا تخرج أية إمبراطورية من عباءة الذهنية السياسية الكوردية، فقد مرّ أنها ذهنية تنفر من الطابع المركزي للدولة، وترفض الانصياع للحكم المطلق، ثم إن خمسة آلاف عام من تاريخ غربي آسيا تؤكد هذه النتيجة، فالسومريون لم يقيموا إمبراطورية، أما الگوتيون فاضطروا تحت ضغط الإمبراطورية الأكّادية المستمر إلى أن يقضوا عليها، ويبسطوا سيطرتهم على أكّاد وسومر، وليس على كافة الجغرافيا التي كانت خاضعة للأكّاديين. وأما الكاشيون فاكتفوا بالسيطرة على بابل إلى جانب قسم من الجغرافيا الكوردية. وأما الحوريون والميتّانيون فاقتصر نفوذهم على جغرافيا أسلاف الكورد.

واقترب الميديون من تكوين إمبراطورية بالمعنى المشار إليه أعلاه، لكنهم لم يفعلوا ذلك، وكان الفرق شاسعاً بينهم وبين الإمبراطورية الآشورية السابقة عليهم، والإمبراطورية الفارسية اللاحقة لهم، وأقصى ما فعلوه أنهم وحّدوا القبائل والشعوب الآريانية القريبة منهم سلالياً- بما فيهم الفرس- ضد دولة آشور للخلاص منها، واكتفوا بالسيطرة على الجغرافيا التي كانت تقيم فيها تلك القبائل والشعوب، في حين أن الفرس انفلتوا كالمارد بمجرد سيطرتهم على دولة ميديا، فاحتلوا دولة بابل في الجنوب الغربي، ودولة ليديا في الشمال الغربي، وعبروا مضيق الدَّرْدَنيل إلى مكدونيا واليونان، وهاجموا بلاد السكيث في شمالي البحر الأسود، ثم احتلوا سوريا الكبرى ومصر، وما اكتفوا بذلك، بل توجّهوا شرقاً نحو الهند والشعوب التورانية (التركية)، وأخضعوا قسماً منهم للسلطة الفارسية، فأين هذا مما قام به الميد؟

خامساً – عدم النزوع إلى إلغاء الآخر:

باستثناء الفترات التي كانت فيها الذهنية الكوردية واقعة في قبضة ثقافات التعصب الديني، وكان الحكام الكورد يتلقّون أوامرهم من دول تنفّذ سياسات الإقصاء والإلغاء الديني

---

١ - بريجنسكي: رقعة الشطرنج الكبرى، ص ٥٣.

والقومي، وخاصة في العهد العثماني، يمكننا القول بثقة تامة: **إن الذهنية السياسية الكوردية غير ميّالة إلى الإضرار بالآخرين، ولا تنزع إلى إلغائهم جغرافياً أو قومياً أو ثقافياً**، وكل من يستعرض التاريخ الكوردي منذ خمسة آلاف عام، على الصعيد الحربي، يتأكد من أن **الكورد كانوا- في القسم الأعظم من تاريخهم- مدافعين لا مهاجمين**، وحتى في الحالات القليلة التي كانوا يتحوّلون فيها إلى مهاجمين كانوا مُكرَهين على ذلك، وكانوا يهاجمون ليقضوا على مصدر التهديد الموجَّه إليهم، وبمجرد تحقيق الهدف كانوا يكفّون عن النهج الهجومي.

إن الگـوتيين لم يهاجموا دولة أكّاد إلا بعد أن فعلت بهم الدولة الأكّادية الأفاعيل، وأشبعتهم استعباداً وقهراً وإذلالاً، وإن الميتّانيين/الحوريين لم يهاجموا دولة آشور إلا لأن الآشوريين كانوا قد احتلوا منطقة سوبارتو، وهي جزء من جغرافيا أسلاف الكورد، وكانت واقعة ضمن الانتشار الحوري، وإن الميديين لم يهاجموا دولة آشور إلا بعد أن نشرت الرعب والتدمير في ميديا، وعدا هذا فإن الرعايا غير الكورد، وغير المنتمين إلى العقيدة التي يدين بها الكورد، كانوا ينعمون بالأمن والحرية الدينية في ظل الدول الكوردية، وأبرز مثال على ذلك النهج الذي تعاملت به الدولة المروانية والدولة الأيوبية مع الرعايا غير المسلمين، ثم إن الحالة القائمة الآن في إقليم كردستان – العراق أبرز دليل على ما نقول" إذ كل من يخشى بطش الإرهاب الديني أو القومي في أنحاء العراق يجد الملاذ الآمن في المنطقة الكوردية.

سلبيات ذهنية الكورد السياسية:

إلى جانب الظاهرات الإيجابية السابقة، ثمّة سلبيات عديدة ومزمنة في الذهنية السياسية الكوردية، ولكنها تُعَدّ أمراً طبيعياً إذا أخذنا في الحسبان الشروط الموضوعية التي أثّرت في المجتمع الكوردي، والظروف الاجتماعية والثقافية والاقتصادية والسياسية التي مر بها الكورد طوال خمسة وعشرين قرناً، وتحديداً منذ سقوط دولة ميديا سنة (٥٥٠ ق.م)، إن هذا التاريخ هو تاريخ كارثي بالنسبة إلى الكورد" لأن الشعب الذي يخسر دولته يخسر مظلّته الجامعة، ومؤسساته الضابطة الرابطة، كما أنه يخسر السلطة (القوة الموحِّدة)، ويخسر السيطرة على جغرافياه وثقافته، ويُزاح إلى هامش تاريخ البشرية، بل إنه يصبح ريشة في مهبّ الرياح.

وبتعبير آخر: إن ضعف الفكر السياسي الكوردي وتخلّفه ليس ناجماً عن قصور ذاتي في الذهنية الكوردية، ولا عن خلل في الشخصية الكوردية، بقدر ما هو نتاج الحالة الغريبة

والشاذّة التي زُجّ فيها الكورد رغماً عنهم، فحالت بينهم وبين ممارسة السياسة الداخلية والخارجية وفق حاجات المجتمع الكوردي، وبما يلبّي تطلّعاته، وحالت من ثَمّ دون تشكّل خبرة سياسية متراكمة، ونشوء علم سياسة كردي متطوّر، وتجسيده في فنّ سياسي كردي ، فالسياسة بدايةً ونهاية علمٌ وفن، نظريةٌ وممارسة، وبقدر ما تمارس تتعلم، وبقدر ما تتعلم تمارس، ومعروف بيولوجياً أن العضو الذي لا يمارس وظيفته يضمر ويزول، وكذلك هو الأمر بالنسبة إلى الذهنية السياسية الكوردية، إنها تعرّضت قروناً طويلة للتعطيل القسري، فهل من العجب أن تضعف؟ وهل من العجب أن تنهشها السلبيات من هنا وهناك؟

ونستعرض فيما يلي بعض السلبيات العالقة بذهنية الكورد السياسية.

أولاً – التناحر السياسي:

الخصومات السياسية بين أبناء المجتمع الواحد، وبين أفراد الأسرة الحاكمة، ظاهرة عادية، لكنها تأخذ في التاريخ الكوردي منحى غير عادي، فالذهنية الكوردية الجبلية لا تأخذ بالمثل العربي القديم"**إذا عزّ أخوك فهُن**"، ولا بالمثل العربي الخليجي: "**إذا شاخ ابن عمّك شِلْ نِعالَهْ**"" والمغزى إذا ساد قريبك فكن له مطيعاً. إن الذهنية الكوردية تفعل العكس، وتأخذ بمبدأ (**إذا عزّ أخوك فأهِنْه، وإذا شاخ ابن عمّك فكن أوّل أعدائه**)، وكان هذا النهج وراء كثير من الكوارث التي حلّت بالكورد، سواء على الصعيد الاجتماعي أم على الصعيد السياسي، ومنها سقوط وزوال معظم الممالك والدول والدويلات والإمارات الكوردية طوال التاريخ.

بلى، لو لم يتناحر السومريون فيما بينهم لما تغلّب عليهم الأكّاديون، ولو لم يتناحر الكاشيون فيما بينهم لما تغلّب عليهم الآشوريون، ولو لم يتناحر الميتّانيون فيما بينهم لما تغلّب عليهم الحثّيون والآشوريون، ولو لم يتناحر الميديون فيما بينهم لما صارت دولة ميديا غنيمة بين أيدي أقاربهم الفرس، ولو لم يتناحر المروانيون فيما بينهم لما تغلّب عليهم السلاجقة، ولو لم يتناحر الأيوبيون فيما بينهم لما انتزع مماليكهم الأتراك الدولة منهم، ولو لم يتناحر الكورد فيما بينهم لما انهارت الثورات الكوردية طوال المئتي سنة الأخيرة. ولو استعرضنا التاريخ السياسي الكوردي في النصف الثاني من القرن العشرين لوجدنا كثيراً من الأمثلة في هذا المجال.

ثانياً – التشرذم السياسي:

التنوّع السياسي شيء، والتشرذم السياسي شيء آخر" فالتنوّع ضرورة ديمقراطية، ودليل عافية الذهنية السياسية، وهو ترمومتر تقاس به حيوية الفكر السياسي، وصحيح أن الاتجاهات السياسية المتنوّعة تختلف في الأطر والشعارات والسياسات والتكتيكات، لكنها تنشط جميعاً ضمن مشروع سياسي واحد، وتسعى إلى تحقيق هدف عام مشترك. أما التشرذم السياسي فحالة مختلفة، ومن أبرز مظاهر التشرذم السياسي نزوع التوجّهات السياسية (الأحزاب) إلى التصارع والتناحر، والدوران في فلك الوحدانية السياسية، وعدم الانضواء تحت مظلة سياسية جامعة.

ولا يخفى أن الطابع الغالب على الحالة السياسية الكوردية- منذ قرنين على الأقل- هو التشرذم، وحريّ بصانعي السياسة الكوردية أن يتأمّلوا بعمق قصة (الحمامة المطوَّقة) التي أوردها الأديب الفارسي **ابن المُقَفَّع** في كتابه (كَليلة ودِمْنة)، وخلاصتها أن مجموعة من الحمامات وقعن في شبكة صياد، وحاولت كل واحدة الطيران والنجاة بمفردها، فما استطاعت، فاقترحت الحمامة المطوَّقة على رفيقاتها الطيران معاً وفي وقت واحد، ففعلن ذلك، واقتلعن الشبكة، وطِرْن بها في الجوّ، ثم توجّهن إلى جُرَذ كان صديقاً للحمامة المطوَّقة، فقضم الشبكة، ونجت الحمامات.

ثالثاً – غياب المشروع السياسي الشامل:

الغريب أنه طوال قرنين من النشاط السياسي والثورات، وإلى هذا اليوم، لم يتبلور مشروع سياسي كردي شامل ومتكامل وجذري، وقابل للتنفيذ، والأغرب من هذا أن مشاريع قليلة بدأت بأهداف كبرى وشاملة، ثم راحت تتقلّص على أرض الواقع، ولو صدرت تلك المشاريع عن ذهنية سياسية علمية وواقعية لما تقلّصت وتقزّمت، بل لتطوّرت وتوسّعت أكثر، وإن غياب المشروع السياسي الكوردي الشامل دليل على فقدان وحدة الرؤية والموقف، كما أنه دليل على

أن الذهنية السياسية تعاني من عيوب ثلاثة: الاضطراب على صعيد التنظير، والاغتراب عن الواقع على صعيد التطبيق، والتخبّط على صعيد تمييز الممكن من المستحيل.

رابعاً – فجاجة الفكر السياسي:

نقصد بالفجاجة الافتقار إلى النضج، وإن مظاهر فجاجة الفكر السياسي الكوردي عديدة" منها عدم القدرة على تحديد الأولويات وترتيبها بصورة واقعية، ولذلك يُهمَل ما هو مهمّ أو يؤجَّل، وينصبّ الاهتمام على ما هو أقلّ أهمية. ومن مظاهر الفجاجة أيضاً عقلية المغامرة ووضع البيض كله في سلّة واحدة، وفق مبدأ (إما لنا وإما علينا). والخلطُ في الممارسة بين الإستراتيجية والتكتيك، والثقةُ المطلقة بالآخر السياسي والاعتماد عليه، التزاماً بمبدأ (كلمة شرف)، وبالمقولة الكوردية الشهيرة şor ji devî mêra derdikeve (الكلمة تخرج من أفواه الرجال)، وكأن السياسي الكوردي يتعامل مع خصومة بين عائلتين في قرية كردية. وقد نبّه مكياڤللي إلى خطورة الاعتماد على الآخرين قائلاً:

"والأمير العاقل هو الذي يعتمد على ما يقع تحت سلطانه، لا تحت سلطان الآخرين"[1].

خامساً – اللاواقعية السياسية:

الواقعية هي ألفباء العمل السياسي، والمفروض في الذهنية السياسية- كائنةً ما كانت- أن تتعامل مع وقائع محدّدة ممكنة التحقيق، وليس مع أوهام أو تخيّلات أو فرضيات لا تمتّ إلى الواقع بصلة، ومن أولى دلائل الواقعية السياسية أن يجيد السياسي قراءة واقع مجتمعه، فلا يحمّله أكثر مما ينبغي، وأن يجيد قراءة الواقعين الإقليمي والدولي، ويحدّد بدقّة المصالح الممكن التعامل على أساسها مع كل جهة، فالدول ليست جمعيات خيرية للبِر والإحسان، إنها مؤسسات مسؤولة عن مصالح شعوبها، وهي لا تعطي ما لم تأخذ، بل هي لا تعطي ما لم تتأكد من أنها ستأخذ أكثر مما تعطي، ولو استطاعت أن تأخذ كل ما تريد، دون أن تدفع شيئاً، لكانت قريرة العين بذلك، وقد جسّد **دِزْرائيلي** رئيس وزراء بريطانيا في ذروة العصر الفيكتوري هذه الحقيقة في قوله:

---

١ - نيقولا مكياڤللي: الأمير، ص ١٤٦.

"إن بريطانيا ليست لها صداقات دائمة، ولا عداوات دائمة، وإنما لها مصالح دائمة"[1].

سادساً – الانفعالية والشخصانية:

قال مِكْياڤيللي: **"وعلى الأمير ... أن يقلّد الثعلب والأسد معاً" إذ إن الأسد لا يستطيع حماية نفسه من الأشراك، والثعلب لا يتمكن من الدفاع عن نفسه أمام الذئاب" ولذا يتحتّم عليه أن يكون ثعلباً ليميّز الفخاخ، وأسداً ليُرهب الذئاب، وكلُّ من يرغب في أن يكون مجرد أسد ليس إلا لا يفهم هذا"**[2]. ويبدو أن السياسي الكوردي قرر أن يكون أسداً على الدوام، وهو مستعدّ للهلاك والخسارة كل شيء ولا يكون ثعلباً ولو مرة واحدة، إنه مخلص للمثل الكوردي القائل: Dîkê rokê be û ne mirîshka salekê be (كن ديكَ يومٍ، ولا تكن دجاجةَ سنة)، والمشكلة أن الذهنية الكوردية عامة لا تتقبّل اتخاذ وضعية الثعلب بعض الوقت، وكم يظهر الغضب على وجوه الكورد وعلى ألسنتهم" حينما يتجرّأ زعيم كردي على لعب دور الثعلب ولو مرة واحدة!

وفي التاريخ العالمي مواقف تنازل فيها كبار الساسة عن أن يكونوا أسوداً، ورضوا أن يكونوا ثعالب بعض الوقت، ليحققوا أهدافهم، ومنهم الملك الألماني **هنري الرابع** Henry 1V، فقد وقف ثلاثة أيام في كانوسّا Canossa، خلال شهر كانون الثاني/ديسمبر (١٠٧٧م)، حافي القدمين، بثياب صوفية بائسة، يلتمس العفو من البابا **غريغوار السابع**" إذ كان قد تمرد على الكرسي البابوي، فأصدر البابا قراراً بحرمانه علناً، بعد أن قضى بعزله، وحلّ رعاياه من يمين الولاء له، وعفا عنه غريغوار أخيراً، وأبطل قرار الحرمان. وما مرت سنوات قليلة حتى أطاح الملك هنري بالبابا من كرسي البابوية[3].

إن النهج الذي مارسه الملك هنري مرفوض من الذهنية السياسية الكوردية، إن الزعيم الكوردي يضع شخصه مباشرة في الحسابات السياسية، ولا يستطيع أن يضعها جانباً، وقلة قليلة جداً من ساسة الكورد استطاعوا اتخاذ القرار بأن يلعبوا دور الثعالب بعض الوقت، ومنهم صلاح الدين الأيوبي قديماً، ومحمد علي باشا في العصر الحديث" ولذلك تمكّن كل منهما من تأسيس دولة قوية في جغرافيا غير كردية.

---

١ - محمد حسنين هيكل: سنوات الغليان، ص ١٤٨.

٢ - نيقولا مكياڤللي: الأمير، ص ١٤٨.

٣ - جان جاك شوفالييه: تاريخ الفكر السياسي، ص ١٦٧.

سابعاً – الهوّة المعرفية بين النُّخب والجماهير:

إن الهوّة المعرفية بين النخب والجماهير ظاهرة عامة، وليست مقتصرة على المجتمع الكوردي، ويحرص الحكماء من النخب على تحرير جماهيرهم من ثقافة الضعف والهزيمة، قبل البدء بتنفيذ مشاريعهم الدينية أو الوطنية أو القومية، وقبل أن ينتقلوا من موقف الدفاع إلى موقف الهجوم، إنهم يعملون لتشكيل وعي الجماهير من جديد، عبر الارتقاء بهم معرفياً وأخلاقياً وسيكولوجياً، هكذا فعل الأنبياء والمصلحون وقادة الثورات طوال التاريخ، لقد مارسوا (التعبئة الشاملة)" إذ إن الجماهير المنفصلة عن نخبها وعياً ورؤيةً، لا تصبح فقط عبئاً على النخب، ولا تسهم فقط في صناعة الفشل، وإنما تكون مهيّأة لأن تصبح حصان طروادة، يتسلل الخصوم من خلاله لضرب المشروع الوطني/القومي جملة وتفصيلاً.

ولو أخضعنا التاريخ السياسي الكوردي- بما فيه ثورات القرنين (١٩ و ٢٠م) للتحليل، لاتضح أن النخب الكوردية كانت مخلصة وشجاعة في قيادة الكفاح منذ خمسة وعشرين قرناً، وكذلك كانت الجماهير الكوردية، لكن النخب لم يعملوا بما فيه الكفاية، للارتقاء بالجماهير إلى المستوى المطلوب في مجال (التعبئة الشاملة)، ولا يخفى أن ثالوث (الجبل- الرَّعَوية- القبلية) كان مهيمناً على الذهنية الكوردية بشكل عام، وهذا الثالوث هو مدمّر لكل كفاح يتطلّب وحدة الرؤية والموقف، إنه مرتع خصب للروح الفردية المتطرفة، وللتخلف المعرفي، وللتسيّب والانخلاع من الواجب، كما أنه بؤرة لإنتاج الغفلة والخيانة، فكيف يمكن لأصحاب الأهداف الكبرى أن يفلحوا وهم يجرجرون وراءهم جماهير تعشّش فيها ذهنية كهذه؟

ثامناً – انسلاخ القيادة عن الجماهير:

ثمة ظاهرة سلبية أخرى متكررة في التاريخ السياسي الكوردي" ألا وهي سرعة انغلاق بعض القادة الكورد على أنفسهم في القصور، بعد أيّ إنجاز مما يكون استقلالاً أو شبه استقلال، أو حتى ولايةً على شعبهم من قِبل جهات حاكمة أخرى، إنهم سرعان ما ينسون واقع جماهيرهم، ويغفلون عن الأخطار المحدقة بهم وبشعبهم، وبدل أن ينزلوا إلى الجماهير، ويقاسموها البؤس،

ويحرصوا على التخفيف من عذاباتها، ويكونوا مضرب المثل في بساطة العيش، وعفّة اليد، وحسن السيرة، والاستقامة في الحكم، ينشغلون بمصالحهم ومصالح أقاربهم وأتباعهم والمتزلّفين إليهم، وينكبّون على حياة الترف والرخاء وملذات الحياة، غير منتبهين إلى سيكولوجيا الجبال الكامنة في الشخصية الكوردية" تلك السيكولوجيا التي تثير الغضب والحنق والنقمة على كل قائد وزعيم يستعلي على بني قومه، ويستأثر بالمكاسب من دونهم.

وكي لا أطيل أقترح مراجعة سيرة الملك الميدي الأخير **أستياگ**، وسيرة الملك المرواني **نصر الدولة أحمد**، وسِيَر الجيل الأخير من **السلاطين الأيوبيين**، إن انكباب أستياگ وبطانته على الترف واللهو، إلى جانب استبداده بالسلطة، كان من أهم أسباب سقوط دولة ميديا. وإن انشغال الملك المرواني نصر الدولة بالبذخ الشديد، وحرصه على إحياء ليالي الأنس والطرب، كان يتمّ في وقت كان فيه السلاجقة يعدّون العدّة للانقضاض على الدولة المروانية. وإن انشغال الجيل الأخير من سلاطين بني أيوب، بالترف والمصالح الشخصية، كان من أهم أسباب جرأة مماليكهم عليهم، وإسقاط الدولة الأيوبية، ولم تكن سِيَر كثير من الإقطاعيين الكورد إلا نماذج مصغَّرة من سِيَر ملوك الكورد المنسلخين عن جماهيرهم.

بحث عن الأسباب:

إن هذه السلبيات في الذهنية السياسية الكوردية، وغيرها مما لم يتّسع المجال لذكره، لا تعود إلى قصور ذاتي في الشخصية الكوردية، وهي ليست قدراً أبدياً لا يمكن الخلاص منه، إن المسألة مسألة وعي في الدرجة الأولى، إن وعياً متقدّماً كفيل بإنتاج ذهنية سياسية ديناميكية متقدمة، وكفيل بإبداع إيقاع سياسي متناغم. وترجع سلبيات الذهنية الكوردية- فيما نرى- إلى عاملين رئيسين:

- **العامل الأول:** افتقار الكورد طوال خمسة وعشرين قرناً إلى تكوين سياسي وطني/قومي، وكان نخب الفرس أول من دشّن ذلك بالقضاء على دولة ميديا، ثم توالت القوى الإقليمية في غربي آسيا على الأخذ بذلك النهج، وزُجّ بالكورد جيلاً بعد جيل في المزيد من التهميش، وظلوا بلا تكوين سياسي (دولة/مملكة) تكون حاضنة لولادة ثقافة سياسية ناضجة، وتصبح ميداناً لاكتساب خبرات سياسية متطورة، عبر ممارسة السياسة داخلياً، والاندماج في الحياة السياسية إقليمياً ودولياً، وتهيّئ المناخ لإنتاج فكر سياسي واقعي ومتقدم ومنفتح على

الآخرين، فكر قادر على الانتقال من حالة الانفعال إلى حالة الفعل المؤثر، وقد أشار جوناثان راندل إلى هذا الأمر بقوله:

"ليس لدى الأكراد التراكم الحضاري الذي تزخر به الثقافتان الفارسية والتركية، أو ما راكمتاه من معرفة إدارية، لتعزيز وعيهم لهويتهم التاريخية"[1].

- **العامل الثاني:** هو سيطرة ثالوث (الجبل- الرَّعَوية- القَبَلية) بشكل حادّ على المجتمع الكوردي، حتى منتصف القرن العشرين، وقد يقال: ذكرت (الرعوية)، ولكن أين (الريفية)؟ والحقيقة أن الريف الكوردي لم يستطع أن يصبح منصّة للانتقال بالمجتمع الكوردي إلى حالة (التمدّن)، لأنه كان غارقاً حتى أذنيه في الثقافة الرعوية القبلية، ولا أظن أنه تعافى من تلك الثقافة حتى يومنا هذا. أما (الجبل) فصحيح أنه كان القلعة التي حمت الكورد من الإفناء جسدياً وقيمياً، لكنه عندما تفاعل مع (الرعوية) و(القبلية) صار ضرره أكثر من نفعه. وقد تنبّه بعض كبار الكوردولوجيين إلى الأضرار التي ألحقتها الثقافة الرعوية القبلية بالمجتمع الكوردي، ومنهم نيكيتين، فقد وجد في البنيان العشائري العائقَ الأكبر أمام التطور الطبيعي للكرد" سياسياً واقتصادياً واجتماعياً وفكرياً[2]. ومنهم مينورسكي، فقد قال بشأن الكورد:

"أما السبب العام لفقدان الوحدة بينهم وتفرّقهم، فهو الوضع الجغرافي، حيث الوديان الكثيرة وسلاسل الجبال الوعرة، ومجاري المياه القوية، أدّت إلى تقسيم الحياة السياسية والحالة الإقطاعية. ولكن بالرغم من هذا إن الشعور بالحرية والاستقلال قوي جداً عندهم، وهو من مقوّمات الوجود الكوردي، وينعكس في تاريخ الحركة الكوردية أيضاً"[3].

---

١ - جوناثان راندل: أمة في شقاق، ص ٣٢ — ٣٣.

٢ - نيكيتين: الكرد، ص ٣٤.

٣ - مينورسكي: الأكراد، ص ٣١.

١٣

سمات العقل الكوردي

وقفة مع المصطلح:

التعامل مع المفاهيم والمصطلحات لا يخلو من متاعب، أعرف ذلك، لكن ما العمل؟ إنها مفاتيح العلوم ومداخل المعارف، والقفز فوقها يعني القفز نحو التخبّط والأحكام القاصرة" لذا قبل البحث في سمات العقل الكوردي دعونا نقف عند كل من (العقل) وقرينه (التفكير) ترى ما هما؟ وأذكر أننا أشرنا سابقاً إلى التداخل بين دلالات (ذهنية، عقلية، تفكير) في موسوعات المصطلحات الفلسفية، وتوصلنا حينذاك إلى أن مفهوم (ذهنية) أشمل من مفهوم (عقلية)، وهذا بدوره أشمل من مفهوم (تفكير).

وقد قيل في تعريف العقل ما يلي: **"العقل هو مَلَكة الفهم، والاستدلال الصحيح، والاستنتاج، وإدراك العلاقات الذهنية"**[١]. وجاء في تعريف (التفكير) ما يلي: **"التفكير عمل عقلي عامّ، يشمل التصوّر والتذكّر والتخيّل والحُكم والتأمل، ويُطلق على كل نشاط عقلي، ومنه قول ديكارت: أنا أفكر إذن أنا موجود"**[٢]. وقيل في تعريف (الفكر): **"الفكر: إعمال العقل في الأشياء، للوصول إلى معرفتها، ويُطلق بالمعنى العام على كل ظاهرة من ظواهر الحياة العقلية، وهو مرادف للنظر العقلي والتأمل"**[٣].

---

١ - كَمِيل الحاج: الموسوعة الميسَّرة، ص ٣٥٤.

٢ - المرجع السابق، ص ١٥٥.

٣ - جميل صليبا: المعجم الفلسفي، طبعة ١٩٨٢، ١٥٤/٢.

والحديث عن (العقل/التفكير/الفكر) وثيق الصلة بمفهوم الاستدلالInference ، وقد قيل في تعريفه: هو **"كل عملية تفكير تنتقل بموجبها من مقدّمة إلى نتيجة، وإذا كانت المقدّمات صادقة كانت النتائج صادقة أيضاً. وينقسم الاستدلال إلى: استدلال استنباطي، واستدلال استقرائي"**[1]. والاستنباط هو الاستنتاج Deduction، وجاء في تعريفه أنه **"عملية فكرية تنطلق من مبدأ عام إلى ما هو جزئي وخاص"**[2]. أما الاستقراء Induction فهو" **استخلاص مفاهيم عامة من مفاهيم خاصة وجزئية، ... والتفكير الاستقرائي ينطلق من الجزئيات إلى الأحكام والكليات"**[3].

والحديث عن سمات العقل الكوردي يعني البحث في طرائق التفكير وآلياته السائدة في الذهنية الكوردية، هل ينحصر التفكير في إطار الكليات والعموميات فقط؟ هل ينحبس في نطاق الجزئيات فقط؟ أم أنه قادر على اكتشاف العلاقة بين الكليات والجزئيات؟ وهل هو قادر على ممارسة الاستقراء والاستنتاج بشكل فاعل، والانتقال من الملاحظة إلى التأمل والتصنيف والتمييز والمقارنة والتحليل والتركيب والحُكم؟ وهل هو قادر على الارتقاء من المستوى الحسي إلى المستوى التصوّري (التخيّل)، فإلى المستوى التجريدي (التنظير) على الصعيد المعرفي؟ وهل هو قادر على التعامل مع المفاهيم والمبادئ والنظريات؟

وإذا كان العقل الكوردي يمتلك خصائص التفكير الفاعل فماذا يعني ذلك؟

الحقيقة إنه يعني الكثير بل الكثير جداً، إنه يعني:

- أولاً أنه عقل جريء اقتحامي، وليس نكوصياً هروبياً.
- وثانياً أنه عقل ينزع إلى الواقعية، ولا ينجرف مع الأوهام.
- وثالثاً أنه عقل قادر على المعرفة العلمية والأدبية والفلسفية.
- ورابعاً أنه عقل حيوي (ديناميكي) ، وليس جامداً (استاتيكياً).
- وخامساً أنه عقل منظَّم، قادر على اكتشاف النظام في الموجودات.
- وسادساً أنه عقل قادر على النهوض بمهمة تفسير العالم.
- وسابعاً أنه عقل قادر على التفاعل، وليس قاصراً على الانفعال.

---

١ - كَميل الحاج: الموسوعة الميسَّرة، ص ٣٣.

٢ - المرجع السابق، ص ٣٤. وانظر يو. أ. بتروف: أبجدية التفكير المنطقي، ص ١١٢.

٣ - كميل الحاج: الموسوعة الميسرة، ص ٣٤.

- وثامناً أنه عقل قادر على التغيير والتجديد والإبداع، وليس نمطياً.
- وتاسعاً أنه عقل ينزع إلى التمرد والثورة، وليس عبودياً خانعاً.
- وعاشراً أنه عقل قادر على المساهمة في الحضارة وتقدم البشرية.

والآن ماذا عن سمات العقل الكوردي على ضوء جميع ما سبق؟

من سمات العقل الكوردي:

أولاً- العناد ومقولة "عقل كردي":

" عقل كردي "! لفتت هذه العبارة انتباهي مراراً، ويبدو أنها ماركة مسجّلة باسم الكورد في غربي آسيا، فإذا تعنّت أحد الناس، ولم يتزحزح عن موقفه، وُصف بعبارة: **"عَقْله كردي"**، والمقصود بهذه العبارة هو العناد والإصرار على الموقف. لكن هل الصلابة في الموقف، والإصرار عليه- وهو ما يسمّى عناداً ويباسة الرأس- صفة متأصّلة في الشخصية الكوردية؟ الجواب: نعم. ولا أقول هذا انسياقاً مع ما هو شائع، وإنما لمسته في مواقف بعض الكورد الذين خالطتهم، ووجدته أيضاً في سِيَر عدد من مشاهير الكورد، كما أنه بدا واضحاً في تاريخ الكورد منذ خمسة آلاف عام.

أجل، لولا العقل الكوردي هل كان من الممكن أن يتغلّب الگوتيون (الجوتيون) على الاحتلال الأكّادي سنة (٢٢٣٠ ق.م)؟ ولولا العقل الكوردي هل كان من الممكن أن يحرر الميديون شعوب غربي آسيا من الآلة العسكرية الآشورية سنة (٦١٢ ق.م)؟ ولولا العقل الكوردي لأبي مُسْلِم الخُراساني هل كان من الممكن الإطاحة بالخلافة الأُموية، وتأسيس الخلافة العباسية سنة (١٣٢ هـ/٧٥٠ م)؟ ولولا العقل الكوردي لصلاح الدين الأيوبي هل كان من الممكن تحرير غربي آسيا من الفرنج، وإلحاق الفشل بأضخم حملة أوربية (الحملة الصليبية الثالثة) سنة (١١٩١ م)؟ ولولا العقل الكوردي هل كان من الممكن استمرار الثورات الكوردية، واحدة تلو أخرى، طوال قرنين من الزمن؟ ولولا العقل الكوردي هل كان من الممكن احتفاظ الكورد بهويتهم" بعد خمسة وعشرين قرناً من مشاريع القهر والإنكار والصهر؟

ولا تقتصر تجلّيات (العقل الكوردي) على الميدان السياسي والعسكري، وإنما تظهر في مجال الدين أيضاً، ولنأخذ- على سبيل المثال- شيخ الإسلام ابن تَيْمِية (ت ٧٢٨ هـ/١٣٢٨ م)، إنه

عارض فقهاء عصره في بعض القضايا الفقهية، فسُجن ولم يتزحزح عن مواقفه، وتوفّي في السجن، وقبل ذلك كان ملك التتار قازان هاجم دمشق سنة (٦٩٩ هـ)، ورغم شهرته بالبطش توجّه ابن تيمية إلى معسكره، وقال له عن طريق الترجمان مؤنّباً:

"قل لقازان أنت تزعم أنك مسلم، ومعك قاضٍ وإمامٌ وشيخٌ ومؤذّنون على ما بَلَغَنا، وأبوك وجدُّك كانا كافرَين، وما عملا الذين عملت، عاهدا فوَفَيا، وأنت عاهدت فغدرت، وقلت فما وفيت، وجُرْت "[1].

ولنأخذ مثالاً آخر من العصر الحديث، إنه بديع الزمان سعيد النُّورْسي- يقال: النَّوْرَسي أيضاً- (١٨٧٣ - ١٩٦٠م)، صاحب (رسائل النور) الشهيرة، والذي خرجت من عباءة فكره الأحزاب التركية الإسلامية المعاصرة، ففي عهد الرئيس التركي مصطفى كمال أتاتورك صدرت الأوامر بمنع ارتداء العمامة، ومنع الأذان بالعربية، وانصاع جميع علماء الدين في تركيا لتلك الأوامر، إلا النُّورْسي، إنه أصرّ على ارتداء العمامة، وعلى الأذان بالعربية، وتعرّض نتيجة لذلك للمضايقات والمحاكمات والنفي والسجن مراراً، بل هُدّد بالإعدام، ومع ذلك ظل متمسّكاً بموقفه إلى أن توفّي.

إن أول ما يُفهم من مقولة (عقل كردي) هو العناد، لكن العناد نوعان: عناد إيجابي، مستظلّ بالوعي المستنير، والثبات على الحق، وهو نقيض الزئبقية والانتهازية والخيانة. وعناد سلبي، وهو الجمود والعنجهية والتعنّت وعدم المرونة. فبأية دلالة من دلالات العناد شاعت مقولة (عقل كردي)؟ طبعاً يُفهم من السياقات التي تُطلق فيها أن المقصود هو النمط السلبي، والدليل على ذلك أن ثمة مقولة أخرى قريبة من مقولة (عقل كردي)، لكن السياقات التي تقال فيها تدل على أنها فضيلة وليست عيباً" نقصد مقولة (كِلْمة كردية)، فهي تقال في معرض تأكيد الوعد، وتثبيت العهد، والتزام الصدق، باعتبار أن الذاكرة الجمعية الغرب آسيوية عهدت في الكوردي أنه يلتزم بكلمته، ولا يحتاج الأمر معه إلى شهود ومواثيق.

لكن لماذا الكوردي حصراً، وليس غيره من خلق الله، ترك الانطباع في الذاكرة الجمعية الغرب آسيوية، بأنه عنيد ومتعنّت و(يابس الراس)؟ ألا يمكن أن تكون مقولة (عقل كردي!) واحدة من حلقات التحامل على الكورد التي بدأها كهنة الذهنيات الإمبراطورية الغرب آسيوية، منذ العهد الأكّادي؟ ألم يشطبوا اسم الكورد من السلالات الآدمية؟ ألم ينسبوهم إلى

---

١ - الإمام محمد أبو زهرة: ابن تيميّة، ص ١٨- ١٩.

الجن والعفاريت والشياطين والإماء الفاسقات؟ ألم يروّجوا أن الكورد قطّاع طرق ولصوص وأشرار؟ بل لماذا نذهب بعيداً؟ فمنذ عهد قريب، عمد خرّيجو الذهنيات الإمبراطورية إلى إحياء مشروع (أبلسة الكورد) في فيلم (الأرض الطيبة)، بصناعة تركية، وبتسويق من فضائية (mbc) العربية، فقدّموا الكورد إلى شعوب العالم على أنهم قطّاع طرق، ومهرّبو مخدّرات، ومتخلّفون ورجعيون، وشعب بلا قيم وبلا إيمان؟ فما قيمة مقولة (عقل كردي) إذا قيست بمنتَجات مشروع الأبلسة؟

ثانياً- تأثيرات الذهنية الريفية:

لا أستبعد أن تكون مقولة (عقل كردي!) جزءاً من مشروع أبلسة الكورد، وصحيح أنها من إنتاج الجماهير، والجماهير بشكل عام طيبة وبريئة، تصف ما ترى، وتتفاعل مع الحدث بعفوية، لكن من الذي أوصل الكورد إلى الوضع الذي أنتج في النهاية مقولة (عقل كردي) بدلالته السلبية؟ إنهم خرّيجو الذهنيات الإمبراطورية، لقد خلقوا المُناخ المساعد لإنتاج هذه المقولة، وذلك على محورين: الأول هو الإلحاح على الكوردي كي ينمسخ، فكان الكوردي عنيداً ولم ينمسخ. والثاني أنهم زجّوا بالقسم الأكبر من الكورد في دائرة ثالوث (الجبل- الرَّعَوية- القبلية)، حيث السيطرة الكاملة للجهل والتخلّف، وحالوا بينهم وبين التمدّن والتحضّر، وحرموهم من اكتساب الذهنية التجارية، فهيمنت عليهم الذهنية الرعوية الريفية، وهي ذهنية صالحة جداً لإنتاج العناد السليبي بدلالاته المذكورة.

ولا يخفى أن ذهنية التاجر غير ذهنية الراعي والفلاح، ولنأخذ حلّ المشكلات ميداناً لمعرفة الفارق بين الذهنيتين، فالمبدأ عند أهل المدن- وأغلبهم يمارس التجارة- هو حلّ المشكلات عن طريق الجهات القضائية. أما المبدأ عند الريفيين فهو حلّ المشكلات بالتطاحن والتقاتل، فتُشَجّ الرؤوس، وتُكسَر العظام، وتسيل الدماء، ويحلّ بعضهم ضيوفاً على السجون، ويرحل بعضهم إلى القبور. ولماذا اختلف المبدآن؟ لأن التاجر يتعامل مع منتجات الحضارة، مع البضائع، وكلّ بضاعة هي ثقافة، وهذا يعني أن التاجر يتعرّض لتطوير ثقافي مستمر، فيكتسب معلومات جديدة، ويتّسع أفقه المعرفي، ويتعمّق وعيه لنفسه وللعالم، فيتهذّب سلوكه، ويرتقي إدراكه من حصرية الخيار الواحد إلى رحابة الخيارات المتعددة.

وعدا هذا هل هناك تاجر- مهما كان مغفّلاً- يبيع بأقل مما اشترى، أو بمثل ما اشترى؟ وبتعبير آخر: هل هناك تاجر لا يفكر في الربح والخسارة إزاء ما يشتريه أو يبيعه؟ وهل هناك تاجر يصدّ الزبون من أول وهلة، ولا يمارس عملية المساومة؟ وماذا تعني عملية المساومة ضمناً؟ إنها تقوم على مبدأ (خذ وأعطِ)، وتنطلق من قاعدة (أمامي خيارات أخرى)، وتعني التفكير في النتائج (أأنا رابح أم خاسر؟)، إن المساومة هي بنت الذهنية البراغماتية، هي فن المداورة والمناورة، وكل مساومة هي معركة سلمية لطيفة، ولن يكون تاجراً حصيفاً ذلك الذي تجرّه تجارته إلى الخصومات، ومن ثَمّ إلى المشافي أو السجون.

أما الريفي فقد فرضت عليه مهنته أن يتعامل مع البهيمة وتقنيات العصر النيوليثي البدائية، ومعظم معلوماته تراوح مكانها قروناً عديدة، فيبتلى بضيق في الأفق المعرفي، وبتخلّف في الوعي، ومعظم الأحيان لا يجد بين يديه في المواقف الخطيرة إلا خياراً واحداً، أما مسألة التفكير في الربح والخسارة فتكون غائبة تماماً، إن سيّد الموقف حينذاك هو منهج Çi dibe bila bibe (ليكن ما يكن!)، ويسيطر عليه مبدأ Ya hebûn ya tinebûn، (إما أن أكون أو لا أكون!)، ولا ينسى بالطبع حكمته الأثيرة Dîkê rokê be û ne mirîshka salekê be (كن ديك يوم، ولا تكن دجاجة سنة).

ولم أدرك الفرق بين الذهنية التجارية والذهنية الريفية إلا بعد أن حللت في دولة الإمارات، فهناك التقيت بالتجار الفرس، فلاحظت أن التاجر الفارسي يحتفظ في الغالب بابتسامته طوال المساومة، ولا ينفعل ولا يثور مهما ألحت عليه، ويظل يناور إلى أن يبيعك البضاعة بالثمن الذي يريده، فتأخذه وأنت راض. وحينذاك كنت أتذكر التاجر الكوردي، فمساحة الابتسامة على وجهه محدودة، وهو في الغالب غير مستعد للمساومات الطويلة، ويقول لك مظهره: (لا تثرثر، إما أن تشتري أو تذهب)، وكنت أقول لنفسي: هل من العجب أن يخسر نخب ميديا دولة كبرى كانت قائمة، ويصنع نخب فارس إمبراطورية كبرى من لا شيء تقريباً؟

ثالثاً- النزعة العلمية:

نقصد بالنزعة العلمية الميل إلى التفكير العقلاني العلمي في الأمور، والإقبال على الملاحظة والتصنيف والترتيب والمقارنة والاستقراء والاستنتاج، وإدراك العلاقات بين الكليات والجزئيات، والتفسير المنطقي للوقائع، والصبر على متابعة التفاصيل ودراستها، وإخضاع

الأمور للتحليل العلمي، والربط بين الأسباب والنتائج، والبحث عن حقائق الأمور، والغوص في الأعماق، وعدم الاقتناع باليقينيات المبهمة.

وتظهر النزعة العلمية للعقل الكوردي في ميادين معرفية عدّة، ولنبدأ بمجال الدين، فالمعروف أن (التسليم) هو المبدأ السائد في المجال الديني، اتّباعاً لمقولة **"عليكم بدين العجائز"** أي الاعتقاد بطريق التقليد، وعدم البحث عن التبرير العقلاني، والملاحظ أن علماء الكورد لا يأخذون بهذه المقولة، وإنما ينزعون في الأمور الدينية إلى التبرير العقلاني والتفسير المنطقي، وقد ذكرنا ذلك في مبحث (ذهنية الكورد الدينية)، وأن محدّث العراق النور علي السُّوَيدي البغدادي أبدى استغرابه وامتعاضه من ذلك. وفي العصر الحديث نجد هذه الظاهرة واضحة في الفكر الديني للملا سعيد النورسي (بديع الزمان) وغيره، كما أنها واضحة في براعة فقهاء الكورد بعلم المَواريث، وهو علم قائم في الأصل على الرياضيات.

ومن الأدلة البارزة على النزعة العلمية عند المثقفين الكورد إقبالهم على التأليف في مجالات يغلب عليها الطابع العلمي" كالتاريخ، والتراجم والمعاجم، والجغرافيا، والفلك، والرياضيات، والطب، والفلسفة، والنقد الأدبي، فمن المؤرخين عزّ الدين ابن الأثير (ت ٦٣٠ هـ/١٢٣٣م)، وابن الأزرق الفارِقي (ت بعد ٥٧٧ هـ/١١٧١م)، وأبو الهَيْجاء (ت ٧٠٠ هـ/١٣٠١م)، وفي التراجم والمعاجم ابن خلِّكان (ت ٦٨١ هـ/١٢٨٢م)، ومجد الدين ابن الأثير (ت ٦٠٦ هـ/١٢١٠م)، وخير الدين الزِّرِكْلي (ت ١٩٧٦م)، ومن الجغرافيين ابن حَوْقَل النَّصِيبي (القرن ٤ هـ/١٠م)، وابن الفقيه الهَمَذاني (ت نحو ٣٤٠ هـ/٩٥١ م)، والملك أبو الفداء الأيوبي (ت ٧٣٢ هـ/١٣٣١م)، وفي الهندسة ابن الرَّزّاز عبد العزيز بن إسماعيل الجَزري، (ت ٦٠٢ هـ/ ١٢٠٥م)، وفي الفلك والرياضيات بدر الدين محمد بن محمد بن أحمد الغزال الدمشقي (ت ٩١٢ هـ/١٥٠٦م).

وبرز في مجال الطب أبو الفتوح أحمد بن السَّري الهَمَذاني (ت حوالي ٥٤٠ هـ)، وإبراهيم بن المُلاّ زين الدين الدمشقي المعروف بالجَمَل (ت ١٠٥٨ هـ)، وفي مجال الفلسفة وعلم المنطق محمد بن الجَهْم البَرْمَكي (كان حياً قبل سنة ٢١٨ هـ)، والسيف الآمدي (ت ٦٣٢ هـ)، ومن المخترعين زَين الدين الآمدي (ت ٧١٤ هـ/١٣١٤م)، وهو أول من صنع الحروف البارزة، وفي النقد الأدبي الحسن بن بِشْر الآمدي (ت ٣٧٠ هـ/٩٨٠م) صاحب كتاب (الوَساطة بين المتنبّي وخصومه)، وضياء الدين ابن الأثير (ت ٦٢٢ هـ/ ١٢٢٥م)، صاحب كتاب (المَثَل السائر في أدب الكاتب والشاعر)، بل الأعجب من هذا أن ديوان الشاعر الكوردي جميل صِدْقي الزَّهاوي

(ت ١٩٣٦م) عامر بالموضوعات الفلسفية والعلمية، وهذا ما لم نجد له مثيلاً في دواوين شعراء العربية في العصر الحديث.

رابعاً- قابلية الحضارة:

مر أن الذهنيات الإمبراطورية فرضت ثالوث (الجبل- الرعوية- القبلية) على المجتمع الكوردي، وشرّدته في متاهات الجهل والتخلّف، لكن مع ذلك كلما كان العقل الكوردي يحظى بالبيئة الثقافية والحضارية المناسبة- ولو في حدود ضيّقة- كان يستوعب بسرعة أمجديات التمدّن، ويتقبّل بنهَم ما يتطلّبه التحضّر من حرص على العمل الجادّ، وتفاعلٍ مع النظريات والأفكار العلمية، وتعاملٍ مع الجديد من الآلات والتقنيات والفنون. أما اندماج العقل الكوردي بما تتطلّبه حياة التحضر في الملبس والمسكن والمطعم والمشرب، ومن سلوكيات وآداب، فحدّث عنه ولا حرج.

ولا عجب في ذلك، فالشجرة تنهض على أصلها كما يقول المثل الكوردي Dar li ser kokê xwe radibe، وقد مر في المباحث الأولى من هذه الدراسة أن فجر الحضارة في غربي آسيا بزغ من جغرافيا أسلاف الكورد، ونذكّر بالمنجزات الحضارية التي نمت في ظل الوزراء البَرامكة خلال العصر العبّاسي الأول، وبالمنجزات الحضارية التي شهدتها كردستان الوسطى في ظل الدولة المروانية، وبالمنجزات الحضارية التي شهدتها مصر خاصة في ظل الدولة الأيوبية، وفي ظل أسرة محمد علي باشا، وبالمنجزات الحضارية التي شهدتها بلاد فارس في ظل الكوردي اللُّوري كريم خان زَنْد، وقد ذكرنا جميع ذلك في سلسلة (مشاهير الكورد في التاريخ) الإلكترونية (الحلقات: ٣، ١٢، ٢٠، ٣٢، ٤١). ودعونا الآن نستعرض بعض ما قاله الآخرون بشأن العقل الكوردي وقابلية التحضر.

قال جوناثان راندل:

"يؤكد بعض الباحثين أن سكّان جبال كردستان كانوا روّاد الزراعة منذ اثني عشر ألف سنة قبل الميلاد، وأنهم دجّنوا الماعز والخراف والخنازير، وزرعوا القمح والشعير والشُّوفان والجاودار والعدس، ويُعتقد بأن استخدام الأدوات النحاسية لأول مرة في التاريخ بدأ في الألف

السابع قبل الميلاد في منطقة دياربكر في كردستان تركيا، وبأن الأدوات البرونزية ظهرت في هذه المنطقة أيضاً في الألف الرابع قبل الميلاد"[1].

وقال باسيلي نيكيتين بشأن أسلاف الكورد في منطقة كوردوئين (شرقي تركيا حالياً، وكانت عاصمتها آمد):

"ومن الغريب أن نلاحظ أن سكان كورديي كانوا معروفين بكونهم معماريين ومهندسين عسكريين، وقد حارب الملك الأرمني تيگران الكورد، وساق حوالي خمسة وثلاثين ألف كردي مع جيشه لفتح الطرق، وبناء الجسور، وتنظيف الأنهار، وقطع أشجار الغابات، ولتنفيذ أعمال عسكرية أخرى"[2].

وقال باسيلي نيكيتين بشأن الكورد في العصر الحديث:

"كما أن استخراج النفط من منطقة كركوك يتمّ أيضاً بمساعدة الأيدي العاملة الكوردية. وقد أكد سُون قبل الحرب العالمية الأولى ... أن الكورد المستقرين في القسم الجنوبي من زاغروس (كَلْهُر، باجَلاّن، جاف) أثبتوا قابلية طبيعية لممارسة الأعمال الميكانيكية في شركات النفط (شركة النفط الإنكليزية- الإيرانية) التي باشرت أعمال التنقيب في أطراف قصر شَيرِين. وقد استخدمت الشركةُ المذكورة العمالَ الكورد في أعمال حفر آبار النفط، وفي الأعمال الميكانيكية، فأثبتوا خلال ممارستهم لتلك الأعمال مهارة فائقة، حتى إن الشركة المذكورة عندما نقلت نشاطاتها إلى الجنوب الغربي من إيران، طلبت من العديد منهم الانتقال معها إلى المناطق المذكورة. وكما يقول سون لقد أثبتوا أنهم أكثر تفهّماً واستعداداً لتطوير أنفسهم من العمال الآخرين، وأظهر العديد منهم جدارة ومهارة فائقتين في ميادين العمل التكنيكي، إنهم جدّ منظّمين وهائلين، لا يصيبهم الكَلل، ويُبدون استعداداً عجيباً للعمل، ويمكن القول بحق: إنّ العمّال الكورد في كركوك وُفّقوا في استخدامهم لأعمال استخراج النفط"[3].

---

١ - جوناثان راندل: أمة في شقاق، ص ٣٤.

٢ - نيكيتين: الكرد، هامش ١٢، ص ٥٤.

٣ - المرجع السابق، ص ١٢١.

خامساً – نزعة التجديد:

من السمات البارزة في العقل الكوردي خروجه على النمطية، ونزوعه إلى التجديد والإبداع، بل إن هذا النزوع يصل إلى حد التمرد والثورة على الحالة القائمة أحياناً، وهذه الظاهرة ملموسة في مجالات عديدة، ومن الأمثلة عليها أن الموسيقي الكوردي زِرْياب (ت نحو ٢٣٠ هـ/٨٤٥م) أول من زاد على آلة العود وتراً خامساً متوسطاً، فصار به العود ألطَفَ نغماً وأكمل فائدة. وهو الذي اخترع بالأندلس (إسبانيا) مِضْراب العود من ريش مقدّمة جناح النسر، بدلاً من الخشب الرقيق، للطف قشر الريشة ونقائه وخفّته على الأصابع، وعدم إضراره بالوتر، وأبدع زرياب في إبداع الألحان، حتى توهّم أن الجن هي التي تعلّمه[1].

أما في العصر الحديث فكان الشعراء والأدباء الكورد سبّاقين إلى التجديد، إن أمير شعراء العرب في العصر الحديث أحمد شوقي (١٨٦٨ - ١٩٣٢ م) أوّل من ابتكر الشعر المسرحي في الأدب العربي، وألّف في هذا المجال مسرحيات عديدة، منها (مصرع كليوباترا)، و(مجنون ليلى)، و(قَمْبيز)، و(علي بك الكبير). ويعدّ الأخوان محمد تَيْمور (١٨٩٢- ١٩٢١م)، ومحمود تيمور (١٨٩٤ - ١٩٧٣م)، ولدي الأديب المفكر أحمد تيمور (١٨٧١ - ١٩٣٠م)، من أوائل كتّاب فن القصة القصيرة والرواية والمسرحية في مصر. ومن قصص محمد تيمور ومسرحياته: (العصفور في القفص)، و(عبد الستّار أفندي)، ولمحمود تيمور عدد كبير من القصص والروايات والمسرحيات، منها قصة (الشيخ جمعة)، وقصة (رجب أفندي)، ورواية (الأطلال)، ومسرحية (عروس النيل)، ومسرحية (كذب في كذب).

وإنه لمما يلفت الانتباه أن يكون رائد الشعر الحر في الأدب العربي الحديث كردياً أيضاً، إنه الشاعر العراقي بُلُنْد الحيدري (١٩٢٦ – ١٩٩٦م)، لكن لعنة تغييب الكورد عن مسرح التاريخ لحقته، وروّج صانعو هذه اللعنة وحماتها في المقالات والكتب النقدية أن ريادة الشعر الحر كانت لكل من نازِك الملائكة، وبدر شاكر السَّيّاب، وعبد الوهّاب البَيّاتي، وكانت الشاعرة

---

١ - المِقَّري: نفح الطيب، ١٢٧/٣. زيغريد هُونگه: شمس العرب تسطع على الغرب، ص ٤٨٨. الزركلي: الأعلام، ٢٢٨/٥.

نازك الملائكة أول من جنت على بلند في هذا المجال، إذ نسبت الريادة لنفسها، ثم للسيّاب، إلا أن السيّاب عارضها، وأقرّ لبلند الحيدري بالريادة[1].

ولم يترك الأستاذ محمد إبراهيم عوض شكاً في ريادة بلند للشعر العربي الحر، واستغرب حرص ذوي الذهنية الإقصائية على تجريد بلند من حق الريادة، وإلصاق تهمة الشعوبية به، وفي مقدمتهم شاعر تركي الأصل يدعى (عزت هيجد)، ونقل الأستاذ محمد إبراهيم عوض عن الشاعر المصري الشهير فاروق شُوشَة قوله:

"لا أدري حتى الآن لماذا اعتاد الذين يتكلّمون عن حركة التجديد الشعري في العراق- بدءاً من أوائل الخمسينيات- أن يتوقّفوا عند أسماء نازك الملائكة، وبدر شاكر السَّيّاب، وعبد الوهّاب البَيّاتي، وأن يُسقطوا- عمداً لا سهواً- اسم بلند الحيدري، وكأنه لم يشارك في صنع اللحظة التاريخية التي شهدت ميلاد قصيدة الشعر الجديد، الشعر الحر، شعر التفعيلة"[2].

سادساً - نزعة الإصلاح والثورة:

إن ما يثير الاستغراب أن الأدباء والشعراء والمفكرين الكورد اقتحموا بجرأة ثلاثة حقول مليئة بالألغام، كما يقال باللغة العسكرية، وتلك الحقول هي: حقوق المرأة، والدين، والسياسة، وكان مجرّد الاقتراب منها يعدّ من المحرّمات في أوائل القرن العشرين، بل كان من يدخل تلك الحقول يعرّض نفسه للاضطهاد، وربما للموت أيضاً.

١ – الدفاع عن المرأة: المعروف أن المرأة الشرقية المسلمة كان محكوماً عليها- وفق التقاليد طبعاً- بالجهل، والكفّ عن المشاركة في الحياة الثقافية والاجتماعية والوطنية، وكان أنصار هذا التيّار- وما زالوا- يغلّفون توجّهاتهم بلبوس ديني، الأمر الذي كان يزرع الرعب في قلب كل من تحدّثه نفسه بالخروج عليها، والوقوف ضدّها، والغريب أن العقل الكوردي كان المبادر إلى مواجهة هذا النهج ومقارعته، في وقت كان فيه أغلب المثقفين يلتزمون الصمت.

ففي مصر كانت الفتاة الكوردية عائشة التَّيْمورية (١٨٤٠ - ١٩٠٢م)، أخت الأديب المفكر أحمد تيمور، سبّاقة إلى حمل لواء الدعوة لتحرير المرأة من الجهل والتخلف، وكانت تنظم الشعر بالعربية والتركية والفارسية، وتُنشد شعرها على مسامع أبيها إسماعيل باشا، فكان يُثني عليها ويشجّعها، ولها مقطوعات كثيرة في الغزل، وهي أول امرأة مصرية تنشر ديوان

---

١ - عايدة كنعان الملحم: بلند الحيدري في الشعر العربي المعاصر، ص ٢٣ – ٢٤.

٢ - محمد إبراهيم عوض: الصورة والإيقاع في شعر بلند الحيدري، ص ١١.

شعرها، كما أنها ألّفت روايات تمثيلية، ونشرت المقالات في الصحف، ودعت إلى مشاركة المرأة للرجل في الأعمال، وألقت بمسؤولية تأخر المرأة على الرجل، وفي الوقت نفسه وجّهت اللوم إلى المرأة" لمبالغتها في الاهتمام بأمور الزينة، وانصرافها عن القيام بواجباتها الاجتماعية والوطنية، وهي أول سيّدة مصرية تخلّت عن ارتداء النِّقاب، وبدت سافرة الوجه في حضرة العلماء وكبار أدباء زمانها، وصفوة شعرائه[1].

وبعد عائشة التيمورية، حمل لواء الدفاع عن حقوق المرأة المفكر الكوردي المصري قاسم أمين (١٨٦٣ - ١٩٠٨ م)، وكان قد درس الحقوق في فرنسا، وعمل في سلك القضاء بمصر، ولذلك دخل ميدان الدفاع عن المرأة بفكر متّقد، وبحجّة أقوى، وألّف في هذا المجال كتابين، أولهما كتاب (تحرير المرأة)، والثاني كتاب (المرأة الجديدة)، طالب فيهما بإعادة النظر في تربية المرأة، وانصبّ اهتمامه على قضايا الحجاب، وتعددّ الزوجات، والطلاق، ودعا إلى تحرير المرأة مما تعانيه من مظالم باسم الدين والعادات، وأكّد على ضرورة الجمع بين تربية المرأة على الفضائل، ومنحها الحرية للمساهمة في بناء المجتمع، ونتيجة لذلك أصبح عرضة لخصومات قادة الفكر الرجعي، فسلّطوا عليه الغوغاء، حتى إنهم كانوا يشتمونه في الشارع، وكان بعضهم يطرق باب داره، فإذا خرج مستفسراً شتموه، وقالوا له: ألست تدعو إلى حرية المرأة؟! فلتسمح لزوجتك بالخروج معنا إذاً[2].

وإذا كان قاسم أمين ناضل في سبيل حقوق المرأة بفكره، فقد ناضل عنها شاعران كرديان شهيران بأشعارهما، الأول هو أحمد شوقي في مصر، إنه وقف في قصيدة له ضد ظلم الرجال للنساء، وندّد بزواج كبار السن من الصبايا، قائلاً:

ظلمَ الرجـالُ نساءَهمْ، وتعسّفوا
هل للنسـاء بمصرَ مِن أنصارِ؟!
يتزوّجون على نســاءٍ تحتهمْ
لا صاحبـاتُ بَغيٍ، ولا بشِرار
مِـن كلّ ذي سبعين، يكتُم شيبَه

---

١ - أدهم آل جندي: أعلام الأدب والفن، ٢/ ٥٢٥ – ٥٢٨. الزركلي: الأعلام، ٣/ ٢٤٠. عمر رضا كحّالة: معجم المؤلفين، ٥/ ٥٥.

٢ - الزركلي: الأعلام، ٥/ ١٨٤. عمر رضا كحّالة: معجم المؤلفين، ٨/ ١١٤. وللمزيد حول آراء قاسم أمين حول المرأة انظر: محمد عمارة: قاسم أمين. وداد سكاكيني: قاسم أمين.

والشيبُ في فَوْدَيه ضوءُ نهارِ[1]

والشاعر الكوردي الآخر هو العراقي جميل صِدْقي الزَهاوي، ويبدو أنه كان يقف بقوة ضد الظلم الواقع على كاهل المرأة، والدليل على ذلك أن المعادين لحقوق المرأة وقفوا ضده بصرامة، وكالوا له الشتائم، بل هدّدوه بالقتل أيضاً، وقال مستنكراً فرض النِّقاب على المرأة ، وكان يسمّى (الحِجاب):

هكذا المسلمون في كلّ صَقْعٍ
حجبوا للجهـــالة المسلمات
سجنوهنّ في البيــوت، فشلّوا
نصفَ شعبٍ يَهُــمّ بالحركاتِ
إنّ هذا الحجاب في كلّ أرضٍ
ضررٌ للفتيـــان والفتـيات
لم يكن وضعُه من الدين شيئاً
إنما قد أتى مــن العـاداتِ[2]

٢ – الإصلاح الديني: دخل العقل الكوردي، في العصر الحديث، حقل الإصلاح الديني بقوة، وكان- وما زال-حقلاً محفوفاً بالمخاطر، وخاصة بعد أن رسّخ الحكم العثماني في العقول ثقافة الاستبداد والتخلّف، حتى إن كل مطالب بالتجديد الاجتماعي والسياسي كان يُصنَّف في خانة العداء للإسلام، ومحاربة الله ورسوله، وكان من الطبيعي- والحال هذه- أن يكون عدد من جهروا بالإصلاح الديني والسياسي قليلاً، وكان اثنان من أبرز قادة الإصلاح حينذاك كرديان، الأول هو المفكر السوري **عبد الرحمن الكواكبي** (١٨٥٢ – ١٩٠٢م)، والثاني هو المفكر المصري **الشيخ محمد عبدُه** (١٨٤٩ - ١٩٠٥م)، وسبق أن كتبت عن الكواكبي في الحلقة (٥٦) من سلسلة (مشاهير الكورد في التاريخ) الإلكترونية. أما الشيخ محمد عبدُه فأشهر من أن أسوق الأدلة على جهوده الإصلاحية في مجال الدين، وهو القائل قُبيل وفاته:

---

١ - أحمد شوقي: الشوقيات، ١٢٩/١ – ١٣٠. والفَوْدان: شعر جانبي الرأس.

٢ - جميل صدقي الزهاوي: ديوانه، ص ٣١٦، ٣١٩، ٣٦٧.

ولستُ أُبالي أنْ يقـــال: محمّدٌ
أَبَلّ، أم اكتظّت عليه المـــآتمُ؟
ولكنّ ديناً قـــد أردتُ صلاحَهُ
أُحاذِر أن تقضي عليه العمائم!

٣ – الانقلابات السياسية: العقل الكوردي نزّاع إلى الثورة في حقل السياسة أيضاً، فهل من الصدفة أن يكون قائد أول انقلاب عسكري في الشرق الأوسط هو الكوردي الفريق بَكر صِدْقي (١٨٨٥ – ١٩٣٧م)، قائدَ الانقلاب العسكري في العراق سنة (١٩٣٦م)؟ وهل من الصدفة أن يكون قائد أول انقلاب عسكري في سوريا، سنة (١٩٤٩م)، هو الكوردي المشير حُسْني الزَّعيم (١٨٩٧ – ١٩٤٩م)؟ وهل من الصدفة أن يكون قائد أول انقلاب عسكري في تركيا، سنة (١٩٦٠م)، هو الكوردي الجنرال جمال غُورْسَيل؟ وقد دفع الثلاثة حياتهم ثمناً لما قاموا به.

قول على قول:

ولعل قائلاً يقول: إن الأعلام الكورد الذين استشهدت بهم، بشأن سمات العقل الكوردي، هم من خرّيجي الثقافة العربية، وظهرت إبداعاتهم في جغرافيا غير كردية، وعاشوا في مجتمعات غير كردية، أفلا يعني ذلك أن الفضل للثقافة التي نهلوا منها، وللبيئة الاجتماعية التي عاشوا فيها، وليس للعقل الكوردي حسبما يُفهم من العنوان؟

أقول: هذا صحيح جداً، وهو ليس دليلاً على قصور في بنية العقل الكوردي، بل إنه برهان يؤكد قدرة العقل الكوردي على الإبداع بمجرد أن تتاح له البيئة الملائمة. وإذا كان العقل الكوردي قادراً على التفاعل مع العلوم، وعلى الإبداع، بلغات غير الكوردية، وفي بيئات غير كردية، فكم كانت ستكون نسبة تفاعله إذاً لو كانت لغته الأم- اللغة الكوردية- مدخله إلى المعرفة، ولو توافرت له المؤسسات الثقافية الكوردية المناسبة؟

ثم من المسؤول عن الجدب الذي حاق بالعقل الكوردي في بلاد الكورد؟ أليست الذهنيات الإمبراطورية هي التي حكمت على الكورد بالأسر في قبضة ثالوث (الجبل- الرعوية- القبلية)؟ وهل تركت تلك الذهنيات خياراً أمام الكوردي سوى أن يكون راعياً متخلّفاً، أو فلاّحاً مغفَّلاً، أو مرتزقاً ممسوخاً، أو عتّالاً، أو كنّاساً، أو ماسح أحذية، أو ثائراً معتصماً

بالجبل؟ وهل يمكن لأناس في هكذا أوضاع، وأُبعدوا عن شواطئ الحضارة، وزُجّ بهم في العصر النيوليثي، أن يُبدعوا ثقافة وينتجوا حضارة؟

إنني ألمح في العقل الكوردي شبهاً بالعقل اليوناني القديم، العقل الذي أنتج أفلاطون بنزعته الفلسفية المثالية، وأنتج أرسطو بنزعته الفلسفية العلمية المادية، وأنتج تيارات فلسفية أخرى بين هذا وذاك، ولا ننس في الوقت نفسه التشابه في البيئة الجبلية والذهنية السياسية بين الشعبين (قيام دول- المدن، رفض حكم الطاغية)، لكن انفتاح بلاد اليونان على البحر أتاح لليونانيين الاندماج في حركة السياسة والتجارة العالمية، وأتاح للعقل اليوناني التفاعل مع المعطيات الحضارية المتجددة.

أما الكورد فحكمت عليهم البيئة الكوردستانية- وهي بيئة غير بحرية- بالعزلة الطويلة عن تيّارات الحضارة، ثم ابتلوا بمشاريع القمع والتجهيل والصهر، فكُبِتت قدرات العقل الكوردي، وحيل بينه وبين الازدهار الطبيعي الحر، ولا ننس أن العقل اليوناني نفسه خسر توهّجه وتراجع، عندما وقع في قبضة الذهنيات الإمبراطورية" كالاحتلال المقدوني والاحتلال الروماني، وأعتقد بقوة أن منطقة غربي آسيا خسرت الكثير بلجم العقل الكوردي وقمعه، وتركه أسير الذهنية الرعوية الريفية.

١٤

سيكولوجيا الكورد: المزاج والحس الجمالى

الثقافة المستترة:

ذكر عالم النفس الأمريكي رالْف لِنْتُون أن الثقافة تتضمن على الأقل ثلاثة عناصر: العنصر المادي، وهو الإنتاج الصناعي. والعنصر الحركي، وهو السلوك الظاهر. وأخيراً العنصر النفسي" أي الظواهر النفسية التي تكوّن المظهر المستتر أو الباطن من الثقافة، وسمّاه (الثقافة المستترة) Covert Cultural[١].

وبحثنا في سيكولوجيا الكورد هو بحث في (الثقافة المستترة)، وصحيح أننا لن نُخضع الشخصية الكوردية لنظريات علم النفس الحديث، لكن لن نرمي إرث علم النفس خلف ظهرنا، وسنفسر على ضوئه بعض الظاهرات السيكولوجية في الشخصية الكوردية، معتمدين على الشواهد المستقاة من الواقع، وعلى الملاحظات الميدانية. وسنركّز، في إطار (الثقافة المستترة)، على عنصرين سيكولوجيين" هما المزاج والحس الجمالي.

أما المزاج فهو **"مجمل الحالة الانفعالية في الشخصية التي تمثّل المشاعر، والانفعالات، والحالات النفسية، والأحاسيس، والمواقف"**[٢]. وقد أرجعت مارغريت ميد معظم الفوارق في المزاج بين الجماعات السلالية **"إلى عمليات التربية الثقافية والاجتماعية الخاصة بكل ثقافة"**[١].

---

١ - نخبة من الأساتذة: معجم العلوم الاجتماعية، ص ٢٠١.

٢ - آشيلي مونتاغيو: الدحض العلمي لأسطورة التفوّق العرقي، ص ٩٩.

١ - المرجع السابق، ص ١٠٠.

وبما أن المزاج جزء جوهري من الشخصية، فإنه يرجع إلى العناصر الأساسية الأربعة المساهمة في تكوين الشخصية (الجينات، بيئة التكوين، الثقافة، التحدّيات).

وأما الحس الجمالي فسنتناوله في إطار الوعي الجمالي السائد في الوسط الكوردي، وسنركّز على بعض الموضوعات الجمالية التي ينجذب إليها الكورد، مثل الطبيعة، والألوان، وسنتّخذ هذه الموضوعات منصّة ننطلق منها إلى استشراف القيم الجمالية المتجذّرة في الوعي الجمعي الكوردي، وسيكون من المفيد أن نستكشف علاقتها بالبنى العميقة في بيئة التكوين والميثولوجيا. وثمة رغبة تشدّنا إلى التنقيب عن مسارات الرؤية الجمالية الكوردية، والبحث في ما يمكن تسميته (أسس فلسفة الجمال عند الكورد)، لكننا نكبح تلك الرغبة الآن" إذ نعتقد أن المعطيات المتوافرة لدينا غير كافية للنهوض بمشروع كبير ومهم كهذا. ودعونا نبدأ رحلتنا مع أبرز خصائص سيكولوجيا الكورد.

أولاً – الهدوء والوقار:

يغلب على الكوردي اتصافه بالهدوء والرزانة والوقار، إنه لا يميل إلى الصخب والضجيج، بل ينفر منها في الغالب، ومن أبشع الصفات التي يُطلقها المجتمع الكوردي على الشخص الصخّاب- امرأة كان أم رجلاً- صفةGewezе (ثرثار)، وألمح علاقة وثيقة بين صفات الهدوء والرزانة والوقار من جانب، وصفة الجدّية من جانب آخر، ومن الضروري التمييز بين الهدوء والجمود، فهدوء الشخصية الكوردية ليس جموداً ولا كسلاً، وإنما هو رزانة وجدّية، وصرامة وانضباط ذاتي، ولا تخفى علاقته المباشرة مع الروح الحربية في الشخصية الكوردية.

ولا يلمس المرء ظاهرة الهدوء والرزانة والوقار في الشخصية الكوردية إلا إذا انتقل من بيئة اجتماعية كردية إلى أخرى أو العكس، وقد فعل دبليو آر حاكم أربيل الإنكليزي بين سنتي (١٩١٨ – ١٩٢٠ م) ذلك، وقال:

"كان مما يروّح عن النفس أحياناً أن أغادر مجلس أكراد، إثر الجلوس فيه لساعات، والقوم على حال من الصمت والاحترام، إلى أحد خيام الجُبور[١]، حيث تتلقّفني أيدٍ عديدة، وتُجلسني

١ - الجبور: قبيلة عربية مواطنها متاخمة للكرد.

في حلقة تُطيف بنار موقدة، في مجلس ليس فيه كبير وليس فيه صغير، والكل يتكلمون مرة واحدة، ويسودهم الحبور الساري، ويتعالى منهم الضحك المدوّي" إن الكوردي أرستقراطي متيقّن"[1].

ثانياً – خَصلة اللاقناع:

القناع مصطلح سيكولوجي، يُقصَد به **"تلك الجوانب التي يُظهرها الشخص للعالَم، أو التي يفرضها الرأي العام على الفرد في مقابل الشخصية الخاصة، والتي توجد قابعة خلف الوجهة الاجتماعية... وإذا توحّد الأنا بالقناع، وهو ما يحدث كثيراً، فإن الشخص... يصبح بعيداً عن ذاته مغترباً عنها، وتتّسم شخصيته بأسرها بكيف سطحي أو ذي بعدين، إنه يصبح مجرد شبيه بالإنسان، وانعكاساً للمجتمع أكثر من أن يكون كائناً بشرياً له استقلاله الذاتي"**[2].

ويُفهم مما سبق أن الشخص (المقنَّع) سيكولوجياً هو ذاك الذي يقال له (المُنافق) على الصعيد الديني، ويقال له (ذو الوجهين) و(المُرائي) و(المتقلِّب) على الصعيد الاجتماعي، ويقال له (الپراغماتي) على الصعيد السياسي، إنه الشخص القادر على إخفاء شخصيته الحقيقية، والظهور أمام الآخرين بالشخصية التي توافقهم وتُرضيهم، وباختصار: إنه الشخص الذي يجيد القيام بدور (الممثِّل)، ويمتلك المرونة الكافية لأن يُظهر غير ما يُضمر، ويقول غير ما يؤمن به، ويؤمن بغير ما يقول.

ويبدو لي، من خلال ملاحظاتي الشخصية، أن الكوردي يعيش على الغالب بلا (قناع)، وهو لا يجيد في الأصل استخدام الأقنعة، وإذا فعل ذلك فإنه يحمّل نفسه ضغطاً نفسياً هائلاً، ويعيش صراعاً ضارياً مع نفسه، وسرعان ما يفضح نفسه" لأنه يدخل مجالاً لا خبرة لها فيها، ويقوم بدور هو غير مؤهّل للقيام به، وأعتقد أن حاكم أربيل الإنكليزي دبليو آر بنى رأيه على هذه الحقيقة حينما قال: **"ما إن يبدأ الكوردي بالحَلْف فما عليك إلا أن تنأى عن تصديقه"**[1].

---

١ - دبليو آر . هي: مذكرات دبليو آر، ص ٤.

٢ - كالڤين هول، جاردنر ليندزي: نظريات الشخصية، ص ١١٦.

١ - دبليو آر . هي: مذكرات دبليو آر، ص ٩٥.

وأعتقد أن خَصلة (اللاقناع) هذه جرّت على الكورد، عبر التاريخ، كثيراً من المتاعب والخسائر، وخاصة على الصعيد السياسي، بل أرجّح أنها كانت من جملة الأسباب التي أوصلت الكورد إلى ما هم فيه، قياساً بالأمم الأخرى" إذ في الوقت الذي يكون فيه الخصم- محارباً كان أم مفاوضاً- قد قرر استخدام كذا قناع، يتعامل معه الكوردي على نحو مكشوف، وبلا أيّ قناع، والأكثر خطورة في هذا المجال هو اعتقاد الكوردي، في الوقت نفسه، أن الخصم أيضاً يتعامل معه من غير قناع، ولعلي قلت سابقاً، وأقول ثانية وثالثة: ما يربحه الكوردي في ميادين القتال يخسره- كلياً أو جزئياً- في دهاليز السياسة، لأن السياسة في العالم القديم والمعاصر هي، في شطر كبير منها، فن استخدام الأقنعة.

ثالثاً – الحدّة وسرعة الغضب:

السمت العام للشخصية الكوردية هو الهدوء والرزانة كما مر، والكوردي صبور على الأذى، يتألم في صمت، هكذا علّمته الجبال، لكن إذا طَفِح الكيل، وشعر الكوردي أنه يواجه مشهداً من عالم اللامعقول، أو إذا تعرّض للعدوان تلميحاً أو تصريحاً، وأصبحت الكرامة في الميزان، فعندئذ تنقلب الأمور رأساً على عقب، ويتحوّل الهدوء إلى زوبعة انفعالية عاتية، ويثور ثورة جامحة، من غير أن يُلقي بالاً إلى العواقب، ويبدو وكأنما جُنّ جنونه" منساقاً في ثورته مع نزعة çi dibe bila bibe (ليكن ما يكن!).

وقد لوحظت هذه الظاهرة في شخصيات بعض مشاهير الكورد، منهم- على سبيل المثال- الشاعر المغنّي جَحْظَة البَرْمَكي، فقد عُرف عنه أنه كان يقابل الإساءة بالصفح والغفران، لكن سرعان ما كان يستشيط غضباً ويثور إذا شعر أن كرامته قد جُرِحت، وكان عندئذ يُرى منه العجب، ومنهم أيضاً شيخ الإسلام ابن تيمية، فقد وصفه الحافظ الذهبي بأنه كانت **"تعتريه حدّة، لكن يقهرها بالحلم"**[1].

---

١ - ابن حَجَر العَسْقَلاني: الدُّرَر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، ١٥١/١.

ويبدو أن ظاهرة حدّة الطبع أصبحت من سمات الشخصية الكوردية، وبها صار الكورد يُعرفون، حتى إن العلاّمة المصري محمد أبو زَهْرة رجّح نسبة ابن تَيْمِية إلى الكورد معتمداً على ظاهرة حدّة الطبع، فقال:

"ولعله كان كردياً، وهم قوم ذوو همّة ونجدة وبأس شديد، وفي أخلاقهم قوة وحِدّة، وإن تلك الصفات كانت واضحة جليّة فيه مع أنه نشأ في دَعَة العلماء، واطمئنان المفكرين وهدوء المحقّقين"[1].

وفي العصر الحديث لاحظ من خالط الكورد ظاهرة حدّة الطبع فيهم، قال باسيلي نيكيتين: **"يتّصف الكوردي أيضاً بحدّة طبعه وفورانه المفاجئ، وتلك صفة ناتجة عن ذاته المضطربة المليئة بالمفاجآت، ولكنه في الوقت نفسه يتمتع بروح المرح والدُّعابة إلى أقصى الحدود، وهو على استعداد لأن يروي لك غرائب عن طبعه الحادّ"**[2]. وقال نيكيتين أيضاً: **" طبيعة الكورد الحادّة الثائرة تسير جنباً إلى جنب مع شجاعتهم وبسالتهم"**[3].

وقال حاكم أربيل الإنكليزي دبليو آر: **"والكورد جميعاً ذوو مزاج عنيف، ويمكن إثارته على أشد وجه، وعلى حين غِرّة، ... وإنه ليجنّ جنونه لدى رؤية الدماء"**[4]. ونتحفّظ على كلمة (جميعاً)، ولعل الكاتب يقصد بها (بشكل عام). وقال الصحفي جوناثان راندل واصفاً الكورد: **"وهم يستحقون أن يُعجَب بهم المرء، وأن يحبّهم" لما يتمتّعون به من دفء ومرح وشجاعة وسحر، ولما يتميّزون به من فورات عنف غير متوقّعة في عالمنا المعاصر"**[5].

ويمكن للكردي وهو مهتاج أن يرتكب أية حماقة، سواء ضد غيره أم ضد نفسه" إذ إنه يدخل في حالة غياب عقلي، ولا يستطيع السيطرة على نفسه، وقد وصف مينورسكي هذه الظاهرة قائلاً:

---

١ - الإمام محمد أبو زهرة: ابن تيمية، ص ١٨- ١٩.

٢ - باسيلي نيكيتين: الكرد، ص ١٣٧.

٣ - المرجع السابق، ص ١٤٣.

٤ - دبليو آر . هي: مذكرات دبليو آر، ص ٨٠.

٥ - جوناثان راندل: أمة في شقاق، ص ٥١.

"الأكراد عصبيون للغاية، يقول سون في هذا الصدد: سار عدد من الرجال في الطريق، وكانوا يتجادلون فيما بينهم حول جهة شروق نجمة الشِّعْرى في السماء، وقبل أن تشرق النجمة الناصعة كان اثنان أو ثلاثة منهم يسبحون في دمهم"[1].

وإن هيجان الكوردي الحادّ والانفجاري يولّد خشونة في السلوك، تتحوّل أحياناً إلى قسوة، وخاصة عند فئة العامة، وقد ورد التعبير عن خشونة الكوردي في مصادر التراث الإسلامي بثلاث صيغ:

١ - صيغة **"قَوْمٍ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ "** القرآنية الواردة في (سورة الفتح، الآية ١٦)، وجعلها بعض مفسّري القرآن صفة للكرد (انظر مبحث: الروح الحربية في الشخصية الكوردية).

٢ - **والثانية** صيغة (غِلْظة)، فقد قال اليَعْقوبي (ت ٢٨٤ هـ /٨٩٧م) في معرض حديثه عن موقع بغداد، مقارناً إيّاها بمناطق الجبال الكوردية، وكانت تسمّى في مصادر التراث الإسلامي (الجبل/الجبال/إقليم الجبل): **"ولا كمثل كُوَر[2] الجبل الحَزِنة الخَشِنة المُثلَجة، دار الأكراد الغليظي الأكباد"**[3].

٣ - **والثالثة** صيغة (فَظاظة، جفاء)، فقد قال المسعودي (ت حوالي ٣٤٥ هـ/٩٥٦م)، موضّحاً العلاقة بين صفات العرب وبيئتهم: **"ولذلك جانَبوا فظاظة الأكراد وسكان الجبال من الأجيال الجافية..." وذلك أن هذه الأمم الساكنة هذه الجبال والأودية تناسب أخلاقها مساكنها في انخفاضها وارتفاعها، لعدم استقامة الاعتدال في أرضها، فلذلك أخلاق قُطّانها على ما هي عليه من الجفاء والغِلظ "**[4].

وأحسب أن اليعقوبي والمسعودي جارا في هذا الحكم العام على الكورد، وتصنيفهم جميعاً في خانة (الجفاء والفظاظة والغِلْظة)، ويبدو أنهما ابتلعا الطُعم الذي أعدّه الناشطون في مشروع أبلسة الكورد، أولئك الذين كانوا يديرون حملة إعلامية ضخمة ضد الكورد تقوم على مبدأ **"غيِّبوا المآثر، وضخِّموا الصغائر"**. وأحسب أنهما وقعا أيضاً في شباك الجهات الحاكمة الناقمة على الكورد، بسبب تمرداتهم وثوراتهم، وترحيبهم في ديارهم بالثائرين من غير الكورد، وكي

---

١ - مينورسكي: الأكراد، ص ٧٠.

٢ - الكُوَر: جمع كُورَة، وهي المنطقة.

٣ - اليعقوبي: البلدان، ص ٢٣٦.

٤ - المسعودي: مروج الذهب، ١٢١/٢.

ندرك منطلقات اليعقوبي والمسعودي، يكفي أن نعرف أن واحدة من أكبر الثورات وأخطرها على الخلافة العباسية في القرن (٣ هـ/٩ م)، وهي ثورة بابك الخُرَّمي، كانت تتمركز في جبال الكورد، ثم لماذا نذهب بعيداً؟ فها هم الكورد يوصَمون الآن بـ (الإرهاب)، من قِبل دول تعتنق الديمقراطية، لمجرد أنهم لا يستسلمون لمشاريع الانسخ والانصهار، فهل من العجيب أن يوصَموا قديماً بالجفاء والفظاظة والغلظة؟

رابعاً – النزعة الإشراقية:

الكورد- في الغالب- ذوو نزعة إشراقية، إنهم يُقبِلون على الحياة بحماس، ولا يتقبّلون روح الانقباض التي تشيعها بعض التوجّهات الدينية المتزمّتة في النفوس، ولا ينظرون إلى الحياة بكآبة وسوداوية، رغم أن المآسي التي انهمرت عليهم كانت مُرّة جداً، وكانت كافية لأن تحطّمهم نفسياً، وتوصلهم إلى إحدى حالتين: إما مهزومين منكفئين على أنفسهم انكفاءً استسلامياً تشاؤمياً. وإما مهتاجين عدوانيين، حاقدين على العالم أجمع، لا يريحهم ولا يهدّئهم إلا مناظر الدماء والأشلاء. وأعتقد أن ثمة عاملين جوهريين ساعدا الكورد على الاتصاف بالنزعة الإشراقية.

١ - **العامل الأول:** هو التواصل الطويل مع الطبيعة البكر، ومع قيم الصلابة المستوحاة من بيئة التكوين الجبلية. إضافة إلى قيم النقاء والطيبة المستمدة من أخلاقيات العهد النيوليثي.

٢ - **والعامل الثاني:** هو الميثولوجيا الكوردية، فالروح الغالبة عليها هي روح الإشراق، ولا تبدو الرموز الميثولوجية كئيبة مرعبة، فقد جاء في الأڤستا: **" نعبد آهورا مازدا المشرق الخيّر"**[١]. ويتكرر في الأڤستا التركيز على السعادة، مثل:**" فلْنصلِّ بسعادة... لكي يكون أهورا مازدا والمقدسون الخالدون سعداء / أصلّي لأجل السعادة"**[٢]. **" بكل سرور أصلّي باسطاً يديّ نحو مازدا"**[٣]. **" عندما تشرق الشمس / تقف الآلهة كلها / مئات الآلاف منهم /**

---

١ - **أڤستا** ، ياشت ١، آية ٢٥، ص ٣٨٣.

٢ - **أڤستا** ، ياشت ٨، آية ٣٥، ص ٤٥٢.

٣ - **أڤستا** ، ياسنا، هايتي ٢٨، آية ١، ص ١١٠.

ويختارون السعادة / يقدّمون السعادة / للأرض المعطاة من قِبل مازدا / يَهَبون الازدهار للعالم / ويَهَبون السموّ للحقيقة"[1].

وفي الغالب حيثما كان الكوردي يجد المال الكافي كان يُقبل على الترف والأبّهة ومتع الحياة، وينقل معه روح الإشراق حيثما حلّ، وفي تاريخ أسلاف الكورد أدلة كثيرة على ذلك، ومنها أن الأميرات الميتّانيات الفاتنات نقلن معهن ثقافة الإشراق والإقبال على الحياة إلى بلاط الفراعنة في مصر، بداية على يدي الأميرة جيلو-خِپا ابنة الملك الميتّاني شوتّارنا الثاني، وزوجة أَمُنْحُوتَب (أَمْنُوفِس) الثاني، ثم على يدي الأميرة تادو- خِپّا ابنة الملك الميتّاني تُوشْراتا، وزوجة أَمُنْحُوتَب (أَمْنُوفِس) الثالث، ابن جيلو-خِپا، وأخيراً على يدي نفرتيتي Nefertete (نيفر/نفرو أتون)، زوجة أمنحوتب الرابع (أخناتون)، والأرجح أنه ابن الأميرة تادو- خِپّا[2].

وتمثّلت الثقافة الإشراقية الميتّانية في شخصية أخناتون، وقد أنجز- بتأثير من والدته وزوجته الميتّانيتين- أكبر انقلاب في الديانة المصرية القديمة، فألغى ديانة آمون المتمحورة حول العجل المقدس (أپيس) Apis، وأحل محلّه ديانة آتون التوحيدية المتمحورة حول (الشمس)، وكم هو الشبه شديد بين الروح الإشراقية في خطابه للإله أتون وخطاب زردشت للإله أهورا مازدا! يقول في أحد ابتهالاته:

" إنك جميل، عظيم، برّاق، عالٍ فوق كل الرؤوس.
ما أبهى الأرض حين تشرق في الأفق!
حين تضيء يا أتون بالنهار.
تدفع أمامك الظلام.
واستراحت الأنعام كلها في مراعيها.
وازدهر الشجر والنبات.
ورفرفت الطيور في مناقعها.
وأجنحتُها مرفوعة تسبّح بحمدك.
ورقصت كل الأغنام وهي واقفة على أرجلها.

---

١ - أڤستا، ياشت ٦، آية ١، ص ٤٣٣.

٢ - جرنوت فيلهلم: الحوريون، ص ٦٤. ول ديورانت: قصة الحضارة، ٦٨/٢ — ٧٩. وليام لانجر: موسوعة تاريخ العالم، ٤٩/١.

وطار كلّ ذي جناحين"[1].

وأجمع المؤرخون الذين تناولوا سيرة أخناتون أنه كان منصرفاً إلى الحياة السعيدة، فكان يظهر على الملأ بصحبة أمه وزوجته الميتّانيتين، وكان ذلك إجراء جديداً في مراسيم فراعنة مصر، وكان يُمضي حياته الخاصة والعامة بصحبة زوجته وبناته السبع، وكان من الطبيعي، وقد تشرّب بالثقافة الإشراقية الميتّانية، ألا يكون صاحب أيديولوجيا متوحّشة، ولا يعمل لتحشيد الجيوش، وشنّ الحروب الإمبراطورية، وكان من الطبيعي أن يتقلّص النفوذ المصري الإمبراطوري- وخاصة في سوريا- أمام التمدد الحِثّي الضاغط[2].

أما نخب ميديا فها هو ذا ول ديورانت يصف انغماسهم في حياة المتع والترف والبذخ، خلال عهد الملك الميدي الأخير أستياگ:

"لقد ورث المُلك وهو مطمئنُّ القلب هادئ البال، وأخذ يستمتع بما ورث، وحَذَتْ الأمة حَذْوَ مليكها، فنسيتْ أخلاقَها الجافّة الشديدة، وأساليبَ حياتها الخشنة الصارمة، ذلك أن الثروة قد أسرعت إليها إسراعاً لم يستطع أهلها معه أن يُحسنوا استخدامها، وأصبحت الطبقات العليا أسيرةَ الأنماط الحديثة والحياة المترفة، فلبس الرجال السراويلَ المطرَّزة الموشّاة، وتجمّلت النساء بالأصباغ والحُلِيّ، بل إن الخيل نفسها كثيراً ما كانت تُزيَّن بالذهب، وبعد أن كان هؤلاء الرعاة البسطاء يجدون السرور كلَّ السرور في أن تحملهم مركبات بدائية، ذات دواليب خشنة غليظة قُطعت من سوق الأشجار، أصبحوا الآن يركبون عربات فاخرة عظيمة الكلفة، ينتقلون بها من وليمة إلى وليمة"[3].

وبعد خمسة عشر قرناً نجد في الدولة المروانية الكوردية الظاهرة نفسها، وذكر المؤرخ الكوردي الفارِقي أنه كان للملك نصر الدولة أحمد بن مروان (ت ٤٥٣ هـ/١٠٦١م) ثلاثمئة وستّون جارية حظايا، وكان في كل ليلة له عروس جديدة، وكان له من المغنِّيات والرقّاصات وأصحاب سائر الملاهي ما لم يكن لسواه من سائر الملوك والسلاطين، وكان كلما سمع بجارية مليحة أو مغنّية مليحة طلب شراءها، وبالغ في مُشتراها، ووَزَن أضعاف قيمتها، ولخّص الفارقي النعيم الذي عاشه نصر الدولة بقوله: **"واستقرّ نصر الدولة في المُلك، ومَلَك ما لا يَملك أحد مثله، وتَنعّم بما**

---

١ - ول ديورانت: قصة الحضارة، ٢/١٧٠ — ١٧١. وانظر أ. و.ف. توملين: فلاسفة الشرق، ص ٧٥.

٢ - ول ديورانت: قصة الحضارة، ٢/١٧٨. أ. و.ف. توملين: فلاسفة الشرق، ص٧٤، ٧٥، ٧٧.

٣ - ول ديورانت: قصة الحضارة، ٢/٤٠١- ٤٠٢. وانظر دياكونوف: ميديا، ص ١١٨.

لا يتنعّم أحد غيره"[1]. وقال أيضاً: **"وكانت أيامه كالأعياد"**[2]. وقال ابن الأثير: **"وتنعّم تنعّماً لم يُسمَع بمثله عن أحد من أهل زمانه"**[3].

خامساً – عشق الطبيعة

العلاقة بين الكوردي والطبيعة علاقة عشق شبيه بالعشق الصوفي، فالكوردي لا يجد ذاته إلا في أحضان الطبيعة، حيث الجمال والجلال، والرِّقّة والصلابة، واللطف والقسوة، والبهاء والنقاء، قال مينورسكي: **"تظهر حيوية الفكر الكوردي أيضاً في حبه لطبيعة كردستان... لا توجد صخرة، أو واد، أو شجرة منعزلة، إلا ولها اسم أيّاً كان، أو مقترنة بأسطورة ما"**[4]. وقد أكثر دبليو آر، في مواضع عدّة من مذكّراته، وصف جمال الطبيعة في كردستان، وربط ذلك بالحس الجمالي عند الكورد قائلاً **"إن للكردي حسّاً تقديرياً للجمال نادراً بين ظَهْرانَيْ الشعوب الشرقية"**[5].

وثّمة حكمة تقول: " ربّ ضارّة نافعة"، وإنه لكذلك، فقد أنشبت الذهنيات الإمبراطورية أظافرها وأنيابها في الكوردي، وزحزحته عن مركز الفعل الحضاري، ووضعته أمام خيارين (إما أن تكون مدجَّناً ومرتزِقاً وقِنّاً خَدَماتياً، وإما أن تعيش حياة رعوية ريفية بدائية)، فاختار الثانية للاحتفاظ بالبقاء فقط. وصحيح أن هذه المطاردة قذفت به خارج التاريخ، وغيّبت هويته، وأخضعته لمختلف مشاريع القهر والصهر، وقدّمته إلى القرن العشرين على أنه مجرد راعٍ متخلّف، وفلاح أهوج، وقاطع طريق سفّاك للدماء، لكنها جعلته- في الوقت نفسه- أكثر ملازمة للطبيعة، وأقرب إلى الفطرة الإنسانية بمعناها الأخلاقي النقي. إن الطبيعة وفّرت للكردي عيش الكفاف مقروناً بالحرية والكرامة، وحصّنته من التسفّل الأخلاقي الناجم عن الملوِّثات السائرة في ركاب التمدّن. وكم كان أوڤرستريت محقاً إذ قال: **"الحياة التي أصابها الجدب السيكولوجي هي تلك التي قلّت ارتباطاتها مع البيئة"**[6].

---

١ - الفارقي: تاريخ الفارقي، ص ١٤٣.

٢ - المرجع السابق، ص ١٤٤.

٣ - ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ١٧/١٠ – ١٨.

٤ - مينورسكي: الأكراد، ص ٦٩.

٥ - دبليو آر . هي: مذكرات دبليو آر، ص ١٨٥.

٦ - هـ. أ. أوڤرستريت: العقل الناضج، ص ٤٩.

ولا أزعم أن الطبيعة الكوردستانية كلها جبال، وأشجار، ومروج، وأزاهير، وينابيع، وجداول، وأنهار، وبحيرات، لكن لا شك في أن مساحات كثيرة منها تمتاز بهذه الخصائص الجمالية، وإليها ينجذب الكوردي جسداً وروحاً، وهناك يتطهّر على نحو عفوي، أجل إن من يعمِّد الكوردي ليس كاهناً، إنها الطبيعة البكر، إن تفاعل الكوردي المستمر مع الطبيعة البكر مكّنته من التواصل مع (العقل الكوني الشامل) حسب فلسفة بوذا، ومع (التاو) حسب الفلسفة الصينية، ومع (العقل الكلي) حسب فلسفة زِينون، ومع (اللوغوس/قانون العالم) حسب فلسفة هيراقليطس، ومع (العقل الفعّال) حسب فلسفة أفلاطون، ومع (العقل المطلق) حسب فلسفة هيغل، ومع (الروح الجوهري) حسب تسمية أرنولد تُويْنْبِي.

وللتعلق بالطبيعة جذور عميقة في الميثولوجيا الكوردية، إنها ميثولوجيا عامرة بجمال الطبيعة وجلالها، ونكتفي بذكر المثالين الآتيين:

- جاء في الأڤستا **"نقدّم القرابين لكل عيون الماء، لجداول الماء أيضاً، للنباتات التي تنمو، لأشجار الغابة، لكل الأراضي والسماوات، لكل النجوم، للقمر والشمس، لكل الأنوار اللامتناهية، لكل الماشية، للوحوش المائية، للوحوش التي على اليابسة، لكل الحيوانات التي تضرب بأجنحتها، وللوحوش التي تطوف السهول"**[1].
- جاء في الأڤستا أيضاً: **" أرغب في أن أصل بياشت[2] البركة التقية إلى الإنسان الورع والقديس...، وإلى هذه الأماكن، والمناطق، والمراعي والمساكن بعيون مياهها، إلى تلك المياه والأراضي والنباتات، وإلى هذه الأرض وتلك السماء، إلى تلك الرياح المقدسة، إلى النجوم، والقمر، والشمس، إلى تلك النجوم اللامتناهية ذاتية الإرادة وحرة التنقل"**[3].

وقد جاء في الإنجيل: **"حَيْثُ يَكُونُ كَنْزُكَ هُنَاكَ يَكُونُ قَلْبُكَ أَيْضًا"**[4]، ويصحّ هذا على الكوردي، فقد طورد ونُفي إلى أحضان الطبيعة البكر، فهناك صار كنزه، وهناك صار قلبه، وهناك خسر العالم ولكن ربح نفسه، وهذه الحقيقة ظاهرة للعيان في أخلاقياته وسلوكياته، وما حدّة الطبع إلا من أمارات البراءة المستوحاة من الطبيعة، إنها الصدمة التي يصاب بها

---

١ - أڤستا، ياسنا، هايتي ٦٦، آية ٩ ، ص ١٨١.

٢ - ياشت: نشيد، ابتهال.

٣ - أڤستا، ياسنا، هايتي ٣، آية ١٧ - ١٨ ، ص ٥٦ – ٥٧.

٤ - العهد الجديد، إنجيل مَتّى، الأصحاح ٦، الآية ٢١.

الكوردي حينما تتعرّض منظومته القيمية للتدمير، وكانت ظروف الفقر والقهر القاسية كفيلة بمسخه، إلا أنّ توحّده مع الطبيعة حال دون ذلك، وكيف يمكن للفقر والقهر أن يمسخا روحاً فيها جبل يَشمخ، ونهر يَهدر، ونسر يُحلّق، وفراشة تلهو، وشجرة تَسمق، ونرجس يَعبق، ومرج يزهو؟

ونسوق من التاريخ حدَثين يؤكدان ارتباط الكوردي بالطبيعة البكر:

الحدث الأول ارتباط الأميرة الميدية أوميد (آميد/آميتيدا) بالطبيعة الجبلية، ولم يهنأ لها عيش في سهول بابل، حتى أمر زوجها نَبُوخَذ نصّر (بُختُنَصّر) ببناء الحدائق المعلّقة لها، وجلبت إليها أشجار كردستان وأزهارها وأطيارها.

والحدث الثاني هو تعلّق بديع الزمان النُّورسي بالطبيعة، حينما أمضى ثمانية أعوام ونصف العام في المنفى ببلدة بارلا الصغيرة النائية، بغربي الأناضول، إذ صنع له نجّار غرفة خشبية غير مسقوفة على شجرة دُلْب ضخمة- بالكوردية Çinar چِنار- أمام بيته، فكان يقضي فيها أغلب أوقاته متعبّداً ومتأملاً ومؤلفاً معظم (رسائل النور).

سادساً – جماليات الألوان:

لجماليات الألوان عند الكورد خصيصتان، هما التنوّع والإشراق، ولهاتين الخصيصتين علاقة وثيقة بالبيئة الجبلية والثقافة وخاصة الميثولوجيا.

أما بالنسبة إلى البيئة الجبلية فقد مرّ في (بانوراما الجبل) أن الجغرافيا الكوردستانية غنية بالتنوّع في الكائنات الحية والنباتات والجمادات، سواء من حيث الأشكال أم الألوان أم الحركة، إنك حيثما تقف وتتجه بالنظر في البيئة الجبلية تجد في مرمى بصرك حشداً من التنوّع في الأشكال والألوان، ولا سيّما في الربيع والصيف والخريف، ولا تقع تحت وطأة القتامة والشعور بالرتابة والجمود.

وأما بالنسبة إلى الثقافة فإن النزعة الإشراقية متجذّرة في الميثولوجيا الكوردية، وتكثر في الأقْستا مفردات التنوّع الجمالي، سواء أكانت خاصة بالطبيعة (شمس، نجوم، جبال، سهول، أنهار، أشجار، أزهار)، أم خاصة بالبنى النفسية والأخلاقية (سعادة، فرح، فكر طيّب، قول طيّب، عمل طيّب).

وثمة ثلاث ظاهرات مثيرة للانتباه في جماليات اللون عند الكورد:

١ – كراهية اللون الأسود: في الغالب لا يميل الكورد إلى اللون الأسود الخالص، وكان ثمة خوف دفين في قلوبنا- ونحن صغار- من الكلب الأسود، والقطة السوداء، والحية السوداء، وكان الرأي العام السائد هو أن هذه الكائنات السوداء هي من الجن، تقمّصت أشكالاً حيوانية" ولا ريب في أن الجرعة التراثية التي تلقّيناها من الكبار، والمتسلسلة من الأجداد الأقدمين، كانت وراء تكوين ذلك التصور. والأرجح أن للميثولوجيا دوراً جوهرياً في تقبيح اللون الأسود، مقابل تحبيب اللون الأبيض إلى النفوس" إذ المعروف أن الإله أهورا مازدا يمثّل الخيرَ والنور (البياض) في الزردشتية، في حين يمثّل عدوّه أهْريمان الشرَّ والظلمة (السواد).

٢ – كراهية اللون الأزرق: في الغالب لا يميل الكورد إلى اللون الأزرق الخالص الزرقة، والأزرق القاتم خاصة، وهو محرَّم في الديانة الأيزدية، ويمكننا تفسير نفور الكورد من الأزرق القاتم بأنه لون قابض وكاتم، ويبعث الكآبة في النفس، وأنه لا يلبّي نزوع الكوردي جمالياً إلى الإشراق البهيج، ولكن لا ندري بالتحديد تفسير تحريم الأيزدية ارتداء الثياب الزرقاء، ترى أهو تحريم من باب تكريم الطاووس الذي يظهر اللون الأزرق في ريشه؟ أم أنه تحريم طارئ على الأيزدية، وكان بتأثير الصراع بين الزردشتية والمسيحية، ومن بعدُ بين الأيزدية والمسيحية، باعتبار أن اللون الأزرق محبَّب في المسيحية حسبما أعلم.

٣ - الارتباط الحميم بين الأبيض والأصفر: لا يخفى أن تفاعل هذين اللونين ينتج أروع تجليات الضياء والنورانية، وهما لونان مرموقا المكانة جداً في الميثولوجيا الكوردية، إنها ميثولوجيا نورانية (بيضاء)، رمزها القدسي الأسمى هو (الشمس)، ولا مكان فيها للظلمة (السواد)، وكانت الزردشتية تسمّى (الدين الأبيض)، وظلت محتفظة بهذه الصفة في التراث الإسلامي[١]، ووردت في الملحمة الشعبية (مى آلان) بصيغة (الكُرمانجية البيضاء) Kormanjiya sipÎ. وفي **الأڤستا** شواهد كثيرة على قدسية اللون الأبيض، منها أن مِيثرا وُصف بأنه صاحب الأحصنة البيضاء[٢]، وأن الحزام المقدس (كوست/كوستي) يُصنع من الصوف

---

١ - ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ٥١٥/٦.

٢ - **أڤستا**، ياشت ١٠، آية ١٠٢، ١٠٣، ص ٤٩٩.

الأبيض[1]، وقال ول ديورانت في وصف الفرس الزردشتيين: **"وكان الأهلون يجتمعون في الأعياد وكلهم يرتدون الملابس البيضاء"**[2].

وما زال للبياض حضور قوي في المجتمع الكوردي، وخاصة في التراث الأيزدي، إنه يتجلّى في ألوان قباب المزارات المقدسة، وفي ألبسة الكهنوت الأيزدي، رجالاً ونساء، وفي المناديل البيضاء التي تغطّي بها كثير من النساء الكورديات رؤوسهن، وأيضاً لا أنسى حرص جداتنا وأمهاتنا الشديد على صبغ جدران البيوت من الداخل بالكلس، وكن يجدّدن ذلك الصبغ سنوياً في أوائل الربيع خاصة، ومع ظهور تباشير عيد نوروز، وليس هذا فقط، بل كن يحرصن على صبغ واجهات البيوت من الخارج بالكلس أيضاً، وأذكر جيداً جمال تلك الواجهات مقرونة باخضرار الأشجار، ولا سيما في الربيع والصيف والخريف، ويبدو أن الكوردي كان يحمل معه تعلقه باللون الأبيض حيثما كان، ففي معرض وصف الأديب الفلسطيني غسّان كَنَفاني لمدينة حيفا أو يافا، ذكر واجهات بيوت حي الأكراد المصبوغة بالكلس.

وأحسب أن زهرة النرجس بأوراقها البيضاء، وبالصفرة في وسطها، تمثّل تفاعل لوني الأبيض والأصفر، وهي جديرة بأن تكون الزهرة الرمزية للكرد، بل يبدو إنها كذلك، فقبل أن تغزو قيم المدينة قرانا، وحينما كنا نعيش في ظلال قيم العهد النيوليثي، كان أهلونا- رجالاً ونساء- يحرصون على زراعة النرجس في ساحات دورنا، وما يكاد الربيع يطلّ حتى كان يتبرعم ثم يتفتّح، فينعش الأنوف بشذاه العَطِر، ويخلب الأنظار بجماله الأخّاذ، ولم يكن فيض جمال النرجس يقتصر على الأحياء فقط، بل كان أهلونا يزرعونه على قبور الراحلين إلى الأبدية أيضاً، وكلما تقع عيناي- عبر الفضائيات- على قبر الزعيم الراحل ملا مصطفى بارزاني، وهو رابض على قمة الجبل، وتحفّ به أزهار النرجس من كل جانب، أقول: إنه التراث الكوردي، وقد تجذّر في الروح الكوردية جلالاً في الجبل، وجمالاً في النرجس.

وقد ألقى تعلقّ الروح الكوردية بالتنوّع اللوني المشرق ظلالَه على الرموز الوطنية، ولم أجد في تاريخ غربي آسيا عاصمة وطنية" كانت أسوارها السبعة تشكّل بانوراما من الألوان، كما كانت أسوار (أگباتانا) عاصمة ميديا التي بُنيت في عهد دِياكو)، وها هو ذا هيرودوت يصفها قائلاً:

---

١ - أشتا، ياسنا، هايتي ٩، ص ٧٧- ٧٨. هامش ٣.

٢ - ول ديورانت: قصة الحضارة، ٤٣٩/٢.

"وقد بلغ عدد الدوائر سبعاً، يقع القصر الملكي والمستودعات في آخرها، ودائرة السور الخارجي تكاد تطابق دائرة سور أثينا، والحجارة عند هذا الجدار بيضاء، يليها صفّ من الحجر الأسود، فالقرمزي، فالأزرق، والخامس برتقالي، وهذه الصفوف مطلية جميعها بالدهان. وأما الصفّان الأخيران من حجارة الجدار فمطليان بالفضي والذهبي"[1].

ونلمح الإشراق في العلم الوطني الكوردي أيضاً، إنه مكوّن من شريط أحمر في الأعلى، وشريط أبيض في الوسط، تشرق من منتصفه الشمس، وشريط أخضر في الأسفل. واجتماع الأحمر والأبيض والأصفر والأخضر يذكّر بإشراقة الربيع وبهجته، ويذكّر أيضاً برمزية الشمس في الميثولوجيا الكوردية. وقد كان مشهداً مدهشاً حينما وقعت عيني- عبر فضائية كردية- على بقعة من الأرض، تتتلوّن بالأحمر والأبيض والأصفر والأخضر، ظننت بدايةً أنه مشهد ربيعي، ثم إذا بي أجد عشرات النعوش، تجلّلها الأعلام الكوردية بألوانها الأربعة، كان مشهد نعوش من ضحايا الأنفالات، وكان يجسّد مشهد الربيع منبعثاً من قلب الشتاء، والنور منبثقاً من قلب الظلمة، والبهجة متدفّقة من قلب المأساة، والحياة شامخة في قلب الموت.

---

١ - هيرودوت: تاريخ هيرودوت، ص ٨- ٧٩.

١٥

ذهنية الكورد الاجتماعية (١)

النظام الاجتماعي والأسرة الكوردية

مدخل سوسيولوجي:

الذهنية الاجتماعية لأيّ شعب ليست منفصلة عن بيئته الجغرافية، ولا هي منقطعة عن إرثه الاجتماعي التراكمي عبر العصور، يقول روبرت أمرسون:

"إن الأمم هي كالأفراد نتيجة إرث وبيئة، ولكن في حالة الأمة فإن البحث عن أصلها لا يمكن أن يكون بتتبّع الجينات الوراثية، وإنما بالبحث في (الإرث الاجتماعي) الذي ينحدر من جيل إلى جيل"[١].

وفي أحضان الإرث الاجتماعي يتشكّل (الوجدان الاجتماعي) للأمة رويداً رويداً، وقد فسّره عالم الاجتماع الفرنسي إميل دوركايم بأنه نوع من الرؤيا والتمثّلات Representation المشتركة، تعود إلى أصل مشترك بين جميع أعضاء الهيئة الاجتماعية[٢].

وفي أعماق الوجدان الاجتماعي يتمركز (اللاشعور الجمعي)، ويتدخّل بين حين وآخر لاستثارة الوجدان الاجتماعي بدرجة معيّنة، ولتفعيله في موقف معيّن بهذا المستوى أو ذاك، وإن اللاشعور الجمعي- بحسب عالم النفس كارل يونغ- هو مخزن آثار الذكريات الكامنة التي ورثها الإنسان عن أسلافه الأقدمين، وعليه يُبنى الأنا واللاشعور الشخصي وجميع المكتسبات الفردية الأخرى. وإن الأنماط الأولية Archetypes أو المسيطرات Dominants هي المكوّنات

---

١ - عامر رشيد مُبَيِّض: موسوعة الثقافة السياسية الاجتماعية الاقتصادية العسكرية، ص ١٣٢.

٢ - كميل الحاج: الموسوعة الميسّرة، ص ٦٦٤.

البنائية للاشعور الجمعي، وهي تسمى أيضاً الصور الأولي البدائية، أو الصور الأسطورية Mythological Images[1].

وجيلاً بعد جيل يصبح (الإرث الاجتماعي)، وربيباه (الوجدان الاجتماعي) و(اللاشعور الجمعي)، ضابطاً عاماً لجميع إيقاعات السلوك الاجتماعي، وقد سمّى تالكوت بارسونز ذلك الضابط باسم (الإطار المرجعي)، ويؤثّر الإطار المرجعي، كلَّ لحظة، في إنتاج وترسيخ الأهداف والقيم الموجّهة للسلوك في جميع المواقف[2]. وبطبيعة الحال تسهم الأيديولوجيا المهيمنة على المجتمع في تشكيل (الإطار المرجعي)، ونَسْج المنظومة الأخلاقية التي يُفترَض أنها تحقق الانسجام والنظام ضمن المجتمع[3].

ومن الضروري أن نأخذ هذه الأمور بالحسبان ونحن نبحث في ذهنية الكورد الاجتماعية، وفي جميع الأحوال ليست ذهنية الكورد الاجتماعية إلا إحدى تجلّيات الذهنية الكوردية الكلية، بل إنها تُعَدّ نقطة تلاقي وتفاعل جميع التجليات الأخرى (التجلّي الثقافي، التجلّي السياسي، التجلّي الأخلاقي)، وعلى ضوء هذه الحقائق نبحث في ذهنية الكورد الاجتماعية، ضمن محورين، هما: خصائص النظام الاجتماعي الكوردي، وسمات الأسرة الكوردية.

أولاً – خصائص النظام الاجتماعي الكوردي:

مر المجتمع الكوردي بالمراحل ذاتها التي مرّت بها غالبية المجتمعات، وهو شبيه، في كثير من الأوجه، بالمجتمعات المجاورة له في غربي آسيا، ومع ذلك له خصائصه التي يختلف بها- قليلاً أو كثيراً- عن المجتمعات الأخرى، وهذا أمر عادي" إذ من المحال أن تكون مجتمعات العالم كلها نسخة واحدة، وهل ممن الممكن أن تكون كذلك وهي مختلفة- قليلاً أو كثيراً- من حيث البيئات والثقافات والتحدّيات؟

ونستعرض فيما يلي أبرز خصائص النظام الاجتماعي الكوردي.

---

١ - كالڤين هول، جاردنر ليندزي: نظريات الشخصية، ص ١١٢، ١١٣، ١١٤.

٢ - عبد الغني عماد: سوسيولوجيا الثقافة، ص ٣١٧.

٣ - ر. بوردون، وف. بوريكو: المعجم النقدي لعلم الاجتماع، ص ٨٩.

١ – الطابع الأبوي (البطريركي): أكّد معظم الباحثين في الإثنولوجيا Ethnology (علم أجناس البشر)، وفي الأنثروبولوجيا Anthropology (علم دراسة الإنسان) أن المجتمعات البشرية كانت، في الأزمنة الغابرة، أمومية الطابع، وكانت السلطة فيها بيد المرأة، والدليل على ذلك أن الإلهات (الربّات) كن أكثر سلطة في فجر البشرية من الآلهة (الأرباب)، ولا يخفى أن ميثولوجيا الشعوب تعكس رؤية نخبها وخصائصهم، ولعل غلبة الطابع الأمومي كان نتيجة لغياب الرجال عن المستوطنة فترة طويلة، بحثاً عن الغذاء (حيوانات، ثمار، جذور)، وكان من الطبيعي أن تتولّى النساء إدارة شؤون الجماعة، لكن ما إن اخترعت المرأة فن الزراعة حتى قضت على مكانتها وسلطتها بيديها، وفتحت الأبواب للرجل، فدخل ملكوت السيادة، واحتل مواقع المرأة، وجرّدها إلى حدّ كبير من امتيازاتها السلطوية.

والمجتمع الكوردي مجتمع أبوي (بطريركي) الطابع، ذكوري، فالسلطة العليا تتمركز في يد الأب داخل الأسرة، وفي أيدي الرجال ضمن المجتمع، ولا داعي إلى التفصيل في هذا المجال، فشعوب العالم جميعها- باستثناء بعض الجماعات القليلة جداً والمنعزلة- تستظل بخيمة النظام البطريركي، ومع ذلك ثمة مؤشرات عديدة، تدل على أن بطريركية المجتمع الكوردي لم تقض قضاء مبرماً على بقاء بعض بنى ثقافة عصر الأمومة في الوعي الجمعي الكوردي، وتمركزها بعمق في اللاشعور الجمعي الكوردي، وأثمرت تلك البنى عدمَ تهميش المرأة بشكل كلي، وعدم قمعها بقسوة، على النحو الذي هُمّشت وقُمعت في بعض المجتمعات الشرقية، وسيأتي توضيح ذلك في سياقاتها ضمن هذا المبحث، وبخاصة ضمن محور (المرأة).

٢ – الطابع القَبَلي: الظاهرة الأكثر بروزاً في المجتمع الكوردي هي تمحورها حول الحالة الرعوية الريفية، ودورانها في فلك النظام القَبَلي، وهو نظام قائم في الأصل على القرابة (النسب)، سوء أكانت قرابة سلالية (الانتساب إلى جد أكبر)، وفق النظام الأبوي (البطريركي)، أم كانت قرابة معنوية" عبر تكوين حلف قَبَلي (الانتماء إلى جبهة واحدة)، ومعروف أن النظام القبلي نظام فريد، إنه يدمج على نحو عجيب بين المركزية والديمقراطية في آن واحد، فهو من ناحية يُلزم الفرد بالانصياع التام وغير المشروط لإرادة القبيلة" أي عليه أن يتوحّد بالقبيلة رؤيةً وقيماً وسلوكاً، ومن ناحية أخرى يجسّد القبيلة كلها في الفرد، وخاصة في موضوع الثأر.

ويتزعّم القبيلة شخص يحمل في الغالب لقب (آغا)" ومعناه (سيّد)، وهو يماثل لقب (دوق) الفرنسي، ولقب (لورد) الإنكليزي، ويبدو أن هذا اللقب جزء من الإرث الاجتماعي الكوردي

العائد إلى الأسلاف السومريين" إذ كان مدير المَشْغَل (المصنع) في العهد السومري، يُدعى (آغو) Agu[1]. وما يزال هذا اللقب مستعملاً عند الكورد بالصيغة نفسها (آغو)، وكان يماثله في العهد الميدي لقب (دِياكو/دَيوكو)، بمعنى (صاحب الإقليم)، وأخذت عند الآشوريين صيغة (دهياوكو)، وفي البهلوية صيغة (دِهاك/ دهيك)، وفي العربية صيغة (دِهْقان)، وبقيت حيّة في اسم مدينة (دُهُوك) الكوردية بجنوبي كردستان[2].

وينبغي أن يكون الآغا من أسرة نبيلة، كريمة الأصل، مرموقة المكانة، وأن يتميّز بالنبل والكرم، إضافة إلى امتلاك بعض معارف عصره، ومن الضروري أيضاً أن يتّصف بالحكمة والحنكة في إدارة شؤون القبيلة، ويجيد إمساك العصا من الوسط في المواقف الحرجة، ويكون ماهراً في لعبة التوازنات بين مراكز القوى داخل القبيلة. ولا ينفرد الآغا بجميع السلطات، وإنما يستعين بمجلس يضم كبار السن Ri sipî والوجهاء من فروع القبيلة، وبمجرد أن يحوّل الآغا الكوردي سلطته إلى مركزية مطلقة، ويدير ظهره إلى الـ Ri sipî والوجهاء، يكون قد جرّ القبلية إلى التفتّت والتخاصم، وحكم على نفسه بالفشل، وسبق القول بأن الطبع الجبلي ينمّي الفردية في مواجهة السلطة المطلقة، والشبه كبير، من حيث مباشرة السلطة، بين نظام القبيلة الكوردية ودول- المدن السومرية، ودول- المدن اليونانية.

وقد أشار نيكيتين إلى ظاهرة توحّد الأرستقراطية بالديمقراطية في القيادة القَبَلية الكوردية، بقوله: **"ومع أن سلطة رئيس العشيرة مطلقة، إلا أن كبار المسنّين فيها يمارسون نوعاً من حق الرقابة عليه، ولأصواتهم وزن لا يمكن تجاهله" إن مجلس (ذوي اللحى البيضاء)- أي (ري سپيي)- يُعقَد كلَّ ليلة تقريباً في خيمة الزعيم، لمعالجة القضايا التي تهمّ المصلحة العامة، بالإضافة إلى الأمور الأخرى التي يمكن أن تنشأ في الحياة اليومية للعشيرة"**[3]. وقال بيكيزاروف : **"يُعتبر المجتمع الكوردي مجتمعاً بطريركياً ديمقراطياً، يتمتع فيه جميع أعضائه- أغنياء كانوا أم فقراء- بحقوق متساوية، والفرق الوحيد بينهم هو أن الأسر النبيلة والغنية بينهم تتمتع باحترام كبير وثروة أزيد"**[4].

---

١ - جماعة من علماء الآثار السوفييت: العراق القديم، ص ١٩٧.

٢ - مجموعة من الباحثين: كركوك، بحث د. جمال رشيد، ص ١٦٩ ، هامش ٥.

٣ - باسيلي نيكيتين: الكرد، ص ١٩٩.

٤ - المرجع السابق، ص ٢٤٢.

٣ – مركزية النَّسَب: إن اهتمام غالبية الكورد بالنسب ظاهرة لا يمكن إغفالها، ومعلوم أن مسألة النسب من لوازم الانتماء القبلي، ومن توابع الحالة الرعوية الريفية، يقول باسيلي نيكيتين:

"إن هذا الإحساس القوي بالروابط العائلية والتفاخر بالأسرة ليس مقتصراً على النبلاء من الكورد وحدهم، بل إن كل كردي يعلم تماماً إلى أيّ أسرة ينتمي، ويعرف تسلسل هذه الأسرة، وكثيراً ما نجد في كردستان أشخاصاً أمّيين" يحفظون عن ظهر قلب أسماء أجداد لهم، يمتد تاريخهم إلى خمسة عشر جيلاً. إن لمعرفة هذه الأنساب أهمية كبيرة بالنسبة للعشائر وتاريخها"[١].

وقال نيكيتين أيضاً:

"ويتعلق بالأسرة الكوردية موضوع نسبها، وتتمسّك الأسر القديمة بنسبها، وتعلّق أهمية كبيرة على عراقتها، وتحافظ على تسلسل نسبها، وليس أحبّ إلى نفس الزعيم الكوردي من أن تحدّثه بودّ عن أجداده. وقد تعرف أسماء عدد من أسلافه، فإذا به يُسرع في تَعداد بضعة أجيال أخرى، ويحدّثك عن بطولات أجداده في قتال الترك (الروم كما يسمونهم) والفرس (العجم كما يسمونهم أيضاً)"[٢].

وقال مينورسكي في الموضوع ذاته:

" يجب أن نتطرق إلى قضية فخر الأكراد بأصلهم ونسبهم، وهنا أراني أفشي سرّاً صغيراً عن الأسلوب الذي يتمكّن به المرء إدخال البهجة والسرور في نفوسهم، ففي أيام رحلتي قد هيّأتُ أو ألّفت شجرة لنسب رؤساء العشائر، وعند الاجتماع بهم حاولت أن أفسّر علاقة ابن العم، أو ابن ابن العم، بعضهم ببعض، كالقول بأن باپير آغا هو ابن عم بايز آغا، أو پيروت آغا. وقد أدّى هذا إلى سرور وغبطة عظيمين، وبدأت التعليقات من كل حَدَب وصوب وإلى ما لا نهاية، وهناك في كردستان كثير من الأمّيين يحفظون عن ظهر قلب عشرة أو خمس عشرة من أسماء آبائهم وأجدادهم"[٣].

---

١ - المرجع السابق، ص ١٧٨.

٢ - المرجع السابق نفسه.

٣ - مينورسكي: الأكراد، ص ٦٢.

وثمة أربعة عوامل أبقت الطابع القبلي مهيمناً على المجتمع الكوردي:

- أوّلها بقاء بعض البنى التوتمية (الانتماء إلى الجد الأكبر) حيّة في الوعي الجمعي الكوردي.
- وثانيها بقاء بعض قيم ثقافة العصر النيوليثي في العلاقات الاجتماعية، وخاصة روح التضامن والتكامل والتكافل.
- وثالثها ضرورات الحالة الرعوية، كأن تكون العشيرة/ القبلية معاً في المصايف والمشاتي.
- ورابعها الصراعات التي كانت تنشب بين العشائر والقبائل، بسبب المراعي، ولأسباب أخرى كمسألة الشرف.

وعلى العموم كانت القبيلة- كالجبل- نعمة ونقمة على الكورد:

فمن ناحية رسّخت فيهم روح الفردية الشخصية والقبلية معاً، وأبقتهم قروناً طويلة في فلك الانتماء القبلي، وجزّأت الذاكرة الكوردية، والوعي الجمعي الكوردي، إلى جزر متباعدة، حتى إنها صارت (الإطار المرجعي) الأوحد الذي يضبط إيقاع حركة الفرد والجماعة بشكل عام، فأخّرت تشكّل الوعي القومي الكوردي، وحالت دون انتقال المجتمع الكوردي من الحالة الرعوية الريفية إلى الحالة المدنية، وحالت من ثَمّ دون اندماجهم في حركة الحضارة العالمية.

ومن ناحية أخرى كانت القبلية- كالجبل- الحصن الوحيد الذي صان الوجود الكوردي من الفناء فيزيائياً وثقافياً، وبفضلهما- القبيلة والجبل- ظلّت شعلة الكورديايتي (الانتماء إلى الهوية الكوردية) وقّادة طوال خمسة وعشرين قرناً، بل كانت تلك الشعلة تتحوّل إلى براكين ثائرة بين فترة وأخرى، وصحيح أن تلك الثورات لم تحقق أهدافها، لكنها حققت شيئاً مهمّاً جداً" ألا وهو أن الكورد باقون كرداً، وأنهم يستعصون على مشاريع السلخ والمسخ والصهر والإفناء، ولو تتبّع المرء مسارات الثورات الكوردية، صغراها وكبراها، قديمها وحديثها، لوجد أنها تتمحور حول قطبين: القبيلة والجبل.

٤ – الوضع الطبقي: لا يختلف المجتمع الكوردي عن شعوب العالم، من حيث اشتماله على فئات طبقية متنوّعة، ويمكن تمييز أربع فئات ضمن المجتمع الكوردي:

- الأولى فئة الرعاة والريفيين، وهم القسم الأعظم، ويكابدون كثيراً من العناء والشقاء للحصول على متطلّبات العيش الأساسية، وليسوا على تماس مباشر مع التمدّن.

- والثانية فئة التجار والحرفيين، وهؤلاء أفضل حالاً من الرعاة والريفيين، وأقل مكابدة للعناء، وأكثر تواصلاً مع التمدّن.

- والثالثة فئة المثقفين، وتشمل علماء الدين والموظفين، وهم أقل عدداً من الفئة الثانية، وأكثر وعياً واستعداداً للتمدّن.

- والرابعة فئة الإقطاع (الآغاوات)، وهؤلاء أقل عدداً، لكنهم أكثر بروزاً وتأثيراً" إذ في أيديهم السلطة والمال.

وفيما يلي بعض ما قيل بشأن الوضع الطبقي في المجتمع الكوردي.

قال دبليو آر، الحاكم الإنكليزي لمدينة أربيل:

"لقد بيّنتُ في تقرير رسمي لي أن هذا الشعب ينقسم إلى ثلاثة صنوف هي: الآغاوات الصالحون، والآغاوات الطالحون، وعامة القوم. وسنتناول أولاً عامة القوم" فهؤلاء هم أفضل أناس شهدتهم في الشرق حتى الآن"[1].

وقال مينورسكي:

"في كثير من الأماكن يُنظر إلى الآغا كأنه الغازي المنتصر، والرعية كأنها من جنس آخر، وللحقيقة يجب أن يقال: إن شخصية الآغا فيها من النبل والكرم إلى درجة أنه يمكن تمييزه عن الفلاحين من أول نظرة، وفيها قابلية خارقة للسيطرة"[2].

وقال باسيلي نيكيتين:

"إن الإقطاع في كردستان، في نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر، ... أوجد الاقتصاد الطبيعي الذي يعتمد على الملكية الخاصة للمواشي، وحمى الفلاحين من خطر غزو العشائر الرحل. كما أنه حافظ على كردستان كوحدة متماسكة ضد تسلّط إمبراطورية العشائر الغازية" التي استطاعت السيطرة على البلدان المجاورة لكردستان، وبإسهامه في مقدرات الإقطاع في عموم آسيا الأخرى، تحوّل بنفسه أيضاً إلى عائق كبير أمام التطور اللاحق للقوى المنتجة في المنطقة. إن الإقطاع الكوردي دمّر في الواقع رفاهية المجتمع الكوردي" لأنه أبقى على الأشكال القديمة للاقتصاد"[3].

---

١ - دبليو آر. هي: مذكرات دبليو آر، ص ٧٩.

٢ - مينورسكي: الأكراد، ص ٣٥.

٣ - باسيلي نيكيتين: الكرد، ص ٢٣٣-٢٣٤.

وقال فيلجيفسكي:

"إن الإقطاع الكوردي أخذ يتضعضع ذاتياً مذ بداية القرن التاسع عشر، وغدا عائقاً أمام تطور القوى الاقتصادية الجديدة" التي تولّدت جزئياً بتأثيره هو نفسه بعد تفكّك الأسر النبيلة وذوبانها في العشائر"[1]. وقال فيلجيفسكي أيضاً: **"إن هذا النظام ساعد على إبقاء كردستان بمنجًى من مطامع الغزاة الأجانب، ومكّنها من أن تحافظ على شخصيتها" إلا أن كردستان لن تتمكن من أن يتحوّل شعبها إلى أمّة، ويقيم دولة خاصة به، ما لم تجتز هذه المرحلة من حياتها"**[2].

نظرة تقويمية:

نخلص مما سبق إلى أن ثمة اتفاقاً على أن الإقطاع القبلي أضرّ بالمجتمع الكوردي من حيث التطور، لكنه حافظ في الوقت نفسه على الهوية الكوردية من الانمحاق، والحقيقة أن الإقطاعيين الكورد (الآغاوات) كانوا ضحية الوضع الشاذ والبائس الذي أُقحم فيه الكورد- رغماً عنهم- منذ خمسة وعشرين قرناً، وذلك بتهميشهم من قَبل قادة الذهنيات الإمبراطورية التوسّعية، وقذفهم إلى خارج حركة التاريخ والحضارة، وكان من الطبيعي- والحال هذه- أن ينتج ذلك الوضع الشاذ والبائس في النهاية إقطاعياً بذهنية رعوية ريفية، إقطاعياً متخلّفاً بالقياس إلى الإقطاعي الأوربي.

وبدا أيضاً أن المهتمين بالمجتمع الكوردي لاحظوا الدور الإيجابي الذي قام به الإقطاع الكوردي" ألا وهو الحفاظ على الهوية الكوردية من الانمحاق التام، ومن الإنصاف القول بأن بعض الزعماء الكورد- سوء أكانوا قادة عشائر/قبائل، أم شيوخ طرق صوفية، أم مجرّد ملاّكين للأراضي- جسّدوا في شخصياتهم أنقى درجات الأصالة الكوردية، بكل ما تعنيه من نبل، وشجاعة، وبسالة، وصلابة، وروح فداء، وتمسّك بالكرامة، وعشق للحرية، وصحيح أن هؤلاء كانوا قلّة، بالقياس إلى المتهاونين والمتقاعسين والمتخاذلين والمرتزقة والممسوخين والخونة، لكنهم كانوا- على مدار التاريخ الكوردي- في الخندق الأول للدفاع عن الهوية والكرامة، وقد ذكرنا في

---

١ - المرجع السابق، ص ٢٣٤.

٢ - المرجع السابق، ص ٢٤٣.

مبحث (قيم البطولة والفداء) من هذه الدراسة نزراً يسيراً من مواقفهم وبطولاتهم، ويزخر تاريخ الكورد بأضعاف ما ذكرناه.

ولذلك كانت الحكومات المسيطرة على كردستان تعمد، بعد القضاء على كل ثورة، إلى فصل الزعماء عن الجماهير، كما يُفصَل الرأس عن الجسد، قال باسيلي نيكيتين:

"وفي أيار/مايو ١٩٣٢ صدر مرسوم بتهجير وتشتيت الكورد من مناطق سكناهم إلى القرى التركية، على ألاّ تتجاوز نسبتهم ٥ بالمئة من السكان الترك في أيّة قرية، وأُجبر الزعماء الكورد على الإقامة في المدن، على ألاّ تبقى لهم أيّة صلة بسائر الكورد. ولم يكن مضمون هذا المرسوم سوى إعادة لنصوص مرسوم آخر طُبّق خلال الحرب الأولى عام ١٩١٤"[١].

وذكر زِنار سُلُوپي (قدري جميل پاشا) كثيراً من الشواهد في هذا المجال، وكان معاصراً لها، قال بصدد ثورة شيخ سعيد پيران:

"لم تمض سنة واحدة على نشوب الانتفاضة، حتى بدأت حكومة أنقرة، بغية إخلاء كردستان من سكانها الأكراد، بتهجير أشهر زعماء القبائل الكوردية إلى الأناضول، كخطوة أولى...، لم يكن وارداً بقاء أفراد أسرة واحدة في منطقة واحدة، حيث كانوا يُرسَلون إلى مناطق مختلفة، ليبقوا بعيدين عن بعضهم البعض، وبعد مرور فترة من الزمن، خفّفت السلطات تلك الشروط، وسمحت بالتالي لأعضاء أسرة واحدة بالبقاء في منطقة واحدة والسكن المشترك"[٢].

ثانياً – سمات الأسرة الكوردية:

الأسرة هي الخلية الأساسية وحجر الأساس في كل مجتمع، وفيها يتمثّل جميع خصائص الأمة وملامحها" إيجابياتها وسلبياتها، نقاط قوّتها وضعفها، تخلّفها وتحضّرها، مستوى بؤسها ورفاهيتها، مظاهر استقرارها وقلقها، تماسكها وتفكّكها، تساميها وانحدارها، انفتاحها وانغلاقها. وإن جميع هذا ينطبق على الأسرة الكوردية، إنها كانت مرآة نقية تعكس حالة المجتمع الكوردي في جميع العهود، وكانت تجسّد بدقة جميع خصائصه وإيجابياته وسلبياته، ونلخّص فيما يلي بعض سمات الأسرة الكوردية.

---

١ - المرجع السابق، ص ٣١١.

٢ - زنار سلوبي: في سبيل كردستان، ص ١٢٧.

١ – روح المشاعية: الطابع العام للأسرة الكوردية أنها أسرة ممتدة متماسكة، تجمع بين الجد والحفيد في دائرة واحدة، وثمة في الوجدان الجمعي لكل فرد- كبيراً كان أم صغيراً- شعور قوي بالالتزام والتضامن إزاء الآخر، بدءاً من تقاسم لقمة العيش، وانتهاء بتقاسم المسرّات والأحزان والمنغِّصات والمشكلات، ولا يشعر الفرد في الأسرة الكوردية- كائناً من كان- أنه عالة على أفراد أسرته، إنه يعيش في ظل خيمة **"مِن كلٍّ حسبَ طاقته، ولكلٍّ حسبَ حاجته"** هذه الخيمة التي أراد جميع المصلحين والفلاسفة العظام أن تأوي إليه مجتمعاتهم، كلٌّ على طريقته.

وبتعبير آخر: إن الأسرة الكوردية احتفظت، إلى حدّ كبير، بقيم المشاعية التي كانت سائدة في العهد النيوليثي، والتي تتلخّص في مبدأ (الواحد للكل، والكل للواحد)، ومن أعظم بركات هذه القيم أنها منحت الفرد ثلاثة أنواع من الأمان، كانت كفيلة بخلق مُناخ نفساني صحي، وتأسيس شخصية متّزنة ومتوازنة، بعيدة عن العقد النفسية والاجتماعية، وتلك الأنواع من الأمان هي:

– الأمان الوجودي: إذ تحمي الأسرة الفرد من أيّ اعتداء يمكن أن يتعرّض له، ويشعر على الدوام أن له ظَهر.

– والأمان المعيشي: إذ يحصل الفرد في كنف الأسرة على متطلّبات العيش الأساسية (مطعم، مشرب، ملبس، مأوى)، ويشعر أن له الحق الطبيعي في ذلك، حتى وإن لم يوظّف طاقته بالقدر الكافي في ما هو مطلوب، بل حتى لو كانت تصرفاته تُرهق الأسرة مادياً ومعنوياً .

– والأمان النفسي: إذ لا يقع الفرد في شباك الغربة النفسية، ولا يشعر بأنه دخيل، أو أنه غير مرغوب فيه.

٢ – التراتبية الاجتماعية: تقوم العلاقات في الأسرة الكوردية، على نظام صارم من التراتبية الأدبية، فللجد، ثم للأب، السلطة العليا في الإدارة واتخاذ القرارات، لكن ذلك لا يعني أنه يهمل آراء الجدة والزوجة والأولاد في جميع الأحوال، ويأتي دور الجدّة والأم في المرتبة الثانية بعد مرتبة الجد والأب، وإن كان تأثيرها العاطفي أكثر رسوخاً في قلوب الأبناء والبنات من تأثير الأب، وإن انفتاحها على الأولاد يولّد عندهم الشعور بأنهم أقرب إليها، وأقدر على محاورتها والإفضاء إليها بما في نفوسهم، والحقيقة أن حزم الأب وصرامته من جانب، ولطف الأم وقربها النفسي من الأولاد، يخلق مناخاً نفسياً واجتماعياً متوازناً داخل الأسرة، ويجّنب الأولاد- ذكوراً وإناثاً- كثيراً من العقد النفسية والمشكلات الاجتماعية.

وعلى العموم تربّي التقاليد الكوردية الأولاد- ذكوراً وإناثاً- على احترام الجد والجدة، والأب والأم، والأعمام والعمّات، والأخوال والخالات، وإنه لمن المعيب جداً أن يخرج الابن أو البنت على تلك التقاليد، وينظر الجميع إلى الابن العاق أو الابنة العاقة بكثير من الاستهجان والسخط، بل قد يتطوّع بعض الكبار من الرجال والنساء بتوبيخ العاق أو العاقة، والتنبّؤ لهما بأنهما سيلاقيان المعاملة ذاتها من أولادهما مستقبلاً، مع الأخذ في الحسبان أن نسبة العقوق في المجتمع الكوردي قليلة جداً، وهي عند البنات أقل.

قد نقل باسيلي نيكيتين عن أحد الرحّالة قوله: **"الأسرة الكوردية تتقيّد تقيّداً تاماً بالتسلسل الرتيبي لأفرادها، ونشاهد أمامنا يومياً أمثلة غريبة على ذلك ".** ثم أضاف نيكيتين قائلاً:

"أمامنا حالة الحاج نجم الدين الذي يسرع إليه ابنه البكر خادماً مطيعاً عندما يكون بحاجة لجمرة نار يشعل بها غليونه، فيحمل له طلبه، ويقدمه له بكل احترام. وإذا كلّف الابنُ البكر أخاه الأصغر منه بحاجة ما فإن هذا الأخير يلبّي طلبه بمثل الاحترام والطاعة اللذين يدين هو لوالده لهما، وإن كان الفرق في العمر بينهما لا يتجاوز السنتين- وهكذا يجري التسلسل بين الآخرين حسب نظام التسلسل التدريجي"[1].

ونقل نيكيتين عن رحّالة آخر قوله:

"لا يحق للفتيان الكورد، وإن كانوا من أبناء الزعيم، الجلوس بحضور الكبار، بل يجب عليهم البقاء واقفين لخدمتهم وتقديم القهوة والغليون لهم. وإذا ما دخل أحد الفتيان الخيمة، فإنه يقبّل أيادي جميع الموجودين الذين يكبرونه سنّاً، وهؤلاء يقبّلون جبينه بالمقابل. أما إذا دخلها من هو أكبر سناً ممن هم فيها فإنه يكتفي بأن يصافح الزعيم، ويكتفي الآخرون بأن يرفعوا أيديهم إلى جبينهم دليلاً على الاحترام"[2].

٣ – العلاقات الزوجية: إن الاختلاط بين الرجال والنساء، في المجتمع الكوردي، أتاح للفتيان والفتيات رؤية بعضهم بعضاً قبل الزواج، ولذا فكثيراً ما يكون الزواج ثمرة حب بين الطرفين، ولا يتفاجأ طرف بأمور غريبة وشاذّة في الطرف الآخر بعد الزواج، قال نيكيتين:

---

١ - باسيلي نيكيتين: الكرد، ص ١٧٧.

٢ - المرجع السابق نفسه.

"وليس من عادة الكورد الحدُّ من حرية نسائهم، ذلك أنهن فاضلات مع تأنّق ولياقة وبشاشة، ولا وجود للبغاء بين الكورد، بل إن كثيراً من الوسائل المنتشرة في الشرق تكاد تكون مجهولة لديهم، ويتمّ التعارف بين الفتيان والفتيات بصورة جيّدة، ويسبق الزواج عادة حبٌّ متبادَل بين الفتى والفتاة، وذلك أن للمشاعر الرومانسية سيطرةً واسعة على قلوب الكورد"[1].

وإن التعارف المسبق بين الزوجين قبل الزواج، في إطار من العفّة والتقاليد الاجتماعية السائدة، يشيع الاستقرار النفسي في مسيرة الحياة الزوجية، ومنذ الأيام الأولى يشمّر كل من الزوج والزوجة عن ساعديهما، لبناء عيش مشترك أفضل، ولا ريب في أن البيئة الرعوية والريفية تفرض على الزوجين أن يتحمّلا عبئاً ثقيلاً من التعب والكدح المستمر، ويتحلّيا بقدر كبير من الصبر والتفاهم والتضامن، والحقيقة أن الرجل والمرأة، في المجتمع الكوردي، يتميّزان بقسط كبير من الشعور بالمسؤولية، كلٌّ تجاه الآخر، وكلاهما تجاه الأسرة، ويضربان أروع الأمثلة في التفاني والإخلاص، وعدم الانسياق وراء الرغبات والمتع الشخصية.

ولذا فإن تعدد الزوجات قليل في المجتمع الكوردي، وينحصر في البيئات الغنية (الزعماء والوجهاء)، أوعندما لا تلد المرأة أبداً، أو عندما تلد الإناثَ فقط، كما أن الطلاق قليل جداً، وعلى سبيل المثال طوال نصف قرن لم تحصل في قريتنا Korzsêl إلا حالتا طلاق، وكان الرأي العام في القرية يستنكر ذلك، ويرى من الظلم أن يطلّق الرجل زوجته، ويبعدها عن أولادها وبيتها، بعد أن ذاقت معه مرارات الحياة، والحقيقة أن الزوجين ينصرفان بعد الزواج مباشرة إلى بناء حياتهما على أسس مشتركة من التفاهم العفوي والتكامل الغريزي، ويساعدهما الأهل في ذلك، وإذا نشبت مشكلة بينهما، وهجرت الزوجة بيتها، عائدة إلى بيت والديها، غالباً ما يكون الردّ هو:

"ji wî re to mirî ji gornê re To mayî"

إن حييتِ فأنتِ له (الزوج)، وإن متّ فللقبر.

وبشأن العلاقة بين الزوج والزوجة قال نيكيتين:

---

١ - المرجع السابق، ص ١٦٧-١٦٨.

"والمرأة الكوردية، شأنها شأن نساء كثير من الشعوب، لا تنادي زوجها وأعضاء الأسرة الذين يكبرونها سنّاً بأسمائهم، فهي عندما تخاطب زوجها تقول: (أَيه) أو (أَتو)" أي أنت... والزوج لا ينادي زوجته باسمها، بل يقول لها (كَچَی) أي: يا فتاة"[1].

كما أن الزوج ينادي زوجته أحياناً باسمها في البيت، أما أمام الآخرين فالأكثر استعمال بعض الكنايات، مثل (دِيا فلان...) Diya ... ، ويذكر اسم ابنهما البكر، ومثل (مالا مَه) Mala me، ومع أن كلمة Mal بالكوردي تعني (بيت)، لكن المفهوم من هذه الكناية هو (سيّدة البيت)، وهو وصف دقيق حقاً، لأن الزوجة هي ملكة البيت، ولها كلمة مسموعة في شؤون العيش وقضايا الأسرة، ويعير الزوج أقوالها وآراءها كثيراً من الاهتمام[2].

٤ – رعاية الأولاد: يحبّ الكورد كثرة الأولاد، وخاصة الذكور، والأرجح أن هذه الظاهرة ترجع إلى عاملين: الأول طبيعة الاقتصاد السائد في المجتمع الكوردي، فهو اقتصاد يقوم على الرعي والفلاحة، وكلاهما يتطلّبان عدداً وفيراً من الأيدي العاملة، ومن القادرين على القيام بالأعمال المُجهِدة. والعامل الثاني الحاجة الماسة إلى وجود قوة قتالية تدافع عن العشيرة/القبيلة/العائلة داخلياً، وتواجه الغزوات الخارجية التي لم تكن كردستان بمنجاة منها قطّ. وقد قال مينورسكي:

"الأكراد يحبون كثرة الأولاد، فترى حول كل رئيس عدداً كبيراً من أولاده، عشرة أو اثني عشرة"[3].

والكوردي- رجلاً وامرأة- شديد التعلق بأولاده، كثير الحنوّ عليهم، يحاول، بقدر إمكانياته المادية، أن يوفّر لهم حياة هانئة ومستقرة، لكنه في الوقت نفسه حازم في تربيتهم، صارم في محاسبتهم، ويؤلمه جداً أن يجرّ عليه ابنه أو ابنته سُمعة سيّئة، ويكون مبعث فخره أن يقال عن أولاده: إنهم مجدّون في أعمالهم، ذوو خلق رفيع، يحترمون كبار السن. وقال دانا آدمز في هذا الصدد: **"والكورد يحبّون أولادهم حباً جنونياً" إلاّ أن تربيتهم لهم صارمة وخشنة"**[4].

---

١ - المرجع السابق، ص ١٨٥.

٢ - انظر دبليو آر . هي: مذكرات دبليو آر، ص ٥٩ – ٦٠.

٣ - مينورسكي: الأكراد، ص ٧٦.

٤ - دانا آدمز شمدت: رحلة إلى بلاد شجعان، ص ٢٣٤.

١٦

ذهنية الكورد الاجتماعية (٢)

موقع المرأة في المجتمع الكوردي

ثمة مقياسان دقيقان لمعرفة الذهنية الاجتماعية لشعب ما، صلاحاً أو فساداً، تقدّماً أو تخلّفاً، إنسانيةً أو همجيةً، المقياسان هما الطفل والمرأة" ونخصص هذا المبحث لاستكشاف موقع المرأة في المجتمع الكوردي، وتحديد مدى فاعليتها في تشييد البناء الاجتماعي العام. وفيما يلي أبرز ما يتعلق بحال المرأة في المجتمع الكوردي.

١- السفور وحرية الاختلاط: ثمة فرق بين ثلاثة أشياء: الحجاب، والبُرْقُع، والنِّقاب" نقول هذا لأننا لاحظنا تداخلاً بينها في كتابات بعض الكوردولوجيين، وربما كان ذلك بفعل الترجمة. فالحجاب غطاء (منديل) تضعه المرأة على رأسها، ليخفي أكثر شعرها، ويخفي رأسها من الخلف والجانبين، ويبقى الوجه بالكامل سافراً. أما البُرْقُع فقطعة قماشية، تغطّي بها المرأة مقدّمة أنفها وفمها وفكها الأسفل. وأما النِّقاب فقطعة قماشية تُسدله المرأة من فوق رأسها على كامل وجهها، فلا يُرى منه شيء.

ومن حيث الأصل، وتبعاً للعادات الكوردية الاجتماعية والدينية، لا وجود للبُرقع والنِّقاب في المجتمع الكوردي، وإنما ثمة الحجاب فقط، وهو يوازي العمامة عند الرجل، لا بل إن المرأة الكوردية كانت ترتدي كوفية (عمامة خاصة بالنساء)، وقد وجدت كثيراً من نساء الكورد يرتدين الكوفيات، وخاصة في الأعراس، وإذا وُجد البرقع أو النقاب في بعض البيئات الكوردية- وخاصة في المدن- فهو عادة دخيلة على المجتمع الكوردي، وقد تنبّه كل من خالط

الكورد إلى ظاهرة سفور وجه المرأة الكوردية، قال نيكيتين: **"إن النساء الكورديات لا يعرفن الحجاب[1] على الإطلاق، ولا يُخفين وجوههن أبداً"**[2].

ومن حيث الأصل أيضاً لا يوجد نظام الحريم (حَرَمْلِك) في المجتمع الكوردي، وإن وُجد في حدود ضيّقة فهو دخيل على العادات الكوردية كالنّقاب. وإن سفور المرأة الكوردية مرتبط ارتباطاً وثيقاً بحرية الاختلاط بين الجنسين (الذكور والإناث) في المجتمع الكوردي، ويتجلّى ذلك الاختلاط في جميع مواقع الحياة اليومية، ولا يُعَدّ السفور والاختلاط، بأيّ حال من الأحوال، شكلاً من الخلاعة والميوعة والانفلات، فالأصل في الخُلق الكوردي الرعوي والريفي هو العفّة والثقة بالآخر، وعدم اتّهامه ضمناً- عبر إخفاء الوجه عنه- بأنه فاسد النية، وشاذ ومهووس جنسياً. ولظاهرة السفور والاختلاط في المجتمع الكوردي علاقة بطبيعة نظرة كل من الرجل والمرأة إلى الآخر، إنها نظرة أسمى من أن تنحصر في الأغراض الجنسية الرخيصة، كما أنها مرتبطة بالمكانة المحترمة للمرأة في المجتمع الكوردي.

ولنستمع إلى ما كتبه نيكيتين في هذا الصدد مستعيناً بالرحّالة سون:

"لا تضع النساء الكورديات الحجاب[3] على وجوههن، ويختلطن أيضا بالرجال عند عقد الاجتماعات، ولهن الكلمة التي يستمع إليها رجالهن. يقول سون: في كثير من القرى كانت ربّة البيت تستقبلني في غياب زوجها، وتشاركني الحديث ببهجة وسرور، دون هذا الخجل والاحتشام والضعف المصطنَع للنساء التركيات والفارسيات، بل ويتناولن الطعام معي أحياناً. وعندما يعود زوجها لا تترك الضيف لوحده، مؤكدةً بذلك على اهتمامها به، حتى يدخل الزوج المنزل بعد نزوله عن جواده وربطه في الحظيرة"[4].

وقال حاكم أربيل الإنكليزي دبليو آر:

"والكورد يعاملون نساءهم باحترام يفوق احترام جُلّ الشعوب المحمدية الأخرى، ولا يعمد إلى عزل نسائهم إلا الشيوخ[5]، ولقد نجحت هذه العادة في وقت متأخر جداً، ومردُّها إلى التأثير

---

١ - المقصود بالحجاب هنا هو النِّقاب.

٢ - نيكيتين: الكرد، ص ١٦١.

٣ - المقصود هو النِّقاب أيضاً.

٤ - المرجع السابق، ص ١٦٧-١٦٨. وانظر مينورسكي: الأكراد، ص ٧٤.

٥ - الشيوخ هنا: رجال الدين الكرد المسلمون.

التركي حصراً، وتتجوّل النساء في كل مكان بحرية شأنهن كشأن الرجال، ... إن أغلب الزعماء يخضعون إلى حد كبير وإلى حد صغير لنسوتهم، وإني أرى أن هؤلاء النسوة يمارسن تأثيراً حسناً، ويَحُلْن دون الرأي السفيه الذي قد يراود بعولتهن"[1].

٢ - المهام الاجتماعية: من الإنصاف القول بأن المرأة الكوردية تتعب أكثر من الرجل، إنها تقوم بكل متطلّبات الحياة اليومية (احتطاب، جلب الماء، تخبيز، إعداد الطعام، ترتيب البيت، غسل، تنظيف، تربية الأطفال، إلخ)، وفوق هذا تشارك الرجلَ في كثير من الأعمال التي تفرضها الحياة الرعوية والريفية، وهذه حقائق معروفة في المجتمع الكوردي، والمرأة الكوردية تستحق وسام الإخلاص والتفاني بكل جدارة.

ولندع الآخرين يدلون بشهاداتهم في هذا الميدان، فقد نقل نيكيتين عن مينورسكي قوله:

"لا ريب في أن جميع الأشغال المنزلية الشاقة تقوم بها النساء، فهن يحمّلن الدواب، ويُنزلن عنها الأحمال، ويحملن الماء، ويصعدن إلى مواقع رعي القطعان لحلبها، كما يقمن أيضاً بجمع الأحطاب والمحروقات الأخرى، وينقلنها إلى منازلهن للتدفئة والطبخ. ولا يتخلّين أثناء عملهن هذا أبداً عن أطفالهن الذين يعلّقنهم على ظهورهن بواسطة أحزمتهن الطويلة. ولئن كانت النساء يكتسبن من هذه الأعمال المرهقة قوة جسمانية كبيرة، فإنهن يفقدن بها كذلك أنوثتهن، ويذبلن بسرعة. إن نساء الرؤساء وحدهن يستطعن الحفاظ على جمالهن" لأنهن يعشن حياة هنيئة رغيدة، ولا يقمن بأي عمل شاقّ"[2].

٣ – المكانة الاجتماعية: لا يُنظر إلى المرأة في المجتمع الكوردي نظرة دونية، إنها ليست مجرد أَمَة، تنحصر مهمّتها في خدمة الزوج وتلبية رغباته الجنسية، وسبق القول بأن الذهنية الكوردية تنبذ ثقافة العبودية أصلاً، يستوي في ذلك الرجال والنساء، إنها ذهنية تعشق الحرية، وتتمسّك بالكرامة، ومن الطبيعي أن تنعكس ثقافة الحرية والكرامة على مكانة المرأة، وتتمتّع بقدر كبير من الاحترام الاجتماعي، داخل الأسرة وخارجها، وصحيح أن للرجل القيادة في النهاية، لكنها ليست قيادة سيّد لعبد، وإنما هي قيادة رفيق لرفيق في درب الحياة الطويل والصعب، وفي الوقت نفسه لا تستغلّ المرأة ذلك الاحترام على نحو سيّئ، فلا تمارس التعالي

---

١ - دبليو آر . هي: مذكرات دبليو آر، ص ٥٩ – ٦٠.

٢ - نيكيتين: الكرد، ص ١٦٧.

والعُنْجُهيّة على زوجها، ولا تستهين به، وحتى إذا كان زوجها ضعيف الشخصية داخل البيت، فإنها حريصة على أن تكون له الصدارة في الوسط الاجتماعي.

وإليكم بعض ما قيل بشأن مكانة المرأة في المجتمع الكوردي، ولنبدأ بقصة فتاة أرمنية أرستقراطية المنبت، تُدعى أنتارام الطرابزونية، بيعت من قِبل بعض الجندرما (الدَرَك) الأتراك لشاب كردي رَعَويّ المنبت، وها هي ذي تروي حكايتها معه:

" ماذا كنتُ في الواقع بالنسبة لهذا الكوردي؟ أَمَة؟ خادمة؟ ضيفة؟ لماذا اشتراني؟ إن لدى هذا الإنسان البدائي شعوراً عميقاً بالنبل الفطري، ... لم يكن في بيته نساء، فمن أين له هذا الاحترام الذي يكنّه للمرأة ... ؟! لقد أحببت هذا الرجل الذي لم أكن أعرف عنه شيئاً، بل كنت أجهل حتى لغته وتاريخ شعبه، في الصباح أنهضني من فراشي، وأخذني من يدي، وراح يدور معي بتؤدة حول النار" تلك هي العادة الجارية لديهم، فعندما تتزوج فتاة تودّع منزل والديها بهذه الطريقة. وبعد لحظات استدعاني مع مربّيتي إلى ساحة المنزل، حيث كان قد جمع مئة رأس من الغنم، وخمسة جواميس، وسَرْجاً جديداً،... وأوقفَنا هناك، وقال لنا: كان من الواجب عليّ أن أقدّم لوالدك مهر الزواج، ولذا فإني أقدّم هذه الأشياء لمربّيتك التي رافقتك إلى هنا".

وتستمر أنتارام الأرمنية في رواية حكايتها، قائلة:

"وكان ينظر إليّ بفرح ظاهر، وبطبيعة الحال لم يكن أحد ما قد أرغمه على القيام بهذا العمل، ولكنه كان يريد أن يُظهر للجميع أنه لا يحتفظ بهذه المرأة الغريبة في خيمته لمتعة رخيصة، إنما اتخذ مني زوجة شرعية" كي يحترمني الجميع، فشعرتُ بتأثّر شديد. وبعد مضي أسبوع سمعتُ أصواتاً خارج باب الخيمة" كانت وَقْعَ أقدام وثُغاء حِمْلان. فخرجت لأرى ما يحدث، فأخذ يترقّبني، ثم قال: كان الواجب أن تعودي إلى أهلك بعد العرس، ليقدّموا لك البقر والفرس والمِعْزى كما هي العادة، لتصبح مواليدها مُلكاً لك، تلك هي تقاليدنا، وأنا لا أريد أن تكوني أفقر من غيرك من النسوة" لذلك فإني أقدّمها لك بنفسي. ومرّت الأيام، ورُزقت طفلاً أخذ ينمو بيننا، كان لا يتكلم كلمة كردية واحدة كأنه أرمني صغير، ولم يُبدِ والده أيّ

تذمّر من ذلك، ولكنه قال لي ذات يوم: لقّنيه على الأقل كلمة بابا[1]" لم أحقق له رغبته. إن هذه السعادة ما تزال قائمة بيننا منذ زواجنا قبل أربعة أعوام"[2].

وقد تنبّه مينورسكي إلى ظاهرة في المجتمع الكوردي تستحق التأمل، لقد قال: **"للمرأة عند الأكراد شخصية بلا شك، وليس من العبث أن نرى اسمها يضاف إلى اسم ابنها" إذا كانت تتمتع بذكاء معيّن أو جمال"**[3]. ومعروف أن مينورسكي كردولوجي روسي، قام برحلات استطلاعية إلى شمالي وشمال غربي كردستان، وكان عضو لجنة تنسيق الحدود بين الدولتين العثمانية والإيرانية سنة (١٩١٣م)، وألّف كتابه (الأكراد) سنة (١٩١٥م).

والحقيقة أنني عاصرت ظاهرة نسبة الابن إلى الأم في مجتمعنا العفريني، وكان كثير من الصبية والشباب- وأنا منهم- وأحياناً بعض الكهول، يُنسَبون إلى أمهاتهم اجتماعياً، وليس رسمياً، وخاصة فيما بين النساء، بغض النظر عن أن تكون الأم جميلة أو لا، وما كان الآباء يستهجنون ذلك أو يعترضون عليه، بل كان أمراً عادياً، حتى إنني لم أتنبّه إلى أهميته إلا بعد أن قرأت ملاحظة مينورسكي. ولا تفصح هذه الظاهرة فقط عن أهمية مكانة المرأة، وروح الديمقراطية في الثقافة الكوردية، وإنما تفصح أيضاً عن رسوخ قيم العهد النيوليثي في المجتمع الكوردي، لا بل إنها- وبوجود قرائن أخرى- تشجّعني على أن أذهب أبعد من ذلك، وأستدلّ بها على وجود بُنى عصر الأمومة (الربّات) في عمق الوعي الجمعي الكوردي.

وقال نيكيتين في هذا المجال:

"الأسرة الكوردية أقرب إلى المفهوم الغربي من الأسرة التركية أو الفارسية (قبل إجراء الإصلاحات التي تمّت في تركيا وإيران بعد الحرب العالمية الأولى)، وذلك لِما تتمتّع به المرأة الكوردية من مكانة... إن زوجة الكوردي سيّدة البيت، وهي تتمتع بسلطة واسعة داخل الأسرة، فهي التي تتولّى إدارة البيت، ويعمل الخدم تحت إشرافها، وهي التي توزّع الطعام على أفراد الأسرة، ولا يمكن لأحد أن يبدأ الأكل عند نصب الخِوان[4] بدون إذنها، وفي غياب الزوج

---

١ - المقصود أن تعلّم الطفل قول (بابا) بالكردية.

٢ - المرجع السابق، ص ١٦٨ -١٦٩.

٣ - مينورسكي: الأكراد، ص، ٧٥. وانظر نيكيتين: الكرد، ص ١٧٠.

٤ - الخِوان: المائدة.

تستقبل هي الزُّوّار، وتستضيفهم وتتحدّث بحرية إليهم، ولا تُخفي وجهها كما تفعل غيرها من النساء في البلدان الإسلامية الأخرى"[1].

٤ – قوة الشخصية: أقصد بقوة الشخصية الصلابةَ والشجاعة والقدرات القيادية في المرأة الكوردية، ولعل أصدق تعبير عن ذلك هو المثل الكوردي القائل: Şêr Şre çi jin çi mêreê (الأسد أسد، رجلاً كان أم امرأة)، ولا عجب أن تكون المرأة الكوردية قوية الشخصية، فالجبل مفتاح الشخصية الكوردية، ومن الطبيعي أن تتجلّى الخصائص الجبلية في شخصية المرأة، كما تتجلّى في شخصية الرجل.

ولنبدأ بخصلة القيادة، فكثير من النساء الكورديات قائدات ممتازات ضمن أسرهن، ليس بشكل فاقع، وعلى حساب تقزيم شخصية الرجل، وإنما بشكل لطيف ومرن وغير مباشر. وعدا مجال الأسرة، فإن في تاريخ الكورد نساء قمن بدور القيادة حتى على صعيد قيادة الجند، وهذه ظاهرة عريقة جداً في تاريخ أسلاف الكورد، وخاصة عند فرع گـوتي (جوتي/جودي)[2]. وإن المقاتلات الكورديات اللواتي يلتحقن بالجبال، ويحملن السلاح، ويشاركن في الثورات، إنما يجسّدن هذه الخصلة العريقة في شخصية المرأة الكوردية، وهذه الظاهرة يعجز عن فهمها أصحاب فلسفة (المرأة ضِلع قاصر)، وأنها شرٌّ لا بدّ منه، وأنها خُلقت للمطبخ والفراش فقط.

قال نيكيتين في هذا المجال:**"ويمكننا أن نذكر أسماء العديد من النساء اللائي تزعّمن بعض العشائر التي خضعت لهن خضوعاً تامّاً"**[3]. ومن تلك النساء عادلة خان أرملة عثمان باشا جاف، في مدينة حلبچة سنة (١٩١٤ م)، وكان مينورسكي قد التقاها، ووصف قوة شخصيتها[4].

وقال دبليو آر حاكم أربيل الإنكليزي:

"كانت ثمة أميرة كردية تعيش في منطقة راوندوز تقريباً، تسمى (خانزاد)، كان لها شأن في هَرور(حرير)، و (باطاس)، عندما قامت فيها إمارة سُوران الكوردية...، لقد كانت هذه الأميرة

---

١ - نيكيتين: الكرد، ص ١٧٦.

٢ - أحمد فخري: دراسات في تاريخ الشرق القديم، ص ١٩٦.

٣ - نيكيتين: الكرد، ص ١٧٠.

٤ - مينورسكي: الأكراد، ص ٧٦.

ترتدي ملابس الرجال، وتحمل السلاح، وتَسْري ليلاً للمراقبة، وتجلس لسماع شكاوى الناس، وحلّ خصوماتهم ومشاكلهم وكان قصرها في شَقْلاوَه، ولا تزال آثاره على جبل سِفين"[1].

ولم تكن المرأة الكوردية بعيدة عن مجال الفروسية، فقد نقل نيكيتين عن مينورسكي قوله:

"والنساء الكورديات- أيّاً كانت طبقتهن ومهما بلغن من العمر- يُجدن الفروسية، بل ويتحدّين الرجال في امتطاء الخيل، كما أنهن لا يخشين كذلك تسلق الجبال الوعرة، ويُبدين مهارة فائقة في ذلك"[2].

وأما بالنسبة إلى صلابة المرأة الكوردية فما أكثر الأدلة على ذلك! أبرزها هو صمودها في مواجهة قسوة الحياة الرعوية والريفية، بكل ما تعنيه تلك الحياة من بؤس وكدح وشقاء، ثم هل هناك ثورة كردية نشبت من غير أن تكون المرأة مساهمة فيها بشكل مباشر وغير مباشر؟ وهل كان من الممكن للكردي أن يهجر الدار، ويحمل البندقة، ويلتحق بالجبال، لولا ثقته بأن شريكته سترعى الأولاد والماشية والحقل من بعده؟ وهل كان من الممكن للشباب الكورد أن يخوضوا غمار القتال، لولا أنهم رضعوا الإباءَ والشجاعة من الأمهات؟ وها هو ذا دانا آدمز يصف امرأة كردية من جنوبي كردستان، تغادر قريتها إلى الجبل، لتنجو من قصف الطائرات المعادية، قائلاً:

"سارت أمٌّ في مقتبل العمر ببطء في الطريق الصاعدة، وترعى نصف دزّينة من الأطفال، وأربعاً وخمساً من الماعز، وتحمل غِرارة كبيرة[3] على عاتقها، وأردفت فوقها أوعية المطبخ وأوانيه، وتسوق بغلاً محمَّلاً بأثاث بيتيّ أمامها، وتنسج جَوْرَباً وهي سائرة، كانت تقصد كهفاً تقضي فيه نهارها، ثم تعود عند حلول المساء إلى القرية في موعد إشعال النار وخَبْزِ كميّة من الرِّقاق (نان)، وعند الفجر تنهض ثانية، لتصنع اللبن والزبد بخضّ اللبن في زِقّ من جلد الماعز، بحركة رتيبة إلى الأمام والخلف، ثم تصعد الجبل ثانية هرباً من الطائرات المخيفة"[4].

---

١ - دبليو آر . هي: مذكرات دبليو آر، ص ٢٧٠، الهامش.

٢ - نيكيتين: الكرد، ص ١٦٧.

٣ - الغِرارة: كيس كبير.

٤ - دانا آدمز شدت: رحلة إلى بلاد شجعان، ص ٢٤١.

وتعالوا نرَ موقف والدة المناضل خليل خُوشَفي، فبعد استشهاد ابنها - نتيجة الخيانة- في فبراير/شباط (١٩٣٦ م)، بكردستان الجنوبية، قَطعت السلطات العراقية رأسه، وأخذوا الرأس إلى منطقته شَيْرَوان، وأحضروا والدة خليل وزوجته، وأشار ضباط إلى رأس خليل، وسأل والدته: هل تعرفين هذا الرأس؟ فأجابت: نعم، إنه ابني خليل الذي قتلتموه خداعاً وغدراً، وإني لفخورة به. وكاد أن يُغمى على زوجة خليل من هول المشهد، وبكت، فصاحت بها حماتها قائلة: لا تبكي أمام أنظار هؤلاء الجبناء، كي لا يشمتوا بنا[١].

٥ – الحرص على الكرامة: المرأة الكوردية حريصة على ألا يُعبَث بشرفها، بل إنها تُقدِم على الموت في سبيل ذلك، قال المؤرخ العربي أُسامة بن مُنْقِذ (ت ٥٨٤ هـ/١١٨٨م) في أحداث الحروب الصليبية:

"وكان في جند الجِسْر[٢] رجل كردي يقال له أبو الجَيْش، وله بنت اسمها رُفول، قد سباها الإفرنج، وهو قد توسوس عليها، يقول لكل مَن لقيه يوماً: سُبِيتْ رفول!! فخرجنا من الغد نسير على النهر[٣]، فرأينا في جانب الماء سواداً، فقلنا لبعض الغلمان: اسبح وابصر ما هذا السواد؟ فمضى إليه، فإذا ذلك السواد رفول، عليها ثوب أزرق، وقد رمت نفسها من على فرس الإفرنجي الذي أخذها، فغرقت، وعلق ثوبها في شجرة الصفصاف، فسكنت لوعة أبيها أبي الجيش"[٤].

وفي سنة (١٦٠٨م) حاصرت القوات الصفوية قلعة دُمْدُم، وبعد قتال شديد، وصمود منقطع النظر، نفد الطعام والشراب عند سكان القلعة، وفتك بهم الجوع والمرض، فمات من مات، وسقط الباقون أرضاً، وعجزوا حتى عن حمل السلاح، وعندئذ فقط استطاع الجنود الفرس دخول القلعة، فهرعت النساء الكورديات، ورمين بأنفسهن من فوق أسوار القلعة إلى هُوّة في أسفل الجرف الذي كانت عليه القلعة، وفضّلن الموت على أن يقعن في أيدي القوات الفارسية.

وذكر المناضل الكوردي حسن هشيار في (مذكرات مقاتل)، أنه في غمار ثورة سنة (١٩٢٥م) بقيادة شيخ سعيد، أصدرت قيادة القوات التركية الأمر بالقتل الجماعي لعشائر

---

١ - مسعود البارزاني: البارزاني والحركة التحررية الكردية، ٩٥/١.

٢ - الجسر: هي مدينة جسر الشُّغور في شمال غربي سوريا.

٣ - المقصود نهر العاصي.

٤ - أسامة بن منقذ: كتاب الاعتبار، ص ٥٣.

زِيلان وسِپِيكان وأدمان وحَسَنا، ففتك الجنود بسكان (١٨٠) قرية، وعندما كانت النساء الكورديات يرين الجنود الأتراك يقتربون منهن، كن يرمين بأنفسهم من الأماكن العالية، ويقفزن إلى نهر زيلانzîlan، مفضّلاتٍ الموتَ على أن يعبث الجنود بشرفهن[١].

الجذور العميقة لذهنية الكورد الاجتماعية:

تلك هي السمات العامة لذهنية الكورد الاجتماعية، وهي سمات مُطَمْئنة في الغالب، لكن هل معنى ذلك أن المجتمع الكوردي هو (جمهورية أفلاطون) المثالية، و(مدينة الله) التي تصوّرها القدّيس المسيحي أُوغسْطِين؟ لا، إن المجتمع الكورد يعاني- كغيره من مجتمعات العالم- كثيراً من الثغرات والعيوب والمشكلات، وهي أحياناً ثغرات خطيرة وعيوب مخيفة ومشكلات مدمّرة، وهي ليست منفصلة البتّة عن الوضع الشاذ الذي أُقحم فيه الكورد.

وحسبنا الآن أن نشير إلى العلاقة بين ذهنية الكورد الاجتماعية، بما تتأسّس عليه من وجدان جمعي ولاشعور جمعي من جانب، وبين الإرث الاجتماعي الكوردي من جانب آخر، وقد بدا لنا، بكثير من الأدلة والقرائن والمؤشِّرات، أن خصائص ذهنية الكورد الاجتماعية تعكس بدقة مسيرةَ المجتمع الكوردي منذ خمسة آلاف سنة على أقل تقدير، مسيرتَه في التكيّف مع شروط الحياة في الجبال، وهي ليست بالحياة السهلة أبداً، ومسيرتَه في التغلّب على صعوبات الحياة الرعوية والريفية، ومسيرتَه في التغلّب على مشاريع الغزو التي لم يرتح منها قطّ، ومسيرتَه في الاحتفاظ- رغم كل العقبات والتحديات- بوجوده من الاندثار، وبهويته من الانهيار.

أضف إلى هذا أن قيم العهد النيوليثي- بما تعنيه من روح التكافل والتكامل والتفاني- كانت رابضة بقوة في الوعي الجمعي الكوردي، وكانت تتسلّل، عبر قنوات اللاشعور الجمعي، إلى ساحة الحياة الاجتماعية، وتضفي ألوانها على المواقف والعلاقات والسلوكيات، ولا سيّما في مجال العلاقات الأسرية، وفيما يتعلّق بموقع المرأة ضمن النسيج المجتمعي.

---

١ - حسن هشيار: مذكرات مقاتل، حلقة ١٣.

وثمة أمر آخر أحسب أنه كان- وما زال مؤثّراً- في تشكيل الإطار المرجعي لذهنية الكورد الاجتماعية" وهو البنى الميثولوجية التي تطوّرت عبر القرون، ووصلت إلى صورتها الفضلى في العقيدة الزردشتية، وباعتبار أن الزردشتية كانت نتاج بيئة اجتماعية يغلب عليها الطابع الرعوي الريفي" وورد فيها كثير من القيم والموجّهات التي تربط الفرد بالقبيلة والقرية، وأذكر على سبيل المثال الشواهد التالية:

- **" الذي يكون طيّباً مع الإنسان الصالح، سواء كان نبيلاً، أو فرداً من القبيلة، أو من الجماعة، أو أنه يعتني بالماشية بكدّ واجتهاد، سيكون في الآخرة في مرعى الحق والعقل الخيّر"**[1].
- **" إلى أين أذهب، وإلى أيّ أرض أتجه؟!**

بعيد أنا عن الوطن.

وزعماء القبيلة وقبيلتي لا تعترف بي"[2].

أما بشأن الدعوة إلى بناء علاقات اجتماعية سليمة، والحرص على تكوين الأسرة المستقرة الصالحة، ففي أڤستا والزَّنْد أڤستا كثير من الموجّهات والضوابط، بل ثمة تحذيرات شديدة اللهجة لكل من يُخلّ بتلك الضوابط، ويخرج عليها قليلاً أو كثيراً، وفيما يلي بعض الشواهد.

- الدعوة إلى بناء أسرة طيبة: يسأل زردشت الإله آهورامَزدا: **"أيها الصادق وخالق العالم المادي، أين هي الأرض الثانية الأكثر طيبة؟ أجاب آهورامازدا: في الحقيقة هي تلك الأرض التي يبني عليها الصالح بيتاً، ويزوّده بالنار، والحليب، والزوجة، والأولاد، والماشية الطيبة"**[3].
- الدعوة إلى حسن العلاقة بين أفراد الأسرة: **"سأل الحكيمُ روحَ العقل: أيّةُ حماية أأمن؟ أيُّ صديق وأيُّ وريث أفضل؟ ... أجاب روح العقل: حمايةُ الآلهة أأمن، الأخُ الجيّد أفضلُ صديق، أفضلُ وريثٍ الابنُ الجيّد، والزوجةُ الجيّدة أفضلُ صديق للهو والمرح"**[4].

---

١ - أڤستا، ياسنا، هايتي ٣٣، آية ٣، ص ١٢٣.

٢ - أڤستا، ياسنا، هايتي ٤٦، آية ١، ص ١٤٤.

٣ - أڤستا، ڤيديداد، فارگارد ٣، آية ٢، ص ٢٣٣.

٤ - زند أڤستا، نصوص پهلوية، دادستان ومينوغ وخراد، ص ٨٤٥.

- الدعوة إلى زواج الأقارب: **"سأل الحكيمُ روحَ العقل: ما هو أكبر وأفضل عملٍ خيرٍ؟ أجاب روح العقل: أكبرُ عملٍ خيرٍ النبالةُ. ثانياً الحقيقةُ وزواجُ الأقرباء بالدم"**[١].
- الترغيب في كثرة الأولاد الذكور: **"نقدّم القربان لفراڤاشي المؤمنين، وللإناث اللواتي ينجبن حشوداً من الذكور"**[٢]. **"أرغب في هذه الياسنا من أجل النسوة اللواتي لديهن العديد من الأبناء"**[٣].
- خصال المرأة النموذجية: **"سأل الحكيمُ روحَ العقل: ... ومن تُعِدّ المَثَل الأعلى للنساء؟ أجاب روحُ العقل: ... المثلُ الأعلى للنساء هي المرأة الفتيّة، العطوفة، الأمينة ذات السمعة الطيبة، والطبع الحسن، المنيرة للبيت، المُحتشِمة، التي تُعَدّ صديقاً لأبيها ولجدّها ولزوجها ولمعلّمها"**[٤].
- تحذير شديد من إهمال المرأة لأطفالها: جاء في الإسراء والمعراج الزردشتي- وقد قام بهما ڤيراز الصالح- أن ڤيراز رأى في الجحيم روح امرأة تُعَذَّب، فسأل مرشدَيه المَلاك المبارك سَراوش والإله آدور عن الذنب الذي اقترفته المرأة في الدنيا، فأجابا: **"هذه روح الآثمة التي تركت في حياتها الدنيوية وليدَها يبكي في أثناء الحاجة والجوع"**[٥].
- تحذير شديد من العقوق: شاهد ڤيراز الصالح في الجحيم أرواح بعض البشر وهي بحالة يُرثى لها، فسأل مرشدَيه عن السبب، فأجاباه: **"هذه أرواح أولئك الناس الذين أحزنوا آباءهم وأمهاتهم في حياتهم الدنيوية، لم يطيعوهم، ولم يطلبوا منهم الغفران"**[٦].

---

١ - زند أڤستا، نصوص پهلوية، دادستان ومينوغ وخراد، ص ٨٤٠.

٢ - أڤستا، ياشت ٢، آية ٥، ص ٣٨٩.

- ٣أڤستا، ياسنا، هايتي ٢، آية ٦، ص ٥٠.

٤ - زند أڤستا، نصوص پهلوية، دادستان ومينوغ وخراد، ص ٨٦٨.

٥ - زند أڤستا، نصوص پهلوية، الإسراء والمعراج الزردشتي، ص ٩٦٩.

٦ - زند أڤستا، نصوص پهلوية، الإسراء والمعراج الزردشتي، ص ٩٧١.

١٧

الفولكلور الكوردي- ١

الأزياء والأغاني الشعبية

مدخل: ما هو الفولكلور؟

ظهر مصطلح فولكلور Folklore سنة (١٨٤٠م)، من قِبل عالم الآثار الإنكليزي وليام جون توماس W.J.Thomas، واستخدمه بدل (الأزياء الشعبية)، ويتألف هذا المصطلح من: Folk (ناس)، وLore (معرفة/حكمة)، ومعناه: معارف الناس، أو حكمة الشعب، وتوسّع معنى فولكلور في الدراسات الحديثة، فصار يدل على التراث الشعبي عامة" كالمعتقدات، والعادات والتقاليد، والأزياء، والأمثال، والألعاب، والموسيقى، والأغاني، والأحاجي والألغاز[١].

والفولكلور من أهم عوامل تجانس المجتمع، وهو الممثل الأكثر صدقاً لروح الشعب، وفيه يتجلّى قدر كبير من أصالته وشخصيته العفوية، وإن إقبال الشعوب على فولكلورها أحد أشكال تقمّص أرواح الأسلاف، والتمسك بالهوية الوطنية والقومية، وصحيح أن الفولكلور يتصف بقدر كبير من الثبات، لكن ثباته ليس أبدياً، إنه- كغيره من البنى الثقافية- عرضة للتطوّر والتحوّل، والتقلّص والإضافة، وقد تختفي بعض عناصره مع مرور الأيام، وخاصة في مواجهة الحداثة.

ويتأثّر الفولكلور خلال تشكله بخمسة عوامل: أولاً البيئة الطبيعية. وثانياً الميثولوجيا والدين. وثالثاً القيم الأخلاقية السائدة. ورابعاً الجنس (ذكور/إناث). وخامساً مستوى الذوق

---

١ - انظر كراب: علم الفولكلور، ص ١٧. عبد الغني عماد: سوسيولوجيا الثقافة، ص ١٥٩.

الجمالي، وهذا الأخير يتحدد بدوره وفق المستوى الثقافي والحالة الاقتصادية لكل من الفرد والجماعة. ومن المفيد أن نأخذ هذه العوامل بالحسبان في دراسة الفولكلور، ونتناول في هذا المبحث والذي يليه المكوّنات الآتية من الفولكلور الكوردي: الأزياء، والأغاني، والموسيقى، والرقص، وفولكلور المراعي.

أولاً- الزِّيّ الكوردي الرجالي:

الكورد بصورة عامة محبّون لزيّهم الفولكلوري-يسمّونه (الوطني/القومي)- متمسّكون بارتدائه، وخاصة في المناسبات كعيد نوروز، يقول زِنار سَلُوبي (قدري جميل پاشا)، في أوائل القرن العشرين، أثناء دراسته في إستانبول:

"كنت أشعر بغبطة وسعادة كبيرتين تغمر قلبي، حينما كنت أشاهد الأكراد يتردّدون على المقهى بزيّهم القومي، وبشكل خاص أُعجبت بالمنظر الرجولي للمرشد ملاّ سعيد[1] الذي كان يرتدي زيّاً كردياً خاصّاً"[2].

ويتألف الزيّ الكوردي الرجالي الخارجي في أغلب مناطق كردستان من أربع قطع رئيسة" هي العمامة، والقميص، والحزام (پِشْت Pişt)، والسروال، ومما لا شك فيه أن للبيئة الجبلية والمُناخ البارد دوراً مهماً في شيوع هذا الزيّ بين الكورد، باستثناء بعض المناطق الكوردية السهلية المتاخمة للبدو العرب في سِنْجار والجزيرة، وفي مناطق عين العرب والباب والسِّفيرة في شمالي سوريا، إذ يرتدي الرجال الدِّشْداشة بدل القميص والسروال، ويتعمّمون بالغَتْرة (الشِّماخ) والعقال بدل العمامة.

وتتكوّن العمامة الكوردية من طاقيّة صوفية مرتفعة تسمّى (كُلاو Kulaw و(كُمْ Kom، تُلفّ حولها قطعة قماشية طويلة، والطاقيات صغيرة في لورستان بأقصى الجنوب، وفي الشمال والغرب، وتتنوّع العمامة حجماً وشكلاً وتكويراً ولوناً بحسب البيئات والعشائر، والملاحَظ أيضاً أنها في المناطق الكوردية الشرقية والجنوبية أكبر منها في الشمال والغرب، وإلى جانب تأثير المُناخ في اتخاذ العمامة لحماية الرأس من البرد والحر، فإنها تشبه الجبل بشكلها شبه

---

١ - المقصود شيخ سعيد نورسي.

٢ - زنار سلوبي: في سبيل كردستان، ص ١٧.

المخروطي، وبتكويرها طبقة فوق أخرى، ويقوى هذا التفسير حينما يلمح المرء العمائم الضخمة لبعض زعماء قبائل شرقي كردستان، في أواخر القرن التاسع عشر. أما في مناطق صُوران بجنوبي كردستان فتزدان حوافّ العمائم بأهداب وكشاكش، كحوافّ الأرائك القديمة الطرز حسب وصف دانا آدمز، وحسبما هو مشاهَد في أيامنا هذه[1].

أما القطع الثلاث الأخرى (القميص، الحزام/پِشْت Pişt، السِّرْوال) فهي أيضاً متنوّعة الأشكال والألوان، وأكثر ما يلفت الانتباه هو نوع التطريز على القمصان والسراويل، وحجم الحزام، فهو كبير جداً عند القبائل الشرقية والجنوبية، وقد يبلغ طوله من (٤ – ٥) أمتار، ويُغرز فيه الخنجر والمسدّس، وربما توضع في طيّاته النقود وعلبة التبغ أيضاً، والمُلاحَظ أيضاً أن السراويل تكون ضخمة الحجم وفضفاضة في شرقي كردستان، وتصبح أقل ضخامة في الجنوب، وتبدو أصغر في لورستان وعند كرد الشمال والغرب، ويصبح السروال على شكل بنطال فضفاض عند بعض قبائل الشمال، ويكون مخطّطاً أحياناً طولياً بالأبيض والأسود، ويستحق هذا النمط أن يُعَدّ السلالة الأولى للبنطال الأوربي الحديث.

وقد مر أن دولة ميديا حقّقت التجانس في مجتمع أسلاف الكورد ثقافياً وسياسياً واجتماعياً، فهل يشتمل الزي الكوردي الرجالي على بعض مكوّنات الزي الميدي؟ قبل الإجابة دعونا نعرف الزي الميدي، فالميدي كان يرتدي رداء، ويربطه بحزام، شُدّت إليه حربة قصيرة، ويضع على الرأس غطاء يسمّى (Backlyh)، وهو غطاء خاص بالرعاة، كان يُصَنع من الصوف على هيئة قبّعة مدبَّبة مزوَّدة بشريطين طويلين، يتدلّيان حول الرقبة، ويوضع في الرجل حذاء له رقبة[2].

وذكر دياكونوف أن الزي الميدي كان يتألف من: **"رداء طويل، له أكمام طويلة مرتفعة، وسروال مَطويّ الثنايا، بأذيال طويلة، مع روب قصير من قطعة أخرى ملوَّنة، ومصنوعة من الحرير، ويلبسون الطاقيات العالية، ... هذه الملابس للأقوام الميدية الشرقية كانت سائدة في جميع أنحاء أراضي ميديا بشكل رسمي، وفي القرن السادس قبل الميلاد كان الفرس أيضاً يلبسون هذه الملابس"**[1].

---

١ - انظر دانا آدمز شمدت: رحلة إلى بلاد شجعان، ص ٢٧١.

٢ - عبد الحميد زايد: الشرق الخالد، ص ٥٩٢.

١ - دياكونوف: ميديا، ص ٣٤٨ – ٣٤٩.

وأحسب أن بعض مظاهر الزي الميدي ما زال ماثلاً في أردية رجال الكهنوت الأيزدي، وفي السروال الكوردي المطوي الثنايا، وفي الخنجر المغروز في الحزام، وفي الطاقية المرتفعة التي تُلَفّ العمامة حولها، وفي الطاقية المدوَّرة الأقل ارتفاعاً، إنها تُرتدى من غير عمامة، ويظهر شعر الرأس من تحتها، وكلما لمحت رجال الدين الفرس والكورد المسلمين، وخُصلة الشعر بادية من مقدّمات عمائمهم، تذكّرت الطاقية الميدية، بل يجمح بي الخيال، فألمح في الطيّات المتراكبة على شكل نصف قوس من جانبي مقدمة العمامة رمزَ إشراقة شمس آهورامَزْدا، ومعروف أن الفرس يلتقون مع الكورد في القرابة الإثنية والعقيدة الزردشتية، إضافة إلى أن أسلافهم كانوا مغرمين بالزي الميدي، قال هيرودوت يصفهم: **"فهم يرتدون أزياء الميديين...، لاعتقادهم بأن تلك الأزياء أكثر أناقة من أزيائهم"**[1].

وقد ذكر دياكونوف أن رجال لوللو يظهرون في كتابات الملك الأكّادي نارام- سين Naram - Sin (2260 – 2223 ق.م) بملابس خفيفة وطويلة، ويضعون قطعة جلد على أكتافهم، وأن هذه كانت ملابس الميتّانيين، والميديين الغربيين، والكاشّيين في الألف الأول ق.م[2]. ولا أستبعد أن تكون آثار قطعة الجلد باقية في المعطف الجلدي القصير المصنوع من جلود الخراف، والذي يُعرف في هَوْرامان Hewraman بجنوبي كردستان باسم (كُلَه بال) Kolebal، وينتهي فوق كل منكب ببروز قصير، ويُسمّى في منطقة صُوران (پَسْتَك) Pestek، ويسمّى في منطقة بادِينان Badînan (چُوخْ) Çox، لكن من غير بروز على الكتفين، حسبما أفاد الأستاذ نجات ناوي (من جنوبي كردستان).

وثمة في الأزياء الكوردية ظاهرات تلفت الانتباه، مع أنها قد لا تكون عامة، ومنها أنني وأبناء جيلي بمنطقة عِفْرين كنا نرتدي- ونحن صبية في خمسينيات القرن العشرين- قَلَنْسُوَة كانت تُنسج من الخيوط القطنية، بيضاء مخرّمة مخروطية طولها حوالي شبر ونصف، تنتهي من قمتها بكرة صغيرة من الخيوط، وكان الكبار يلفّون حولها عمامة تسمّى (شَعْرا كِسْرَواني)، وكان الشباب يرتدونها بلا عمامة، وكنا- نحن الصبية- نرتديها في الأعياد والأعراس ومناسبات الختان والاحتفال بختم القرآن. وبعدئذ تقلّص ذلك الزيّ بسرعة، وانحصر في بيئات

---

١ - هيرودوت: تاريخ هيرودوت، ص ٩٦.

٢ - دياكونوف: ميديا، ص ١٠٨.

محدودة، ثم ظلت آثاره عند بعض المطربين الشعبيين (الطبّالة) Gewende، ثم دخل متحف التاريخ، وظهر حديثاً في أزياء بعض الفرق الفولكلورية.

وبعد نصف قرن عرفت أن تلك القلنسوة هي من سلالة القبّعة الميدية المخروطية المدبَّبة التي مر ذكرها، والأغرب من هذا أنني اكتشفت في لحظة من اللحظات، وأنا أشاهد قباب المزارات الأيزدية المخروطية البيضاء المدبَّبة، أنني كنت ذات يوم أحمل فوق رأسي قبّة صغيرة من تلك القباب، لكن على شكل قلنسوة، وكنت أشرت في مبحث سابق من هذه الدراسة إلى رمزية الجبل البادية في تلك القباب، إضافة إلى رمزية الضياء والشمس (البياض والإشراق) المتأصلة في صميم الميثولوجيا والأديان الكوردية، بدءاً من الأزدائية والمِثرائية، وانتهاء بالزردشتية.

وثمة ظاهرة أخرى مثيرة للانتباه في الزي الكوردي الرجالي والنسائي معاً، وهو وجود رُدْن أبيض طويل عند الرُّسغ، وهو عند الرجال ملفوف في الغالب، وقد يُطلق في المناسبات، أما عند النساء فطليق على الغالب، وقد يُربط الردنان خلف الظهر، ويرتبط ظهور هذا الزيّ بالأعراس والمآتم والحروب، وأفاد الأستاذ نَجات ناوي أن ذلك الردن يسمى بالكوردية (لَوَنْدي) Lewendî، وذكرنا سابقاً أهمية اللون الأبيض في الميثولوجيا والأديان الكوردية قبل الإسلام، وأن الزردشتية كانت تسمّى (الدين الأبيض)، وكانت العادات والتقاليد الكوردية الأصيلة تسمّى في الملاحم الشعبية (الكُرمانجية البيضاء) Kormanjiya sipÎ" فهل الردن الأبيض من رموز الدين الأبيض؟ إن ما يرجّح ذلك هو عدم وجود أيّة قيمة نفعية عملية لوجوده في الرُّسغ.

والعجيب أن زيّ (لوندي) موجود في فولكلور رجال الأسرة السعودية المالكة، إنه يظهر في (عَرْضة) مهرجان الجَنادرية السنوي" إذ يرتدي كل رجل رداء مرقَّطاً، ويتدلّى من رُسغيه لونديان أبيضان، ويلوّح بالسيف، وهو يرقص باتّزان على إيقاع الطبول، واللونديان يتمايلان يَمْنة ويَسرة، وهذا أمر مثير، ولا نعرف إلى الآن تفسيراً له، ودعونا نستأنس برأي دبليو آر حاكم أربيل البريطاني، إنه يقول:

"ولا بد من كلمة تقال في الأردان البيض الطويلة التي يستعملها كل كردي، إن العرب في الأغلب يستعملونها أيضاً، لكن ذلك من دون مبالغة في طرزها. ولقد سألت مرات كثيرة عن السبب في طولها، فأُجبت: إنها لِتُمكّن لابسها من ربط نهايتها خلف رقبته، وبذلك يستطيع أن يسحب أردان سترته حتى تبلغ مرفقيه، فتغدو ذراعاه حرّة للعمل والأكل أو الاغتسال والقتال

على وفق الحاجة، وعندما لا تكون هذه الأردان مشدودة إلى وراء الرقبة فإنها تُلفّ حول الذراع فوق الرسغ، وتُفكّ هذه عند إقامة الصلاة"[1].

إن جملة دبليو آر الأخيرة **"وتُفكّ هذه عند إقامة الصلاة"** مهمة، إنها تعزّز رأينا في الرمزية الزردشتية- وربما ما قبل الزردشتية- الكامنة في اللوندي، لكن رأينا هذا يضعنا أمام إشكالية أخرى أكثر تعقيداً" هي وجود زي لوندي عند بعض القبائل العربية حسبما أفاد دبليو آر، وعند الأسرة السعودية حسبما هو معروف الآن، فما علاقة القبائل العربية بهذا الرمز الزردشتي؟ هل دخل هذا الزيّ إلى الفولكلور العربي منذ ما قبل الإسلام" أيام كان الفرس يسيطرون على شرقي الخليج، وكانت الزردشتية دين بعض قبائل العرب في شرقي شبه جزيرة العرب؟ الحقيقة أن في طيّات ثقافات غربي آسيا أسراراً كثيرة، وهي بحاجة إلى حفريات عميقة، وقد تغيّر تلك الحفريات أموراً أُنزلت لأسباب أيديولوجية منزلة المسلَّمات.

ولنستمع أخيراً إلى رأي نيكيتين بشأن الزي الكوردي عامة، قال:

"وهناك صفة واحدة تبدو مشتركة بالنسبة لجميع الكورد في ملبسهم" إن الزيّ الكوردي لن يكون أبداً مُعتَماً وبلون واحد، بل يدهش الناظر إليه دوماً بجماله وامتزاج ألوانه المتضادة. ويكاد المرء يعتقد أن الطبيعة التي تحيط بالكورد من مراع خضراء مزيّنة بالأزهار، وثلوج تلمع من بعيد، وسماء زرقاء صافية، ومياه وسهول وجداول، أسهمت كلها في أن تنمّي لديهم هذا الذوق الفني الذي نراه رَأْي العين في زيّهم، وفي دقائق وتفاصيل تجهيزات سكناهم العائلية"[2].

وعلى العموم يمكن القول بأن الزي الكوردي الرجالي- مجتمِعاً- يوحي بدلالات الجد والمهابة والوقار والحشمة، ولا يخلو في البيئات الفقيرة من دلالات الخشونة أيضاً، وأعتقد أن اجتماع مظهر هذا الزيّ المهيب الخشن مع ملامح الكورد الجادة، وشواربهم الكثّة الضخمة، كان يخلق انطباعاً غير مريح عند بعض الرحّالة الأوربيين، كما أن الزيّ الكوردي الرجالي يجسّد في بعض مكوّناته بنًى عميقة جداً من بنى الميثولوجيا والأديان الكوردية قبل الإسلام، هذا إضافة إلى أنه ملائم جداً للبيئة الكوردية الجبلية التي تغلب عليها البرودة، وملائم لطبيعة الأعمال الرعوية والزراعية التي يمارسها الكورد.

---

١ - دبليو آر . هي: مذكرات دبليو آر، ص ٥٩.

٢ - باسيلي نيكيتين: الكرد، ص ١٦٣-١٦٤.

ثانياً- الزيّ الكوردي النسائي:

في الغالب تتمحور قيم (الجلال) حول الرجل، فيوصف بأنه مَهيب، وقور، قوي، بطل، إلخ، وتتمحور قيم (الجمال) حول المرأة، فتوصف بأنها لطيفة، ناعمة، هيفاء، إلخ. ومن حيث الشكل يوصف الرجل الحسن الشكل في اللهجة الكوردمانجية بكلمة Camêr، ويعني هذا الوصف في سياقات أخرى معنى الكرم والأَرْيَحيّة أيضاً، وتوصف المرأة الجميلة بكلمة Çeleng، إلى جانب كلمات أخرى قريبة الدلالة جداً من هذه الكلمة.

ويبدو أن البيئة والمُناخ، والمؤثّرات الدينية، والضوابط الأخلاقية القبلية، قلّصت الفوارق بين (الجلال) و(الجمال) في الزي النسائي، وامتزجت فيه دلالات الوقار والحشمة بدلالات الجمال، مع غلبة دلالات الجمال عامة. وقد قال رحّالة أوربي ما معناه **"تبدو المرأة الكوردية في ثيابها كأنها في قلعة محصَّنة"**، وهو على صواب، ففي مجتمع عفرين مثلاً- وهو غير قَبَلي- يتألف الزي النسائي التقليدي من غطاء الرأس، وثوب طويل غير شفّاف، وتحته ثوب أقل طولاً يسمّى Keras، ويخفي هذا بدوره سروالاً فضفاضاً يسمّى Hevalkeras ، وقد تشدّ المرأة إلى مقدمة نصفها السفلي قطعة قماشية بطول ثوبها تسمى (چارِك) Çarik، وكانت تتحزّم في الأعراس بحزام معدني مطرَّز ذي لون ذهبي وفضي، وترتدي قميصاً خمريّ اللون مطرَّزاً أنيقاً.

أما في المجتمعات الكوردية القَبَلية الطابع فكان زيّ المرأة التقليدي أكثر وقاراً وحشمة، كان غطاء الرأس كبيراً كثير الطيّات، تحلّ محلّه في الأعراس كوفية مدوّرة جليلة، يطرّزها من الأسفل عِقد صُفّت فيه قطع ذهبية دائرية، وكانت الثياب أوسع وأكثر سمكاً وطولاً، وكان الهقال كراس فضفاضاً، يصل إلى أخمص القدم، وكان ثمة رداء سميك تلبسه المرأة فوق ثيابها، وله طيّات من الجانبين، وعقدة من الخلف، فكانت المرأة تبدو حقاً كأنها قلعة محصَّنة.

وأفاد الدكتور مَهدي كاكه ئي (من جنوبي كردستان)- مشكوراً- أن الزيّ النسائي الكوردي في الجنوب يتكوّن من رداء ملوّن لّماع فضفاض طويل، ومن زُخْمة suxme (جاكيتة قصيرة، عديمة الأكمام، ذات ألوان زاهية، محلاّة بأقراص فضية أو ملونة، تلبسها المرأة فوق الرداء)، ومن سروال طويل، تتناغم ألوانه في الأطراف السفلى مع لون الرداء، ومن غطاء رأس مزيَّن عادة بالحُلِي والإكسسوارات الذهبية أو الأحجار الكريمة والخرز، فتُضفي عليه جمالاً مميَّزاً. وأفاد الدكتور مهدي أيضاً أن الزي النسائي أكثر حشمة في مناطق أربيل ودُهوك،

بسبب زيادة نسبة وجود العادات القبلية، إضافة إلى تأثير الدين الإسلامي، ومن ملاحظاته أيضاً أن الزي النسائي الأكثر أناقة يوجد في منطقة السليمانية" بسبب أن النساء هناك أكثر انفتاحاً وتحرراً، نتيجة عوامل تاريخية وسياسية وثقافية متنوّعة.

وأرى أن ملاحظة الدكتور مهدي كاكايي صائبة" لأن منطقة السليمانية (شَهْرَزُور قديماً) كانت تقع على حافّة طريق الحرير القديم، ذلك الطريق التجاري الرئيسي الذي كان يربط ثقافات وحضارات غربي آسيا وجنوبي أوربا بثقافات وحضارات شرقي وجنوبي آسيا، ولا سيما الصين والهند، ومعروف أنه حيثما تمر التجارة تمر المدنية والحضارة، ويمرّ دعاة الأديان وجيوش الإمبراطوريات، ولذلك أنجبت منطقة السليمانية (شهرزور) كثيراً من المثقفين- علماءَ وأدباءَ- في العهود الإسلامية وفي العصر الحديث.

ولا يخلو الزيّ النسائي الكوردي بدوره من ظاهرات خاصة، منها أن نساء عشيرة (دِنّا/دِنّان) Dinna/Dinnan- في منطقة السِّفيرة بجنوبي حلب، والمتزوّجات حصراً- كن يتعمّمن بكوفية في مقدمتها شبه قرن مخروطي قصير، مصنوع من قماش الكوفية. ومنها أيضاً أن نساء شمالي وشرقي كردستان، وربما في أرمينيا وكازاخستان، يتعمّمن بكوفية تنتهي من الأعلى- تحت المنديل- بطاقية صغيرة. ولم أجد للقرن والطاقية وظيفة نفعية عملية، حتى ولا جمالية، فهل من دلالة ميثولوجية أو وطنية؟ دعونا نولِّ وجوهنا شطر البنى العميقة في الثقافة الكوردية، فلعلها تمدّنا بتفسيرات مقبولة.

أما بالنسبة للقرن الصغير فإن عشيرة دِنّا- وهي إحدى عشائر تحالف بَرازي- كانت أيزدية قبل حوالي قرنين، وما زال قسم منها موجوداً في منطقة شَنْگال (سِنْجار) على الدين الأيزدي، فهل كان ذلك القرن المخروطي القصير رمزاً- كطاقية الرجال المخروطية- لقبّة المعبد الأيزدي المخروطية؟ ربما. وأما بالنسبة للطاقية الصغيرة فألمح فيها صورة مصغَّرة للطاقية الميدية التي مر الحديث عنا في الزي الكوردي الرجالي، والحقيقة أن المرأة الكوردية كانت- بحكم ندرة اختلاطها بالمجتمعات غير الكوردية- متحفاً تراثياً كردياً، واحتفظت أكثر من الرجل بالتراث الكوردي الأصيل لغةً وزيّاً وقيماً.

وعموماً يتّصف الزي النسائي الكوردي بأنه محتشم، ومناسب للبيئة والمناخ، ولطبيعة عمل المرأة في المراعي والحقول، ويتّصف بقدر غير قليل من الجمال، وهو يستمد ذلك الجمال من تنوّع ألوانه، ونستعرض فيما يلي بعض آراء وملاحظات وانطباعات الأجانب الأوربيين بشأن الزي الكوردي النسائي، ولنبدأ بملاحظات دانا آدمز بشأن التنوّع اللوني، قال:

"ولم يسعني- ونحن نمرّ بالقرى الصغيرة أثناء الأيام التالية- إلا الإعجاب بالنساء الكورديات، بمشيتهن المنتصبة، وأقدامهن الثابتة الفخورة، وبأزيائهن الجميلة جداً، الأنثوية جداً، المتعددة الألوان، ومعظمها طويل الأكمام جداً، حتى يمكن أن يُعمل من نهايته عقدة تُدفَع إلى الخلف وراء الظهر... هكذا ينجزن أعمالهن وألوان ثيابهن تمرق من أمام العين منسجمةً بشكل ما: أزرق، وأصفر، وأحمر، وأخضر، وأرجواني، شيءٌ من الجمال والرقّة في كل عالمهن القاسي. ما أروع وأسنى هذه القرويات التيّاهات بألوانهن ووجوههن السافرة! وما أسماهنّ على تلك المخلوقات البائسات المنطويات" نساء المدينة في عباءاتهن وبراقعهن السود! إن هؤلاء القرويات هن أكثر حرية في شتّى النواحي من نساء المدينة حتى المدن الكوردية نفسها"[1].

وأكثر من توقّف عند جماليات التنوّع اللوني في الزي الكوردي النسائي هي البريطانية ليدي درور، وكانت قد عاشت فترة بين الكورد الأيزديين، ولعل حسّها الأنثوي جعلها تركّز على الجانب الجمالي، وها هي ذي تصف أزياء النساء الكورديات، في احتفالات أحد الأعياد المقدسة في لالَش قائلة:

"كانت النسوة اليزيديات[2]، بقلنسواتهن من القطع النقدية اللامعة، وعمائمهن، وأبازيم أحزمتهن الفضية، وسلالهن وتعويذاتهن وخرزهن، متألّقات إلى حد كبير، لكن النسوة الكورديات من القرى كن يفقنهن تألّقاً" كانت أولُ من رأيناها ملكةَ سَبَأ[3] حقيقية، حبستْ أنفاسنا، مزوَّقةً بالمعادن الثمينة والخرز، وكانت الألوان في ثيابها المتعددة أكثر مما يستطيع المرء أن يرى. وصل المزيد منهن، وحتى سليمان[4] في جلاله لم يكن لابساً مثل واحد منهن، كن جميعاً في ألوان متلألئة، بينما توّجن أنفسهن على عروشهن على السطح، وأغطيةُ رؤوسهن تلمع في الشمس. ... كم كنّ يمتّعن أنفسهنّ بألوان فوق الألوان! الأحمر الضارب إلى الأرجواني، والأرجواني، والقرمزي، والبرتقالي، أو ألوان زهر الربيع، والأخضر المُفْعَم بالحيوية، والأصفر، والبنفسجي الزاهي والزَّهري" كل هذه الألوان كانت تتجمّع معاً بجرأة فاخرة، ولكن الأسود كان

---

١ - دانا آدمز شمدت: رحلة إلى بلاد شجعان، ص ٢٣٤.

٢ - الأيزديات.

٣ - الملكة بَلْقِيس.

٤ - النبي سليمان.

يُضاف" لجعل قوس قُزَح هذا أكثر تألقاً بالتغاير الصارخ، كانت تتدلّى منهن خرزات كبيرة كهرمانية وملوّنة، سلاسل فضية، زينة وتعويذات، وكانت رؤوسهن قد أثقلها الذهب والفضة والمناديل الخضراء والحمراء" التي كانت تتألّف منها العمائم المثبّتة بدبابيس فضية كبيرة"[1].

ثالثاً - الأغاني الشعبية الكوردية:

ثمة خمسة محاور تشكّل بنية الأغنية الكوردية: العشق الصوفي للطبيعة، والمزاج الرومانسي، والهموم الذاتية ولاسيما الحب، والصراعات البينية القبلية، والصراعات الخارجية ضد الذهنيات الإمبراطورية الغازية. وقد نقل باسيلي نيكيتين عن المؤلف الأرمني (آبوفيان) قوله:

"تطورت القصائد الشعبية الكوردية كثيراً، وبلغت حدود الكمال، ... إن كل كردي- رجلاً كان أم امرأة- شاعر بفطرته...، إن واقع تَقبّل الأرمن للغناء الكوردي بكل تقدير واحترام، يؤكد بصورة بالغة الجاذبية الشديدة في الشعر الشعبي الكوردي- ويؤكد واكنر أن العديد من الأغاني الكوردية والأيزدية انتشرت في آسيا القديمة (آسيا الصغرى) بعد ترجمتها إلى اللغة التركية"[2].

وأفاد الدكتور مهدي كاكه ئي أن الأغاني الكوردية الشعبية في جنوبي كردستان تتألف من الأنواع الآتية:

أ. گوراني Gorani: مجموعات شعرية مستقلة، لكل مجموعة أو مجموعتين معنى مستقل، وينتمي هذا النوع إلى لورستان.

ب. لاوك Lawik: ملحمة غرامية أو حربية في منطقة سوران، وتشتهر أربيل خاصة بهذا النوع من الغناء.

ج. حَيْران Heyran: نثر مسجوع، تكون نهاية ثلاث مقاطع منه موزونة على الأقل، ويعبّر في الغالب عن المعاناة و الهموم، وهذا النوع من الغناء خاص بمنطقة سوران أيضاً.

د . هووره huraa : نوع من الغناء من غير أوزان شعرية، وتتألف كل أغنية من عدة ألحان مختلفة، فالمغني هو الذي يبدع بذوقه أداء هذه الأغنية، وتدور موضوعاته حول مسائل الحياة، كالسلم والحرب والفرح والحزن والعشق، إلى جانب الحكمة والعظة.

---

١ - ليدي درور: طاووس ملك اليزيدية، ص ١٦٤ – ١٦٥.

٢ - باسيلي نيكيتين: الكرد، ص ٢٢٢- ٢٢٤.

هـ . الله وَيسي: نوع من الغناء تشتهر به منطقة گـَرْمِيان[1] Germyan.

ونقل باسيلي نيكيتين عن باحث يدعى (بلو) تعمق في دراسة المناطق الشمالية الشرقية من كردستان، قوله:

"إن أشد العشائر الكوردية بؤساً غنيّة في أغانيها وفي ألحانها، ولا ترنّ أقاصيص غنائهم، التي تسرد وقائع الحروب، عندما يتحركون صوب المراعي الجبلية، أو يتوقفون فوق القمم الصخرية فقط، بل بين حضريّيهم المستقرين في الوديان أيضاً. ويجمع المغنّون حولهم في الأماسي أهالي القوية، ويثيرون شجونهم بأغانيهم عن أبطال شعبهم من المحاربين القدماء، أو بقصائد عن الحب والفراق وآلامه"[2].

وكشف نيكيتين عن الصلة الوثيقة بين الأغنية الشعبية الكوردية وقيم المجتمع الكوردي، قائلاً:

"ويَعزو الرحّالةُ والعلماء جودةَ الأغاني الكوردية وسُمُوَّها إلى صفات الفروسية التي يتحلّى بها الكورد أنفسهم. ويقول (مار): إن لم أكن مخطئاً، فإنهم[3] لم يوجّهوا السؤال التالي إلى أنفسهم: ألا يمكننا تفسير الأمر على العكس بأن هذه الصورة الرومانتيكية والبطولية للكرد تتجلّى في هذه المواضيع، وعبر الثروة الشعرية البليغة التي توارثوها منذ الأزمنة السحيقة في القِدم"[4]؟

والأغنيات الكوردية الفولكلورية شفهية، انتقلت عفوياً من جيل إلى جيل، وفي كل جيل ثمة أناس من فئات مختلفة (رجال، نساء، شيوخ، شباب) يمثّلون الذاكرة الجمعية على صعيد الأغنية، فيحفظونها عن ظهر قلبٍ كلماتٍ ولحناً، رغم طولها، وتشعّب موضوعاتها، وتحوّلات السرد والحوار فيها، وهؤلاء كانوا- وما زالوا- حماة التراث الكوردي الغنائي، ومعظمهم من بيئات رعوية وريفية فقيرة، تَرى ملامح الفاقة والبؤس بادية على وجوههم وفي هيئاتهم، لكن

---

١ - أفاد الدكتور مَهدي كاكه ئي (من خانقين) أن منطقة گـَرْمِيان Germyan تشمل كركوك ومـدناً أخرى هي چَمْچَمال، وداقوق، وتازَه خُورْماتو، وتُوزْخُورماتو، وكَفْري، وكَلار، وخانقين، وقِزِرْبات، وشارَبان، ومَنْـدَلي، وبَدْرَه، وجَسّان. وهذه المدن تتبع حالياً أربع محافظات عراقية، هي (كركوك وديالى والسليمانية والكوت).

٢ - باسيلي نيكيتين: الكرد، ص ٢٢٣.

٣ - يقصد الرحّالة والعلماء.

٤ - المرجع السابق، ص ٢٢٤.

ما إن يضع أحدهم يده على أذنه- كما هي عادة الكورد عند الغناء- حتى تتدفّق العبارات من بين شفتيه متتابعة ومتسلسلة، لا يخطئ فيها ولا يتعثّر، ويندفع صوته متهدِّجاً عالياً مسرعاً تارة، ويتباطأ هادئاً تارة أخرى، ورغم غلبة الوقار على المغنّي الكوردي حينما يغنّي، حتى لكأنه يؤدّي طقساً دينياً مقدساً، فإنه لا يتمالك نفسه من الاندماج في أحداث الأغنية، فيتمايل يمنة ويسرة، ويلوّح بيده من جهة إلى أخرى.

وكان بعض الشعراء الشعبيين يتجولون بين القرى والقبائل في أوقات معيَّنة من كل سنة، فيلتفّ حولهم الكبار والشباب، ويصغون إليهم باهتمام، وما زلت أذكر الشاعر الشعبي الكهل الجوّال (جَوْهر)، كان يرتاد منطقة (جُومَه) في حوض نهر عفرين شتاء، قادماً من الشرق، وما زلت أذكر احتفاء جدّتي مَدو (مدينة)- رحمها الله- وأخوالي به، وجلوسه في الصدر قرب المدفأة الجدارية (پِخارَه) Pixare العامرة بقطع الخشب المتّقد، واندفاعه في الأغنيات الملحمية العريقة (مَمى آلان، دَلال، جَبَلي، سيامَنْد، إلخ)، مع رشفات كؤوس الشاي المعطَّر بالدارصيني (دارچِين)، وبعد أن كبرت، وقرأت عن الشاعر اليوناني الجوّال هوميروس، صاحب ملحمتي (الإلياذة) و(الأُوديسا)، تذكرت الشاعر الشعبي الجوّال جوهر، وعرفت أنه كان للكرد أيضاً هوميروسهم، وكانت لهم أيضاً إلياذتهم وأوديساهم، وقد قال مينورسكي في هذا المعنى: **"الأدب الشعبي غنيّ جداً عند الأكراد، فيه حكايات غزيرة عن التقاليد القومية، وفيه الأغاني والملاحم"**[1].

وفي حدود ما بين يدي من مصادر أجد أن الكوردولوجي نيكيتين أبرز من اهتم بالأغاني الكوردية الشعبية، وأكثر من توسّع في الحديث عنها، باعتبار أنه عاش بين الكورد الرعويين فترة لا بأس بها، وسمع المغنّين الشعبيين عن قرب، إنه يقول:

"أوّلُ ما يحيّر المرء لدى قيامه بدراسة الأدب الكوردي والتحقيق فيه، هو نضج الفولكلور الزائد عن الحد، على تعبير البروفيسور فيلجيفسكي"[2].

وذكر نيكيتين أن فيلجيفسكي أرجع ظاهرة النضج الشديد للفولكلور الكوردي إلى البعد الطبقي والنظام الإقطاعي" إذ إن قدراً غير قليل من القصائد يتمحور حول شخصيات قبلية وإقطاعية بارزة. لكن نيكيتين يختلف معه في ذلك، ويرى أن أسلوب الطبقة السائدة وأسلوب

---

١ - مينورسكي: الأكراد، ص ٣٩.

٢ - باسيلي نيكيتين: الكرد، ص ٣٩٢.

الجماهير الشعبية لا يختلفان في الأغنية الكوردية إلا قليلاً، ويرى أيضاً أن المغنّي الكوردي الجوّال عندما كان يتغنّى بمآثر شخص من النخبة إنما كان يفعل ذلك لإيمان الجماهير بأن ذلك النخبوي كان يجسّد روح الجماعة وهويتها، سواء أكانت في دائرة القبيلة أو الشعب/الأمة[1].

والحقيقة أن لنيكيتين نظرات ثاقبة في الأغنية الكوردية الشعبية، إنه أورد مقاطع كثيرة من الأغاني القصيرة المعروفة باسم (لاوِك) Lawik، أي الشاب العاشق، وعقد مقارنة بينها وبين الشعر العربي الجاهلي (قبل الإسلام)، فقال:

"وفي الوقت الذي يكتفي فيه الكورد في نظم أشعارهم الغنائية بنمط لا يجمعه وزن ولا تنظمه قاعدة، نمطٌ شديد سريع، دونما خضوع إلى أيّ أسلوب أو قانون، فإن العرب- وعلى العكس منهم- يتحدثون وهم يبنون أحاسيسهم بصورة يتجلّى فيها التفكير والتأمل، ويصوغون كلامهم في إطار كامل التحديد، دون أن يتخلّوا عن ذلك حتى النهاية، حتى إن القصائد العربية كلها متشابهة فيما بينها، ولا فرق بينها إلا من حيث وجوه الاختيار الشكلية، لقلّة أو كثرة الاستراحة، وفروقاً طفيفة في التعبير" في حين اللاوكات الكوردية متحررة من كل قيود التصنيف، ولا يشبه أحدها الآخر، إلا من حيث تماثل المواضيع الأصلية، أما في اختيار الشكل والصياغة فلكل منها حرية تامة في الانتقاء"[2].

والأهم من هذا أن نيكيتين حلّل الفروق بين الشعر الشعبي الكوردي والشعر العربي، ووضّح وجهة نظره في العوامل المؤثّرة فيهما قائلاً:

"إلامَ ينبغي أن نعيد هذا الاختلاف الذي أشرنا إليه آنفاً؟ إننا نعتقد أنه باختيارنا العربَ البدو لِما قبل الإسلام من جهة، والكورد القاطنين في بيوت الشعر من جهة أخرى، من أجل المقارنة بين البيان الغنائي لدى الطرفين، نكون قد أخذنا بعين الاعتبار بيئتين وحالتين روحيتين متساويتين ومتماثلتين- لَمْسَ اليد- في مستوى التطور الاجتماعي. وفي هذه الحالة يتحتّم علينا أن نعيد جمال النظم في الشعر الغنائي العربي- مهما كان بدائياً بالقياس إلى الفوضى التامة في الشعر الفولكلوري الكوردي- إلى سبب آخر غير السبب في التناقض الموجود بين خصائص الشعبين. فالعرب الذين هم من عنصر سامي، رغم أنهم بسبب من خصائصهم البدوية والعشيرية قوم فرديون يبحثون بطبيعتهم عن المنازعات والمشاكل- هذه الصفات

---

١ - انظر المرجع السابق، ص ٣٩٧.

٢ - المرجع السابق، ص ٤٣٠.

الموجودة في الكورد كذلك- إلا أن في طباعهم[1] إحساساً بالنظام والاستقرار، وحالة من حسبان الأمور ورعاية القواعد والأصول ينعكس في شعرهم الشعبي، في حين أن الكورد الآريين (أو الآسيويين القدماء) يفتقدون كل هذه الأوجه"[2].

ويضيف باسيلي نيكيتين موضّحاً:

"إن رعاية الوزن والقافية وقواعد العروض أمر مشهود تماماً في الشعر العربي، ويسهل قراءته بالتقطيع على أساس التفاعيل، في حين أن أمراً كهذا غير متيسَّر للشعر الفولكلوري الكوردي" بَدَهي أننا نقصد بالشعر الفولكلوري الكوردي البيتَ أو الشعر الفولكلوري الحقيقي، وليس الأشعار الكوردية المنظومة على أساس العروض تقليداً للشعر العربي الفارسي"[3].

وكما هو شأن الدارسين الذي يسبرون أعماق الظواهر، ولا يكتفون بالوقوف عند التوصيف، يعمّق نيكيتين تحليله قائلاً:

"وكيفما كان هذا الاستعراض للفولكلور الكوردي، فإنه يعيدنا إلى الملاحظات التي كنا قد أبديناها في شرح وتفسير العلل والأسباب التي أدّت إلى عدم فوز الكورد حتى الآن بدولة كردية قابلة للدوام، إنهم في السياسة- شأنهم في الشعر- لم يستطيعوا أن يتجاوزوا المرحلة القَبَلية المبنيّة أساساً على الفردية وعدم الانتظام، ويبدو أن طبيعتهم لا تنسجم بالقدر المطلوب مع الانتظام وقبول التنظيم في أيّ مرفق من مرافق الحياة"[4].

إن آراء وملاحظات نيكيتين هذه جديرة بقدر كبير من الاهتمام، وينبغي أن يقف عندها المرء وقفة متأنّية، فالرجل- حسبما هو معروف- باحث واسع الاطلاع بثقافات غربي آسيا، وهو متّزن في عرض الموضوعات التي يتناولها، إضافة إلى أنه خبير بالشخصية الكوردية، وصحيح أنه يتعثر أحياناً، ولا يصيب الهدف بدقة في بعض آرائه، لكنه عموماً قادر على توجيه الانتباه إلى قضايا إشكالية في الذهنية الكوردية، وعلاقة ذلك بتخلّف الكورد عن جيرانهم الفرس والعرب والأرمن والترك على الصعيد السياسي العام.

---

١ - العرب.

٢ - المرجع السابق، ص ٤٣١.

٣ - المرجع السابق، ص ٤٣١.

٤ - المرجع السابق، ص ٤٣١ – ٤٣٢.

ومن الظاهرات المثيرة للانتباه في الغناء (الشعر الشعبي) الكوردي موقعُ المرأة فيه مضموناً ودوراً وأداءً، فقسم كبير من الشعر الشعبي الكوردي يدور حول المرأة والحب، أي أنه شعر غزلي، وثمة في هذا المجال شبه شديد بينه وبين الشعر العربي القديم، والأغلب أن هذه الظاهرة موجودة في الشعر الشعبي لمعظم الشعوب، لكن الخصيصة التي أجدها في الشعر الشعبي الكوردي، ولا أجد لها مثيلاً في الشعر العربي القديم، هي أن الرجل لا ينفرد بدور البطل، وإنما تشاركه المرأة في ذلك الدور، فتقول مقاطع كثيرة تتغزّل فيها بحبيبها، لكن على نحو عفيف ورزين، وبما ينسجم مع القيم الأخلاقية السائدة في المجتمع، وتشيد في الوقت نفسه بخصال حبيبها شكلاً وقيماً، وقد تُجري مقارنات بينه وبين آخرين، لإبراز المزايا التي يتفرّد بها.

ولهذه الظاهرة علاقة وثيقة بموقع المرأة في المجتمع الكوردي، وقد مرّ أنه موقع رفيع، وأن المرأة تحظى فيه بكثير من الحرية والأهمية، ولا يخفى أن المرأة تقوم، عبر الأغاني، بتعزيز قيم الرجولة والبطولة في المجتمع، وتنتقل من مواقف (الانفعال) السلبي إلى مواقع (الفعل) الإيجابي المؤثّر، وأبرز مثال يحضرني هو الملحمة الشعبية الكوردمانجية (دلال/دَوْريشى عَبْدي)، فإن القسم الأعظم منها يُنْشَد على لسان بطلة القصة (غزال). وعدا هذا فإن كثيرات من النساء الكورديات يحفظن الشعر الشعبي عن ظهر قلب، ويغنّينه في مجالس الرجال، وقال نيكيتين في هذا الصدد:

"إن غالبية الأشعار الوجدانية الكوردية تتغنّى بالمرأة، بل إن جزءاً كبيراً من الأغاني والأناشيد والقصص الشعبية من نظم النساء وتأليفهن"[1].

١ - المرجع السابق، ص ١٧٤.

١٨

الفولكلور الكوردي- ٢

الموسيقى والرقصات الشعبية

مدخل: العالم نَغَم:

الموسيقى إيقاع الروح، إيقاع الأعماق، ولكل شيء في الكون إيقاعه المتميّز، وقد واكبت الموسيقى البشر منذ طور الحياة البدائية، وتطورت مع تطور وعيهم وتنامي حسّهم الجمالي، وإلى جانب حضور الموسيقى في مناسبات الأفراح والأحزان وفي مواقع العمل، كان لها حضور في المعابد مع الابتهالات والترانيم والأناشيد، وعُني الفلاسفة بأهمية الموسيقى، حتى إن الفيلسوف اليوناني فيثاغورس قال: " **العالم نَغَم**". وجعلها الفيلسوف اليوناني أفلاطون من مواد منهجه التربوي الذي قرره لطلبته في الفلسفة[١].

وللحكيم الصيني كونفوشيوس اهتمام كبير بالموسيقى، وأبدى في هذا المجال آراء قيّمة، منها قوله:

"إذا أتقن الإنسان الموسيقى، وقوّم عقله وقلبه بمقتضاها، وعلى هديها، تطهّر قلبه، وصار قلباً طبيعياً سليماً رقيقاً، عامراً بالإخلاص والوفاء، يغمره السرور والبهجة... وخير الوسائل

---

١ - أحمد فؤاد الأهواني: فجر الفلسفة اليونانية قبل سقراط، ص ١٤، ٨٤.

لإصلاح الأخلاق والعادات... أن تُوجَّه العناية إلى الموسيقى التي تُعزف في البلاد... فالخير شديد الصلة بالموسيقى"[1].

والموسيقى إحدى كاشفات شخصيات الشعوب، ومن خلالها يمكن معرفة خصائص جغرافيا الشعوب، ويمكن أيضاً معرفة مدى سعادة الشعوب وشقائها، ومعرفة رؤيتها الوجودية، ومعظم ما يتعلق بتلك الرؤية من ميثولوجيا، وفلسفة حياة، وقيم وسلوكيات. وذكر كونفوشيوس أن الشعوب التي تستمع إلى الموسيقى الهادئة، تنعم بالرخاء والسلام، في حين أن سيطرة الموسيقى الصاخبة في مجتمع ما، تدلّ على حالة الفوضى عند شعبها وحالة القلق التي يعيشها. أما سيطرة الموسيقى الحزينة الكئيبة، فتدل على حالة الشعوب المغلوبة والمقهورة[2].

وفي العصر الحديث اتخذ بعض العلماء الموسيقى معياراً، قاسوا به مدى تقدّم الحس الجمالي وتخلّفه عند الإنسان فرداً ومجتمعاً، وقد أشار موريس روبان إلى العلاقة الوثيقة بين القيم السامية والموسيقى، وتساءل مستغرباً: **"كيف يستطيع إنسان محروم من الفضائل التي هي من خاصية الإنسان أن يتعلّم الموسيقى"**[3]؟

والآن ماذا عن الموسيقى الشعبية الكوردية؟

ثم ماذا عن الرقصات الشعبية الكوردية، وعن فولكلور المراعي؟

أولاً – الموسيقى الشعبية الكوردية:

عراقة الموسيقى الكوردية:

التراث الموسيقي الكوردي عريق عراقة الكورد في غربي آسيا، وحسبنا دليلاً على ذلك أن مقامين بارزين من مقامات الموسيقى الشرقية كرديان" الأول (مقام كرد)، والثاني (مقام نَهاوَنْد)، ونهاوند مدينة كردية قديمة في جنوبي كردستان، كما أن في تاريخ غربي آسيا بعض كبار الموسيقيين الكورد، منهم على سبيل المثال: إبراهيم الموصلي، وابنه إسحاق الموصلي،

---

١ - عمر عبد الحي: الفلسفة والفكر السياسي في الصين القديمة، ص ١٨٩.

٢ - المرجع السابق، ص ١٨٩.

٣ - موريس روبان: تاريخ الأفكار السياسية المقارن، ص ٢٨١.

وزِرْياب (علي بن نافع)، وقد تحدثنا عن إبداعاتهم الموسيقية في سلسلة (مشاهير الكورد في التاريخ) المنشورة على الإنترنت.

وللموسيقى الكوردية الشعبية طابعها الخاص، شأنها في ذلك شأن موسيقى بقية الشعوب، وكل من له خبرة بموسيقى شعوب غربي آسيا، يمكنه تمييز الموسيقى الكوردية عن الموسيقى الفارسية والأرمنية والآشورية والتركية والعربية، على أن ذلك لا يعني أن ثمة قطيعة بين الموسيقى الكوردية وموسيقى الجيران، ففي المناطق التي يتجاور فيها الكورد مع جيرانهم، نجد تمازجاً بين موسيقى أولئك وهؤلاء، وثمة ألحان كردية دخلت موسيقى الشعوب المجاورة للكرد، على أيدي الملحّنين الكورد الذي عاشوا بين تلك الشعوب، ولا سيّما في تركيا وبلاد الشام" ومنهم- على سبيل المثال- الموسيقي **بكري الكوردي** في مدينة حلب بشمالي سوريا[1].

والكورد قوم محبّون للموسيقى، يظهر ذلك في كثير من المناسبات، وخاصة في الأعراس وعيد نوروز، وأستغرب قول حاكم أربيل البريطاني دبليو آر: **"ولا يتراءى الأكراد ممن يَكْلَفون[2] بالموسيقى كثيراً، إنهم من المتطهّرين Puritans المتزمّتين، وإني أحسب أنهم يعدّونها لا أخلاقية. إن الآلات الموسيقية الوحيدة الموجودة لديهم هي: الطبول والزُّرْنا"**[3]. ولعل اختلاط دبليو آر بعِلْية القوم، من زعماء ورجال دين كرد مسلمين، كان وراء ذلك الانطباع" فالزعماء الكورد، وكذلك كبار السن، يغلب عليهم الوقار، ولا يحبون الظهور بما يتنافى مع الوقار، كما أن رجال الدين الإسلامي- كرداً وغير كرد- ليسوا على وفاق مع الموسيقى، والدليل على نقص معلومات دبليو آر قوله إن الآلات الموسيقية الوحيدة عند الكورد هي الطبل والزُّرْنا.

---

١ - انظر فَيْض الله الغـادِري: حلب لؤلؤة التاريخ، ص ٨١.

٢ - يكلفون: يعجبون.

٣ - دبليو آر . هي: مذكّرات دبليو آر، ص ٧٨.

الآلات الموسيقية الكوردية:

الآلات الموسيقية الشائعة عند الكورد هي:

- **الطبل Dehol /Dahol:** كبير الحجم، مصنوع من جلد رقيق، مثبَّت على محيط دائرة خشبية من جهتيه، ويستخدم الطبّال نوعين من الأعواد" أحدهما رفيع والآخر غليظ ينتهي برأس متكوّر، وطول كل عود من ٤٠ إلى ٥٠ سم.
- **الدّف Defik:** أصغر من الطبل، يشبه الغربال، له وجه واحد مغطّى بجليد رقيق، وتُثبَّت في إطاره من الداخل حلقات معدنية، لإصدار خَشْخَشات رقيقة عند القرع على الدف بالكفين، ويستخدمه دراويش الصوفية في حلقات الذكر.
- **الطّنبورTenbûr :** آلة وترية، أصغر من العود، تُصنع من الخشب، طول زندها حوالي متر، وتُثبّت على الزند أوتار من نوع خاص، ويُعزف عليها بالأصابع، أو بريشة، وأنغامها أرقّ من أنغام العود، ويستعمَلها الكورد الكاكَه ئي في طقوسهم الدينية.
- **الكَمَنْجَة kemançe:** آلة وترية رشيقة الشكل، في الجهة السفلى صندوق دائري صغير، وأحياناً صندوقان" السفلي أكبر قليلاً من العلوي، ويُعزَف على الكمنجة بوتر مشدود إلى عصا نحيفة مقوَّسة، وأنغامها رقيقة عذبة، وهي مستعملة عند الكورد اللور في الجنوب، ولم أجدها مستعملة عند الكورد في الشمال والغرب.
- **السَّنتورSentûr:** آلة وترية شبيهة بالقانون، يُعزَف على أوتارها بمضربين خشبيين رفيعين، ويتم تبديل الأصوات بتحريك الحمّالات التي تسند الأوتار، وهي مصنوعة من الخشب، وتُستعمَل هذه الآلة في لورستان وفي جنوبي إقليم كردستان- العراق، ولا تُستعمل من قِبل الكوردمانج في الشمال.
- **الزُّرْناZorne :** آلة نفخية، على شكل بوق، شكلها مخروطي دائري أجوف، في سطحها العلوي ثقوب مرتّبة، ونهايتها عريضة معقوفة إلى الوراء وهي بطول ٣٠ سم تقريباً.
- **النّاي Pîk:** آلة نفخية، تُصنَع من الخشب، وطولها (٤٠) سم تقريباً، وفي سطحها العلوي عدة ثقوب مرتَّبة.
- **البُلُورBolûr:** آلة نفخية، تُصنَع من الخشب أو القصب أو الحديد، طولها (٣٠) سم تقريباً، وفي سطحها العلوي عدة ثقوب مرتَّبة، وفي طرفها الثاني ثقب واحد.

- **المزمار Cûzele/dûzele:** آلة نفخية، تتكوّن من قصبتين مجوَّفتين، في سطحيهما العلويين ثقوب مرتّبة مزدوَجة، ويتم لصق القصبتين معاً بالقار (الزِّفت).

جغرافيا الموسيقى الكوردية:

لكل آلة موسيقية كردية جغرافياها المناسبة، فللطبل والزُّرْنا الغلبة في المناسبات المفتوحة، كالأعراس والاحتفالات الجماهيرية" إذ يكون الجمهور كثيراً، ومتوزّعاً على مساحة كبيرة، فلا بد من أن يكون الصوت مسموعاً، رغم الهَرْج والمَرْج، وكثرة اللَّغَط وتداخل الأصوات، وهل ثمة آلة تصلح لذلك أكثر من الطبل بدويّه المهيب، والزُّرْنا بأنغامه القوية التي تهدّ الأذن هدّاً عن قرب؟ ويأتي الدّفّ والبُلُور والنّاي والمزمار في الدرجة التالية بعد الطبل والزرنا، من حيث قوة الصوت، وهي ملائمة للمناسبات المفتوحة أيضاً، لكن على مساحات أصغر، وبتجمّعات أقل. أما الطنبور والكمنجة والسنتور، فمجالها مجالس الطرب الداخلية في البيوت.

والطبل والزرنا والدف والناي والمزمار والبلور آلات جماهيرية، ترافق أفراح الشرائح الاجتماعية العادية (الرعاة، الفلاحون، العمال)، فهذه الفئات أكثر ميلاً إلى الأصوات القوية، ومما كان يلفت انتباهي في أعراسنا بمنطقة عفرين" أن نافخ الزرنا كان يقترب أحياناً ممن يغنّي أغنية فولكلورية في حلقة العرس، ويضع مؤخرة الزرنا عند أذنه، ويسترسل في صداحه القوي، تعبيراً عن تفاعله معه وتكريمه له. أما الطنبور والكمنجة والسنتور فهي أكثر حضوراً في مجالس الفئات السيادية كالحكام والآغاوات والمثقفين، فهؤلاء أصبحوا- بحكم تعاملهم مع ثقافة التمدن- أقل ميلاً إلى الموسيقى الصاخبة، وغدا حسّهم الموسيقي أكثر رهافة.

وبشكل عام لا يستلذ الكوردي بالموسيقى على النحو الأفضل إلا في أحضان الطبيعة، حينما يكون على تواصل مباشر مع السماء والغيمة والأفق المفتوح، مع الجبل شامخاً، ومع الوادي متعرّجاً، ومع السهل منبسطاً، مع الشجر والطير والعشب والزهر، مع النبع والغدير والنهر، ومن خلال هذا كله مع الهواء الطلق، ولم أجد إلى الآن في غربي آسيا موسيقى متوحّدة بالطبيعة كالموسيقى الكوردية، إن الروح الكوردية تنزع إلى وحدة الوجود مع الطبيعة، وإذا شاهدت كردياً، على صخرة، قرب نبع، تحفّ به الأعشاب والأشجار، وهو يداعب ناياً أم مزماراً أو بُلوراً أو طنبوراً أو كمنجة، فاعلم عندئذ أنه يعيش حالة عشق حقيقي مع جلال الله وجمال الطبيعة، وأنه يتسامى مع اللحن العذب، ويرتقي فوق ذاته ولسان حاله يقول: دعوا لي ملكوتي هذا، وخذوا ما تشاؤون.

وفي الموسيقى الكوردية تتجلّى سمات الشخصية الكوردية، والمزاج الكوردي، والحس الجمالي الكوردي، إنك تلمح في دقات الطبل الرزانة والقوةَ والمهابة، وفي أنغام الزرنا الحدّةَ والصلابة والاندفاع، وفي نقرات الدف الحيويةَ، لاحظوا ضارب الدف الكوردي كيف يخرج عن وقاره، ويتفاعل بجسده مع نقرات الدف على نحو عجيب، وإنك تلمح في أنغام الناي والمزمار عشقَ الكوردي للنسائم وهي تتمازج، وللأزاهير وهي تتبسّم، وللأطيار وهي تتهادى، ولإشراقات الشمس وهي تطلّ من خلف الجبل، وإنك لتلمح في أنغام البُلور إيقاعات الحزن الرزين الضارب في أعماق الكوردي، حزن دفين زرعته في لاشعوره الجمعي تراجيديا الفقر والقهر الطويلة، وإنك لتلمح في أنغام الطنبور والكمنجة والسَّنتور الحس الجمالي الرقيق الذي يرتقي به الكوردي على شظف العيش وقسوة البيئة ومرارة رحلة الوجود.

ملاحظات بشأن الموسيقى الكوردية:

هناك ثلاث ملاحظات عامة بشأن الموسيقى الكوردية:

– **الملاحظة الأولى:** تُسمَع الموسيقى الكوردية منفردةً، من غير مصاحبة الغناء، وعندئذ تبرز خصائصها الصوتية والسيكولوجية على نحو أفضل، ويحتاج تذوّقها إلى قدر عال من رهافة الحس الموسيقي، وإلى قدرات تأملية متقدمة، لذا يجد هذا النمط رواجاً عند النخب الكوردية المثقفة، أكثر من رواجها عند الجماهير الشعبية. وتُسمع الموسيقى الكوردية مصحوبة بالغناء، والجماهير الشعبية أكثر إقبالاً على هذا النمط، وتكتسب الموسيقى حينذاك أكبر قدر من الروعة حينما تتناغم معها نبرات صوت المغنّي، ويا لبؤسها حينما تكون هي في واد ونبرات صوت المغنّي في واد آخر.

– **الملاحظة الثانية:** الموسيقى- منفردةً كانت أم مصحوبة بالغناء- عميقةُ الجذور في الميثولوجيا الكوردية، وظهرت آثار ذلك في الزردشتية، فقد جاء في **أڤستا: "نبجّل كل الأوزان المقدسة"**[1]. وجاء فيها أيضا: **"نقدس صلاة ستاوتاياسنا الخاصة، نقدس ستاوتاياسنا غناءً ونطقاً وشدواً"**[2]. وما زلنا نرى إلى اليوم حضور الموسيقى في المناسبات الدينية عند الكورد

---

١ - **أڤستا**، ياسنا، هايتي ٧١، آية ٤، ص ١٨٨. والأوزان: الألحان الشعرية.

٢ - **أڤستا**، ياسنا، هايتي ٥٥، آية ٦، ص ١٦٣.

الكاكَه يي والكورد الأيزدي، وما يثير الانتباه أن الطابع الغالب على الموسيقى في تلك المناسبات ليس كئيباً، وإنما تغلب عليه الحيوية والإشراق" وهذه الظاهرة في حد ذاتها جديرة بالدرس والتمحيص.

– **الملاحظة الثالثة:** لا أزعم أنني استمعت إلى الموسيقى في جميع مناطق كردستان، لكن لاحظت- في حدود ما سمعت- أن الموسيقى الكوردية أكثر تطوراً وفنّية في جنوب وشرقي كردستان- منطقة سليمانية (شهرزور سابقاً) ومنطقة كرمنشاه- إذا قيست بالموسيقى في شمال وغربي كردستان.

والدليل على صحة ملاحظتنا أن آلة السَّنتور، بألحانها العذبة الرقيقة، حاضرة في الكَوْرس الموسيقي عند كرد الجنوب والشرق، إضافة إلى آلة الكمنجة، في حين لا نرى لهاتين الآلتين حضوراً في الكورس الموسيقي عند كرد الشمال والغرب، أما الكمنجة المستطيلة الصندوق(رِباب) المستعملة عند بعض كرد الشمال فالأرجح أنها دخيلة على التراث الموسيقي الكوردي، وأحسب أنها مقتبسة من التراث الموسيقي التركماني، لذا ثمة تنافر واضح بين أنغامها ونبرات الصوت الكوردي عند الغناء، وأظن أن المنطقة التي تُستعمَل فيها (رِباب) حصل فيها تجاور كردي- تركماني منذ عهد السلاجقة.

وأحسب أن الفارق في الموسيقى عند كرد الجنوب وكرد الشمال يعود إلى مرور طريق الحرير التجاري العالمي بجنوبي كردستان متجهاً شرقاً، وهناك كانت تقع المدن الميدية الكبرى (أگـباتانا ورَغَه/الرَّي)، وهناك كانت تقع المدن المزدهرة في العهد الساساني، وظلت مزدهرة في العهد الإسلامي الأول، مثل جَلَوْلا (جَلُولاء) ونَهاوَنْد وقصر شَيرِين وأَسَد أباد، وفي تلك المنطقة مرت البضائع والثقافات ودعاة الأديان وجحافل الجيوش الإمبراطورية الغازية، فكان الكورد هناك أكثر تماسّاً مع التمدن، وأكثر تفاعلاً مع هبوب رياح الحضارة، في حين ظل الكورد في الشمال والغرب أكثر بعداً عن المدن الكبرى، وأكثر تماسّاً مع الطابع الرعوي الريفي.

ثانياً – الرقص الشعبي الكوردي:

الرقص والشخصية:

الرقص إيقاع الجسد في التعبير عن الذات (النفس/الروح)، وأهمّ ما فيه أنه حركة وحيوية، وليس هموداً ولا ضعفاً، وأنه حركة عفوية صادقة، وليس حركة متصنَّعة، وأنه إرادة متوجّهة

إلى الاتّساق مع حياة أكثر جمالاً وجلالاً، وليس إرادة متوجّهة نحو الاستسلام للانحطاط والقبح" لذا- ومن قعر البدائية إلى قمة التحضر- كان الرقص إبداعاً إنسانياً رائجاً، وليس ثمة موقع مهمّ من مواقع الحياة البشرية إلا وللرقص فيه نصيب، مارسه الكهّان والكاهنات في المعابد، والمقاتلون في ميادين الحروب، والعمّال في ميادين العمل، والجماهير في الاحتفالات الوطنية/القومية، وفي المناسبات الاجتماعية (الأعراس، الاستقبالات)، ولم يخسر الرقص قيمته الإنسانية إلا حينما قُرِن- ظلماً- بالتعبيرات الجنسية المبتذلة في (الرقص الشرقي)، وأُخرج من سياقاته الجمالية العفوية لغايات تجارية رخيصة.

سمات الرقص الكوردي:

يمارس الكورد الرقص في المناسبات (الأعراس، الحفلات، الأعياد)، وهو أحد المداخل لمعرفة الشخصية الكوردية. وللرقص الشعبي الكوردي أربع سمات بارزة، هي:

١ – **الطابع الجماعي:** الرقصات الكوردية الشعبية جماهيرية الطابع، يشترك فيها أهل القرية، وكذلك أهل الأُوبة (المخيَّم الرعوي)، وهم مدعوّون إلى المشاركة فيها نفسياً وأدبياً ورسمياً، وخاصة في مناسبات الأعراس:

- أما نفسياً فلأن بين الكوردي والطبل والزُرْنا صداقة حميمة، ولا يستطيع القعود بعيداً وهو يسمهما، كما أنهما يمنحانه استراحة من عناء المهام الرعوية والزراعية ، ويقدّمان له قسطاً من المتعة والانسجام مع الذات.

- وأما أدبياً فلأن الحياة في القرية والأُوبة تقوم على التضامن والتكافل، ولا تسمح التقاليد بالانعزال في المناسبات العامة، فعدم المشاركة في مناسبات الآخرين سلوك مستهجَن، ولا ينسى الكوردي أنه سيقيم عاجلاً أو آجلاً حفلة عرس، وسيكون سعيداً عندما تكون حفلته عامرة بالمشاركين، وهو يعلم جيداً المثل الكوردي القائل: Ez bi te, tu bi min, em gî bi xweda (أنا بك، وأنت بي، ونحن جميعاً بالله).

- وأما رسمياً فلأن العادات تقتضي أن يرسل صاحب الحفل- قبل موعد العرس بعدة أيام- هدايا رمزية (منديل نسائي، قطعة قماش، إلخ) إلى كل بيت، رمزاً لدعوتهم إلى المشاركة، كما أن مجموعة من نساء صاحب الحفل يقمن- قبل موعد العرس بيوم واحد- بالدوران على

جميع بيوت القرية، ومعهن الـ Gewende قارع الطبل ونافخ الزُّرْنا، وهن يدعون أهل كل بيت رسمياً للمشاركة في الحفل.

والحقيقة أن دعوات المشاركة في الحفل لا تقتصر على أهل القرية والأُوبة، وإنما تُوجَّه رسمياً إلى الأقارب والأصدقاء والمعارف في القرى والمناطق الأخرى، وتكون الترتيبات قد اتُّخذت لأن تستضيف كل أسرة مجموعة من أولئك المدعوّين الذين يسمّون بالكوردمانجية Xwandî، ويتوافد هؤلاء تباعاً قبل بدء الحفل بيوم واحد، أو يوم بدء الحفل، ويتمّ استقبالهم باحتفاء شديد من قبل أهل بيت صاحب الحفل وأقاربه.

٢ – الارتباط بالطبيعة: رحاب الطبيعة هي المكان التقليدي للأعراس ولغيرها من المناسبات التي يمارَس فيها الرقص الشعبي الكوردي، وليس السبب في ذلك هو فقط مشاركة جمهور كبير في الحفل، وإنما لأن الكوردي عاشق للطبيعة، إنه لا يشعر بالراحة النفسية ما لم يتواصل مباشرة مع الطبيعة البكر (السماء، الجبال، الأشجار، المروج، إلخ)، فكيف له أن يتمتّع ببهجة العرس في غياب الطبيعة؟!

٣ – الاختلاط بين الجنسين: مر في مبحث (موقع المرأة في المجتمع الكوردي) أنه لا وجود لنظام الحريم (الفصل بين الذكور والإناث) عند الكورد، وإذا وُجد في بيئات قليلة- مدنية في الغالب- فهو دخيل على الثقافة الكوردية الأصيلة، وذكرنا حينها أن النساء يخالطن الرجال في جميع مواقع الحياة، إنهن وإنهم يصنعون الحياة معاً، جنباً إلى جنب، وكتفاً إلى كتف، ويعصم الفريقين من السقوط في مهاوي الرذيلة أمور ثلاثة:

- أولها: الضوابط الأخلاقية الصارمة، فالموت هو عقاب جريمة الشرف، وفي الغالب لا تساهل ولا تهاون في هذا المجال.

- وثانيها: الثقة المتبادلة بين الفريقين بحكم الألفة، فمنذ أن يفتح الكوردي (ذكراً أو أنثى) عينيه على الحياة يجد نفسه في بيئة اجتماعية منفتحة.

- وثالثها: الحشمة التي يضفيها اللباس الكوردي الشعبي على الرجل والمرأة، فلا يظهر من جسد الرجل والمرأة ما يثير الشهوة، ويدغدغ الأحاسيس الجنسية.

ومن الطبيعي- والحال هذه- أن يتشارك الرجال والنساء في حفلات الأعراس، دونما أيّ شعور بالحرج والخروج عن المألوف، وقد ذكر بعض الباحثين الذين خالطوا الكورد في المراعي أن

كل رجل تكون بجانبه امرأة في حلقة الرقص، قال باسيلي نيكيتين **"إن الفتاة الكوردية تدبك بجانب الشباب، وبذلك تستطيع العثور على زوجها في المستقبل"**[1]. وقال نيكيتين أيضاً:

"والشيء الغريب في الرقصات الكوردية هو إدراك حقيقة أن الرجال لا يعترضون على أن تقف إلى جانبهم في حلبة الرقص امرأة، بل على العكس فهم يشعرون بسرور بالغ في الرقص إلى جانب الحسناوات. وهكذا فعندما يرقص الكورد فيما بينهم، يجرّ كل واحد إلى جانبه فتاة، ويشدّ كتفه بجانب كتفها. وعندئذ تضمّ الحلقة عدداً من الرجال بقدر عدد النساء. إنني آسف لكوني لم أصادف رقصة مشتركة بنفسي، ولكن الكورد لا يرقصون بصورة مشتركة إلا فيما بينهم، وبعيداً عن نظرات الترك والجنود المُغْرِضة"[2].

ونقل نيكيتين عن مينورسكي قوله:

"إن أحد الملاكين الأغنياء أقام على شرفه حفلة رقص شعبي في أحد الأيام، وما إن ارتفع صوت المزمار (زُرْنا) مع الطنبور[3] في القرية، حتى هرعت جميع النسوة، وقد ارتدين أجمل زيناتهن، وأخذن أمكنتهن بين الرجال في حلقة الرقص التي استمرت حتى المساء، والجميع يضربون الأرض بأرجلهم بين الحين والآخر ضرباً جميلاً"[4].

وأفاد الدكتور مَهدي كاكه ئي- مشكوراً- (وهو من كرد خانقين في الجنوب) أن في حلقات الرقص الكوردي قد تقف امرأة إلى جانب كل رجل، أو تقف مجموعة نسائية إلى جانب مجموعة رجالية، تتلوها مجموعة نسائية أخرى، وبعدها مجموعة رجالية ثانية وهكذا. وقد يكون قائد حلقة الرقص رجلاً يقود الحلقة (حامل المنديل، وتسمّى چُوپی Çopî)، وقد تقود المرأة حلقة الدبكة. أما في منطقة عفرين (كرد داغ)، وعند الكورد في محافظة حلب بشمالي سوريا، فيكون الرجال يداً بيد في مقدمة حلقة الرقص، ثم تكون النساء يداً بيد في الحلقة ذاتها، وعادة يكون صلة الوصل بين الفريقين رجل إلى جانبه والدته، أو زوجته، أو عمته، أو خالته، أو أخته أو ابنته، ومن المعيب أن تكون امرأة إلى جانب رجل لا صلة قرابة قريبة بينها وبينه.

---

١ - باسيلي نيكيتين: الكرد، ص ١٧٣.

٢ - المرجع السابق، ص ٢٢٦.

٣ - الصواب: الطبل وليس الطنبور.

٤ - باسيلي نيكيتين: الكرد، ص ١٦٩ - ١٧٠.

٣ – الطابع التراتيبي: تكون حلقة الرقص الشعبي الكوردي على شكل نصف دائرة، وقد تقترب من أن تكون دائرة إذا كان الحشد كبيراً، وفي الحلقة يكون الجميع جنباً إلى جنب، ويداً بيد، والعادة أن تتحرك الحلقة من اليمين إلى اليسار، وقد يكون العكس في بعض البيئات، وتكون بقيادة رجل يحمل في يده منديلاً صغيراً أو كبيراً، يلوّح به وفق الإيقاع الخاص بكل رقصة، ويُفترض في القائد أن يكون من ذوي الخبرة بفنون الرقص، إضافة إلى أهمية أن يكون من ذوي المكانة الاجتماعية المحترمة، وقد يكون أحياناً من الفئات الوجيهة، وكانت العادة في قرى عفرين أنه عند ختام العرس (عصر يوم الخميس) يخرج الرجال من حلقة الرقص، وتصبح خاصة بالنساء، ومع ذلك كانت القيادة تبقى للرجل، إذ كان أحد الكهول المعروفين بالرزانة والخبرة بالرقص يأخذ دور القائد، وكانت تؤدّى حينذاك رقصة خاصة بالنساء تسمّى (خاتوني) Xatûnî.

ملاحظات بشأن الرقصات الكوردية:

ـ الملاحظة الأولى: التراث الشعبي الكوردي غني بأنواع الرقصات، وفي جميع البيئات الكوردية (لور، سوران، كردمانج، زازا)، فمنها رقصات ذات إيقاع بطيء جداً، ورقصات ذات إيقاع متوسط، ورقصات ذات إيقاع سريع، ورقصات ذات إيقاع سريع جداً، تواكبه رجّات عنيفة في النصف العلوي من الجسم، وخاصة في الكتفين والصدر واليدين، والملاحَظ أن هذا النمط السريع شائع في الشمال والشرق والجنوب، ولم ألاحظ وجوده في الغرب، ولم أجده في منطقة عفرين، وإذا وُجد فهو مقتبس من مناطق كردية أخرى. وقد زوّدني كل من الدكتور مَهدي كاكه ئي، وكذلك الأستاذ عبد الرحمن حاجي عثمان (من منطقة عفرين)- مشكورَين- بأسماء كثير من الرقصات الشعبية، مع توصيف حركات كل رقصة، ولا أسردها دفعاً للإطالة، وهي تدل على خصوبة هذا الفن الفولكلوري الكوردي.

ـ الملاحظة الثانية: الرقصات الكوردية تحمل في طيّاتها صوراً صادقة عن المجتمع الكوردي، على الصعيد الميثولوجي والحربي والعملي، ولمعرفة دلالاتها بدقة ثمة حاجة إلى حفريات عميقة في الذاكرة الجمعية الكوردية، وقد تعود بنا تلك الحفريات إلى عهود المشاعية، وعهود الأسلاف القدماء، بدءاً من الگوتيين وانتهاء بالميديين، وقد تضعنا وجهاً لوجه- ومن حيث لا ندري- مع الرقصات التي يؤدّيها رجال الدين الأيزدي في معبد لالَش على إيقاع الدف والناي، ومع رقصات دراويش الطرق

الصوفية الكوردية، ولا سيما دراويش الطريقة القادرية (نسبة إلى الشيخ الكوردي عبد القادر الگيْلاني). وقد نجد أن لبعض الرقصات علاقة بمواسم الحصاد، وأخرى لها علاقة بمناسبة إعداد (البُرْغُل)، وثالثة لها علاقة بالحياة الرعوية، ورابعة لها علاقة بالحرب، وهكذا دواليك.

ـ الملاحظة الثالثة: من المفيد أيضاً أن نأخذ دور البيئة بالحسبان في نشأة الرقصات، وكلما وقعت عيني على حلقة رقص بدوية عربية، يقف فيها الرجال بصف مستقيم، ويتحركون في أماكنهم هبوطاً وصعوداً وفق إيقاع مديد وبطيء، على إيقاع الدفوف أو طبلات صغيرة، أو حتى على إيقاع أغان شعبية من غير مصاحبة آلات موسيقية، وجدت في الصف المستقيم بُعد الامتداد في جغرافيا الصحراء، ووجدت في حركات الراقصين حركة مجموعة من الراكبين على ظهور الإبل، وهي تسير ببطء في ربوع الصحراء، فتكون حركتهم بين صعود وهبوط، يفرضهما إيقاع سير الإبل، وعزوت التمهّل في الحركة إلى دور المُناخ الحار الذي لا يُمدّد الهواء فقط، وإنما يمدّد حركة الأجساد أيضاً.

وكلّما وقعت عيناي على حلقة رقص كردية، على شكل نصف دائرة، ترتجّ فيها الأجساد على شكل رجفات سريعة، والقوم ثابتون في أماكنهم، أو يتحرّكون ببطء، وجدت في الدائرة بُعد التكوير في الجبل، ووجدت في الرجّات السريعة الحاصلة في النصف العلوي من الجسد، حركة مجموعة من راكبي البغال، وهم يقودونها في شعاب جبلية وعرة، ومعروف أن البغل هو الحيوان الأنسب للبيئات الجبلية الوعرة، ووجدت في الهزّات والرجّات القشعريرةَ التي تعتري الأجساد في برد جبال كردستان، وما يقوّي هذا التفسير أن الرجّات السريعة تختفي في رقصات كرد المناطق الغربية والغربية الجنوبية السهلية والمتاخمة للسهول.

ـ الملاحظة الرابعة: ثمة في منطقة عِفرين رقصة تسمّى Giranî، ويعني اسمها بالكوردية (الوقور/الجليل)، وهي رقصة يزخر إيقاعها بالوقار والمهابة حقاً، تنتصب فيها الصدور، وتشمخ فيها الرؤوس، وتتلاصق فيها الأجساد، ورغم دويّ قرعات الطبل، تتحرك الأقدام ببطء ورزانة لمسافة قصيرة، وينصبّ التركيز هنا على القائد، ويكون عادة في القمة من الوقار" رغم أن عليه التفنّن في إبداع الحركات، مستعملاً أصابع القدمين، والحوار بالحركة مع قرعات الطبل وأنغام الزُّرنا. ومن صلاحيات القائد أن يبتعد عن رديفه خطوة أو خطوتين، ويخرج عن مسار الدائرة متوجّهاً إلى الداخل، لأداء بعض الحركات الفنية الخاصة، لكنه يبقى على تواصل مع الجماعة من خلال منديل طويل يمسكه من الطرف رديفه التالي له من حيث الترتيب، وعليه ألا يطيل في الابتعاد، وإنما العودة إلى الانتظام في الصف من جديد.

مفارقة مثيرة:

منذ مدة غير قصيرة يراودني- بشأن الرقصات الكوردية- سؤال لم أجد له تفسيراً إلى الآن، فقد مر أن معظم رقصات الكورد الشعبية جماعية، وعلى شكل نصف دائرة، أو ما يقترب من الدائرة، وأن ثمة على الدوام قائداً يقود المشاركين في الحلقة، وهو الذي يحمل المنديل (چۆپی Çopî) ويلوّح به، ولا يجوز لأحد أن يتخطّاه، وغالباً ما يكون قارع الطبّل ونافخ الزُّرْنا قريبَين منه، وكثيرَي الاهتمام به.

حسناً، يمكننا تفسير الشكل الدائري على ضوء جغرافيا الجبال من ناحية، وعلى ضوء دائرة (ماندل/مندالا) Mandela العريقة في الميثولوجيا الكوردية (انظر مبحث ذهنية الكورد الدينية)، والتي بقيت حية في الدين الأيزدي، وبقيت ظلالها في عملية (ضرب المَنْدَل) عند المنجّمين، للتنبّؤ بأحداث المستقبل. ويمكننا تفسير الشكل الدائري أيضاً على ضوء المجلس العام لأفراد القبيلة، أو لقادة القبائل المتحالفة في العهد الميدي، والذي كان يسمى Hangimana أو Hangimatana أو Hagmatana (بنيت مكانه مدينة أگـباتانا عاصمة ميديا)[1]، وكان مجلساً دائري الشكل، يتساوى فيه الجميع، باعتبار أن كل زعيم قبلي لا يعطي الفرصة لزعيم آخر كي يبرز عليه، ويشبهها في العرف السياسي الحديث مصطلح (الدائرة المستديرة).

ويمكننا تفسير انتظام الجميع في حلقة واحدة، يداً بيد وكتفاً إلى كتف، والتحرك جميعاً وفق إيقاع معيّن، دونما أيّ إخلال، وسيرهم جميعاً خلف قائد واحد، يحمل الراية (المنديل)، ويلوّح بها مباهياً، ومحدّداً مسار أفراد الحلقة جميعاً، على أنه تعبير عن وحدة أفراد القبيلة، وسيرهم في صف واحد خلف زعيم القبيلة، أو على أنه تعبير عن وحدة زعماء القبائل ضمن تحالف وحد، بقيادة شخص منتخَب يمتلك كفاءات القيادة، فتوضع الراية في يده، وتكون له الصدارة، وهذا يعني أن الرقصات الكوردية عموماً تجسّد روح الوحدة والانضواء تحت قيادة واحدة.

والسؤال هو: ما بال التشرذم الذي يفتك بالمجتمع الكوردي منذ خمسة وعشرين قرناً؟ أما كان من المفترض أن تنعكس إيقاعات وحدة الصف في حلقات الرقص العفوي على مسار

---

١ - انظر أڤستا، مقدمة، ص ١٩. دياكونوف: ميديا، ص ٣٨٤. عبد الحميد زايد: الشرق الخالد، ص ٥٨٤.

المجتمع الكوردي، ويتجلّى في إيقاع اجتماعي وسياسي متناغم ومتجانس؟ أما كان من المفترض أن يوجد- بالتوازي مع السير خلف قائد واحد حامل للراية الواحدة في حلقات الرقص- شعب واحد، يسير طواعية خلف قائد واحد أو قيادة واحدة؟

أم أن دلالات وحدة الصف في حلقات الرقص ما هي إلا تجسيد لوحدة الصف القبلي وحده، وليس وحدة صف الشعب كله؟ أم أنها إرث يجسّد وحدة صف الاتحاد القبلي عند أسلاف الكورد في العهد الميدي؟ أم أن ثمة انفصاماً في بنية الوعي الجمعي الكوردي- بخصوص وحدة الصف- بين المأمول والممكن؟ أم أن ما نلمحه في حلقات الرقص الشعبي من وحدة صف، وسير خلف قائد واحد، وعلى إيقاع متجانس، هو مشروع شعبوي عفوي، أبدعه اللاشعور الجمعي الكوردي الجماهيري، كنوع من الاحتجاج على الواقع المتشرذم، وكحافز للوحدة صفاً وقيادةً ومساراً؟

ثالثاً – من فولكلور المراعي:

يبدو من خلال ما ذكره باسيلي نيكيتين أنه كان كثير المخالطة للكرد الرحّل، وهم يسمّون Rewend (رَوَنْد) وKoçer (كُوچَر)، ونقل في كتابه (الكورد) بعض المشاهد الخاصة بفولكلور المراعي، فنقل عن باحث يدعى **ميلليغنكن** وصفاً لحلقة رقص رعوية، فقال:

"تحوّلت خيمتنا هذا المساء إلى مهرجان واسع، سرعان ما امتد إلى سائر الخيم، وكان يزيد من نشوتنا ضوءُ القمر الساطع، ونيران الليل اللاهبة، وقد عمّت الفرحة الجنود أيضاً، واختلطوا بالكورد الذين تألفت منهم حلقة (الدبكة). وبمجرد أن عُزفت بعض الألحان الكوردية، تشكّلت حلقات رقص منظّمة، وبدأت تقدم رقصات كردية. ويستحق الرقص الكوردي وصفاً دقيقاً، كما أنه يمتاز ببعض الخصوصية التي لا أجدها في الرقصات الشرقية الأخرى" إن إحدى خصائص الرقص الكوردي هي أنه لا يؤدَّى مطلقاً بصورة انفرادية أو ثنائية وحتى رباعية، فهو يبدأ فيه بتكوين حلقة غير كاملة، يأخذ كل رجل فيها دوره إلى جانب امرأتين، ويلامس كتفه كتف زميلته التي تكون بجانبه.

ولكن الخاصية الأكثر تميّزاً فيه هي أن الراقص في جميع أنحاء العالم يحرك عند الرقص جميع أطراف جسمه قليلاً أو كثيراً، أما الراقص الكوردي فيبقى بدون حراك تقريباً، ويكتفي بحركات قليلة وخفيفة من ركبتيه، ... بل تكون الحلقة مجتمعة في حركة ناعمة ومتموّجة، وتهتز على إيقاع الموسيقى، وتبدو وكأنها حقل قمح يداعبه نسيم ناعم. وعندما يرقص المقاتل الكوردي فهو يقدّم عرضاً من أكثر العروض شاعرية ورومانسية، عرضاً يتناسب مع هيئته. وقد لمحنا في نظراتهم جميعاً وكأنهم على وشك

أن يُغمى عليهم من أثر عشق داخلي مؤثّر، ولكن عندما ينتهي الرقص يعود الجميع إلى حالتهم الاعتيادية، وكأنهم لم يكونوا قبيل هنيهات في حالة ذوبان في العشق"[1].

وقال باسيلي نيكيتين يصف مشهد انتقال الكورد إلى المراعي الصيفية (زُوزان) Zozan :

"وبعد أن تنمو الحرفان، وتقوى، ويزداد ذوبان الثلوج في الجبال، يُحدِّد الأُوباباشي[2] يوم (برو- دان)" أي يوم الرحيل من الدولكا[3] باتجاه المراعي الجبلية، ويكون الاستعداد لهذا اليوم بدأ منذ أسبوع، وها قد حلّ يوم الاحتفال" منذ الصباح الباكر يرتدي الجميع أفضل ملابسهم، وتُزيّن الفتيات، اللواتي لبسن ملابسهن الزاهية، رؤوسَهن بالزهور البرية النَّضِرة، وتعلّقن بأنوفهن الخزامة والقطع الذهبية المستديرة، ومعها حلقات ذهبية كأقراط، وتهيّئ المُوسِرات منهن أنوف بناتهن منذ الطفولة لهذه الغاية، كذلك تزيّن الخِراف والنِّعاح والمِعزى بخصل الصوف المذّهَّبة، وتُعلَّق في رقاب أفضل الكباش الجَلاجلُ النُّحاسية، ثم يتركون النعاج والحملان" لتعود إلى القطيع المشترك، ثم يُحدَّد موعد السير"[4].

ويستمر نيكيتين في وصف المشهد قائلاً:

"وعندما تكون الشمس قد تجاوزت الأفق صوب كبد السماء، تكون الاستعدادات قد أوشكت على الانتهاء، وفي مثل هذا النهار الربيعي، إذ تكون السماء صافية، والهواء منعشاً معطَّراً بأريج الأزاهير البرية، التي تفتّحت براعمها للتوّ، تحين ساعة الاحتفال، وقد أصبح كل شيء جاهزاً، فيعطي الأوبابشي إشارة البدء بالرحيل، ويتقدم موكبَ (برو- دان) الراعي الرئيسي في أحسن ثيابه، وفي يده مزماره، إنه يقوم بدور القائد، ويعطي تعليماته إلى الفتيان في طريقة معاملتهم للحملان أو النّعاج التي ترفض إرضاع صغارها، ويأتي خلف الراعي الرئيسي أكبرُ وأجمل كبش، وهو ما يسمّى بالكوردية (نَيرِي) Nêrî[5]، وقد عُلِّق في رقبته جرسٌ يرسل رنّات عالية.

وقبل الانطلاق مباشرة يخاطب كل مالك رعاته بالقول: إني إذ ائتمنتك على قطيعي أطلب منك أن تؤدّي واجبك بأمانة وشرف. وبعد انتهاء هذه المراسم، يبدأ الراعي الرئيسي بالعزف

---

١ - باسيلي نيكيتين: الكرد، ص ٢٢٥ - ٢٢٦.

٢ - الأوباباشي: زعيم الأوبة (المخيّم الرعوي).

٣ - دولكا: مكان تضع فيه المواشي حملانها.

٤ - باسيلي نيكيتين: الكرد، ص ٩٨.

٥ - الصواب: بَران Beran، ويقال: نَيري لذكر الماعز.

على مزماره، فيتحرك الموكب، ويسير القطيع بانتظام خلف الراعي الذي يصاحبه الفتيان، بينما يحيط مساعدوه الرعاة والصبايا بالجوانب، ليحافظوا على سير المسيرة، وأحياناً يلوّحون بعصيّهم أو يصفّرون بطريقة خاصة، ليمنعوا أيّ خلل في القطيع"[١].

وعلقّ نيكيتين على المشهد قائلاً:

"ورغم انقضاء سنوات عديدة على اليوم الذي رأيت فيه لأول مرة موكب (برو- دان)، ما تزال الصورة عالقة بذهني، وكأنني أرى الآن مشاهد الأطفال المشرقة، والشبابَ والرعاة بملابسهم الزاهية وأغانيهم الشعبية، تحت ضوء أشعة الشمس الساطعة، حيث كان الوادي مغطًّى بطبقة من الخضرة، بينما كانت الجبال التي تمتد أمام نواظرنا من بعيد ما تزال مكسوَّة بالثلوج. أما ثُغاء الحِملان والنِّعاج، وصفير الرعاة وأغانيهم مع الفتيان، فكانت تتجاوب من بعيد في الوادي العميق، ويأتي الأهالي من أماكن سكناهم مسرعين لمشاهدة هذا الموكب المبهِج"[٢].

وإليكم مشهداً آخر لفت انتباه نيكيتين، إنه يوم (بَران بَرْدانَه) Beran berdane" أي إطلاق الخراف الذكور وسط الإناث للتزاوج، فقال:

"وفي يوم (بَران بَرْدان) تُفصَل النعاج في حظائر مسيَّجة، وتُطلَق بينها الكباش لإخصابها، وكانت هذه الكباش ترعى خلال الصيف كله في قطيع منعزل. ويُتّخَذ هذا الإجراء كي تَحمل النعاج في موعد قريب من الربيع المقبل، ويأخذ بعض الشباب أحياناً لإطلاق النار في الهواء، كأنهم يحتفلون بزفاف نعاجهم، وتُهيَّأ في هذا اليوم أصناف من الأطعمة اللذيذة، مثل (مرتوكا) Mertoka، وهو صنف من الحلوى، و(كاتا) Kata وهو نوع من الزلابية الرفيعة المحلاّة بالسكر، و(قاوُرْمَه) Qaworme" أي اللحم المطبوخ[٣]، ويُدعى الجميع للعشاء، ويوزَّع ما تبقّى منها على الفقراء في صحون خاصة.

وتنزع الفتيات عن رؤوسهن المناديل الحريرية، ويربطنها حول أعناق الخراف المحببة إليهن، فيتقدم الشباب ويأخذونها، تعبيراً عن حبهم لهن، ورغبتهم في الزواج منهن، ويراقب الأهل الفتى الذي التقط منديل ابنتهم، وهم يعرفون أن الاتفاق كان قد تم في الصيف، فإذا لم يُمانع الأهل عُقدت الخطوبة، وبعد وقت قصير يُحتفَل بالزواج"[٤].

---

١ - باسيلي نيكيتين: الكرد، ص ٩٩.

٢ - المرجع السابق نفسه.

٣ - قاوُرْمَه: اللحم المقلي، وليس المطبوخ.

٤ - باسيلي نيكيتين: الكرد، ص ١٠٨.

١٩

النهج الأهريماني في الشخصية الكوردية

زردشت وميديا:

الأنبياء ليسوا دعاة إلى عبادة الله فقط، وإنما هم أيضاً قادة ثورات اجتماعية كبرى، ثورات تتناول جميع ميادين الحياة في المجتمعات، وإذا ظللنا نبحث في مملكة السماء عن التفسير الواقعي لنشوب تلك الثورات فلن نجده، إذ إن المشكلة لم تكن هناك، وإنما لا بد من الهبوط إلى مملكة الأرض، إلى شبكة التصادمات والصراعات بين مصالح الأفراد والجماعات، لمعرفة مواقع الخلل بين قوى المجتمع، ولتحديد العوامل التي حوّلت تلك القوى إلى فريقين متناقضين وعياً ورؤيةً ومصالح.

ونعتقد أن هذا هو المدخل الصحيح لفهم العقيدة الزردشتية، فالمعروف أنها تقوم على الصراع بين قوتين: قوة الخير ممثَّلةً في الإله آهورامَزْدا، وقوة الشر ممثَّلة في أنگـراماينيو (أهريمان)، والمعروف أيضاً أن النبي زردشت- عليه السلام- كان ميدياً، وأنه عاش بين عامي (٦٦٠ - ٥٧٣ ق.م)، أو (٦٣٠ — ٥٥٣ ق.م)، أو (٦٢٨ — ٥٥١ ق.م)، أو (٦١٨ — ٥٤١ ق.م)، وهذا يعني أمرين:

— الأول: أن زردشت عاصر دولة ميديا في أوج قوتها خلال عهد الملك كَيْخَسْرَو، وعاصرها حينما نخرت من الداخل، وسقطت في عهد الملك أستياگ سنة (٥٥٠ ق.م)، وإذا علمنا أن أستياگ تولّى المُلك سنة (٥٨٥ ق.م)، اتضح أن زردشت عاش معظم عمره في العهد الأستياگي.

- والثاني: أن زردشت شهد الصراع بين نهج الاتحاد والقوة، ونهج التفكك والضعف، في المجتمع الميدي، وتأثر عميقاً بذلك الصراع، فانبثقت في ذهنه فكرة الصراع بين الإله النوراني آهورامَزْدا والكائن الظلماتي أهريمان، وصارت محور دعوته الدينية.

وقد دعا زردشت الميديين إلى الانتماء للنهج الآهورامَزْدي، والوقوف ضد النهج الأهريماني، ولما أصرّ نخب ميديا على التمسّك بالنهج الأهريماني هجر زردشت ميديا، ووجد الملاذ في كنف الملك الفارسي ڤشتاسپ Vishtaspa (وشتاسپ)، وكان من عواقب غلبة النهج الأهريماني في المجتمع الميدي سقوط مملكة ميديا في يدي كورش الفارسي، وتحوّل الميديين من موقع السيادة إلى موقع التبعية.

وظل النهج الآهورامَزْدي والنهج الأهريماني يتصارعان في الشخصية الكوردية منذ العهد الميدي" الأول يرتقي بها، والثاني ينحدر بها، وقد سلّطنا الضوء، في معظم مباحث هذه الدراسة، على النهج الآهورامزدي، وحان الوقت للحديث عن النهج الأهريماني، وفيما يلي بعض الظاهرات الدالة عليه.

أولاً- ظاهرة الانقسام المفرط:

ليس ثمة شعب يخلو من الانقسامات الطبقية والثقافية والسياسية والدينية، لكن الملاحَظ أن الانقسامات بين الكورد تزيد عن الحد المعقول، وتصل إلى حالة التشرذم، وكثيراً ما سمعت بعض عقلاء الكورد يقولون: Kurd refî tîtîya ne (الكورد كسرب تِيتِي)، و(تِيتي) طائر أصغر من العصفور، إذا نزل سرب منه في مكان، وفاجأه شخص ما، طار كلٌّ فرد في اتجاه مختلف، في حين تطير الطيور الأخرى- في هذه الحال- معاً باتجاه واحد. وكان أولئك العقلاء يضربون ذلك المثل على افتقار الكورد إلى وحدة الكلمة والموقف. والحقيقة أن انقسام الكورد على أنفسهم- أفراداً ونخباً وقبائل وأحزاباً- ظاهرة لا يمكن تجاهلها، وهي مصدر كثير من البلايا التي حلّت بهم طوال التاريخ.

ولا حاجة إلى سرد الأدلة على الانقسامات والصراعات القَبَلية الكوردية، فهي معروفة وقائمة إلى يومنا هذا، ولعلها كانت السبب الأقوى في افتقار الكورد- منذ خمسة وعشرين قرناً- إلى قيادة واحدة تجمع شملهم، وقد تأفّف المؤرخ شَرَف خان بَدْليسي من هذه الظاهرة، وعزا إليها جميع السلبيات المدمرة التي تفتك بالمجتمع الكوردي، فقال:

"ولّما كان الأكراد ليس بينهم الآن عموماً مَن يطاع أمره فيهم، ويُنفَذ حكمه، فإن أكثرهم صاروا يسفكون الدماء، ويستهترون بقواعد الأمن والنظام، وإنهم يثورون لأتفه الأسباب وأهونها، فيرتكبون الجرائم الكبيرة للأغلاط التافهة والذنوب الصغيرة"[1].

وإلى جانب الذهنية القبلية لعبت سيكولوجيا الجبال دوراً كبيراً في تشرذم المجتمع الكوردي، وافتقاره إلى التماسك، وسبق القول بأن كل كردي يرى في نفسه جبلاً مستقلاً، وإذا كانت هذه حال الأفراد، فكيف تكون حال القبائل؟ وكيف تكون حال الطرق الصوفية والتكتلات والأحزاب؟ وكيف تكون حال زعماء النزعات المناطقية واللهجوية (كردمانج، سوران، لور، زازا)؟ وكيف تكون حال خرّيجي التوجّهات الدينية والمذهبية (مسلمون، مسيحيون، سنّة، شيعة، أيزدي، كاكه ئي، علي إلهي/قزِلْباش)؟

وليس ثمة شعب في العالم يكون جميع أفراده- على الدوام- صفاً واحداً إزاء جميع القضايا، لكن حينما تصبح القضايا الكبرى والمصيرية في الميزان، كقضايا الوجود والهوية والوطن، يتخلّى القسم الأعظم عن اختلافاتهم وصراعاتهم، ويقفون صفاً واحداً، وتحت راية واحدة وقيادة واحدة، وهذا ما لم يتحقق- إلى الآن- في الشعب الكوردي، حتى لكأن ثمة شعوباً كردية وليس شعباً وحداً، وإذا كان ذلك مبرَّراً في عصور الجهل والتخلف، فما هو مبرِّره الآن؟

ثانياً- ظاهرة النرجسية:

النرجسية هي النزعة الفردية المفرطة، وللبيئة الجبلية دور كبير في نشأتها وتفاقمها، وتصبح النرجسية أكثر تعقيداً عندما تتفاعل مع الثقافة الرعوية الريفية، وهي تتحول إلى مشكلة كبرى حينما تتوحد بالجهل، وترجع جذورها، على الصعيد المعرفي والسيكولوجي، إلى ضيق في الأفق، وقصور في الوعي، وسطحية في التفكير، وأنانية في النوايا.

ويبدو أن للكرد نصيباً كبيراً من النرجسية اجتماعياً وسياسياً وثقافياً واقتصادياً، إنها تتجلّى على الصعيد الاجتماعي في النزعة القَبَلية والفردية، وتصل إلى درجة الانمساخ والخيانة. وتتجلى على الصعيد السياسي في تشرذم الحركات الكوردية السياسية، وفي عجزها عن الاتفاق

---

١ - شرف خان البدليسي: شرفنامه، ٦٢/١.

على القواسم المشتركة، وعلى صياغة مشروع إستراتيجي واحد (انظر مبحث ذهنية الكورد السياسية). وبرزت أيضاً في كيفية إدارة الانتفاضات والثورات الكوردية، سواء في التخطيط أم في التنفيذ، وكانت من أقوى عوامل انهيارها رغم التضحيات الكثيرة والبطولات الفذّة.

أما على **الصعيد الثقافي** فقد أثّرت النرجسية سلبياً في الحركة الثقافية الكوردية بدرجات خطيرة جداً، وأبرز دليل على ذلك عجز الكورد إلى الآن عن دمج اللهجات المختلفة في لغة واحدة مشتركة، بها يتفاهمون جميعاً، هذا مع العلم أن اللغة هي الميدان الأمثل لصناعة التجانس الحقيقي داخل المجتمع، وهي التي تعصم الأمم من التشرذم، ومعروف أنه لا يتحقق التجانس في المجتمع ما لم تتوافر ثقافة متجانسة، وكيف يمكن أن تتوافر ثقافة متجانسة في غياب لغة مشتركة؟ وعلى سبيل المثال إذا كان المثقف الكوردمانجي غير قادر على أن يفهم بدقة حديث المثقف السوراني، والعكس صحيح أيضاً، فكيف تكون حال الجماهير العادية إذاً؟

وعدا مشكلة الاختلاف في اللهجات ثمة مشكلة أكبر، وهي الاختلاف في الكتابة، فالكورد في الجنوب والشرق يكتبون ويقرأون بالحرف العربي، وفي الشمال والغرب يكتبون ويقرأون بالحرف اللاتيني، ويتكرس ذلك ويتعمّق يوماً بعد يوم في المدارس والمعاهد والجامعات ووسائل الإعلام، والحقيقة أن هذا التقسيم أخطر على المجتمع الكوردي من التقسيم الذي أنتجته اتفاقية سايكس بيكو المشؤومة، وصحيح أن معالجة هذه المشكلة تحتاج إلى قرار سياسي حاسم من الحركات السياسية الكوردية في عموم كردستان، لكن هل خطا المثقفون الكورد خطوات عملية في هذا المجال؟ هل عقدوا مؤتمراً، وتوصّلوا إلى حل عملي للمشكلة، ووضعوه أمام الحركات السياسية؟

والملاحَظ أيضاً أن غالبية المثقفين الكورد يعملون على انفراد، بل إن النزعة النرجسية تدفع بعضهم إلى أن ينعزل في (جبله)، ويجهّز مدافعه لقصف المثقف المختلف عنه رأياً أو موقفاً؟ ثم دعونا نتساءل: كم من الباحثين الكورد أنجزوا مشروعاً ثقافياً مشتركاً؟ وكم هيئة ومؤسسة ثقافية كردية نسّقت بين المثقفين الكورد، وحفزتهم لإنجاز المشاريع الثقافية الكبرى المشتركة (موسوعات، معاجم، محاور بحثية في الميثولوجيا، والتاريخ، واللغة، والفلسفة، وعلم الاجتماع، وعلم النفس، والعلوم التطبيقية، والفن)؟ وكم واحدة منها حثّت المثقفين الكورد على الانخراط في مشروع للترجمة من اللغات الأخرى إلى الكوردية وبالعكس؟ أليست هذه كلها مهمات ثقافية ضرورية وبحاجة إلى جهود مشتركة؟

وقد سئل الكاتب الإنكليزي بِرْنارد شُو ذات مرة عن شدة صلعه وكثافة لحيته، فأجاب: "**غزارةٌ في الإنتاج وسوءٌ في التوزيع**" وقد أوصلت النزعةُ النرجسية الحركةَ الثقافية الكوردية

إلى حال برنارد شو، ولو راجعنا الإنتاج الثقافي الكوردي المعاصر لتوصلنا إلى النتيجة التالية: غزارةٌ في الكتابات الشعرية المغرقة في الذاتية، والكتابات الانفعالية والسِّجالية، وفقرٌ في البحوث المنهجية والدراسات التحليلية، وفي اللغة والرواية والقصة والمسرح والنقد، ونعلم أنه ليس من المنطقي تحديد نسب الإنتاج الثقافي في مجتمع ما مسبقاً، لكن هل هذا الوضع الثقافي الكوردي طبيعي؟ أليس هذا الخلل دليلاً على استفحال نزعة التمركز حول الذات؟

وماذا عن النرجسية على **الصعيد الاقتصادي**؟

إنها- في حدود ما نعلم- ليست أفضل حالاً من الوضع الثقافي، والمعروف أن مجتمعاً مهلهل الاقتصاد لا يمكن أن يهيّئ المناخ لولادة حركة ثقافية نشيطة، ولا يمكن أن يساعد على تكوين ذهنية حضارية متقدمة، وأتمنّى أن يجري المتخصصون في الاقتصاد دراسات ميدانية في المدن الكوردية، ليروا كم هو عدد المشاريع التعاونية؟ وما مدى نجاح الشراكات بين أصحاب رؤوس الأموال الكورد؟ وما مدى التنسيق بين رجال الزراعة والتجارة والصناعة الكورد؟ يبدو لي أن النتائج لن تكون مريحة، ولست أُسقط العوامل الخارجية من الحساب، لكن الأرجح أن نزعة النرجسية ليست غائبة عن المشهد أيضاً.

ثالثاً- ظاهرة الأممية السريالية:

الأممية نمطان:

- أممية واقعية: وهي أن يحتفظ المرء بهويته، ويُعرَف بين الشعوب بخصوصيته، لكن من غير نرجسية قومية، ولا هلوسات شوفينية، ولا استعلاء على الآخرين، ولا انتقاص من هوياتهم، ولا اعتداء على خصوصياتهم، ويتعامل مع البشر جميعاً بمعايير واحدة، ويؤمن بأنه يتكامل بهم ويتكاملون به.
- وأممية سريالية: أممية فوق واقعية، وهي أن ينخلع المرء من هويته، ويدير ظهره لانتمائه الأصلي، ويقفز فوق واقعه، ويستخفّ بواجباته تجاه بني قومه، ويتخلّى عن مسؤولياته الوطنية، ويتوهّم أنه يسبح في بحر الأممية، في حين يكون سابحاً- وبمسمّيات أيديولوجية براقة- في بحر الهويات الغريبة.

ومن الظاهرات المثيرة أن عدداً غير قليل من النخب الكوردية- مثقفين وساسةً- داروا وما زالوا يدورون في فلك الأممية السريالية" إما لأنهم إسلاميون أكثر من اللازم (أقصد الإسلام

السياسي الصريح أو المموَّه)، وإما لأنهم شيوعيون أكثر من اللازم، وقد أثبتت الأحداث أن هؤلاء وأولئك كانوا على استعداد لأن يديروا ظهورهم إلى قضايا الوجود والهوية، بل إن بعضهم تبرّأ من بني قومه الكورد، وإلا فما معنى أن يمتطي أحد كبار الإسلاميين الكورد صهوة المنبر منذ بضع سنوات، ويضع نسبه الكوردي تحت قدمه" غضباً من بعض الساسة الكورد، واحتجاجاً على بعض مواقفهم؟

إن شاه إيران كان حليفاً لأمريكا وإسرائيل طوال عقود، فهل وقف عالم دين مسلم فارسي، ووضع نسبه الفارسي تحت قدمه، غضباً من سياسات الشاه؟ وأدارت تركيا ظهرها للإسلام ثمانين عاماً، وتحالفت مع أمريكا وإسرائيل، وانتسبت إلى الحلف الأطلسي (النادي النصراني حسب توصيفات الإسلاميين)، فهل ثارت ثائرة عالم مسلم تركي، ووضع نسبه التركي تحت قدمه، غضباً من مواقف الساسة الترك؟ وإن الرئيس المصري أنور السادات زار إسرائيل، وخطب في البرلمان الإسرائيلي، وعقد مع إسرائيل اتفاقية كامپ ديڤيد، فهل وقف عالم مسلم مصري أو عربي، وأعلن على الملأ أنه يضع نسبه المصري أو العربي تحت قدمه، غضباً من سياسات السادات؟

ولم يكن الكورد الشيوعيون أقل سريالية من الكورد الإسلاميين، فقد تباهى بعض كبارهم بأنه (شيوعي أولاً وكردي ثانياً)، فهل الواقعية الديالكتيكية تقبل هذا؟ أيوجد الإنسان أولاً ثم العقيدة/الحزب أم العكس؟ ألم يوقف هؤلاء الإنسانَ على رأسه كما فعل هيغل بالديالكتيك حسب قول ماركس؟ بل إن بعض الكورد الشيوعيين وقف ضد بني قومه في اللحظات الحرجة، وهذا ما لم نجد له مثيلاً عند الشيوعيين العرب والفرس والترك والأرمن، كان شيوعيو هذه الشعوب متضامنين مع قومهم في القضايا المصيرية، كقضايا الهوية والاستعمار والاحتلال، بل استثمروا صداقاتهم مع الدول والمنظمات الشيوعية في العالم، لمنفعة بني قومهم، فما بال الأمميين الكورد- إسلاميين وشيوعيين- يطيرون وحدهم خارج السرب، وينفردون بهذا السلوك الغريب؟

رابعاً- ظاهرة تهديم الأمجاد:

هذه أيضاً واحدة من غرائب النهج الأهريماني في الشخصية الكوردية، فالشعوب- وخاصة نخبها- تحرص بشدة على أمجاد الأسلاف، إنها تنقبّ عن مشاهيرها في أسفار التاريخ، فتُخرجهم من العتمة إلى الضوء، وتشيد بخصالهم وإنجازاتهم، وتلقّن الأجيال تبجيلهم والاقتداء بهم،

وتدرّس سِيَرهم في المؤسسات التعليمية، وتقيم لأجلهم المحاضرات والندوات والمؤتمرات، هذا عدا الكتابة عنهم في الصحف والمجلات والكتب، وتأليف المسلسلات والأفلام. لا بل إن بعض الشعوب تجعل من الحبّة قبّة في هذا المجال، فتطمس الجوانب السلبية في شخصيات بعض مشاهيرها، وتضخّم الجوانب المضيئة، وتجعلها أكثر رونقاً وجاذبية.

وماذا عن الكورد ومشاهيرهم؟ المؤسف أنه لأسباب دينية، أو مذهبية، أو أيديولوجية، أو حزبية، أو قَبَلية، أو مناطقية وعائلية، يتسرّع بعض الكورد إلى الطعن في أعلام أمتهم، محاولين الانتقاص منهم وتقزيم منجزاتهم، وتشويه صورتهم في ذاكرة الأجيال، وفي خضمّ مشروعهم التهديمي يعمدون تارة إلى اقتناص موقف أو قول لذلك العَلَم، فيُخرجونه من سياقه، ويقدّمونه في سياق مختلف، ويختلقون تارة أخرى معلومات مضلِّلة، ثم يديرون طاحونة التشويه، ويلملمون حولهم أنصاف المتعلمين والجهلة، ويحوّلون ذلك العَلَم إلى إبليس ينصبّ عليه اللعن من كل اتجاه.

أجل، لا وقت عند هواة تهديم الأمجاد لإجراء دراسات موضوعية موثَّقة حول المشاهير الكورد، وهم ليسوا معنيّين بتحليل المواقف في سياقاتها التاريخية، ولا يطالبون أنفسهم بالمقارنة بين الإيجابيات والسلبيات، ليروا أيّها كان أكثر تأثيراً على الصعيد التاريخي، وهم ليسوا معنيّين أيضاً بتقدير المتاعب والمصاعب التي تحمّلها أولئك المشاهير في أكثر المراحل حرجاً، ولا بتقييم الآلام والمخاطر والمهالك التي عرّضوا لها أنفسهم وأهليهم، ولا باحترام روح البسالة والتضحية والفداء التي تميّزوا بها.

ولنأخذ- على سبيل المثال- صلاح الدين الأيوبي، فبين حين وآخر يظهر أحد المشكّكين متسائلاً: ماذا قدّم صلاح الدين للكرد؟ إنه خدم الآخرين، وحارب في سبيل الآخرين، لماذا لم يؤسس دولة كردية؟ إن هذا المشكِّك يتجاهل أن صلاح الدين كان يعيش في عصر الدول الدينية، وليس في عصر الدول القومية، ويجهل أو يتجاهل أيضاً أن صلاح الدين استطاع، بذكائه وشجاعته وصبره، وبمساندة والده وإخوته وأقاربه وبعض القبائل الكوردية، ومماليكه الأتراك، وفي ظل ظروف إقليمية خاصة، تأسيسَ مملكة في ديار غريبة، ولو كان صلاح الدين حينذاك في كردستان لذهب ضحية إحدى الحروب القبلية الرعوية الريفية بين الكورد أنفسهم.

ثم كيف يؤسس صلاح الدين دولة كردية قومية في جغرافيا غير كردية، وبين شعوب غالبيتها الساحقة من غير الكورد؟ وأكثر من هذا" من قال إن صلاح الدين لم يجعل الكورد سادة دولته من بحيرة (وان) إلى اليمن، ومن أربيل إلى ليبيا؟ هل كانت ثمة مدينة كبيرة أو قلعة مهمة لم يولّ عليها أحداً من أولاده، أو من إخوته، أو من أبناء عمومته، أم من أخواله،

أو من زعماء بعض القبائل الكوردية؟ وكيف يكبح صلاح الدين- وهو في قبره- جماح روح الانقسام والنرجسية التي انفلتت بعد وفاته مباشرة بين النخب الكوردية؟ ألم تكن تلك الروح السبب في انقضاض المماليك الأتراك على الدولة الأيوبية بعد (٥٦) عاماً من وفاته؟ لماذا الإسراع إلى إدانة صلاح الدين وغيره من أعلام الكورد، وليس مكافحة غرائب النهج الأهريماني في الشخصية الكوردية؟

ولم يكن صلاح الدين العَلَم الوحيد الذي تطاول عليه هواة تهديم الأمجاد من الكورد، وإنما مدّوا أيديهم إلى العبث بمكانة أعلام الكورد في العصر الحديث، ولم يفلت منهم لا الشيخ عبيد الله نَهْري، ولا أسرة الأمير بدرخان بك، ولا أسرة جميل باشا، ولا الشيخ محمود برزنجي، ولا الشيخ سعيد پيران، ولا سيّد رضا، ولا قاضي محمد، ولا ملا مصطفى بارزاني، وأعدّوا لكل واحد منهم تهمة، ونصبوا أنفسهم قضاة للحكم عليهم، أليس الأجدر بالمرء أن يسأل نفسه: ماذا قدمتُ للأمة قياساً بما قدّمه أولئك الأعلام؟ هل بذلتُ جزءاً يسيراً مما قدمّه أولئك المشاهير من أموالهم وأنفسهم وأهليهم؟

ألا يعلم هادمو الأمجاد أن مشاهير الأمم يصبحون- بعد رحيلهم إلى الأبدية- فوق الانتماءات الدينية والمذهبية والقبلية والحزبية والمناطقية والعائلية؟ إنهم يصبحون مُلكاً للأمة، ورموزاً لشخصية الأمة، ومنارات تسترشد بها الأجيال في ظلمات المحن، إن الأمة التي تستهين بمشاهيرها، وتتطاول عليهم، وتتعامل معهم بسذاجة وسفاهة، ليست أمة جاهلة فقط، ولا غافلة فقط، ولا حمقاء فقط، وإنما هي أمة فقدت بوصلة الاهتداء إلى الذات، وقررت أن تبقى على الدوام في المؤخرة.

خامساً – ظاهرة الغفلة:

نقيض الغفلة هو اليَقَظة والتنبّه والحَذَر، وثمة مقولة شهيرة هي " **لستُ بالخِبّ، ولكنّ الخِبّ لا يخدعني**"[١]، وهكذا يكون اليقظ المتنبِّه الحَذِر، إنه لا يخدع الآخرين ولا يمكر بهم، لكنه في الوقت نفسه عارف بفخاخ الماكرين، فلا يقع فيها. أما الكورد فلهم في مجال الغفلة تراث ضخم، حتى إنهم صاروا مضرب المثل بذلك بين شعوب غربي آسيا، وشاعت نتيجة لذلك مقولة "**هل**

١ - الخبّ: المخادع.

تَسْتَكْرِدُني"؟! أي هل تعتبرني ساذَجاً مغفَّلاً؟! وهذه المقولة شائعة في بلاد الشام ومصر، حيث استقر فيها كثير من الكورد، وخاصة في العهد الأيوبي، وأعلم أن ثمة تفسيرات لتلطيف أثر هذه المقولة، لكن لا نفع في ذلك" لأنها أصبحت دارجة بمعنى السذاجة والغفلة، ولا شيء غير ذلك.

وطوال التاريخ دفع كثير من نخب الكورد حياتهم نتيجة الغفلة، وخاصة الغفلة السياسية، أما ما جرّته غفلة بعض النخب على الكورد من كوارث فحدّث عنه ولا حرج، ونكتفي بمثال واحد، ففي الربع الأول من القرن العشرين استغل الزعيم التركي مصطفى كمال باشا غفلةَ كثير من نخب الكورد أفضل استغلال" إذ تظاهر بأنه ضد سياسة تهميش الكورد، وسلّم مهام حفظ الأمن في مقره لفيلق كردي، وكان أفراده يرتدون الزي الكوردي التقليدي، واصطحب معه في اللقاءات طفلين كرديين يتيمين بزي كردي، وليس هذا فحسب، بل ارتدى الزي الإسلامي، وظهر برفقة العلماء المسلمين الكورد. وكان لهذا التعاطف المصطنع تأثير بليغ في الأوساط الكوردية، حتى إن بعض الكورد راح يتحدث عن الأصل الكوردي لمصطفى كمال، وتنافس زعماء القبائل لنيل شرف وضع قواتهم تحت تصرفه، وفي الوقت نفسه، وتحت ستار هذه الـ"پروپاجندا، كان مصطفى كمال ورفاقه يمارسون أبشع ألوان القمع والقهر والصهر ضد الكورد[1].

ولا مجال الآن لذكر جميع الشواهد الدالة على غفلة كثير من نخب الكورد، إنها كثيرة ومتنوّعة، ويُستحسن أن تُجمَع في مؤلف مستقل، وتُخضَع للتحليل المعمَّق، وتُستخلَص منها العبر. ويمكن إرجاع ظاهرة الغفلة عند الكورد إلى ثلاثة عوامل رئيسة: أولها السذاجة في الذهنية الرعوية الريفية. وثانيها طيبة القلب الزائدة عن الحد. وثالثها الثقة المفرطة بالآخر. وقد لاحظ عدد من الكوردولوجيين هذه الظاهرة، ومنهم أرشاك سافراستيان في قوله:

"إن بساطة تفكيرهم، وقلوبَهم الطيبة ورجولتَهم، استُغلّت من قبل الترك، فاستخدموهم كقذائف لمدافعهم في حروبهم الخاسرة على كل الجبهات"[2].

سادساً- ظاهرة الانسلاخ:

ظاهرة الانسلاخ عن الهوية- لغةً وقيماً وسلوكاً وهموماً- نامية بين الكورد، وخاصة الكورد في المدن غير الكوردية، أو هاجروا إلى دولة ما في الشرق أو في الغرب، وهي واضحة

---

١ - زنار سلوبي: في سبيل كردستان، ص ٥٢، ٥٣، ٥٨، ٦٠، ٦١.

٢ - أرشاك سافراستيان: الكرد وكردستان، ص ١٣٠.

أيضاً بين الكورد الذين تزوّجوا من نساء غير كرديات، بل هي واضحة أيضاً في بعض القرى الكوردية المتاخمة للقرى غير الكوردية، حتى إنه يمكن القول: كل كردي غادر البيئة الكوردية أصبح مشروعاً للانسلاخ. ولسنا من دعاة العنصرية القومية، ولا من هواة انغلاق الشعوب على نفسها، لكن الفرق كبير بين أن تنفتح على الآخرين وتتواصل معهم من خلال هويتك الأصيلة، وبين أن تنسلخ من هويتك التي اختارها الله لك، ورسّخها في جيناتك، وجعلك مسؤولاً عنها.

واللغة أولى ضحايا الانسلاخ" فالمنسلخون يهجرون التحدث بالكوردية مع أفراد أسرهم، ويتحدثون على نحو مكسَّر بلغة القوم الذين حلّوا بينهم، ولا يمرّ الجيل الثاني إلا ويكون معظم أولادهم صاروا غرباء عن الكوردية، وماذا يبقى من الانتماء إلى الكورد بعد الانسلاخ من اللغة؟ وكيف يمكن للأجيال التي أُقصيت عن لغتها الأم أن تتواصل شعورياً وفكرياً مع أبناء قومها؟ كيف يمكنها أن تتشرّب الثقافة الكوردية السارية في الخطاب اليومي، وفي الأمثال الشعبية، وفي الأغاني والملاحم؟ كيف يمكنها أن تتذوّق الموسيقى الكوردية؟ وكيف لها أن تتواصل مع تراث الأجداد؟

ومن أشكال الانسلاخ أيضاً عدم الاهتمام بمشكلات الأمة الكوردية، فالمنسلخ كردي بالاسم فقط، وقد تراه متحمّساً للشكليات" كحضور عيد نوروز مثلاً، حباً في الاستعراضات وأخذ الصور التذكارية، وعرضاً لمهاراته في اللهو والبذخ، وما عدا ذلك فلا شأن له بها، إنه غير مَعنيّ بما ينصبّ على الكورد من جهل وفقر وقهر واحتلال، ولا شأن له بمن يقاتل في الجبال، ولا بمن أُقحم في السجون، ولا بمن يتلقّى سياط الجلادين صباح مساء، وإذا كان غنياً فهو ليس مستعداً للتبرع ولو بقليل من المال، وإذا كان مثقفاً فهو لا يملك الوقت للبحث في أيّ شأن كردي ثقافي، وتراه مع ذلك منشغلاً أيّما انشغال بالعمل في مؤسسات التدجين الثقافية.

ومن أبرز حالات الانسلاخ في تاريخ الكورد تلك المزاعم التي روّجها بعض الزعماء والحكام الكورد بانتمائهم إلى أصول عربية كالأسرة الهاشمية، أو الأسرة العلوية، أو إلى سلالة أحد كبار الصحابة" كأبي بكر الصدّيق، وخالد بن الوليد، وإلى بني أُميّة، وانتماء آخرين- ومنهم أمراء بدليس- إلى سلالة الأكاسرة الفرس، ولعل ثمة من ينتسب إلى سلالة السلطان السلجوقي ألپ أرسلان، ولسان حال هؤلاء جميعاً يقول ضمناً: لسنا من طينة هؤلاء الكورد الرعاة الريفيين المتخلفين، إننا من طينة أسمى، وها نحن نستغفلهم ونستغل سذاجتهم.

ولفتت هذه الظاهرة انتباه بعض الأجانب، ومنهم حاكم أربيل الإنكليزي دبليو آر، إذ قال: **"ويفخر كل زعيم كردي تقريباً بأنه ينحدر من أصل عربي، ويحاول إرجاع نسبه إلى النبي أو أحد صحابته الأولين"**[1]. ونقل نيكيتين عن أستاذه الكوردي ملا سعيد (غير سعيد نورسي) قوله **"كل من يصبح بيگـاً يعلن وينشر بين الملأ أنه (عباسي) أو (علوي) أو (خالدي)، أو ينتسب إلى فلان أو فلان من حفدة علاّن، ويختلق ألف تحفّظ بشأن نسبه الكوردي"**[2].

وذكر جوناثان راندل أنه كانت له علاقة وثيقة مع برلماني كردي معروف بولائه للنظام التركي، يدعى كامران إينان، وكان قد ولد عام (١٩٢٩م) في قاطرة المواشي التي أقلّت أهله من منزلهم في منطقة بدليس إلى منفاهم الداخلي في غربي تركيا، خلال الحملة التركية لتشريد الكورد وفصل النخب عن الجماهير، وهو من عائلة شهيرة من مشايخ الطريقة النقشبندية، قال جوناثان:

"سألته هذه المرة مباشرة ما إذا كان يعتبر نفسه كردياً أو تركياً؟ فردّ قائلاً: هذا سؤال لا أطرحه على نفسي أبداً، ولكن بما أنني (سيّد)" أي من سلالة الرسول، فأعتقد بأنني أُعتبَر عربياً"[3].

سابعاً- ظاهرة الانمساخ:

مرتبة الانسلاخ تمهيد لمرتبة الانمساخ، فالكوردي الممسوخ يقطع صلاته بأصله الكوردي، بل يتبرّأ من الكورد ويقف ضدهم، ولا يتردّد في محاربتهم، ونذكر من المثقفين الممسوخين **ضِياء گُوك أَلْپ** (١٨٧٦ – ١٩٢٤م)، فاسمه محمد زِيا (ضياء)، وولد في ديار بكر، وكان عالم اجتماع متميّزاً، ومن شدّة انمساخه هجر اسمه الأصلي، واتخذ الاسم التركي (گـُوك أَلْپ)، واحتقر المجتمع الكوردي الريفي، وانتُخب عضواً في لجنة (الاتحاد والترقّي) العليا، وأنشأ نظريته الـپـان- طورانية في كتابه (مبادئ التركية) عام (١٩٢٠م)، ورفض أصله الكوردي، وقال:

---

١ - دبليو آر . هي: مذكرات دبليو آر، ص ١١٤.

٢ - نيكيتين: الكرد، ص ٢٤٢.

٣ - جوناثان راندل: أمة في شقاق، ص ٣٨٢ – ٣٨٣.

"لا أتردد في القول بأني تركي، حتى لو اكتشفت أن جدّي من أصل كردي أو عربي، لإدراكي من دراساتي الاجتماعية أن أساس القومية الوحيد هو التربية والنشأة"[1].

ونذكر من الولاة الكورد الممسوخين والي الموصل العثماني **سليمان نَظيف باشا**، إنه أسرع بتنفيذ حكم الإعدام في الشيخ عبد السلام بارزاني وحراسه، في الموصل سنة (١٩١٤م)، قبل وصول الموافقة على تنفيذ الحكم من إستانبول، كي يقطع الطريق على أيّ عفو يمكن أن يكون صادراً عن الدولة العثمانية[2].

ومن الساسة الكورد الممسوخين **عصمت إينونو**، إنه كان اليد اليمنى لمصطفى كمال آتاتورك في تنفيذ مشروع الصهر القومي ضد الكورد، كما أنه كان مهندس معاهدة لوزان سنة (١٩٢٣م)، والتي أسقطت حقوق الكورد الواردة في اتفاقية سيفر (١٩٢٠م)، وأعادتهم ثانية إلى متاهات مشروع التتريك. وقد استخدم عصمت إينونو بعض المغفَّلين من زعماء الكورد، فاصطحب معه إلى لوزان مرة النائب الكوردي عن ديار بكر بِرِيْنجي زادَه فوزي بك، وفي المرة الثانية النائب زِلفي زاده، وأعلن الاثنان قائلين:" **نحن والأتراك إخوة، لا توجد بيننا أية فروقات، ولا نرغب في الانفصال عنهم**"[3]. وإن عصمت إينونو هو القائل للزعماء الكورد في تركيا محذِّراً: " **لا يحق لغير الأمة التركية أن تطالب بأيّ حقوق إثنية أو قومية في هذه البلاد، فما من أمة أخرى، أو عنصر عرقي آخر، يملك مثل هذا الحق**"[4].

ثامناً – ظاهرة أخلاق العبيد:

في كل مجتمع نمطان متصارعان من القيم:

- قيم النبل: يجسّدها النخب النبيلة (الأحرار)، وهؤلاء يمتلكون وعياً عميقاً، ويستلهمون روح الأمة شعوراً وفكراً، ويعملون بحزم للانتقال بها نحو الأفضل، إنهم متحررون من جاذبيات

---

١ - جرجيس فتح الله: يقظة الكرد، ص ٥٦ - ٥٧، ٢٨٨ - ٢٨٩. زاريوانت: طورانيا الموحدة المستقلة، ص ٤٤ – ٤٦. جوناثان راندل: أمة في شقاق، ص ٣٥٢.

٢ - دبليو آر . هي: مذكرات دبليو آر، ص ٢١٢ . هامش ١.

٣ - زنار سلوبي: في سبيل كردستان، ص ٧٠، ٧١.

٤ - جوناثان راندل: أمة في شقاق، ص ٣٤٢.

الأنانية، ومنتصرون على النزعة النرجسية، ومستعدون لبذل الجهد والمال والنفس، لا ينتظرون من أحد جزاءً ولا شُكوراً.

- وقيم الانحطاط: يجسّدها النخب المنحطّة (العبيد)، وهؤلاء ذوو وعي سطحي، ويعيشون حالة اغتراب عن ذواتهم وعن أمتهم، والأمة بالنسبة لهم مجرد بقرة حلوب لا أكثر، ولا يخجلون من أن يمارسوا - على حساب أمتهم- أبشع ألوان الأنانية وأكثرها خسّة ونذالة، ويتقبّلوا جميع أشكال الانسلاخ والانمساخ والخيانة.

وبالنسبة إلى المجتمع الكوردي أثّرت العوامل الخارجية، بدرجة كبيرة جداً، في تقليص نسبة (الأحرار) وتفريخ نسبة (العبيد)، فمنذ سقوط دولة ميديا كان (الأحرار) أول ضحايا مشاريع القهر والقمع، وكانت الجهات المتسلطة تعمل بكل وسيلة إما لترويضهم، وإما لعزلهم عن الجماهير، وإما لقتلهم والخلاص منهم. وبالمقابل كانت تلك الجهات تحفز فريق (العبيد)، كي ينشطوا ويزرعوا ثقافة الهزيمة في المجتمع الكوردي، وكان من الطبيعي أن تتراجع نسبة (الأحرار)، وتتراجع معهم أخلاقيات عشق الحرية والكرامة، وقيم الكبرياء والإخلاص، قيم البسالة والفداء ونكران الذات، وتترعرع أخلاقيات العبيد في الشخصية الكوردية، جالبة معها منظومة قيم الخضوع والذل والجبن والنرجسية والانتهازية.

وقد جاء في تجربة مخبرية أن ضفادع وُضعت في ماء بدرجة حرارة عادية، ثم بُدئ بتسخين الماء رويداً رويداً، فكانت درجة حرارته ترتفع ببطء، الأمر الذي جعل الضفادع عاجزة عن الإحساس بالموت الزاحف نحوها ببطء، إلى أن بلغت مرحلة فقدت فيها الحياة من غير أية مقاومة. أليست هذه هي حال الكورد أيضاً؟ لقد أخضعهم المحتلون لمشاريع الفقر والتخلف والقهر والصهر، وراحوا يسخّنون تلك المشاريع ببطء وعلى مراحل، فماتت في كثيرين من الكورد شخصية (الأحرار)، وتحوّلت إلى شخصية (العبيد).

وقد أنزلت أخلاقيات العبيد أفدح الأضرار بالمجتمع الكوردي" وإليكم المثال التالي من شمالي كردستان، فهو غني بالدلالات" قال جوناثان راندل:

"وكلما تذكرت المشهد الذي رأيته في أعالي الجبال خلال شتاء عام (١٩٩٢ م) الذي تميّز بكثافة الثلوج، أتساءل عن سر هذا المزيج الغريب من الصبر والجَلَد والتفكير الدموي الذي يميّز الشخصية الكوردية، فقد كنت في سيارة لاندروڤر عندما التقى باصان مملوءان بالأكراد قادمان من جهتين متعاكستين، على طريق ضيقة فتحتْها كاسحة الثلوج الوحيدة في المنطقة،

ولم يرضَ أيّ من سائقَي الباصين بأن يفسح المجال أمام الآخر للمرور، ولم يكن هناك من سبيل لمرورهما معاً.

ومرّت دقائق قبل أن ينزل ركّاب الباصين فجأة، ويبدأوا بضرب بعضهم بعضاً، بعدما تذكّروا أو تظاهروا بتذكّر خلافات قديمة فيما بينهم، ولأنّ تبادل اللكمات لم يهدأ، ولأنّ جميع الرجال كانوا مسلّحين- مثل أيّ كردي يحترم نفسه- برشّاشات من طراز كلاشينكوف، وخوفاً من حصول مجزرة دموية، تناولتُ رفشاً من السيارة، وأزلت الثلج عن أحد جانبي الطريق، بما يكفي لوقوف سيارتي وأحد الباصين، ثم صرخت على الأكراد، وقلت لهم: إنني في عجلة من أمري. ومع أنهم لم يفهموا كلمة واحدة مما صحت به باللغة الإنكليزية، لكن يظهر أنني بدوت لهم غاضباً إلى درجة أنهم توقفوا فجأة عن تبادل اللكمات، وصعدوا بارتباك إلى الباصين، فتولّيت تنظيم السير، وأشرت إلى أحد الباصين بأن يتّجه إلى الفسحة التي نظّفتها من الثلج، في حين مضى الباص الثاني في طريقه"[1].

وعلّق جوناثان على هذا الموقف قائلاً:

"يطيب لي كثيراً أن أتذكّر هذه الحادثة، لأنه لمرة واحدة أسهم أجنبي في حلّ مشكلة كردية بدلاً من أن يفاقمها، مع أن هذه المشكلة كانت صغيرة، وهذا يفسر أيضاً سبب اشتباهي في وجود صبغية (كروموزم) شاذّة في جينات الأكراد، تتسبّب في ما يسمّيه الهنود المولعون باستعمال العبارات المنمَّقة بـ (النزعات الانقسامية)"[2].

والحقيقة أن الكروموزم الشاذ الذي ذكره جوناثان ليس جينياً، وإنما هو كروموزم (أخلاق العبيد).

---

١ - جوناثان راندل: أمة في شقاق، ص ٢٢.

٢ - المرجع السابق نفسه.

تاسعاً – ظاهرة الخيانة:

سِفر الخيانة في تاريخ الكورد كبير، وفيه من الغرائب الشيء الكثير، وهو يجمع في طيّاته جميع الظاهرات الأهريمانية، وليست ثمة ثورة كردية- على الأقل خلال القرن التاسع عشر والقرن العشرين- إلا وكانت الخيانة تقف لها بالمرصاد، وما من نكسة أو هزيمة حلّت بثورة كردية إلا وكان الخونة من وراء ذلك، قليلاً أو كثيراً، سراً أو جهراً، مباشرة أو بشكل غير مباشر، وبطبيعة الحال كان للخونة الكورد على الدوام حججهم التي برّروا بها مواقفهم الخيانية، إنها مبررات شخصية، أو عائلية، أو قبلية، أو دينية، أو مذهبية، أو أممية، أو حتى قومية ووطنية مزيّفة.

وزعيم الخونة في تاريخ الكورد هو **هارپاک** Harpage (هارپاجوس) الميدي، وقد أطال هيرودوت الحديث عن تفاصيل خيانته، وخلاصتها أنه كان القائد العام للجيش الميدي في عهد الملك الميدي الأخير أستياگ، وكان ناقماً على استبداد أستياگ، فجمع حوله بعض كبار رجال الدين الموغ (المجوس) ورجال السياسة والقادة الناقمين، لكن بدلاً من أن يوظّف ذلك لتقويم الاعوجاج، وتصحيح الوضع من الداخل، تحالف سراً مع كورش الفارسي (كان تابعاً لدولة ميديا)، وحثّه على مهاجمة دولة ميديا، وكانت النتيجة أن كورش اقتحم العاصمة **أگباتانا** سنة (٥٥٠ ق.م)، وأسر الملك **أستياگ**، وزجّ به في السجن، وأصبحت مملكة ميديا والبلدان التابعة لها غنيمة بين أيدي الفرس، وقال دياكونوف معلّقاً على هذا الحدث:

"ولولا خيانة كبار رجال ميديا، داخل الدولة الميدية، لما استطاع الفرس السيطرة على الحكم في الإمبراطورية الميدية"[1].

إن حدثاً واحداً قد يُحْدث انقلاباً شاملاً في حياة الأمم، وقد يحدّد مصيرها إيجاباً أو سلباً طوال قرون، والحقيقة أن خيانة هارپاك كانت أخطر كارثة تحلّ بالكورد منذ خمسة وعشرين قرناً" إذ منذ ذلك التاريخ فقد الكورد تكوينهم السياسي المستقل، وقُذف بهم خارج التاريخ،

---

١ - دياكونوف: ميديا، ص ٣٩٤. وانظر هيرودوت: تاريخ هيرودوت، ص ٨٢ - ٩٣.

وصحيح أن النخب الأصيلة النبيلة حافظوا على النهج الآهورامازدي، وقادوا الثورات، لكن خط الخيانة الهارپاكي كان لهم بالمرصاد، وقد لاحظ المراقبون الأجانب هذه الظاهرة، فقال جوناثان راندل:

"فالأكراد لم يتوحّدوا يوماً على الصعيد السياسي، وعانوا كثيراً من الانقسامات العميقة في صفوفهم، ومن الميل المتأصّل لديهم لخيانة بعضهم البعض"[1].

أما سفر الخيانة عند الكورد في العصر الحديث فكبير جداً، وهو بحاجة إلى وقفة خاصة وطويلة، ويحتار المرء ماذا يذكر منه، هل يذكر الخيانة التي أسقطت ثورة بدرخان بك؟ أم الخيانة التي قضت على ثورة يزدان شَير؟ أم خيانة قاسم بك للشيخ سعيد پيران، الأمر الذي أدّى إلى وقوع الشيخ مع (٤٨) من كبار قادة الثورة في الأسر على جسر فارتو، وإعدامهم جميعاً سنة (١٩٢٥م)؟ أم خيانة المدعو رَيبَر لعمه سيّد رضا؟ أم خيانة كثير من زعماء القبائل لقاضي محمد؟ أم الخيانات التي رافقت ثورة جبل أرارات (آغري)؟ أم الخيانات التي نهشت ثورة ملا مصطفى بارزاني طوال عقود؟ أم خيانات المرتزقة الكورد (حماة القرى) الذين كانوا- وما زالوا- يتقدّمون الجيش التركي، للقضاء على الثوار في شمالي كردستان؟ ونكتفي بذكر الحدث الآتي:

في سنة (١٩٣٩م) نفت السلطات العراقية الشيخ أحمد بارزاني وملا مصطفى وعائلات بارزانية أخرى إلى ألتون كُوپري وكَفْري، ثم نقلتهم إلى سليمانية، وفي سنة (١٩٤٣م) هرب ملا مصطفى بمساعدة عناصر وطنية كردية إلى كردستان الشرقية (في إيران)، متنكّراً في زيّ رجل دين، ووصل إلى منطقة شُنو، فرحّب به كاك مامَنْد آغا كوليجي، رئيس فرع قادري من عشيرة مامَش، وكان ذا شعور وطني أصيل، قال ملا مصطفى:

"بينما كنتُ جالساً في الديوان جاء قَرْني آغا مامش، ليُبلغ كاك مامَنْد بنبأ هروبي من السليمانية، وتخصيص الحكومتين العراقية والإيرانية كلٌّ منهما جائزةً بمقدار (٥٠٠٠٠) خمسين ألف دينار لمن يلقي القبض عليّ حيّاً أو ميّتاً، وطلب من كاك مامند أن يراقب منطقته، وألا يفوّت على نفسه هذه الفرصة الثمينة إذا مررتُ بمنطقته، ولم يكن قرني آغا يعرفني، فأجابه كاك مامند: إنه لعارٌ على من يفكر بهذا المنطق المُخزي، وإن الذي يلقي القبض على البارزاني لم تلده أمه بعد"[2].

---

١ - جوناثان راندل: أمة في شقاق، ص ٢٣.

٢ - مسعود البارزاني: البارزاني والحركة التحررية الكردية، ٦١/١ – ٦٢.

وقد جاء في التراث العربي قبل الإسلام، أن القائد الحبشي أَبْرَهَة غزا مكة (عاصمة العرب الدينية والاقتصادية والسياسية)، زاحفاً بجيشه من اليمن سنة (٥٧٠م)، واستعان في طريقه بدليل عربي يدعى (أبو رِغال)، ليرشده إلى مكة، ومات أبو رغال بين الطائف ومكة، ولما أخفق أبرهة في حملته، ورجع من حيث أتى، حوّل العرب قبر أبي رغال إلى رمز للشر، وراحوا يرجمونه، ولعل أحد مواقع رجم (الشيطان) في شعائر الحج هو ذلك القبر، ألا كم من أبي رغال في تاريخ الكورد؟ وكم من أبي رغال كردي ما زال يعمّق نهج الخيانة إلى يومنا هذا؟

٢٠

الشخصية والنُّخَب وصناعة التاريخ

كانت رحلتنا مع هذه الدراسة طويلة ومتشعّبة، ومع ذلك لم يتّسع المجال للبحث في كثير من تفاصيل الشخصية الكوردية، واكتفينا بتسليط الضوء على المحاور العامة، والحقيقة أن كل محور بحاجة- في حد ذاته- إلى دراسة تحليلية مستفيضة ومعمَّقة، ونقف أخيراً عند بعض الملاحظات والعلامات الفارقة.

١ – عراقة في التاريخ:

العلاقة وثيقة بين شخصية الشعب وتاريخه، وبقدر ما نفهم تفاصيل التاريخ الكوردي نصبح أقدر على فهم الشخصية الكوردية. وقد تأكد في المباحث الأولى من هذه الدراسة أن تاريخ أسلاف الكورد في غربي آسيا عريق، بدأه الأسلاف الزاغروسيون منذ العصر الحجري الحديث (النيوليثي) Neolithic، هذا على أقل تقدير" أي منذ تسعة آلاف عام ق.م، وتجلّى حضورهم بقوة في حضارة حَلَف خلال الألف الخامس ق.م، ثم استكمله الأسلاف السومريون (تلامذة حضارة حلف) في جنوبي ميزوپوتاميا، منذ الألف الرابع ق.م، ثم انضاف الأسلاف الآريون إلى الأسلاف الزاغروسيين، بدءاً من الألف الثالث ق.م، وكان النتاج هو التكوين الميدي" الجدُّ المباشر للتكوين الكوردي المعاصر.

وإن عراقة تاريخ الكورد يعني ضمناً عراقة الشخصية الكوردية، فهي ليست شخصية دخيلة على غربي آسيا بأيّ حال من الأحوال، إنها شخصية أساسية في جغرافيا وتاريخ وثقافة هذه المنطقة الحيوية من العالم القديم، وإن أية دراسة تتناول الشخصية الغرب آسيوية والثقافة الغرب آسيوية لا تكون متكاملة، ما لم تأخذ الشخصية الكوردية والثقافة الكوردية في

الحسبان، هذا عدا عن أن ثمة قواسم مشتركة مهمة بين الشخصية الكوردية وشخصيات بقية شعوب غربي آسيا (الفرس، الآشوريون، الكلدان، السريان، العرب، الأرمن، الترك)، وتلك القواسم المشتركة تشكّل أرضية تاريخية وثقافية متينة" لبناء علاقات وطيدة ومثمرة بين الكورد وجيرانهم، في ظلال البيت الغرب آسيوي الكبير، ولتجاوز نقاط الخلاف التي تنشب عادةً بين الشعوب المتجاورة.

ولا يخفى على الباحثين أن الجزء الأكبر من تاريخ الكورد قبل الميلاد ما زال مطموساً، جزء منه في مخطوطات لّما تُطبَع بعدُ، وجزء آخر معتقل في أرشيفات الإمبراطوريات التي حكمت كردستان، وجزء ثالث مدفون في الخرائب والآثار، وهذا يعني أن بعض ملامح شخصية أسلاف الكورد ما زالت مجهولة، وستصبح أكثر وضوحاً مع ظهور الصفحات المجهولة من التاريخ الكوردي.

٢ – سمات إشراقية:

مر أن النهج الإشراقي هو الغالب على الشخصية الكوردية، وهذا واضح في صفات الإله الزردشتي آهورامزدا" فهو- عموماً- ليس الإله العابس الغاضب المنتقم المتعطّش إلى القرابين الدموية، إنه **"الروح الأكثر رحمة"**، و**"خالق جميع الأشياء الخيّرة "**، وهو **"المشرق الخيّر"**، وتقوم منظومته الإيمانية على **"الأفكار الخيّرة، والأفعال الخيّرة، والكلمات الخيّرة"**، ويجب على كل مؤمن به أن **"يمتنع عن إلحاق الضرر بالآخرين لأجل تمنّي المنفعة والخير لنفسه"**. وعلى المؤمن به أن يلتزم بقاعدة **"حارب الأعداء بعدل، وتصرّفْ مع الأصدقاء بودّ"**[١].

وفي إطار هذه الثقافة الإشراقية انتمى الكورد- على الغالب- إلى ما هو إنساني ومثالي، وكانت القيم السامية أكثر فاعلية في ضميرهم الجمعي، وأكثر تحكّماً في سلوكهم العام، وقد أشار بعض الكوردولوجيين إلى هذه الحقيقة، قال ريج: **"لدى هذا الشعب بوجه عام الكثير من الفضائل الاجتماعية"**[٢].

وقال سون الذي عاش بين الكورد وتكلم بلغتهم:

---

١ - أڤستا، ڤيندیداد، فارگارد ١٠، آية ١، ص ٣١٢، وفارگارد ٢٢، آية ١، ص ٣٦٦. وأڤستا، ياشت ١، آية ٢٥، ص ٣٨٣. وأڤستا، هايتي ٣٥، آية ٢، ص ١٢٧، وزند أڤستا، نصوص پهلوية، دادستان ومينوغ وخراد، ص، ٨٣٥، ٨٥٦.

٢ - باسيلي نيكيتين: الكرد، ص ١٣٩.

"إذا أردنا أن نكون عُدولاً في أحكامنا على الكورد، وجب علينا أن نقارب بين كردستان وأوربا قبل ٦٠٠ سنة. وحتى بالنسبة لأيامنا هذه فإن المقارنة بين الأوربي والكوردي لا تسيء إلى الأخير" فيما لو جعلنا من القيم المثالية وقواعد الأخلاق معياراً للمقارنة. إننا نجد بين ألف كردي- من أيّ فئة كانوا وكيفما جُمعوا- مجرمين خلقيين أقل بكثير مما نعثر عليه في مثل هذا العدد من الأوروبيين الذين يُجمَعون بالصورة نفسها"[1].

٣ – خصائص حضارية:

صحيح أن الكورد دخلوا القرن العشرين وهم مهمَّشون سياسياً وثقافياً واقتصادياً، واقعون في أسر الحياة الرعوية الريفية، ينهشهم التخلف من جانب، وتمزّقهم أنياب الانقسامات القبلية والمناطقية والثقافية من جانب آخر، وتنصبّ عليهم بلايا سياسات القهر والقمع والإنكار والصهر، لكن هذا جزء من الحقيقة الكوردية، أما الجزء الآخر فهو أن الشخصية الكوردية احتفظت بأمرين مهمين جداً:

– الأول: الاحتفاظ بكثير من القيم النبيلة (المروءة، الشجاعة، الكرم، الاعتداد بالذات، عشق الحرية، طيبة القلب)، وإن هذه القيم تؤهّل الكورد لأن يكونوا شعباً مساهماً في الحفاظ على نقاء الفطرة البشرية، وترشّحهم لأن يكونوا شركاء فعّالين في بناء عالم مشرق، عالمٍ ينتمي إلى المبادئ الإنسانية، وليس إلى مبادئ المكر والنفاق والنذالة والظلامية والاستعباد.

– والثاني: الاحتفاظ بكثير من الخصائص الحضارية، فالذهنية الكوردية عامةً تغلب عليها النزعة العلمية العملية، وهي مؤهَّلة لأن تكون مبدعة على الصعيد الفلسفي والتقني، أضف إلى هذا أنها تنزع إلى التجديد والثورة، وأنها منفتحة على الآخر، غير نزّاعة إلى النرجسية القومية والدينية، والأهم من هذا أنها ليست ذهنية توسعية إمبراطورية احتلالية.

٤ – افتقار إلى الپراغماتية:

حينما توضع الشخصية الكوردية أمام خيار المبادئ وخيار المصالح، فالأغلب أنها تختار المبادئ وتتخلّى عن المصالح، وتعجز عن التوفيق بينهما، وهذا ما نسمّيه بالافتقار إلى الپراغماتية، وعدم النزوع إلى الأخذ بمبدأ (الغاية تبرر الوسيلة)، ويرجع ذلك في تقديرنا إلى حرمان المجتمع الكوردي- طوال خمسة وعشرين قرناً- من وجود طبقة متوسطة (بورجوازية)

---

١ - المرجع السابق، ص ١٣٦.

قوية، تؤسس بنى الاقتصاد الوطني، وتقيم شراكة وطيدة مع البورجوازيات الإقليمية والعالمية، وتصبح عبر تلك الشراكة عضواً في النادي الاقتصادي الإقليمي والعالمي، وتتعامل مع الجديد من البضائع، وترفد المجتمع به. وإذا أخذنا بالحسبان أن ثمة ثقافةً في طيّ كل بضاعة، وأن كل ثقافة هي وجه لسياسة، وأنه حيثما تسير البضائع تسير الثقافات والسياسات، أدركنا كم هو مهم دور بورجوازيات الأمم في تطويرها! وكم هي خسارة الكورد كبيرة في هذا المجال!

وقد نتج عن غياب طبقة متوسطة كردية غياب الذهنية الپراغماتية في الشخصية الكوردية" فالنشاط الاقتصادي عامة، والتجاري خاصة، هو الميدان النموذجي لنشوء الذهنية الپراغماتية، ذهنية (كم أربح؟ كم أخسر؟)، وليس ذهنية (ليكن ما يكن!)، والذهنية الپراغماتية هي بدورها الميدان النموذجي لفهم السلوك المكيافللي (الدهاء، المكر، النرجسية القومية/الدينية، تقديم المنافع على المبادئ، تكريس المشاريع التوسعية)، والتعامل بكفاءة مع هذا النمط من السلوك.

والحقيقة أن الكورد- أسلافاً وأحفاداً- دفعوا ثمن غياب الذهنية الپراغماتية، وكان الثمن غالياً جداً، فمع تفشّي الغرائز التسلطية في الثقافة السياسية العالمية، ومع شراسة التوجّهات الاحتكارية والذهنيات الإمبراطورية، واندحار القيم الإنسانية في العلاقات الدولية، وسيادة النهج المكيافللي، لم يبق أمام الكورد سوى أن يكونوا في المؤخرة، ويصبحوا هم وبلادهم وثرواتهم عرضةً للتسلط والسلب والنهب إقليمياً وعالمياً، ومادةً ثمينة للمقايضات في بورصة السياسات الدولية.

٥ – مافيات ثقافية:

لم تكن جغرافيا الكورد وثرواتهم وثقافتهم فقط عرضة للغزو، وإنما تعرضت الشخصية الكوردية للغزو أيضاً ، فمنذ ما قبل الإسلام، وفي العصور الإسلامية، ظهرت (مافيات ثقافية) في غربي آسيا، لبست لَبوس علم التاريخ، وتخفّت تحت عباءة الإسلام، وشنّت حملات ظالمة ضد الكورد، وألحقت بالشخصية الكوردية كثيراً من التشويه، تارة بتضخيم ما فيها من عيوب، وتارة أخرى بإلباسها عيوباً ليست فيها، لا بل إن بعض قادة تلك المافيات نسبوا الكورد سلالياً إلى الجن والشياطين، بغرض نفيهم من دائرة الانتماء إلى البشرية، وتجريدهم من الحقوق التي ينعم بها سائر البشر، وألصق بهم آخرون تُهم الإفساد، وعصيان الله، وحرق النبي إبراهيم عليه السلام، بغرض تبشيع صورتهم.

وفي العصر الحديث انضم إلى هذه المافيات بعض الرحّالة والمبشّرين الأوربيين، لأسباب لا مجال الآن لعرضها، فزادوا الأمر تعقيداً، وانعكس جميع ذلك على صورة الشخصية الكوردية في الذاكرة الغرب آسيوية، وفي الذاكرة العالمية، وأذكر- على سبيل المثال- أن الروائي اليوناني الشهير كازانْتزاكِس أورد في رواية له- لعلها رواية (زوربا) أو رواية (الإخوة الأعداء)- أن الكورد كانوا يدقّون نعال الخيل تحت أقدام اليونانيين بمناطق البحر الأسود، خلال العهد العثماني. وكان أصحاب الذهنيات الإمبراطورية يستغلون هذه التشويه بمهارة ضد الكورد في المواقف الحاسمة.

٦ – صراع في العمق:

إن الأوضاع الشاذّة التي أُقحم الكورد فيها، طوال خمسة وعشرين قرناً، أحدثت خلخلة عميقة في المجتمع الكوردي، اقتصادياً وثقافياً واجتماعياً وسياسياً، وبدلاً من أن يسير المجتمع الكوردي وفق خط تطوّري صاعد، سار وفق خط تخلّفي هابط، وأدّى ذلك إلى ظهور الحالة الغرائبية التي عاشها الكورد- وما زالوا يعيشونها- داخلياً وإقليمياً وعالمياً، وكان من الطبيعي أن تقع الشخصية الكوردية تحت تأثير تلك التحولات، ويتراجع فيها النهج الأهورامزدي، ويتفاقم النهج الأهريماني.

والمشكلة أن تأثيرات النهج الأهريماني لم تقتصر على تخريب شخصية عدد كبير من شرائح العامة، وإنما زعزعت أيضاً شخصية كثير من النخب، وتسلّطت من خلالهم على إنتاج قيم الانحطاط وتسويقها وتعميمها في المجتمع الكوردي، وأنتجت في النهاية (أخلاقيات العبيد)، وبما أن الأوضاع الشاذة التي زُجّ فيها الكورد كانت تصبح أكثر تعقيداً وضرراً مع مرور السنين، كان من الطبيعي أن تتفاقم (أخلاقيات العبيد) أيضاً، وتتسلّط على المجتمع الكوردي، وتتعمّق حالات الانقسام، والمكابرة، والشعور بالنقص إزاء الآخر، وظاهرات الانسلاخ والانمساخ والخيانة.

٧ – سيكولوجيا الجبال:

من حسن حظ الكورد أن سيكولوجيا الجبال ظلت راسخة في شخصيتهم، وتجذّرت بقوة في شخصيات النخب الكوردية الأصيلة (الأحرار)، إن هؤلاء النخب كانوا- وما زالوا- جبالاً روحية تشمخ إلى جانب جبال زاغروس وطوروس وآرارات، إنهم فجّروا الانتفاضات والثورات واحدة تلو أخرى، وكانوا على الدوام مقاتلين صلبين دفاعاً عن الجغرافيا والهوية، وصحيح أن

انتفاضاتهم وثوراتهم كانت تنتهي إلى الفشل، لكن ذلك الفشل يُعَدّ- من المنظور الاستراتيجي الشامل- نصراً مَجيداً للإرادة الكوردية.

والأهم من هذا أن النخب الأصيلة لم يكونوا مقاتلين ضد مشاريع الغزو الخارجي فقط، وإنما كانوا مقاتلين ضد الخط الأهريماني في الشخصية الكوردية ذاتها، إن المواقف البطولية التي جسّدوها في أفعالهم وأقوالهم، وفي ميادين الحروب، وفي غياهب الزنزانات، وتحت سياط الجلادين وعلى أعواد المشانق، كانت إكسيراً مباركاً يطهّر الشخصية الكوردية من أدران الخط الأهريماني، ويرتقي بها فوق أخلاقيات العبيد، وكانت مشاعل تضيء الدروب للأجيال في قلب الظلمات، وإرادةً حيّة تتصدّى بصلابة لروح الهزيمة، وتُسقط نزعات الانسلاخ والانمساخ والخيانة، وتؤكد أن ينابيع الآهورامزدية في الشخصية الكوردية لم تجفّ ولن تجفّ.

٨ – أزمنة الصعود:

إن شخصيات الشعوب ليست حالة جامدة، وليست منجَزاً منتهًى منه، إنها مشروع مستمر ومتجدد، قابل للارتقاء وللارتكاس، للتوهّج وللهمود، وكذلك الأمر بالنسبة إلى الشخصية الكوردية، إنها في حال تكوين مستمر، وصحيح أن الأهريمانية- وبتأثيرات داخلية وخارجية- هيمنت على الشخصية الكوردية في كثير من المسارات، وأنتجت حالة ارتكاسية غرائبية، لكن الآهورامزدية ظلّت متوقّدة في أعماق النخب الأصيلة.

ومنذ بدايات القرن الحادي عشر الميلادي استعادت الشخصية الكوردية عافيتها، وبدأت نهوضها أولاً في ضمير المثقفين الكورد الأوائل، من أمثال بابا طاهر الهَمَداني، وملا جزيري، وأحمد خاني، ثم نهضت بقوة في ضمائر بعض قادة المجتمع الكوردي منذ بداية القرن التاسع عشر (بدء انطلاقة الثورات الكوردية الكبرى)، وتحررت من أغلال الأهريمانية، وشرعت ترسّخ جذورها في الوعي الجمعي الكوردي وفي الضمير الجمعي الكوردي، وبدأت تؤسس ذاكرة جمعية جديدة، معلنةً الحرب على أخلاقيات العبيد وثقافة الهزيمة، وكانت تضحيات (الأحرار)- نخباً وجماهير- وبطولاتهم تقف وراء ذلك الإنجاز التاريخي الجدير بالتقدير.

٩ – مفترق طرق حاسم:

في القرن العشرين احتفظت الآهورامزدية بخطها التصاعدي، وحقّقت الشخصية الكوردية- عبر الثورات وبفضل تقدم الوعي- إنجازات مهمة في مجال تحرير الذات من الانحطاط الأهريماني، حتى ليمكن القول إنها أثبتت وجودها في التاريخ الحديث بكل جدارة. لكن هل خرجت نهائياً من حالة الاغتراب عن الذات؟ لا أعتقد ذلك، إن الصراع الآهورامزدي الأهريماني ما زال

محتدماً فيها بقوة، بل إنها على مفترق طرق حاسم وخطير في هذا المجال، فالأهريمانية المتخفّية تنشط بين حين وآخر، وأخلاقيات العبيد ما زالت قابلة للتفريخ، والذهنيات الإمبراطورية لمّا تتزحزح بعدُ عن ثوابتها، وما زالت مصرّة على سياسات التدجين والإنكار والصهر.

وها هي ذي مشاريع العولمة ومغرياتها انضمت إلى المشهد، فزادت الأمر تعقيداً، بل إنها باتت تشكّل خطراً جديداً على سلامة الشخصية الكوردية، فأمام هذا الزحف العولمي الكاسح، ثقافياً واقتصادياً وسياسياً، كم ستكون الشخصية الكوردية قادرة على الاحتفاظ بقيمها الإشراقية؟ وكم سيكون المجتمع الكوردي- وخاصة المهاجر والمشتَّت والمشرَّد- قادراً على الاحتفاظ بالقيم النبيلة؟ وكم سيكون النخب قادرون على صيانة ذواتهم ومجتمعهم من جاذبيات القيم المادية السائرة تحت لواء العولمة؟ وكم سيكون الكورد- نخباً وجماهير- قادرين على مواجهة مخطّطات سليلي الذهنيات الإمبراطورية الغرب آسيوية" أولئك الذين استيقظوا- مذهولين- على قرع طبول العولمة، وصاروا يخبطون بقسوة كالفيلة الهائجة؟

١٠ – صناعة التاريخ:

أجل، إن المجتمع الكوردي عامة- والشخصية الكوردية ضمناً- يقف على مفترق طرق شديد الخطورة" ولذا أصبحت أعباء النخب الأصيلة- مثقفين وساسةً- أشد وطأة، إنهم مطالبون بالكفاح الواعي والجادّ، للاحتفاظ بجذوة الآهورامزدية متوهّجة، ولا سبيل إلى ذلك إلا بالمزيد من الصلابة والثبات، والارتقاء بسلوكياتهم إلى مستوى وعيهم ومهمّاتهم التاريخية، وتطوير أنفسهم باكتساب المزيد من المعرفة، وتعميم المعرفة على الجماهير، وتهديم أركان التخلف، فالمسألة أولاً وأخيراً مسألة وعي، ولا وعي من غير معرفة، وبها تتأسس الشخصية المنتمية إلى ذاتها والمنسجمة مع العالم.

ولا شك في أن مهمّات النخب الكوردية الأصيلة صعبة، وثمة حشد هائل من العوائق يعترض طريقهم، بعضها داخلي وبعضها خارجي، وتتضاعف أعباؤهم عندما يُبتلون بشركاء وقعوا في أسر فكر الهزيمة، واعتنقوا قيم الانحطاط، وأضاعوا بوصلة الأولويات، وغرقوا في بحر النرجسية، وأخلدوا إلى الملذّات والحسابات الشخصية، وتهرّبوا من القيام بالمهمّات الكبرى، إن حال النخب الأصيلة مع هؤلاء تذكّر بقول الشاعر السومري:

"إنني جواد أصيل.
لكنني رُبطت مع البغل.
ووقع عليّ أن أجرّ العربة"[1].

لكن هذا هو قدر أصحاب النفوس النبيلة، إن قدرهم أن يكونوا أبناء الإنسانية المخلصين، ويجرّوا وحدهم عربة المهمّات العظمى، وإن عزاءهم فيما يلقون من متاعب وآلام أنهم يصنعون تواريخ الشعوب ومستقبلها، ويفجّرون الإشراق في قلب الظلمة الحالكة، ألم يقل الفيلسوف والشاعر الأمريكي إمرسون Emerson: **"التاريخ هو الظلال الممتدة لعظماء الرجال"**[2]؟

١ - صمويل كريمر: من ألواح سومر، ص ٢١٩.

٢ - أ. و. ف. توملين: فلاسفة الشرق، ص ١٦٤.

فهرس المراجع

أ – المراجع العربية والمترجمة

١. الدكتور إبراهيم الفني: التوراة (تاريخاً- أثرياً- ديناً)، دار اليازوري العلمية للنشر والتوزيع، عمّان، الأردن، الطبعة الأولى، ٢٠٠٩م.

٢. ابن الأثير: التاريخ الباهر في أخبار الدولة الأتابَگـية بالموصل، تحقيق عبد القادر أحمد طُلَيْمات، دار الكتب الحديثة، بغداد، ١٩٦٣م.

٣. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، دار صادر، بيروت، ١٩٧٩م.

٤. الدكتور أحمد زكي: في سبيل موسوعة علمية، دار الشروق، بيروت، الطبعة السادسة، ١٩٩٤م.

٥. أحمد شوقي: الشوقيات، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، ١٩٧٠م.

٦. أحمد عادل كمال: الطريق إلى المدائن، دار النفائس، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٧٧م.

٧. أحمد فخري: دراسات في تاريخ الشرق القديم، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٩٠م.

٨. الدكتور أحمد فؤاد الأهواني: فجر الفلسفة اليونانية قبل سقراط، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٩م.

٩. أحمد كمال الدين حِلْمي: السَّلاجقة في التاريخ والحضارة، ذات السلاسل، الكويت، ١٩٨٦م.

١٠. أدهم آل جندي: أعلام الأدب والفن، مطبعة مجلة صوت سورية، دمشق، ١٩٥٤م.

١١. أرشاك سافراستيان: الكورد وكردستان، ترجمة الدكتور أحمد محمود الخليل، مطبعة دار سَرْدَم للطباعة والنشر، سليمانية، كردستان، ٢٠٠٨م.

١٢. أرنولد توينبي: مختصر لدراسة التاريخ، ترجمة فؤاد محمد شِبْل، الإدارة الثقافية في جامعة الدول العربية، الطبعة الأولى، ١٩٦٤م.

١٣. أرنولد توينبي، ودايساكو إكيدا: التحديات الكبرى، ترجمة محمود منقذ الهاشمي، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٩٩م.

١٤. إريك لوران Eric Laurent: حرب آل بوش، ترجمة سلمان حرفوش، دار الخيّال، للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٣م.
١٥. أسامة بن منقذ: كتاب الاعتبار، كتاب إلكتروني، http://www.alwarraq.com
١٦. أشيلي مونتاغيو: الدحض العلمي لأسطورة التفوق العرقي، تعريب المقدم حسن أحمد بسام، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨١م.
١٧. الأَصْفهاني: تاريخ دولة آل سَلْجوق، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٩٧٨م.
١٨. أڤستا، إعداد الدكتور خليل عبد الرحمن، مطبعة دار الحياة، دمشق، الطبعة الأولى، ٢٠٠٧م.
١٩. ألبير شاندور: صلاح الدين الأيوبي البطل الأنقى في الإسلام، ترجمة سعيد أبو الحسن، دار طلاس، دمشق، ١٩٨٨م.
٢٠. ألكسندر كراب: علم الفولكلور، ترجمة رشدي صالح، وزارة الثقافة، القاهرة، ١٩٦٧م.
٢١. الآلوسي (شهاب الدين): روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المَثاني، دار الفكر، بيروت، ١٩٧٨م.
٢٢. أنطون مورتكات: تاريخ الشرق الأدنى القديم، تعريب توفيق سليمان، علي أبو عسّاف، قاسم طُوَيْر، ١٩٥٠م.
٢٣. أ. و. ف. توملين: فلاسفة الشرق، ترجمة عبد الحليم سليم، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٠م.
٢٤. إيمانويل فلايكوفسكي: عصور في فوضى، ترجمة الدكتور رفعت السيّد، سينا للنشر، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٩٥م.
٢٥. باسيلي نيكيتين: الكورد، ترجمة الدكتور نوري طالباني، دار الساقي، بيروت، الطبعة الثانية، ٢٠٠١م.
٢٦. الدكتور بدر محمد الأنصاري: مقدّمة لدراسة الشخصية، منشورات ذات السلاسل، الكويت، الطبعة الأولى، ١٩٩٩م.
٢٧. ابن بطّوطة: رحل ابن بطّوطة، تحقيق طلال حرب، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٧م.

٢٨. ب. كوملان: الأساطير الإغريقية والرومانية، ترجمة أحمد رضا محمد رضا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٢م.
٢٩. البَلاذُري: فتوح البلدان، راجعه وعلق عليه رضوان محمد رضوان، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٧٨م.
٣٠. البُنداري (الفتح بن علي): سنا البرق الشامي، تحقيق فتحيّة النَبْراوي، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٧٩م.
٣١. بونغارد – ليفين (إشراف): الجديد حول الشرق القديم، دار التقدم، موسكو، ١٩٨٨م.
٣٢. الدكتور توفيق سليمان: دراسات في حضارات غرب آسية القديمة من أقدم العصور إلى عام ١١٩٠ ق.م، دار دمشق للطباعة والنشر، دمشق، الطبعة الأولى، ١٩٨٥م.
٣٣. الجاحظ: رسائل الجاحظ، تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٧٩م.
٣٤. جاك شوفالييه: تاريخ الفكر السياسي، ترجمة الدكتور محمد عرب صاصيلا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٥م.
٣٥. الجَبَرْتي: : تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار، دار الجيل، بيروت. ١٩٨٠م.
٣٦. جرجيس فتح الله: يقظة الكورد، (١٩٠٠-١٩٢٥م)، دار آراس، أربيل، كردستان، الطبعة الأولى، ٢٠٠٢م.
٣٧. جرنوت فيلهلم: الحوريون تاريخهم وحضارتهم، ترجمة فاروق إسماعيل، دار جدل، حلب، الطبعة الأولى، ٢٠٠٠م.
٣٨. جفري بارندر (مشرف على التحرير): المعتقدات الدينية لدى الشعوب ترجمة د. إمام عبد الفتّاح إمام، عالم المعرفة، الكويت، ١٩٩٦م.
٣٩. جماعة من علماء الآثار السوفييت:العراق القديم (دراسة تحليلية لأحواله الاقتصادية والاجتماعية)، ترجمة سليم طه التكريتي، بغداد، ١٩٧٦م.
٤٠. الدكتور جمال أحمد رشيد: ظهور الكورد في التاريخ، دار آراس للطباعة والنشر، أربيل، كوردستان العراق، الطبعة الأولى، ٢٠٠٣م.
٤١. الدكتور جمال مجدي حسنين: سوسيولوجيا المجتمع، دار المعرفة الجامعية، ٢٠٠٧م.

٤٢. جميل صدقي الزهاوي: ديوان جميل صدقي الزهاوي، دار العودة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٧٩م.
٤٣. الدكتور جميل صَليبا: المعجم الفلسفي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٨٢م.
٤٤. جوناثان راندل: أمة في شقاق، ترجمة فادي حمّود، دار النهار، بيرون، ١٩٩٧م.
٤٥. جون سيرل: العقل واللغة والمجتمع، ترجمة سعيد الغانمي، الدار العربية للعلوم، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٩٩٦م.
٤٦. جيمس ميلارت: أقدم الحضارات في الشرق الأدنى، ترجمة محمد طلب، دار دمشق للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، الطبعة الأولى، ١٩٩٠م.
٤٧. جين بوترو، أوتو إدوارد، آدام فالكنشتاين، جين فيركوتر: الشرق الأدنى الحضارات المبكرة، ترجمة عامر سليمان، جامعة الموصل، الموصل، ١٩٨٦م.
٤٨. جيوفري روبرتس، ألستير إدواردس: القاموس الحديث للتحليل السياسي، ترجمة سمير عبد الرحيم الجليي، الدار العربية للموسوعات، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٩م.
٤٩. ابن أبي حاتم: تفسير القرآن العظيم، تحقيق أسعد محمد الطيّب، مكتبة نزار مصطفى الباز، مكة المكرمة- الرياض، الطبعة الأولى، ١٩٩٧م.
٥٠. الحافظ الذهيبي: معجم الشيوخ، تحقيق الدكتور محمد الحبيب الهيلة، مكتبة الصديق، الطائف، ١٩٨٨م.
٥١. ابن حَجَر العَسْقَلاني: تَبصير المُنْتَبِه بتحرير المُشْتَبِه، تحقيق محمد علي البَجاوي، الدار المصرية للتأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٦٤م.
٥٢. ابن حَجَر العَسْقَلاني: الدُّرَر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، دار الجيل، بيروت، ١٩٧٠م.
٥٣. حسن شِمَيْساني: مدينة ماردين من الفتح العربي إلى سنة (١٥١٥ م/٩٢١ هـ) عالم الكتب، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٧م.
٥٤. حسن هشيار: مذكرات مقاتل، ترجمة خليل كالو، www.gemyakurda.net.
٥٥. حسين قاسم العزيز: البابكية، دار المدى، دمشق، الطبعة الأولى، ٢٠٠٠م.
٥٦. ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، دار الكتاب المصري، القاهرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٩٩م.

٥٧. ابن خلكان: وَفَيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق الدكتور إحسان عبّاس، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٨م.
٥٨. الدكتور خليل جندي: الأيزدية والامتحان الصعب، دار آراس للطباعة والنشر، أربيل، كردستان العراق، ٢٠٠٨م.
٥٩. دانا آدمز شميدت: رحلة إلى رجال شجعان في كردستان، تعريب جرجيس فتح الله المحامي، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٩٠م.
٦٠. دبليو آر . هي: مذكرات دبليو آر، ترجمة فؤاد جميل، الدار العربية للموسوعات، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٨م.
٦١. دونالد جوهانسون، بليك إدغار: من مرحلة لوسي إلى مرحلة اللغة، ترجمة إياد ملحم، المجمّع الثقافي، أبو ظبي، ٢٠٠٥م.
٦٢. دياكونوف: ميديا، ترجمة وهبية شوكت محمد، رام للطباعة والتوزيع، دمشق.
٦٣. ديلابورت: بلاد ما بين النهرين، ترجمة محرّم كمال، المطبعة النموذجية.
٦٤. الذهبي: سير أعلام النبلاء، تحقيق شُعَيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٢م.
٦٥. ريتشارد س. لازاروس: الشخصية، ترجمة الدكتور سيّد محمد غُنَيم، دار الشروق، بيروت، ١٩٨٤م.
٦٦. رالف لنتون: شجرة الحضارة، ترجمة الدكتور أحمد فخري، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٥٨م.
٦٧. رينيه لابات، موريس سنايزر، موريس فييرا، أندره كاكو: سلسلة الأساطير السورية، ترجمة مفيد عرنوق، منشورات دار علاء الدين، دمشق، الطبعة الأولى، ٢٠٠٠م.
٦٨. زاريوانت (زاوين نعلبنديان): طورانيا الموحَّدة المستقلة، ترجمة الدكتور ألكسندر كشيشيان، دار الحوار للنشر والتوزيع، اللاذقية، ٢٠٠١م.
٦٩. زبغنيو بريجنسكي: رقعة الشطرنج الكبرى، ترجمة أمل الشرقي، الأهلية للنشر والتوزيع، عمّان، الأردن، الطبعة الأولى، ١٩٩٩م.
٧٠. زنار سلوبي: في سبيل كردستان (مذكرات): ترجمة ر. علي، رابطة كاوا للثقافة الكوردية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٧م.

٧١. زيغريد هونگه: شمس العرب تسطع على الغرب، ترجمة فاروق بَيْضون، كمال دُسُوقي، دار الجيل، بيروت، ١٩٩٣م.
٧٢. الدكتور سامي سعيد الأحمد: السومريون وتراثهم الحضاري، منشورات الجمعية التاريخية العراقية، بغداد، ١٩٧٥م.
٧٣. سبتينو موسكاتي: الحضارات السامية القديمة، ترجمة الدكتور السيد يعقوب بكر، دار الرقي، بيروت، ١٩٨٦م.
٧٤. ستيڤن رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة السيد باز العريني، دار الثقافة، بيروت، ١٩٨١م.
٧٥. أبو السعود: تفسير أبي السعود (إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٩٩٤م.
٧٦. أبو شامة: عيون الرَّوضتَين في أخبار الدولتين النُّورية والصلاحية، تحقيق أحمد البَيْسومي، وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٩١م.
٧٧. ابن شدّاد: النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، تحقيق جمال الدين الشَيّال، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٦٤م.
٧٨. شَرَف خان بَدْليسي: شَرَفنامه في تاريخ الدول والإمارات الكوردية، ترجمة محمد علي عَوْني، دار الزمان للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، ٢٠٠٦م.
٧٩. شوقي جلال: العقل الأمريكي يفكر، سينا للنشر، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٩٧م.
٨٠. الشَّهْرِسْتاني: المِلَل والنِّحَل، تحقيق محمد سيّد كيلاني، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٧٥م.
٨١. صمويل نوح كريمر: أساطير العالم القديم، ترجمة دكتور أحمد عبد الحميد يوسف، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٤م
٨٢. صمويل كريمر: من ألواح سومر، ترجمة الأستاذ طه باقر، مكتبة المثنى، بغداد، ومؤسسة الخانجي، القاهرة، ١٩٧٠م.
٨٣. الأستاذ طه باقر، الدكتور فوزي رشيد، الأستاذ رضا جواد هاشم: تاريخ إيران القديم، مطبعة جامعة بغداد، بغداد، ١٩٧٩م.
٨٤. الطَّبَري: تاريخ الطَّبَري، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٧م.

٨٥. عامر رشيد مبيّض: موسوعة الثقافة السياسية الاجتماعية الاقتصادية العسكرية، دار المعارف للنشر والتوزيع، حمص، سوريا، الطبعة الأولى، ٢٠٠٠م.
٨٦. الدكتور عامر سليمان، أحمد مالك الفِتْيان: محاضرات في التاريخ القديم، موجز تاريخ مصر وسوريا وبلاد اليونان والرومان القديم، بغداد، ١٩٧٨م.
٨٧. عايدة كنعان الملحم: بلند الحيدري في الشعر العربي، دار سعاد الصباح للنشر والتوزيع، الكويت، الطبعة الأولى، ١٩٩٨م.
٨٨. عبّاس إبراهيم صبّاغ: تاريخ العلاقات العثمانية- الإيرانية، دار النَّفائس، بيروت، ١٩٩٩م.
٨٩. عبد الحكيم الذنون: الذاكرة الأولى (دراسة في التاريخ السياسي والحضاري القديم لبلاد الرافدين)، دار المعرفة، دمشق، الطبعة الأولى، ١٩٨٨م.
٩٠. الدكتور عبد الحميد زايد: الشرق الخالد (مقدمة في تاريخ وحضارات الشرق الأدنى من أقدم العصور حتى عام ٣٢٣ ق.م)، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٦٧م.
٩١. عبد الحي بن عبد الكبير الكتاني: فهرس الفهارس والأثبات ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات، تحقيق إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، الجزء الأول، الطبعة الثانية، ١٩٨٢م.
٩٢. الدكتور عبد الغني عماد: سوسيولوجيا الثقافة (المفاهيم والإشكاليات من الحداثة إلى العولمة)، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٦م.
٩٣. ابن عَرَبْشاه: عجائب المَقْدُور في نوائب تيمور، تحقيق علي محمد عمر، دار الأنصار، القاهرة، ١٩٧٩م.
٩٤. الدكتور عبد الغني عماد: سوسيولوجيا الثقافة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٦م.
٩٥. عمر رضا كحّالة: معجم المؤلفين، مكتبة المُثَنّى، بيروت، ودار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٥٧م.
٩٦. الدكتور عمر عبد الحي: الفلسفة والفكر السياسي في الصين القديمة، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٩م.
٩٧. غاستون بوتول: فن السياسة: جمع وتلخيص وتعريب أحمد عبد الكريم، الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، الطبعة الأولى، ١٩٩٨م.

٩٨. غي هيرميه وآخران: قاموس علم السياسة و المؤسسات السياسية، ترجمة هيثم اللّمع، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ٢٠٠٥م.

٩٩. الفارِقي (ابن الأزرق): تاريخ الفارِقي، تحقيق بدوي عبد اللطيف عوض، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة، ١٩٥٩م.

١٠٠. الدكتور فاضل عبد الواحد علي: من سومر إلى التوراة، سينا للنشر، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٩٦م.

١٠١. الدكتور فاضل عبد الواحد والدكتور عامر سليمان: عادات وتقاليد الشعوب القديمة، جامعة الموصل، العراق، ١٩٧٩م.

١٠٢. أبو الفداء: تقويم البلدان، تحقيق رينود والبارون ماك كوكين ديسلان، دار الطباعة السلطانية، باريس، ١٨٤٠م.

١٠٣. فرانك بيلي: معجم بلاكويل للعلوم السياسية، ترجمة ونشر مركز الخليج للأبحاث، دبي، الطبعة الأولى، ٢٠٠٤م.

١٠٤. القَلْقَشَنْدي: صبح الأعشى في صناعة الإنشا، تحقيق محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٧م.

١٠٥. كالڤين هول، ج. لندزي: نظريات الشخصية، ترجمة دكتور فرج احمد فرج، قدري محمود حفني، لطفي محمد فطيم، د.م: د.ن، ١٩٦٩م.

١٠٦. ابن كثير: قصص الأنبياء، تحقيق الدكتور مصطفى عبد الواحد، دار الكتب الحديثة، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٧٨م.

١٠٧. الدكتور كَمِيل الحاج: الموسوعة الميسَّرة في الفكر الفلسفي والاجتماعي، مكتبة لبنان، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٠م.

١٠٨. ل. أ. سيديّو: تاريخ العرب العام، ترجمة عادل زُعَيْتِر، عيسى البابي الحليبي وشركاه، القاهرة، ١٩٦٩م.

١٠٩. لوسيان فيڤر: الأرض والتطور البشري: ترجمة الدكتور محمد السيد غلاّب، دار المطبوعات الجديدة، القاهرة، ١٩٧٣م.

١١٠. لويجي لوقا كافاللي- سفورزا: الجينات والشعوب واللغات، ترجمة أحمد مستجير، المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٠م.

١١١. ليدي درور: طاووس ملك اليزيدية، ترجمة رزق الله بطرس، دار الورّاق للنشر المحدودة، لندن، الطبعة الأولى، ٢٠٠٨م.
١١٢. مجموعة من الباحثين: كركوك (بحوث الندوة العلمية حول كركوك) ٣-٥ نيسان ٢٠٠١، دار آراس للطباعة والنشر، أربيل، كردستان العراق، الطبعة الأولى، ٢٠٠٢.
١١٣. الإمام محمد أبو زَهرة: ابن تيمية، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٧٧م.
١١٤. محمد بَيُّومي مَهران: تاريخ العراق القديم، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٩٠م.
١١٥. محمد حسنَين هَيكل: سنوات الغليان، مركز الأهرام للترجمة والنشر، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٨٨م.
١١٦. الدكتور محمد عُمارة: قاسم أمين، دار الوحدة للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨٥م.
١١٧. محمد إبراهيم عوض: الصورة والإيقاع في شعر بلند الحيدري، دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع، كفر الشيخ، دسوق، مصر، ٢٠٠٩م.
١١٨. اللواء الركن محمود شِيت خَطّاب: قادة فتح بلاد فارس، دار الفكر، الطبعة الثالثة، ١٩٧٤م.
١١٩. مروان المدوّر: الأرمن عبر التاريخ، دار مكتبة الحياة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٢م.
١٢٠. مسعود البارزاني: البارزاني والحركة التحررية الكوردية، كاوا للثقافة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٩٧م.
١٢١. المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار المعرفة، بيروت، ١٩٨٢م.
١٢٢. المِقَّري: نَفْح الطِّيب من غصن الأندلس الرَّطيب، تحقيق إحسان عبّاس، دار صادر، بيروت، ١٩٦٨م.
١٢٣. المقريزي: كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك، نشره محمد مصطفى زيادة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٧١م.
١٢٤. مُنذر الموصلي: عرب وأكراد، مطبعة دار العلم، دمشق، الطبعة الثانية،١٩٩١م.
١٢٥. موريس دوڤرجيه: مدخل إلى علم السياسة، ترجمة الدكتور جمال الأتاسي والدكتور سامي الدروبي، دار دمشق، دمشق، ١٩٧٠م.

١٢٦. مينورسكي: الأكراد، ترجمة معروف خزنه دار، بغداد، ١٩٦٨م.
١٢٧. النابغة البياني: ديوان النابغة الذبياني، تحقيق الشيخ محمد الطاهر بن عاشور، الشركة التونسية للتوزيع- والشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ١٩٧٦م.
١٢٨. نخبة من الأساتذة: معجم العلوم الاجتماعية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٥م.
١٢٩. نورتون فريش، رتيشارد ستيفنز: الفكر السياسي الأمريكي، ترجمة هشام عبد الله، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩١م.
١٣٠. نوري إسماعيل: الديانة الزردشتية، منشورات دار علاء الدين للنشر والتوزيع والترجمة، دمشق، ١٩٩٩م.
١٣١. نيقولا مكياڤللي: الأمير، ترجمة خيري حمّاد، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٩٨١م.
١٣٢. هـ. أ. أوڤرستريت: العقل الناضج، ترجمة الدكتور عبد العزيز القوسي، السيد محمد عثمان، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٦٣م.
١٣٣. هارڤي بورتر: موسوعة مختصر التاريخ القديم، مكتبة مدبولي، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٩١م.
١٣٤. هاري ساغز Hary Sags: عظمة آشور، ترجمة خالد أسعد عيسى، أحمد غسّان سبانو، دار ومؤسسة رسلان، دمشق، الطبعة الأولى، ٢٠٠٨م.
١٣٥. هـ. ج. ولز: معالم تاريخ الإنسانية، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٦٧- ١٩٧٢م.
١٣٦. هـ. ج. ولز: موجز تاريخ العالم، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٥٦م.
١٣٧. هديب غزالة: الدولة البابلية الحديثة، الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، الطبعة الأولى، ٢٠٠١م.
١٣٨. الهمذاني (ابن الفقيه): كتاب البلدان، تحقيق يوسف الهادي، عالم الكتب للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٦م.
١٣٩. الهَمَذاني (رشيد الدين): جامع التواريخ، ترجمة محمد صادق نشأت، محمد موسى هنداوي، فؤاد عبد المعطي الصيّاد، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة.

١٤٠. ابن أبي الهَيْجاء الإرْبِلي: تاريخ ابن أبي الهَيْجاء، تحقيق صبحي عبد المنعم محمد، دار رياض الصالحين، الطبعة الأولى، ١٩٩٣م.

١٤١. هيرفريد مونكلر: الإمبراطوريات، ترجمة عدنان عبّاس علي، مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، أبو ظبي، الطبعة الأولى، ٢٠٠٨م.

١٤٢. هيرودوت: تاريخ هيرودوت، ترجمة عبد الإله الملاح، المجمّع الثقافي، أبو ظبي، ٢٠٠١م.

١٤٣. وداد سكاكيني: قاسم أمين، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٥م.

١٤٤. ولتر كيغي: بيزنطة والفتوحات الإسلامية المبكّرة، ترجمة نقولا زيادة، قَدموس للنشر والتوزيع، دمشق، الطبعة الأولى، ٢٠٠٢م.

١٤٥. ول ديورانت: قصة الحضارة، ترجمة محمد بدران، الإدارة الثقافية، جامعة الدول العربية، ١٩٦٨م.

١٤٦. وليام لانجر: موسوعة تاريخ العالم، أشرف على الترجمة الدكتور محمد مصطفى زيادة، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٥٩م.

١٤٧. اليعقوبي: البلدان، ضمن كتاب الأعلاق النفيسة لابن رُسْته، مطبعة بريل، ليدن، ١٨٩١م.

١٤٨. يِلْماز أُوزْتُونا: تاريخ الدولة العثمانية، ترجمة عدنان محمود سليمان، منشورات فيصل للتمويل، إستانبول، ١٩٨٨م.

١٤٩. يو. آ. بتروف: أبجدية التفكير المنطقي، ترجمة الدكتور أحمد جابر أبو زيد، دار الشموس للدراسات والنشر والتوزيع، الطبعة العربية الأولى، ١٩٩٩م.

ب - المراجع الأجنبية

١. Mehrdad R. Izady: The Kurds, Crane RussakWashington, Philadelphia, London, 1992.

٢. Susan Meiselas: Kurdistan In the Shadow of History, Random House, New York,1997.

ملحق الخرائط والصور

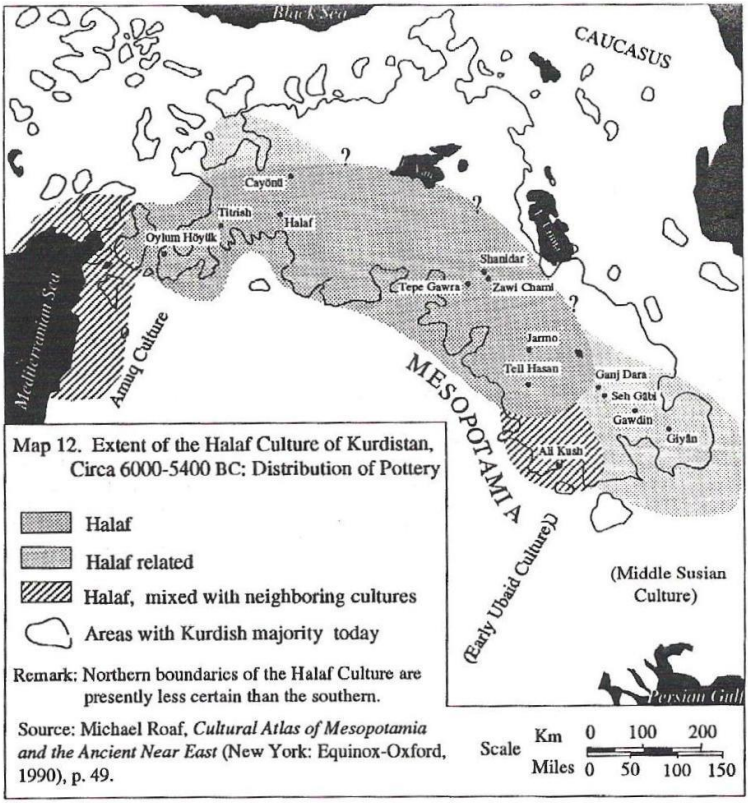

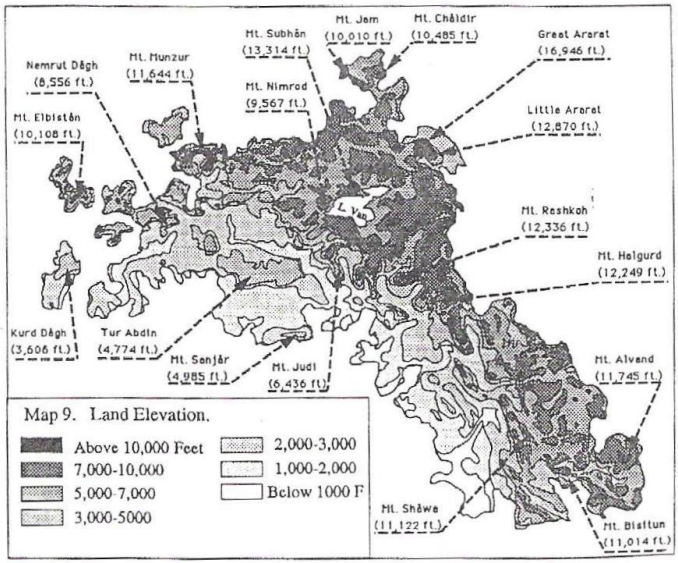
Mt. Jam
(10,010 ft.)
Mt. Châldir
(10,485 ft.)
Mt. Subhân
(13,314 ft.)
Great Ararat
(16,946 ft.)
Nemrut Dâgh
(8,556 ft.)
Mt. Hunzur
(11,644 ft.)
Mt. Nimrod
(9,567 ft.)
Little Ararat
(12,870 ft.)
Mt. Elbistân
(10,108 ft.)
L. V.
Mt. Reshkoh
(12,336 ft.)
Mt. Halgurd
(12,249 ft.)
Kurd Dâgh
(3,606 ft.)
Tur Abdin
(4,774 ft.)
Mt. Senjâr
(4,985 ft.)
Mt. Judi
(6,436 ft.)
Mt. Alvand
(11,745 ft.)
Mt. Shâwa
(11,122 ft.)
Mt. Bisitun
(11,014 ft.)
Map 9. Land Elevation.
Above 10,000 Feet
7,000-10,000
5,000-7,000
3,000-5000
2,000-3,000
1,000-2,000
Below 1000 F

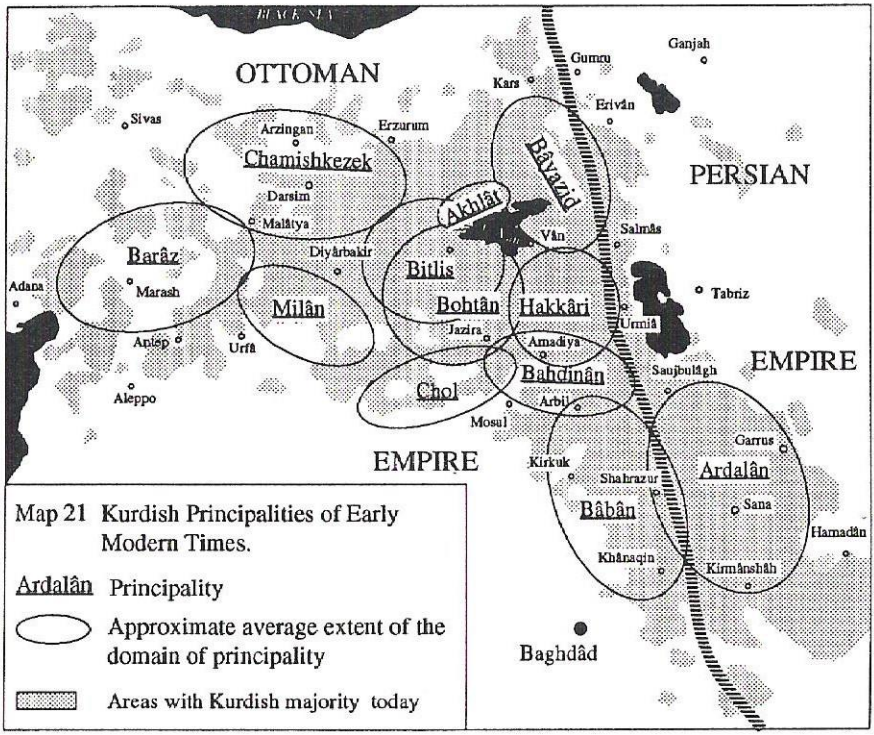
BLACK SEA
OTTOMAN
Sivas
Arzingan
Erzurum
Chamishkezek
Darsim
Malâtya
Barâz
Marash
Adana
Diyârbakir
Milân
Anîep
Urfâ
Aleppo
Kars
Gumru
Ganjah
Erivân
Bâyazid
Akhlât
Bitlis
Bohtân
Jazira
Vân
Salmâs
Tabriz
Hakkâri
Urmiâ
Amadiya
Bahdinân
Saujbulâgh
PERSIAN
EMPIRE
Chol
Arbil
Mosul
Kirkuk
Shahrazur
Garrus
Ardalân
Sana
Hamadân
Bâbân
Khânaqin
Kirmânshâh
Baghdâd
EMPIRE
Map 21 Kurdish Principalities of Early Modern Times.
Ardalân Principality
Approximate average extent of the domain of principality
Areas with Kurdish majority today

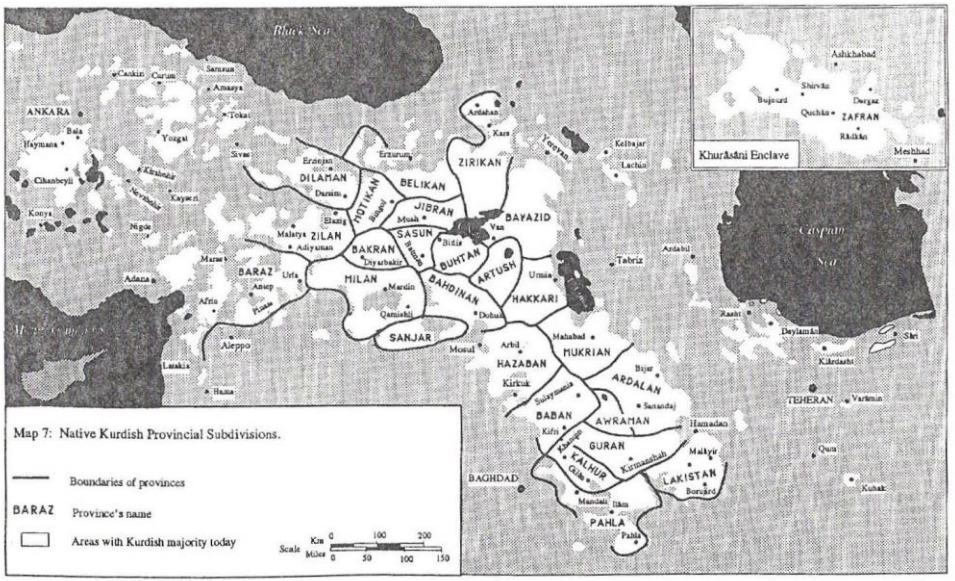
Black Sea
Caspian Sea
Mediterranean Sea
ANKARA
Çankiri
Çorum
Samsun
Amasya
Tokat
Yozgat
Bala
Haymana
Sivas
Erzincan
Erzurum
Ardahan
Kars
Tercan
Kelbajar
Lachin
Khurāsāni Enclave
Ashkhabad
Bujnurd
Shirvān
Dargaz
Quchān
ZAFRAN
Rādkān
Mashhad
Cihanbeyli
Kirşehir
Nevşehir
Kayseri
Konya
Niğde
DILAMAN
Darsim
HOTKAN
Bingöl
BELIKAN
ZIRIKAN
JIBRAN
Muş
BAYAZID
Van
Elazig
Malatya
ZILAN
Adiyaman
SASUN
Bitlis
BAKRAN
Siirt
Diyarbakir
BUHTAN
ARTUSH
Urmia
Tabriz
Ardabil
Marash
BARAZ
Urfa
Antep
Adana
MILAN
Mardin
BAHDINAN
HAKKARI
Afrin
Qamishli
Dohuk
Rasht
Daylamān
Sārī
Aleppo
SANJAR
Mosul
Arbil
Mahabad
MUKRIAN
Kirdasht
Lattakia
Hama
HAZABAN
Kirkuk
Bijar
ARDALAN
Sulaymania
Sanandaj
TEHERAN
Varāmin
BABAN
AWRAMAN
Hamadan
Kifri
Khanaqin
GURAN
Qum
Kermanshah
Malāyir
BAGHDAD
KALHUR
Gilan
LAKISTAN
Borujird
Kuhak
Mandali
Ilām
PAHLA
Pasha
Map 7: Native Kurdish Provincial Subdivisions.
Boundaries of provinces
BARAZ Province's name
Areas with Kurdish majority today
Scale Km 0 100 200
Miles 0 50 100 150

The Major Internal Subdivision of Kurdistan